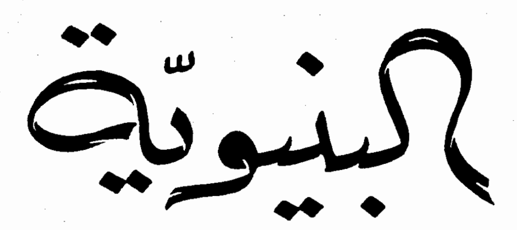
جان ماري أوزياس
وآخرون

البنيوية

ترجمة: ميخائيل مخول

جان ماري أوزياس
وآخرون



البنيوية

ترجمة: ميخائيل إبراهيم مخول

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق ـ ١٩٧٢

العنوان الأصلي للكتاب :

Clefs pour le Structuralisme

par

Jean - Marie Auzias

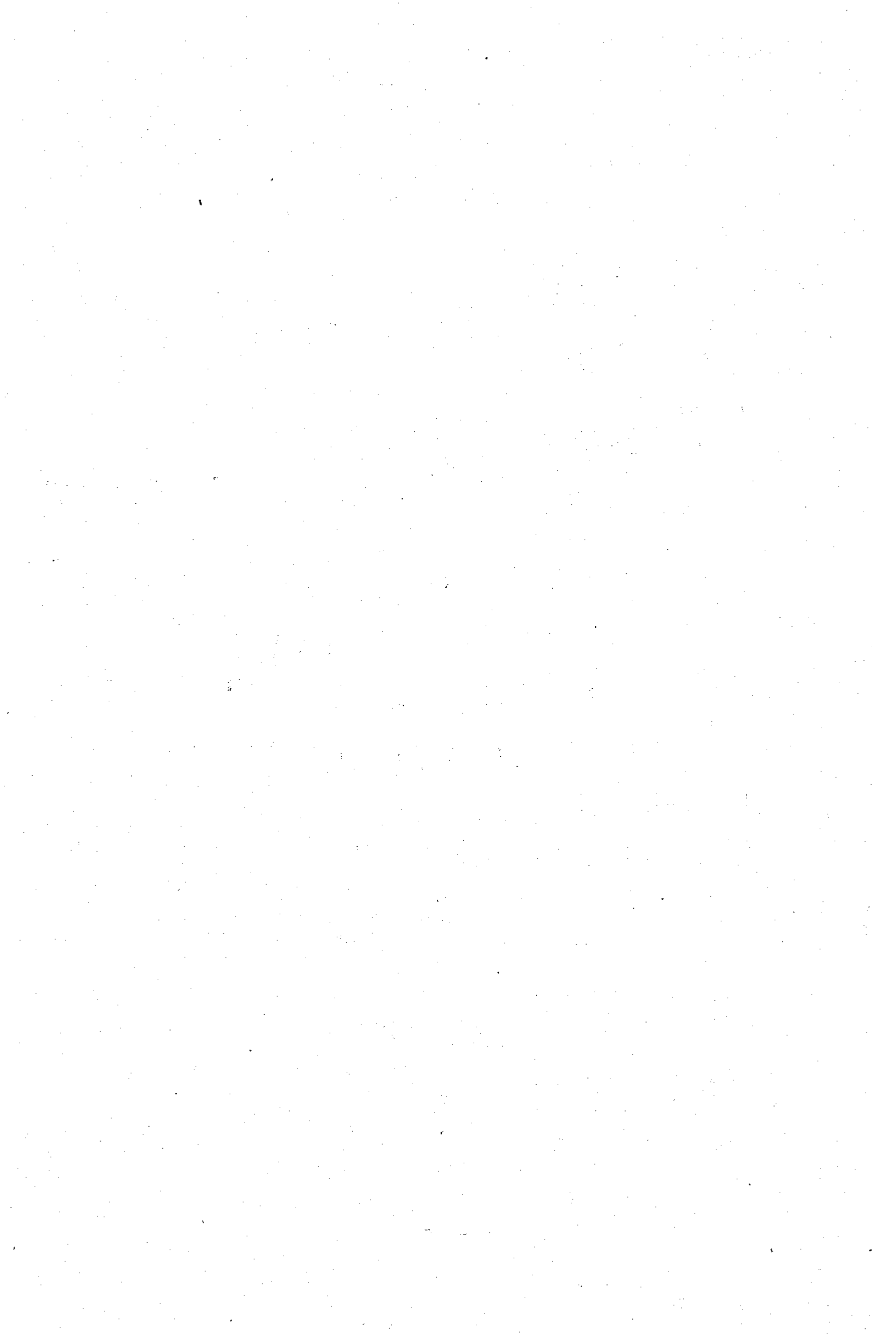
Seghers — Paris — 1968

القسم الثاني من الكتاب يتألف من مجموعة بحوث نشرت في مجلات فرنسية متفرقة

القسم الأول

ما البنيويّة ؟

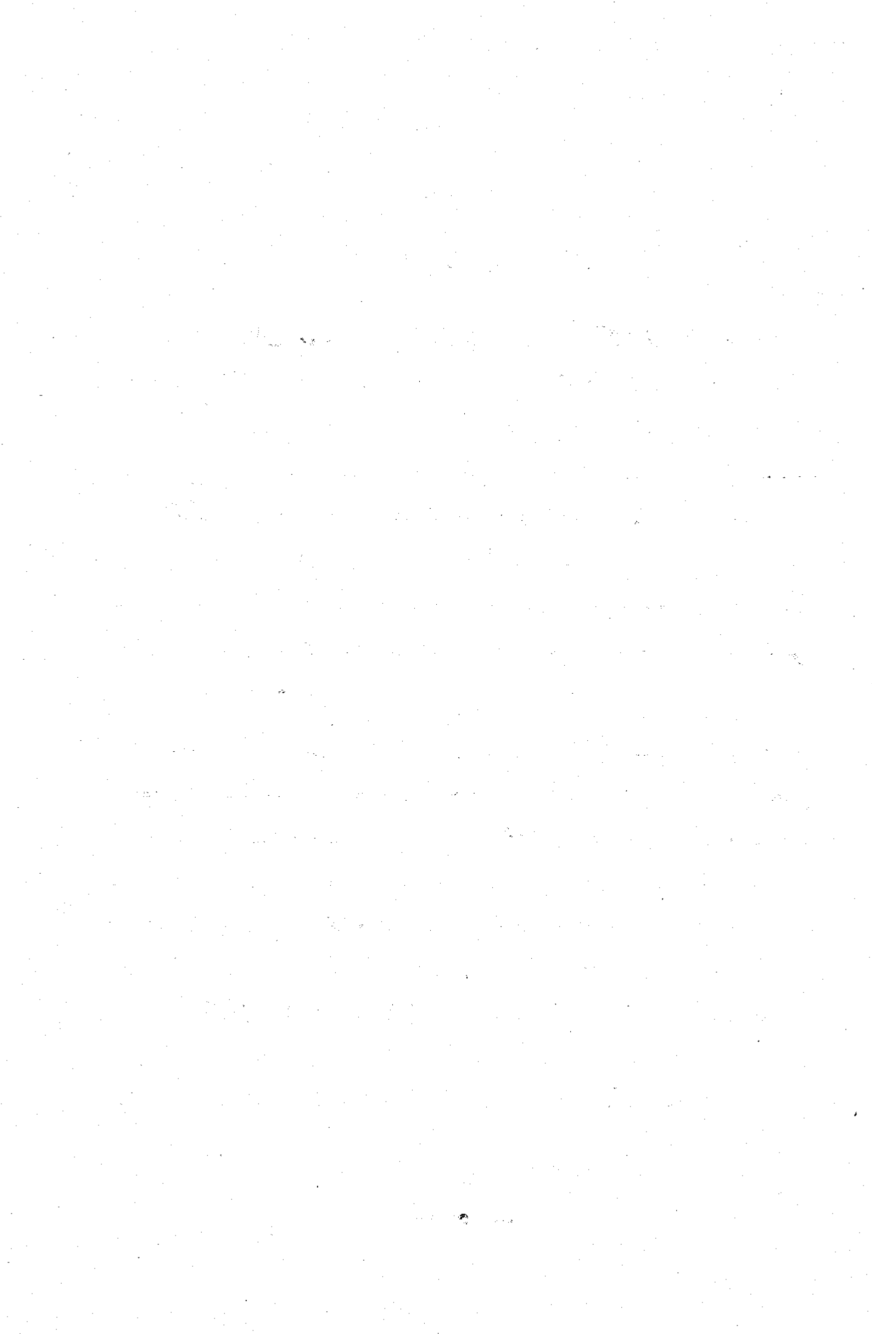
جان ماري أوزياس



الى القـارىء

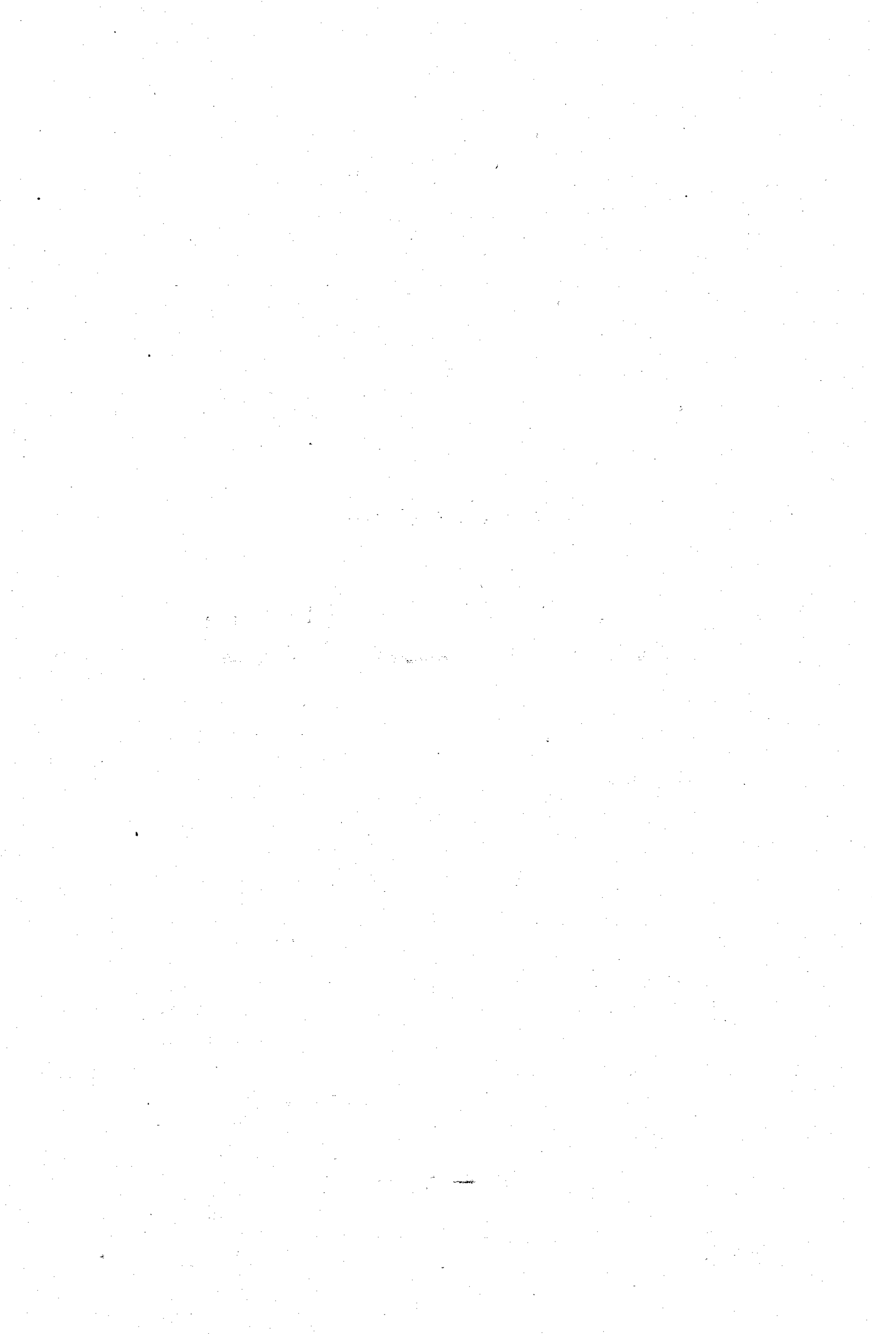
هذا الكتاب موجه الى المعلمين • فقـد اكتشف الرياضيون ، بوصفهم بنيويين مجيدين ، أنه يمكن تعليم الاولاد الصغار أهم مفاهيم نظرية المجموعات الحديثة • سوف يكتشف يوما أن التعليم في الحضانة يتطلب من التبحر ما يتطلب التعليم في الجامعة ، ولسنا أول من يطّلع بهذه الفكرة • وبما أن السلطات العامة تهمل هذا الاعداد ، فسنباشر السعي له • هذي هي مهمتنا النقابية المتواضعة : أن تؤدي خدمة الى أولئك الذين لا يكفيهم يوم تربوي سنوي لتجديد معارفهم ، بـأن نطالع من أجلهم الفكر الحديث كيما ينقلوا بعضه بأسرع ما يمكن الـى الاطفال الناشئين •

لقد تخيّرنا اذن : حاولنا أن نضع هـذا الكتاب لاناس قـد لا يعرفون شيئا عن المسألة المطروحة • لكن البساطة في الكتابة لا تعني السطحية والتعمية • فلنقل بعنف : اننا نتقزز من « الحماقة التربوية » ، من أولئك الذين ، بحجة تشغيل الطالب ، يبيضون السبورة بموجزات وملخصات تسهل الحفظ • من يتوخى الوضوح يعطي محتوى معقدا لما هو معقد ولا يجعل المعارف باهتة • حاولنا الكلام في البنيوية كـي يكثر المتسائلون ويكثروا التساؤل لا لنتتـج احـد تلك الكتب التـي تدعي تثقيف الجماهير وليست في الحقيقة سوى تهيئة دعائية • ليست البنيوية استبدادية ! تريد أن تكون علمية ، وهي كذلك •



الفصْل الأوّل

المجَال البُنيَوي



الفصْل الأوّل

المجَالـــــالبُنيَوي

قبل أن نحدد البنيوية ، علينا أن نحل صعوبة أولى ، اذ يمكن للفكر البنيوي أن يحدد بكامله في نتاج كلود ليفي-شتروس. فيكون بهذا المعنى اثنولوجيا بحتة ، تستعير من الرياضيات : نظرية المجموعات، زمر التحويل ، حساب المصفوفات ، التبديلات، وبعض المفاهيم الاخرى. ويستعير فكر ليفي-شتروس من الموسيقى جدل المواضيع وتنويعها ، الذي يبلغ ذروته في فن المتسلسلة الموسيقية (l'art de la fugue) عند جان سباستيان باخ وفاغنر ، وفي مؤلفات شونبرغ وفبرن وألبان برغ . وتستمد البنيوية أنوارا من علم اللغة ، مستعملة مفاهيم : التزمن، التزامن ، المتتالية ، الخ .. سنحدد كل هذا في حينه .

أخيرا يقتصر ليفي-شتروس في تطبيق فكره على العلوم الانسانية فيرفض كل استعانة بالايديولوجيا ويطردها في ممارسته الشديدة ،حتى لو اتخذت زي الانواع الفلسفية .

لكنا اذا توقفنا عند محاولة التحديد هذه ، فلن نفيد في فهم انتشار البنيوية ، فيفوت القاريء أن مؤلفات لاكان وفوكو ألتوسّر هي أيضا يمكن أن تظهر في المجال البنيوي بوصفها من تجلياته .

لنقل صريحا : البنيوية هي ليفي-شتروس ؛ لكن التطابقات ،

والاستعارات ، واللقاءات والتعاطفات ، تحررنا من بعض العادات التي نرى فيها المذاهب كحيتان باريس وحيتان المناطق يأكل بعضضها بعضا • هذه التوافدات تخلق شبكة قرابات بنيوية قمينة بأن تستبدل بفكرة مذهب عام، بفكرة ايديولوجيا استبداديةتشاع بقوة القراراتالتعسفية، مفهوم المجال البنيوي •

انه مجال رحب ، ولا تتناوبه فقط القوى التي نرمز اليها باسماء « الاربعة العظام » : ألتوسر ، فوكو ، لاكان ، ليفي–شتروس • فقد أسهم في التيار البنيوي كثيرون غيرهم ، وبأقساط كبيرة الاهمية غالبا ، نذكر منهم : بيار ماشري ، اتيان بالیبار ، جيل دلوز ، موريس غودليه ، أندره غلوكسمن ، رولان بارت ، جاكوبسون ، غريماس ، أومبرتو ايكو ، برنار بنغو ، جيرار جنيت ، أندره غرين ، جاك دريدا ، كلود برمون ، جان بويون ، زفتان تودوروف ، لوسيان سباغ ، سرج تيون ، هذا اذا توقفنا عند هذه الاسماء ولم نذكر انتقادات غورفيتش، لاكروا ، رفل ، بوتيجلي ، لا بل وانتقادات سارتر ، ريكور ، بلور ، بالاندية ، أو مقال فوريه [١] الممتاز •

فنرى اذن ، أن البنيوية هي من جهة ما ، ليفي–شتروس ، لكنها تضم كثيرين لا يدرورون في فلكه • لا يمكن الكلام في البنيوية دون ذكر مجلات مثل دفاتر للتحليل (التي تصدرها حلقة فلسفة العلوم في دار المعلمين العليا) ، والكثير الكثير من المقالات في الاعداد الخاصة ، والمساجلات • كثير من المؤلفات التي سندرسها ، ينفي أصحابها عن أنفسهم « الانتماء » الى البنيوية ومنها مؤلفات ألتوسر ، يجب أن نقبل هذا الانكار ، ونقول فقط انها يمكن الحاقها بالبنيوية ، على أن نحفظ لها أصالتها •

---

(١) مجلة براهين شباط ١٩٦٧ Preuves, février 1967

بعد أن أكدنا على هذا ، يجب أن نتساءل عما ينطوي عليه مفهوم البنيـــة [١] •

لنبدأ اذن بتنبيه من كروبر : « كل شيء ــ الا أن يكون معـــدوم الشـكل تماما ــ له بنية • ومن ثم لا يضيف هذا اللفظ شيئا الى ما في ذهننا حين نستعمله سوى ملاحة [٢] مستلذة » •

سنتجنب اذن عددا من العقبات آملين أن نعود يوما الى المسائل المطروحـــة •

فيما يخص العلوم سنكتفي ، اجمالا ، بما نشر ــ ونستطيع نواله بأنوارنا الضعيفة ــ حول الرياضيات ، غير مهتمين بالنماذج التفسيريـــة التي كانت توفرها لنا تقنية الاعلام والفيزياء والكيمياء وعلم المعادن • في هذا العلم الاخير مجال كبير للتنقيب ، فانه يوفر نماذج عديدة •

فيما يخص الفلسفة ، لن يهمنا أن نعرف الى أي حد قدمت المذاهب السابقة امكانات منطقية للبنيوية • مثلا كان من الشيّق لو أطلنا النظر مع جان هيبوليت في الانتقال من التاريخ الى « صور الروح » عنـــد هيجل ، أو درسنا أيضا تأليف هاملان بين المقولات الفكرية بحيث تأخذ شكل شرح للتحول الجذري الذي طرأ على هذه المقولات ، أو كيف يمكن ، أخيرا ، أن يكون بنديتو كروتشه أحد أجداد البنوية الكبار • لكن في هذا مادة أطروحة ، ولا يمكن أن يأخذ الاخصائيون ايحاءاتنا البسيطة بكثير من الجدية • بما أننا لا نسترسل في مثل تلك الاعمال

---

(١) يجد الراغب توضيحا تمهيديا جيـــدا لهذه المعاني في سلسلة مقالات لـ بول فوكيه (ظهرت في أوقات مختلفة في مجلة مدرسة الآداب l'Ecole des Lettres) .

(٢) أورده جورج بالانديه ، في مقاله « القرن العـــشرون لا يعرف نفسـه » ، في مجلة : المراقب الجديد Nouvel Observateur ، ٢٢ شباط عام ١٩٦٧ •

التي تتطلب عدة سنوات من التفكير ، نريد فقط قاعدة الطريقة : اذا قصرنا النظر على التماثلات الصورية ، فان الماضي القريب من التاريخ الثقافي يقدم لنا عددا من الصياغات كافيا حتى لا يقال ان البنيوية ولدت من لا شيء .

غير أن هذه التماثلات الصورية يجب أن تقارن بالمحتويات الايجابية في كل من فروع المعرفة ، اذ يمكن أن تكون الفلسفات ، أو علوم الطبيعة أو العلوم الانسانية قد وفرت رسوما بنيوية لا مفاهيم بنيوية بالمعنى الصحيح (وسوف نرى بصدد ألتوسر ما هو المفهوم في البنيوية) .

تؤكد اذن : ليست البنيوية تصورا جديدا للانسان ، اذ تنحصر في المجالات التي يطالب بها روادها ، وفيها وحدها ، ولا هي توقعية ، اذ تفضل المذاهب المغلقة على التوقع الذي تتركه للعلوم الاجتماعية . فليس بمقدورها أن تسدي توجيهات الى مجتمع صناعي بل هي حصيلة « الفكر المتوحش » . وكأنها من المجتمع المتقدم بمثابة الشعور الشقي لدى روسو . فهي لا تحل الابدية محل التاريخ ، ولا الوجود محل التغيير .

بعد أن صرحنا عما لا يمكن أن يقدمه لنا هذا المجال ، فلنحاول تحديد مفهوم البنية . Structure = بنية مستعار من الفعل اللاتيني Struere أي بنى . قاموس روبر Le Robert يضع للكلمة تحديدا مرضيا جدا ، فلننسخ عنه .

١ ــ ١) طريقة اشارة بناء .

٢) توسعا ، تناسق أقسام البناء من حيث التقنية المعمارية والجمال التشكيلي .

ونستطيع أن نقتفي اللفظ في تغيراته التاريخية اقتفاء جيدا ، فلنواصل النسخ عن روبير :

٢ ــ بالمماثلة (القرنان السابع عشر والثامن عشر) . (أولا ، في الكلام عن الموجودات الحية) . كيفية النظر في مجموعة مشخصة، مكانية، في أقسامها وتنظيمها ؛ صورة يمكن ملاحظتها وتحليلها تعرضها عناصر موضوع ما .

ثم يحيلنا معجم روبير الى الفاظ مثل Ordre = ترتيب ، Constitution = تشكيل ، Contexture = نسج ، dispsition = تنضيد ، forme = صورة ، Organisation = تنظيم .

ثم نقرأ :

٣ ــ ● كيمياء وفيزياء : تجمُّع أقسام مختلفة أو نقاط في مجموعة ، فتتيح لها التماسك : بنية الذرة ...

● القرن التاسع عشر ــ في العلوم الاجتماعية المتأثرة بالانكليز : سبنسر ، مورغن .

● تنضيد الاقسام في مجموعد مجردة ، في ظاهرة ، في منظومة معقدة ، يعتبر عادة ميزة دائمة لهذه المجموعة .

● بنية مجتمع : انظر armature = دعامة ، ossature = هيكل عظمي ، Régime = نظام .

● القرن التاسع عشر هو الذي شهد دخول فكرة بنية تحتية على المفردات الماركسية بمقابل بنية فوقية .

٤) المعنى الاخير ، الفلسفة :

ينحو الاخصائيون والمؤلّفون في استعمال لفظ Structure = بنية ، مناحي مختلفة ، بصدد مجموعة أوكلٍ مؤلفمن ظواهر متضافرة بحيث تتبع كل منها الظواهر الاخرى ولا يمكن أن تكون ما هي الا في علاقتها بها .

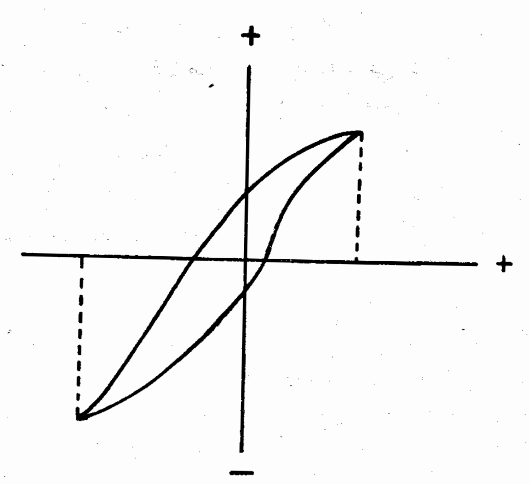
لالاند هو الذي يوفر لروبير تحديد الالفاظ الفلسفية. لكن روبير يحيل عندئذ بحذق الى لفظ « صورة » ، لان البنية في تحديدها هذا قلما تختلف عن الصورة .

فيلزمنا أن نستعير من علم اللغة معنى أدق حدد منذ سنة ١٩٢٩ بـ « ترابط داخلي بين الوحدات التي تشكل منظومة لغوية » •

يحدد هيلمسلف الذي سنعود اليه ، علم اللغة البنيوي على انــه يرتكز على فرضية لسان يتصور بشكل وحدة مستقلة مــن التبعيات الداخلية ، أو قصارى القول ، بنية » •

الجوهري في المغزى البنيوي هو أن البنية يمكن أن توجد فــي مجموعات مختلفة •

اذا سمح لنا أن نستشهد بكلامنا ، نأخذ مثالا من كتابنا[١] فــي التقنيات • من يدرس مقاومة المعادن يجد منحنيا بيانيا ، البِطاء ، هذا شكله :



واذا درسنا قوانين تعلم اللسان وجدنا نفس المنحني • ونجــده أيضا عندما ندرس في الفيزياء ظاهرة التمغنط ، الخ •• هذا المنحني

(١) Clefs pour la technique, page 137

هو اذن بنية في عرف البنيوية • انه قانون تشكل مجموعات مختلفة ومعقوليتها •

البنية ، بهذا المعنى ، تعزل زمرا من الظواهر ، أواصر القربى مثلا ، وتنتظر ظواهر أخرى وزمرا أخرى حتى تربطها في مجموعة • أما المنظومة كاملة فتظل مما يجب أن تتخيله دوما على انه أمامنا • اذن تحدد البنية في المجموعة ما يشكل وجهها الاصيل دون أن تدّعي مع ذلك أن يكون الوجه الوحيد • غير أن المسألة ليست في تصنيف الوجوه البنيوية على علاتها مع الاشارة الى الفوارق • ان المهم في البنى هو **وحدة** الفوارق •

فيُبحث مثلا عما يوحد مقولتي الفوق والتحت التقنيتين، المتفارقتين في الظاهر ، المتشابهتين من الجهة البنيوية • وهكذا يمكن الانتقال من تصور الى آخر ، ورؤية المشاركات حتى في الاختلافات • **فالمجموعة** لا تأتلف من الاشباه بل من **التغيرات الفرقية** •

في هذه النقطة بالذات ، يقودنا جان بويون[1] في مقال حاسم الى أن نلمس باصبعنا ما يفرق بين البنية والتنظيم : « التنظيم هو مزيج عناصر ؛ انه من باب الواقع ، فلا يفهم بذاته ما دمنا نصفه بمعزل عن كل تنظيم آخر • للعناصر اذن في كل مجموعة منظّمة ومنتظِمة ، هيئة أضيق تحدد هذه المجموعة في تفردها وقابليتها للمقارنة ، دفعةً واحدة ، اذ ان قابلية هذه الهيئة للتغير هي التي تعيّن للمجموعة موضعها بين المجموعات الاخرى ، المحددة هي أيضا بنفس العملية »[2] •

تتمنى أن يستنير القاريء بكل هذه المجردات • لنقل بكلام أبسط

---

(١) في مجلة : العصور الحديثة
Les Temps Modernes n° 246, novembre 1966.

(٢) المقال المذكور ، ص ٧٧٧ .

ان « في كل مجموعة منظّة ومنتظِمة ، سلسلة عناصر تأتلف بحيث تترجم عما تنفرد به المجموعة ، لكن عناصر أخرى تتيح مقارنتها بغيرها من المجموعات » . اذن تستدعي البنى باستمرار نشاطين للذهن : الشعور بالاوحد وهواية المقارنة . ولكن لا يكفي هذا حتى تنكشف للوعي بجلاء . يجب الانتباه جيدا الى ان البنى لا تحتاج أن تكون شعورية ، خصوصا لانها لا تمثل هيكلا عظميا ، دعامة . ان البنية هي ما يشرح سلسلة الافاعيل .

من أجل توضيح هذا التحديد ، يقدم لنا جان بويون مفتاحا للسان البنيوي ، مذكّرا بالفرق بين اللفظين Structurel = بنياني و Structural = بنيوي :

« يقال على علامة انها بنيانية عندما تعتبر في دورها التعييني ضمن تنظيم معطى .ويقال عنها في العلاقة نفسها بنيوية حين نعتبرها من حيث تقبلها للتحقق على وجوه مختلفة ومن حيث ما يكون لها من وظيفة التعيين في عدة تنظيمات . فبنيوي يحيل الى البنية بوصفها « نحوا » ، وبنياني يحيل الى البنية بوصفها واقعا متحققا »[١] . وهذا التمييز يعصمنا من ارسال الكلام جزافا .

ونحن نذكّر بالمعنى الضيق لكلمة بنيوية نلاحظ في الوقت ذاته أن معنى كلمة بنية قد امتد واتسع . فعلينا ان نتجنب إقحام البنيويةفي كل المجالات ، انها تجنح بطبيعتها الى الحاق العلوم التقليدية بها، فيجب ان تمتد اليها بحيث تلقي عليها ضوءا جديدا ، ولكن دون أن تصهرها فيها صهرا استبداديا .

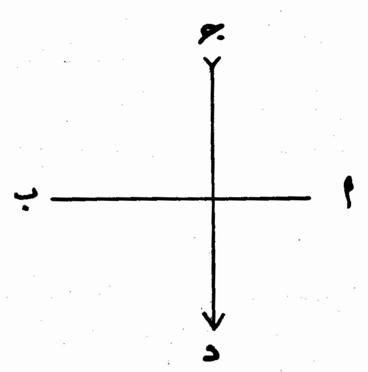
والحال أن أول مجال للنشاط العلمي يقف موقف التساؤل ، هو التاريخ ، لان التاريخ يعتمد على مفهوم الزمان الذي يبدو أن مفهوم

---

(١) المقال المذكور ، ص ٧٨٠ .

النية ينفيه • فلزم علينا أن نبدأ هنا الكلام في مفهومين رئيسين في البنيوية ، مستعارين من علم اللغة الذي وضعه دوسوسّور •

سنحدد هنا معرّضين أنفسنا للتكرار ، محوري نظرية دوسوسّور اللذين سوف نعود اليهما في الفصل اللاحق عندما ندرس علم اللغة • انهما في البنيوية نظيرا اللازمة في الموسيقى • يقول دوسوسّور[1] في كتابه : « دروس في علم اللغة العام » (ص ١١٥) : « من المؤكد أن على العلوم كلها ان تعنى بتعيين اكثر دقة لمحورين يحددان موقع الاشياء التي تهتم بها ، وعندئذ يجب ان يحصل التمييز تبعا للشكل الآتي :



١ً ـ محور المعيات (أ ب) الذي يخص العلاقات بين الاشياء المتواجدة ، حيث يستبعد كل تدخل للزمان .

٢ً ـ محور التتالي (جـ د) الذي لا يمكن أبدا أن نتبصر عليه في آن واحد الا شيئا واحدا ، ولكن تقع عليه كل اشياء المحور الاول مع تبدلاتها .

---

(١) فردينان دوسوسّور هو مؤسس علم اللغة الحديث . مارس التدريس الجامعي منذ ١٩٠٦ في جنيف . وقد تمكن شارل بالي والبير سشي والبير ريدلنجر ، مستعينين بما ترك من أن ينشروا هذا المجلد في دار Payot . نستخدم الطبعة الثالثة ، الاخيرة حتى اليوم .

واذ يطبق دوسوسّور هذه الملاحظات الاساسية على علم اللغة الذي يقسمه نوعا ما الى : سكوني وتطوري ، يقترح لتمييز المحورين الموصوفين أعلاه حدين : تزامن وتَزَمّن ؛ الاول للمحور (أ ب) والثاني للمحور (جـ د) • وبالفاظ أخرى « يوصف بالتزامن كل شيء في العلم يعود الى المظهر السكوني ، ويوصف بالتزمن كل ما له صلة بالتطورات • وكذلك يدل التزامن في اللغة على حالة • والتزمن على مرحلة تطور » [1] •

فيما يخص هذه المسائل ، يبدو معاصرونا وكأنهم يكتشفون أمريكا ، في حين كان كل طالب في اجازة الآداب ، طالب عادي الاطلاع ، يدرس في الامس « فقه اللغة » في كتاب ادوار بورسيه : عناصر علم اللغة الروماني ، هذا على الاقل حيث لم تكن الاولوية للاتجاه الشمالي[2] • وورسيه ينسج على منوال دوسوسّور • نقرأ كل هذا ، في مقدمته التي توفر لنا المواضيع الاكثر تشويقا في البنيوية : « يجب أن يكون في كل لغة :

١ً ــ ثبت بأسماء تتفاوت اسهابا ، للاشارات الصوتية ، تطلق على المعاني المشخصة أو المجردة ؛

٢ً ــ بنية ، أي جملة من الاساليب المتفاوتة تعقيدا ، تتمازج بفضلها الالفاظ وتؤدي التركيب الذي هو الفكر » (ص ٣) •

نأخذ من هذا النص دون أن نستنفده أن للغة عند بورسيه سمتين : الاولى كونها دلالة ومفهوما (ثبت الاسماء) ، والثانية كونها

---

(١) ص ١١٧ من Cours de linguistique générale

(٢) نقصد أن كليات الآداب في فرنسا، خلافا لما يحدث في الخارج، ما كانت تدرّس ابدا الا آثارا بلهجات Oil مثل الفرنسيانية والبيكاردية، والفالونية ، ناسين من العصر الوسيط كل ما كان بلهجات Oc .

انشاء وتقنية • يضع بورسيه بعد ذلك بصورة أبسط ثنائية علم اللغة متكلما عن **التطور** (التزمن عند دوسوسير) **والتنوزع** (التزامن) •

لدينا اذن سلسلة من المواضيع كبيرة الاهمية ، نلاحظ فيها أن لا امتياز لاي حد على غيره • الحقبة السابقة هي التي كانت ترى كل شيء من خلال التاريخ ، فأتت الردة طبيعية •

ويسقط هكذا أمام البنيوية الامتياز المفرط الذي طالما بذخت به التاريخية • اذ ان الامر كان قد أدى بالعقول الى الاعتقاد بأن العلة في حياة الانسان هي « السابق الثابت » ، وذلك بتَعِلّة الاخذ عن علوم الطبيعة مفهومها للسببية • يعني أنه كان يلزم في شرح ظاهرة أن نرتقي الى سابقتها ، فكانت سمة التاريخ على كل شيء : الحياة تفسر المآثر والمآثر المتقدمة تفسر المتأخرة ، احوال المجتمع الراهنة تجد تعليلها في الاحوال السابقة ، وتصير الفلسفة تاريخ الفلسفة ريثما تصبح بصورة جد طبيعية تاريخَ تاريخِ الفلسفة • وكان من هذا الشطط أن قامت حديثا مشادة شهيرة بين السيد رولان بارت والسيد ريمون بيكار • فقد كان يلاحظ أن موازين الشرح ليست حتما وراءنا ، اذ ان غائيات ثوروية مثلا ، واختراعات وتوقعيات ، وتحولات اجتماعية اتخذت المستقبل هدفا لها • فالهدف هنا اصبح علة [1] •

ومن جهة أخرى كان مونتسكيو قد أعطى الدراسة الاجتماعية والقضائية عللا ناجمة عن قوانين هي « علاقات ضرورية مشتقة من طبيعة الاشياء » ، فاسس بذلك العلوم الانسانية على نمط العلوم الطبيعية •

ثم جاءت السمة السائدة في البنيوية ، وهي احلال مجموعة العلوم

---

(١) انظر بهذا الصدد الثورة السيبرنتيكية ل ب . ايدات
P. Idatte, La Révolution cybernétique
(Cours Polycopié, I. N. S. A., Lyon)

الانسانية محل التاريخ • هذا الافق الجديد اعاد لتوه ترميم المجتمعات التي « لا تاريخ لها » ، ــ أي التي لم تخلّف وثائق مكتوبة ــ في وظيفة نموذجية • واذا بانسان الاثنولوجيا يأخذ مكان انسان المؤرخ عند كثير من المفكرين • حتى التاريخ وقد هزه التيار هزا عميقا استعاد لحسابه دراسة الحركات الداخلية البعيدة المدى ؛ ونشأت مدرسة الحوليات ، مدرسة لوسيان فافر ومارك بلوخ وهنري بر وفرنان بردول وآخرين ممن استدعوا في الوقت ذاته الثوابت والحضارات شاملة الاحداث الى حد صهرها واذابتها •

واذا بمحراث هودريكور يقدم لنا تفكيرا أكثر كشفا من معركة أوسترليتز • واذا بدراسة الازمنة المتعاقبة على الانسانية تتعرف في أدوات الحضارة مجالات انتشارها المتزامنة •

انتصار للاثنولوجيا لكنه مؤقت حقا،اذ انالذي يستهوي السلطات هو دوما التنظيم في اطار المضلع السداسي على طريقة كارتيه[1] • ما النفع من انفاق الاعتمادات في سبيل دراسة شعوب جزر ، أليوسيا دراسة اثنوغرافية ؟ راح الفكر الاوربي ابان عنفوانه يكرس جهوده لديمقراطية التعليم ، فصارت علوم الانسان مزعجة ، يرتؤون أنها قد لا تكون علوما لاقتصارها على التخمين • ولكن البنيوية تنطلق من وضع هو ادنى نسبيا من الوضع الذي تنطلق منه العلوم الدقيقة • ذلك أنها تحدد المجال الذي يتعرض فيه شعور الباحث الاثنولوجي ــ محللا كان أم اقتصاديا ، لغويا كان أم أديبا ــ يتعرض « لتزييف » النتائج بتفاعله مع الوقائع المشاهدة، فتحاول تقليص الضرر بتقليص مجال الشعور وحذفه ، الشعور الذي هو موضوع التجربة في العلوم

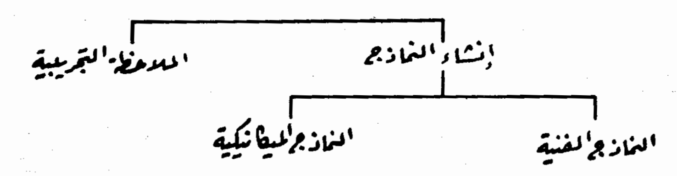
---

(١) كارتييه بحار من القرن السادس عشر نظم كندا عند فتحها تنظيما استعماريا دقيقا لحساب فرانسوا الاول ملك فرنسا في ذلك الحين ــ المترجم ــ •

الانسانية • ذلك ان البنية ليست شعورية • فاللسان مثلا ، متصور في البنيوية على انه يؤلف كلاً منظما تنظيما مذهبيا ، معطى سلفا ، سابقا في وجوده على الكلام الذي يحرره • فاذا كان بوسعي ان اشرح كلام مريض فلا يمكنني اذن أن أتوقعه : يا لها من مجانية عجيبة ، مجانية العلوم الانسانية !

ليست البنيوية ما جعل منها سارتر في واحدة من نزواته : جوابا ايديولوجيا هو جواب مجتمع تقنوقراطي يريد التوقف ، بل هي نقيض التقنوقراطية اذ انها في عجزها عن التوقع تعجز عن التحكم • وهـذا تأكيد آخر على انها تستهدف الدقة • اننا نقرأ دهشين تحليل أساطير التبغ في كتاب ليفي-شتروس ميثولوجيـا II ، فلا ندري أيهما احق باعجابنا شعر الاساطير أم ترابطها الصارم في الاستدلال ؛ والعبارة التي تتكرر اكثر ما تتكرر في كتابي التوسر : Pour Marx من أجل ماركس و Lire le Capital = قراءه رأس المال ، هي العلمية والدقة المفهومية • تلكم الاولوية وقد اعيدت ، بعد الاثنولوجيا الى اللسان ، لغة تصبغ بصبغتها كل العلوم •

في هذه النقطة ندرك مرمى البنيوية،ألا وهو انشاء علم المجموعات الانسانية ، في حـين أن أكثر الطـامحين مثل فقهاء اللغـات ، ظلوا اختصاصيين • وهذا يفرض علينا اعادة تصنيف العلوم • يقترح ليفي-شتروس في كتابه **الانطروبولوجيا البنيوية** ، هذه الترسيمة :



علم الاجتماع مثلا يبني نماذج احصائية ، والاثنولوجيا نمـاذج

ميكانيكية (فكيف « يجري » هذا) . ثم يغني ليفي-شتروس الترسيمة التي اقترحها في كتابه **الانطروبولوجيا البنيوية** ، في عدد من مجلة : Aletheia [1] = الحقيقة ، مكرس للبنيوية ، حيث يوحي، من أجل تصنيف للعلوم ، بأن يعمد الى تقابلات أخرى :

« منها التقابلات بين الملاحظة والتجريب،وبين الشعور واللاشعور، وبين البنية والقياس ، بين زمان ميكانيكي يمكن عكسه وزمان احصائي لا ينعكس » .. ثم « يدخل قسطا جديدا من التقابلات[2] بين منظور كلي ومنظور جزئي (في الزمان ، في المكان أو في كليهما معا) ، بين مواضيع للدراسة ندركها على شكل واقعيات أو عموميات » (واقعيات تدل على المجتمعات أو المجموعات الموجودة او التي كانت في الواقع ؛ عموميات تعني المواضيع الدراسية التي تحمل بمقابل لواقعية طابع العموم) . ولكن ، اذا كانت الانطروبولوجيا قد استعادت نظاما مرموقا فان علم اللغة وحده يستطيع أن ينافس علوم الطبيعة . فهو كلي ، متجانس ، و « يعترف به » في نظامه كل الذين يمارسونه .

أما العلوم الانسانية الاخرى فتحمل مُعامَل احتمال ، مماثل بالضبط لقانون الارتياب الشهير في الفيزياء الذي استخلصه **هايزنبرغ**. ينص كما نعلم أنه حين تُعرف سرعة الكهرب لا يُعرف موضعه ، وحين يعرف موضعه لا تعرف سرعته . والبنيوية تبرز نفس العلاقة : حين تعرف البنية لا تعرف حركة تشكلها وحين تعرف الحركةلاتعرف البنية .

مثلا حين أدرس العلاقات بين الصوامت w, g, v, b ، أقيم

(١) (ايار ١٩٦٦ عدد ٤) ، ليفي-شتروس ، « الموازين العلمية في المعارف الاجتماعية والانسانية » (تكرار للعدد XVI, 4 من : المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية) .

(٢) Aletheia عدد ٤ ص ٢٠٠ .

تضايقات بنيوية عائدة الى علم الاصوات : دور الشفتين في اللفظ ، دور البلعوم ، الخ .. أما اذا بحثت كيف خرج الـ b الاسباني من الـ v اللاتيني ، فأستطيع اقامة حركة تاريخية لا بنية. الامكانات البنيوية للـ b والـ v كانت في قوانين الاصوات اللاتينية مثلما كانت في قوانين الاصوات القشتالية. بين البنية والحركة علاقة ارتياب : اذ لا شيء ينبئنا عن البنية متى يتحتم تحركها .

ونجد المقارنة بالفيزياء أيضا في قانون التفاعل بين الملاحظ والظاهرة ، غالبا ما يذكّرنا به جاكوبسون . وقد بيّنت مدرسة نيل بور Niels Bohr أن الملاحظ والأداة يحوّران « ظهور » (ظاهرة) الشيء الفيزيائي. وفي التحليل النفسي على مذهب لاكان يحوّر المخاطب ايضا العلاقة بين المدونة اللغوية (معنى اللفظ) والرسالة (ما أريد قوله) .

ويوغل جاكوبسون في هذه المقارنة (البنيوية) بين الفيزياء ، وعلم اللغة ، فيقول بصدد الدلالات الصوتية أن الصوت مشحون بما يشبه كوكبة من الدلالات التي يمكن تشبيهها بفيزياء الكم، لان كل ذرة لغوية مشحونة مثل المادة المشحونة كهرباء التي ينسب اليها « كم » (شحنة ما من الكهرباء) .

لقد لوحظ أن البنيوية ، من هذا القبيل ، تنزع في اختيار موضوع دراستها الى تفضيل باطن المجتمعات على ظاهرها . فالاقتصادي ،مثلا، يدرس الاسباب التي تنظم منظومة ما . أما حين يدرس أنطروبولوجي مثل بت–ريفرس ، بوبلو ــ قرية أندلسية ، فانه يعيش فيها ، فرؤيته من الداخل تمكنه من استخلاص البنى : يدرس مثلا[1] البنية السياسية

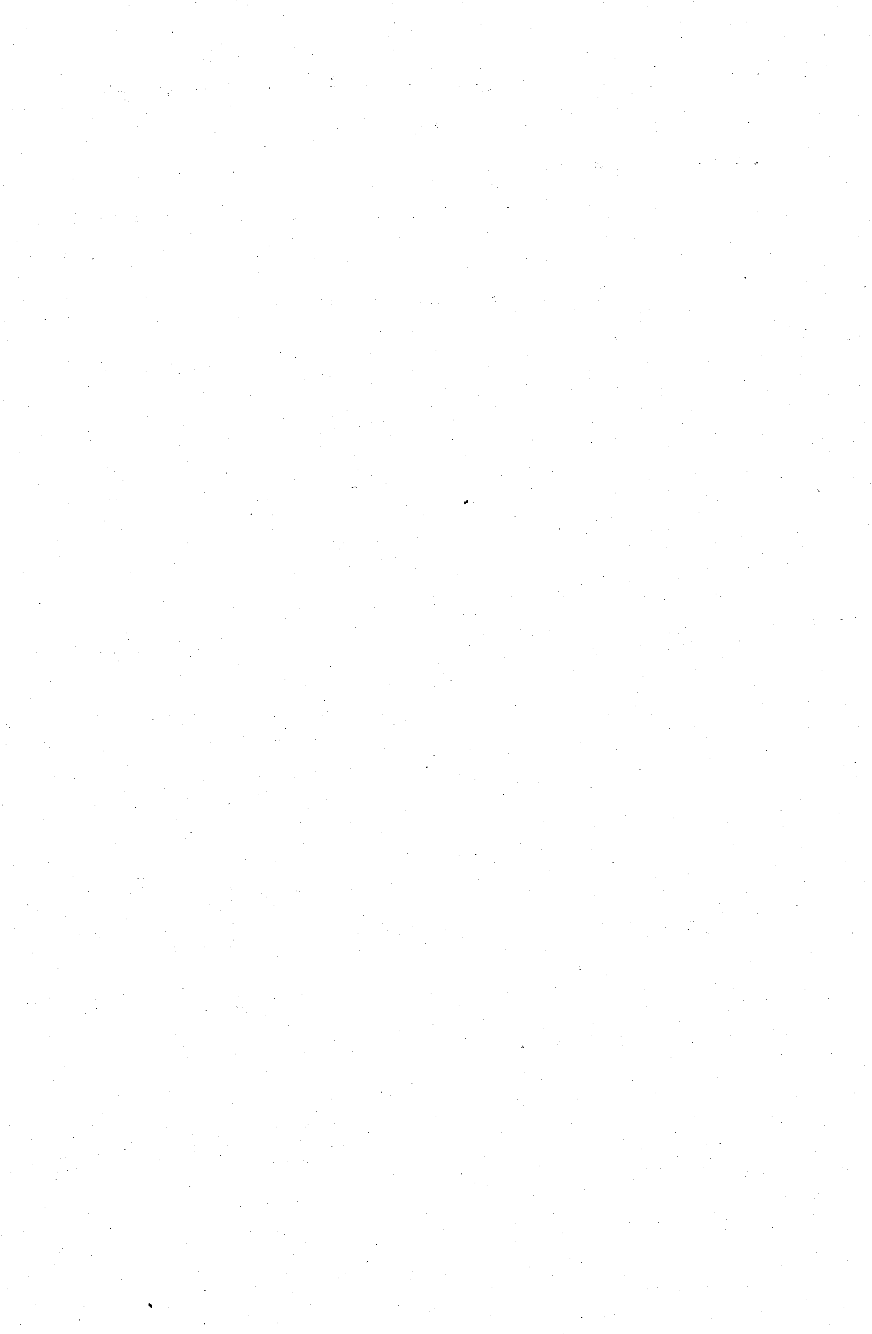
---

(1) J. A. Pitt - Rivers, The People of the Sierra, Weidenfled
ج . آ . بت ــ ريفرس ، شعب سييرا ، وايدنفلد ونيكلسون ، لندن ، ١٩٥٤ .

معتبرا اياها كوكبة من العلاقات المعقودة حول « el amo de Alcalà »
(سيّد ألقالا ، ص ١٢٢ وما يلي) . هذه « التضمنية » الجذرية
للعلوم الانسانية وجه آخر من أوجه دقتها . فالشرح لا يُطلب في غير
موضوع التحليل ، رغم الاستعانة بفروع المعرفة الاخرى . يمكن أن
نجد في الانطروبولوجيا بنية رياضية دون أن تُستورد أو تُصدر .
هذا لان العلوم الانسانية اختارت البقاء في الثقافات التي تدرسها ،
لا أن تفرض عليها مفاهيم « فوق ثقافية » ، لا بل « فوق طبيعية »
(وهذا يؤول آخر الامر الى قطيعة كلية مع الايديولوجيات) . تزهر
البنيوية عند نهاية الايديولوجيات ، كما ينبه الى ذلك فوره في
مقاله من مجلة : Preuves = براهين . فالشرح البنيوي يستبعد
البراكسيس بوصفها شرحا مثلما يستبعد الايديولوجيا وبنفس الحركة.
اذ ان الممارسات لا تبني الشرح بل تبنى به . هذا هو مثلا ما يجعل
ليفي-شتروس يرفض مطولا في كتابه : **طوطمية اليوم** ، نظرية
مالينوفسكي الوظيفية ، التي تؤوّل انتساب العشائر الطوطمية الى
الحيوانات ، بطيب مأكلها أو نفعها في ... يتطلب ليفي - شتروس من
المرء ان يقيم بينه وبين العمل فاصلا ، ويدلك على ذلك هو نفسه «بحياده
السياسي » . هذه اللا مهاودة هي التي تميز العلوم « الاجتماعية »
(الجديرة بقيادة العمل) عن العلوم « الانسانية » . تؤدي هذه الاخيرة
من حيث « لا وظيفيتها » نفس الدور النظري الذي تؤديه علوم
الدقة .

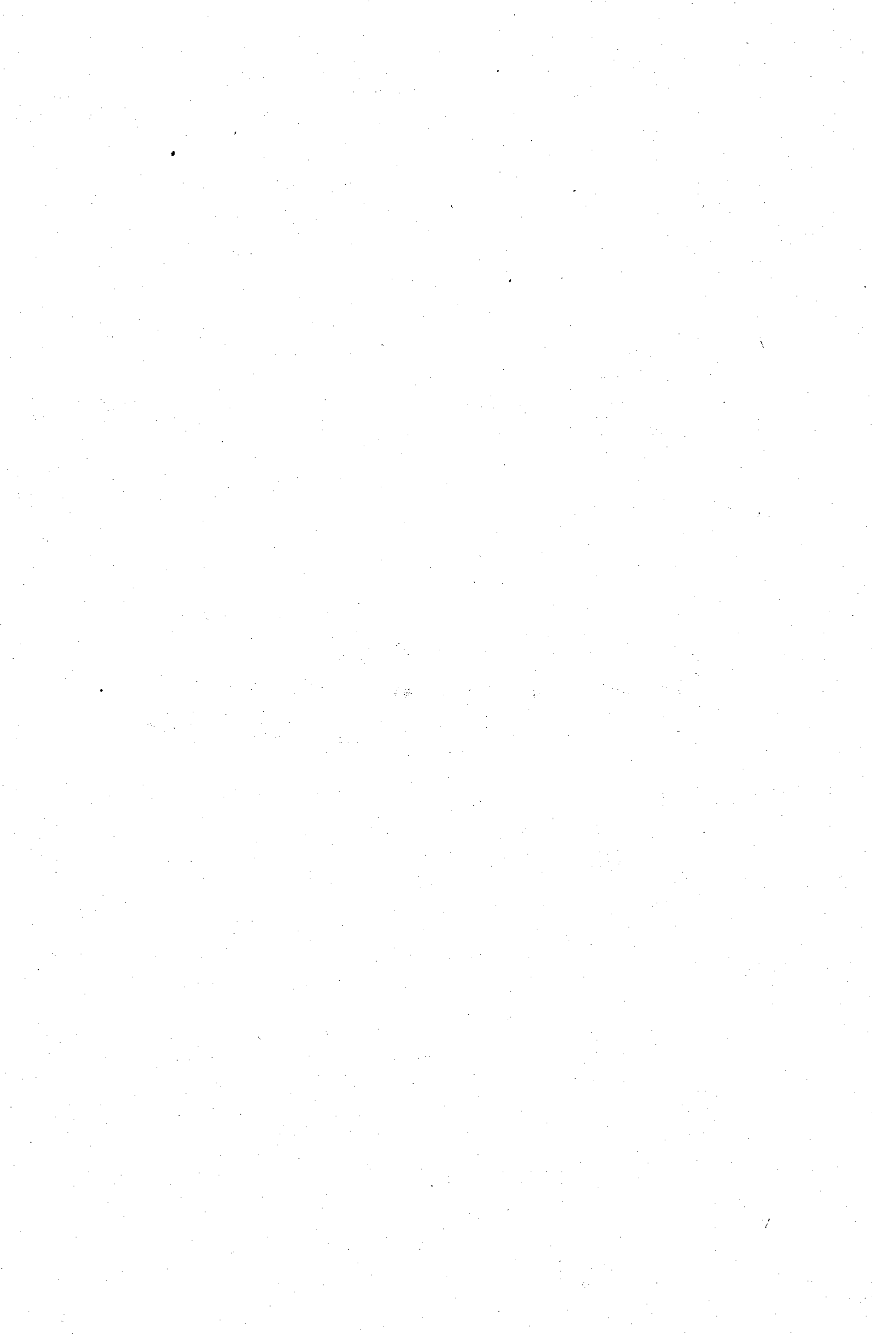
ويُبرز ليفي-شتروس فروق وجهات النظر هذه في مقاله الذي
نشرته مجلة Aletheia (ص ٢١٠) ، حيث كتب : « تقف العلوم
الاجتماعية من العلوم الدقيقة الطبيعية موقف الزبائن ، بينما تطمح
العلوم الانسانية الى التتلمذ عليها » . ويقول أيضا (ص ٢١١) :
« اقتبست العلوم الانسانية من العلوم الدقيقة الطبيعية درسا هو

أنه يجب أن نطرح الظاهر اذا كنا تتطلع الى تفهم العالم ، بينما تأخذ العلوم الاجتماعية بالدرس المماثل وهو أن علينا تقبل العالم اذا كنا نزعم تبديله » • قوة المنازعة عند البنيوية تصدر كلها من هذا الموقف ، موقف عدم الانغماس في المظاهر الانسانية • خطأ اذن كما كنا نقول أن نخلط البنيوية بفكر مجتمع تقنوقراطي • وسنرى هذا في دراستنا لاقدم الفروع البنيوية : علم اللغة البنيوي •



الفصل الثّاني

علم اللغةِ والبنيويّةَ



لن نفيد اللغويين هنا بشيء اذ ان صرامة هذا الفرع تمنعه على غير اهله وعلى الباحث المنعزل • كل ما أجزناه لنفسنا هنا هو أن نقترح على الدارس غير المختص سلسلة من اللقاءات بالافكار الكبرى في علم اللغة • وأكثر ما يوجه اختيارنا بين المدارس هو اهتمامنا بأن نُعلِّم تقاطعات علم اللغة والفروع الاخرى من المعرفة • ثم انا رأينا تجميع هذه الافكار بترتيب غير صارم جديرا بدفع تحليلنا قُدما نحو الارض الموعودة : البنيوية •

لمحة تاريخية :

لقد أنشأ النحاة منذ العصر السنسكريتي ـ القرن الرابع ق•م• ـ رسوما للتفكير في موضوع النطق ، رسوما اعاد لها قيمتها عهد قريب• وفي أيامنا يستعيد حظوة ساكسوغرامّـاتيكوس ، وسرفيو ، وكتاب بور-رويال في قواعد اللغة : فقد حللوا علاقات الكَلِم وتصنيفاتهـا ومواضعها وصيغها ، ممهدين بذلك لمجيء عهد البنى •

ثم أتى فقهاء اللغة ، « هواة المقالة » • كان هؤلاء العلماء ، في الاسكندرية أو في الكولّيج دفرانس ، يفسرون النصوص بالاستناد الى اللغة • حتى ان فقه اللغة صار في المانيا جملة علوم الانسان تقريبا،

وراح التاريخ يحتل أكثر فأكثر مقام الصدارة • ثم قورنت اللغات الثقافية وكان الالمان مطلع القرن التاسع عشر مبرزين في هذا الميدان ، وسادوا فقه اللغة حتى نهاية القرن بأمثال بوب وكورتيوس وماكس مولر • لكنهم لشغفهم بالاشتقاق لم يخطر لهم أن يتطرقوا الى اللغة بذاتها • ولعب اخصائيو الرومانية دورا أساسيا في تأسيس علم اللغات الحديث ـ ألا من يكفي ثناء الاثر الفائق الذي ألّفه كلود فوريال ؟ • وبين ١٨٣٦ و ١٨٣٨ نشر دياز كتابه ، **نحو اللغات الرومانية** الذي يحدد في نظر دوسوسّور بدء عهد جديد •

موضوع علم اللغة :

لنستشهد بـ فردينان دسوسّور [1] : « ستكون مهمة علم اللغة :

أ ـ وصف وتاريخ كل اللغات التي يستطيع اليها سبيلا ؛

ب ـ البحث عن القوى الدائمة الكلية التي تعمل في كل اللغات •• » •

بهذا المعنى يختلف علم اللغة جدا عن الاتنوجرافيا • يستنير بضوء فيزيولوجيا الاصوات ، لكنه لا ينيرها • فيجب اذن تحديد اللغة • وتحديد اللغة يعني اعتبارها قاعدة كل تجليات النُطق • « اللغة اصطلاح ، ولا شأن لطبيعة العلامة المصطلح عليها ••• (ص ٢٦) • لوجهة النظر هذه نتائج كبيرة • فاللغة اذن ليست تعبيرا عن ظواهر اجتماعية خارج علم اللغات ، بل تستمد قاعدتها من ذاتها • اللغة كما يصفها دوسوسّور دارة تشمل المسموع والملفوظ والمتصوَّر ،أو بالفاظ أخرى السمع والتلفظ الصائت والمفاهيم • وتحرك قسما نفسيا ،وقسما لا نفسيا (آليات فيزيولوجية) ، قسما فاعلا وقسما منفعلا ، يضاف

(1) كتابه ، Cours de Linguistique générale ، الطبعة الثانية ، ص ٢٠ وما يلي •

اليهما ملكة تشارك وتنسيق تؤدي دورا جوهريا في تنظيم اللغة من حيث هي منظومة • ثم ان اللغة ، من حيث تتحقق ظاهرة (أي واقعا مختبرا) تظل دائما فردية في الكلام ، أما في ذاتها فهي بالعكس اجتماعية • وهذا مبدأ لمستويات ثلاثة هي : منظومة كل الغات وتسمى **اللسان** ، منظومة خاصة بمجتمع وتسمى **اللغة** ، وأخيرا **الكلام** الذي أتلفظ به • وان نستطيع دراسة اللغة موضوعا منفصلا فانما ذلك بفضل هذه المستويات الثلاثة • فلنحدد اللغة مع دوسوسّور بـ تجانسها : اللغة منظومة علامات ، الجوهري فيها هو فقط اتحاد المعنى والصورة السمعية• يرى دوسوسير أن مجموعة العلامات مكن تحليلها علميا : اذ من الامور الهامة انشاء علم العلاقات هذا • في هذه المجموعة تكوّن اللغة منظومة خاصة ، لان العلامات كلها ليست حتما لغوية • فاذا شمخ العسكري بأنفه من خلف المساعد كان هذا علامة لا ظاهرة لسان •

يفصل دوسوسّور في منظوره فصلا صريحا بين علم لغات موضوعه الخاص اللغة الاجتماعية المستقلة عن الفرد ، وعلم لغات موضوعه الكلام ، معترفا بنفس الوقت بتلازم اللغة والكلام • يجب في دراسة لغة أن يُعنى قبل كل شيء بأصالتها الحقيقية ، مع محاولة تعيين ما يخصها داخليا ، لكون « اللغة منظومة لا تعرف سوى نظامها الخاص»•

فلنتصور لحظة الثورة المدهشة التي يدخلها مبدأ دوسوسّور هذا على صعيد المعارف •

لقد تكوّن كل علم باقامة استقلال موضوعه استقلالا جذريا • وهنا اذ يحدد دوسوسّور علم اللغات نظاما خاصا، منظومة قائمة بذاتها، ذات قواعد داخلية مستقلة عن الكتابة استقلالا كبيرا رغم ارتباطها بالاشتقاق (« الكتابة انها بصرُ اللغة » ص ٥٧) ، يبدي جرأة كان هو أول من تألّم منها ، فقد ارتاع من اكتشافه ولم يُعلِم به أحدا بل راح يراجع كل شيء وينعم فيه النظر من القاعدة حتى القمة •

وظلت طريقة دوسوسّور طويلا تصطدم بنزعــة وضعية منطويــة تتبرقش أحيانا بزخارف ماركسية ، نزعة ليست دائما عقيمة من حيث النتائج • لان النظريات القديمة في العلوم تنكشف خصبة لامد طويل • حتى حين تتدخل « التجاوزات » ، « الانقطاعات في فلسفة العلوم » ، فانها لن تعوق تطور الترسيمة التعليمية القديمة• هذا ولا يستقيم القول بالتجاوز على علم أو فلسفة•مناهضة هذه النظرية السوسّورية صدرت في جوهرها عن اعتراضين :

١) لما كانت اللغة حادثا اجتماعيا ، وجب أن تدرس مثل كـــل الحوادث الاجتماعية ، عبر شرائطها الخارجية •

٢) يجب تفسير اللغة ، شأن كـــل حـــادث اجتماعي بشـــروط طبيعية أولا •

الاعتراض الاول، الذي خبط فيه اللغويين الماركسيون الفرنسيون طويلا[1]، من غير أن يجهلوا تعليم دوسوسّور ، يمثله مارسيل كوهين• والمقال المنشور في مجلة Recherches internationales تحت عنوان علم اللغة والمثالية يكشف لنا كثيرا هـــذا الموضوع ؛ بــل انه يضيء دوسوسّور نفسه • يأخذ كوهين على دوسوسّور انشاءاته التعسفية • وفعلا يعتمد علم اللغات عند دوسوسير على تقابـــلات ذات مظهريـــن (تقابلات مثنوية) • مثلا : تقابلات بين مقاطع غير منبورة atones ومقاطع منبورة accentuées، بين صوامت وصوتيات ، بين o مفتوح و o مغلق • وتكتب هذه التقابلات على النحو التالي :

مفتوح // مغلق

منبور // غير منبور

---

(١) ومن يطلب الاقتناع يستطيع أن يراجع العدد السابع من مجلة Recherches internationales à la lumière du marxisme أيار ـــ حزيران ١٩٥٨ ، المكرس لعلم اللغات .

فلنشر حالا الى الصعوبة الكبرى التي تعترض علم اللغات في هذا التصور . ما دامت المسألة مسألة أصوات ، يمكن اقامة عناصر ودراسة تمازجها وتمفصلاتها وتقابلاتها ، الخ .. ولكن حالما تتمازج الاصوات في سلسلة حقيقية محكية يضيع الباحث في متاهة علم الصوت . ولئن تكن بعض الظواهر ، مثل حضور المقاطع ، على قدر كاف من الوضوح لتوفير قاعدة دراسات، فان آلية الاصوات أبعد من أن تقدم تلك البساطة العذبة ، امنية كل العلوم وفردوسها المفقود .

يرى دوسوسّور أن بنية المقاطع في سلسلة المنطوق تشبه بنية وحدة لا يمكن ارجاعها الى شيء آخر . انها « مجال » لفظي حقيقي يحده :

- الصوت المفتوح والصوت المغلق (مثلا : a , â) ؛
- حد للمقاطع ونقطة يندرج فيها الحرف الصوت للمقطع ؛
- «تتابع احتباساب وانجارات» (سوسّور ص ٩٠) أي انغلاقات وانفتاحات .

لن نعود الى هذه الامثلة ، لشعورنا فعلا بايغالها في التجريد وعسرها على من لم يألف علم اللغات . على أننا ننصح أولئك الذين يعرفون نحو اللغة الفرنسية أو نحو لغة أخرى ، أن يلقوا نظرة على كتب علم اللغة كيما ينقلوا الى من أوكلوا اليهم أمرهم هذا المفهوم الاساسي : في الكلام ترتيب ، ولا احد يخبط فيه خبطا . ولهذا الترتيب في سلسلة المنطوق صفة الكلية . وهذه الكلية هي بالضبط فضل كبير من أفضال نظرية دوسوسّور في علم اللغات . وان القاريء يدهش من كثرة ما يستعمل اميل بنفنيست[1] من اللغات البعيدة زمانا ومكانا في كتابه ، Problèmes de linguistique générale

---

(١) منشورات Gallimard .

فهو تارة يقارن لغة ميتــة اكتشفت حــديثا مثل التوخارية ، لغــة سينكيانغ في القرن الثاني عشر ، وطورا يتوسل بصيغ الليتوانية مثلما يفعل غالبا هيلمسلف فيقارنها بالقوطية والارلندية والارمنية • لكن الامثلة لا تنفرد بتوفيرهما اللغات الهندو-أوربية أو الأسيوية • فلغات اوقيانيا وأمريكا الهندية تقدم اما تكملة لسلاسل صوتية ناقصة فــي اللغات الاخرى ، واما تمازجــات أصيلة ، شواهــد على امكانــات تركتها الاسرة الهندو ـ أوربية • غير أن اسر اللغات الافريقية التي لم تستعمل بعد استعمالا كافيا ، على جانب كبير من الغنى • كرس هيلمسلف[1] لما يسميه « أسرة الباتتو » أربعة أسطر • لا نلومــه لكن هذا غير كاف حقا •

لنفكر بما ينطوي عليه هذا النقد : ينزع علم اللغات العــام ، في تأدية دوره ، الى اقتراح منظومات جاهزة • وهذا يعني أنــه بعد اكتشاف النماذج البنيوية يتحتم أن نلقاها ثانية في حقل لغوي مــا ، بحيث يكون نقص احد النماذج شذوذا • لنأخذ مثالا لا مــن علم الاصوات ولكن من الصيغ النحوية : يصادف دارس اللغة الروسية في تصريف الافعال تركيبا فعليا يسمى مظهرا وينقسم الى تــام وناقص حسبما يكون العمل الموصوف ناجزا أو جاريا • وهذا عينه موجود في الفرنسية : آكُلُ je mange ، « أنــا الآن آكــل » je suis en train de manger ، أفكر بذاتي وأنا آكــل je pense à moi en train de manger عندمــا آكل quand je mange ، عندما أفكر بما أعمله حين آكل quand je pense à ce que je fais en mangeant أنوي أن آكل je pense à manger ، أنا على وشك المباشرة بالاكل

---

(1) في كتابه : Le Langage اللسان ، ترجمه الى الفرنسية م. أولســن M. Olsen منشورات Minuit . ـ حول اللغات الافريقية تفضل قراءة كتاب جنفياف كالام جريول .
La parole chez lles Dogon, Gallimard.

je suis sur le point de manger، الآن انتهيت من الاكل je sors de manger ، أكاد آكل je mange à peine ، تماما ، آكل je justement, je mange وتعيّن اللغة الانكليزية بالصيغة التدرّجية forme progressive وباستعمال just , **to** ، الخ .. ، مظاهر مختلفة للفعل . وأكيد بوجه عام أننا نجد في كل حقل لغوي نفس الحضور ونفس الغياب. لنأخذ مثالا قويّ الدلالة نظرا لانتمائه الى حقلين بعيدين جدا : اللغة المجرية ولغة الـ ewé من افريقيا السوداء . كلتاهما تخلوان من فعل كان . هذا الغياب يكشف عن بنية الفعل وبنية الموجود معا . فيكون عمل اللغوي أن آتي بمثال عن فكر — وهنا عن اثنين — يعبر عن الناس والاشياء بدرجة من التعميم ، ولكن لا يمكن أن يعبر عن فكرةالوجود. فكيف لنا بترجمة **الوجود والعدم** الى المجرية ؟ [1] الخ ..

وهكذا يقودنا تنظيم اللغات الى مفهوم لدلالاتها اكثر انفتاحا . هذه المفارقة في علم اللغات البنيوي : انما تُفتحُ الاذهان باغلاق المنظومات ، تبدو لنا غريبة جدا وحقيقة جدا بالانتباه . أوَ ليس غريبا أنه كلما أغلقنا وأنهينا العقد في مجموعة من المعارف ، أثرنا انفتاحا في الثقافة ؟ مفارقة في الظاهر فقط . لان علم اللغات الذي كان يعنى **بواقع** الالفاظ **وتاريخها** كان يفتقر افتقارا غريبا الى التواصلات Communications . لا نجيز لانفسنا المنازعة في غير اختصاصنا ولكنا نذكّر وحسب بدهش شبيبتنا ، حين كنا نطرح الاسئلة على طلاب فقه اللغة الذين كان يفوتهم كل ما يخرج عن النطاق التاريخي والجغرافي « لشهادتهم في فقه اللغة » .

تلك المحتويات (الوضعية) المنفتحة على سلسلة تاريخية لا تنتهي ، كانت في الحقيقة تطرد كل معنى للعلاقة بين مجالاتمتساوية الشكل isomorphes ، بين بنى لغوية لها نفس الصورة . لا بل

---

(١) لا يرى العارفون باللغة المجرية هذا القول مصيبا (المترجم).

كان يبدو هذا عثرة فكرية : فالقول ان فعل الوجود بصيغة الحاضر غير موجود في المجرية كما في الـ ewé ، كان عند المؤرخ ، الذي يحلل ترابط الحوادث الى قبل وبعد ، بين علة ومعلول ، ليس يعني لا شيء فحسب ، بل كان عنده أيضا علامة على ذهن مغلوط .

ما كان أغرب عدم الثقة ذلك : اللغة ، هي الغنية في القول ، التي تعبر عن الكثير الكثير ، كان يحظّر عليها الكلام عمليا . ما كانت تسأل في ذاتها . وأخيرا جاءها دوسوسّور بتحرير حقيقي ، باخلاء السبيل . كانت التقابلات تقام حتى ثورة دوسوسّور بين الالفاظ والافعال . ثم لوحظ مذ ذاك أن الالفاظ هي أيضا أفعال . كانت قيمة اللسان قد انتقصت : words , words , words كلمات ،كلمات ، كلمات » ، هذا ما كانت تردده شرذمة دعاة الفعالية ، متقمصين هملت. لوحظ أن ليس لدينا سوى اللغة ، وأن هذا الواقع الانساني هو واقعنا النوعي الكاسح . وبعد أن باح بالسر أحد الخبثاء معلنا أن الرياضيات ليست سوى لغة جيدة الصنع ، عادوا الى اللغة يسألونها مثل ضمير الاب أوبو Ubu ، وقد حبست ظلما في الحقيبة الى ذلك الحين ، باقية رغم ذلك على جدارتها باسداء نصائح ممتازة . يكفي أن تعتبر اللغة « منظومة علامات وتناسق وحدات بينها مراتب »[1] . هذا الواقعة مثلا : أدخل الرومان الى بلاد الغال كلمة « قيصر » ، تتوارى امام العلاقة حيث تقل كثيرا مكانة وصول قيصر ؛ ويُلغى الزمان . وكتب بنفنيست أيضا عبارة اقرب الى مصادرة منهجية منها الى الواقع : « كل اللحظات الجوهرية في اللغة تتسم بطابع الانقطاع ، وتحرك وحدات متقطعة . لان وحدات متقطعة أي منفصلة بعضها عن بعض يصعب أن نجدها دائما وفي كل اللغات. لكن ما يثبت هنا ــ وهذا أساسي في البنيوية على الاطلاق ــ هو **مفهوم الفصل** . اللغةلاتوحّد

(١) بنفنيست ، ص ٢١ .

بل تضع فروقا • ويبلغ هذا المفهوم عند لاكان أقوى درجة له • لايكرر اللسان أبـدا نفس القول ، لانه يلعب داخل بنى متمفصلة يمكنها أن تنبجس على مستويات مختلفة ، بنى تتمتع بترسيمات للمعقولية كلية • بما أنه يوجد على صعيد البنية مستويات تصح في اللسان اطلاقا ، لم يعد للكلمة من نموذج جامد ،وأصبح كل كلام يغذي أولا نافيـا ما un non ، تحذيرا ، انكارا عميقا جدا : « لا أقول هذا •• » •

هذا مثال ألسست : يربأ بنفسه عن « قول ما يريد في الحقيقة أن يقوله » • وهو ما يسميه فرويد « « Verneinung » » :الانكار• اللسان يثبت وينفي معا مثلما تفعل الذات ، موضوع التحليل النفسي• وما ينفيه أكثر فائدة مما يثبته ، بقدر ما يكون النفي مجرد وضـع لمعنى « مقابل » ليس الا • الاثبات والنفي بمفهومهما الانعزالـي المتغطرس يستبدلهما علم العلاقات اللغوي Linguistique relationnelle بتقابلا ت: نعم / لا ، وحـدة / اختلاف ، تقابلات زوجية تتصور منفصلـة ومتداعيـة معـا • لعب المرايـا هـذا بالكلمـات يستعيده فوكو على أنه لعب بالكلمات والاشياء فيبين أن ليس للكلمات دائما نفس المعنى ، ما يؤول الى القول مع اللغويين الحاذقين بأن كل قول سلسلة من التغيرات الدالة انطلاقا من المواد اللغوية •

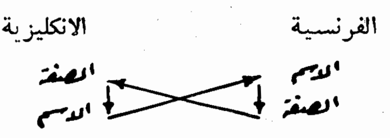
يحصي علم اللغات البنيوي محتوى هـذا الكنز محاولا وضـع جدول للنماذج • لفظ نموذج من أغنى الفاظ العلم الحديث • فـاذا ما عدنا الى النقاش الجوهري الـذي يثيره حول النموذج السيد أندره رينيه [1] André Régnier ، قلنـا معـه : « نموذج الموضوع المشخص هـو موضوع مجرد نضع لـه وصفا كي نصف الموضوع

---

(١) كتابـه : **مـآسي العقل** Les Infortunes de la raison مجموعة « Science ouverte » ، باريس ١٩٦٦ •

المشخص » . لكن هذا النموذج يمكن أن يكون عينيا أو اسميا ، أي شيئا أ وكلمة . اذا صنعت نموذجا لسطح بيت احصل على سطح مع قالبه . حتى النموذج التصميمي هو نموذج اجرائي : اذ لم يبق علي الا أن أجسده فأحصل على سطح وقالبه . ولكن اذا وضعت سطحا فهل أحصل برصف الكلام على سطح ؟ اورفيوس وحده يقدر على ذلك . هذي هي المسألة ، مسألة قديمة تقودنا شطر أفلاطون وديكارت وكنت . يميل السيد رينيه الى نظرية النماذج العينية لسبب واحد على الاقل هو انه : « اذا لم يُبِن لنا الواقع عما هو فانه يعرف جيدا أن يبين لنا في حينه عما ليس هو ويهدم الافكار الخاطئة التي نكوّنها عنه » (ص ٣٩) .

النموذج مفيد في الفيزاء وفي علم اللغات أيضا ؛ مثلا : حين نقصد تمثيل صيغة لعملية نحوية . ليس الامر تسلية : لنذكر الآلات المترجمة : يقوم مبدؤها بكامله على اطلاق وظيفتين نحويتين متوازيتين. في الفرنسية مثلا ، الغالب في استعمال النعت أن يتقدم على الاسم المنعوت ؛ وعكس ذلك في الانكليزية ، فتأتي من ثم دارة الصفات حسب النموذج التالي :



هذ نموذج يمكن استعماله .

اذن فالنماذج اللغوية تبين عن مستواها من التجريد والعمومية. وهذا هو سبب المشقة في الدراسات اللغوية . لكنه أيضا علامة على قيمتها العلمية . وأكثر ما تظهر هذه القيمة في دراسة أهم المعاني ومن بينها معنى السداد الذي يلعب دورا من المرتبة الاولى . فاذا قلت

مثلا أعطي درسي الساعة الثالثة ، فهذا اعلام دقيق • وكل منطوق آخر غير مقبول • والامر دوما هكذا من جهة المقول ، المنطوق ، المحتوى ، المكتوب • أعطي درسي الساعة الثالثة لا السادسة ، اليوم لا غدا ، أنا لا غيري ، هنا لا في موضع آخر • اذن قولي : اعطي درسي الساعة الثالثة ، ليس عدم سداد ، انه « سمة سديدة » • واذا قلت : ٤ × ٩ = ٣٦ ، فهذه أيضا سمة سديدة : لها معنى ، قول دقيق ، لا وسيلة أخرى للتعبير عنه ، سواء كتبته أرقاما لاتينية أم عربية أم بالبراي أو بالمورس أم بأصابعي •

على هذه التمفصلات الصوتية ، العددية ، الخ •• ترتكز البنية المجردة لمنطوقي •

مثال آخر : اذا قلت to be (انكليزية = الوجود) جاءت الصوامت ميزة للانكليزية ، فهي انفجارية • واذا قلت بالايطالية : tavola , tutto bene جاءت الصوامت أسنانية ومغلقة أكثر مما هي في الانكليزية • هذه كلها سمات صوتية سديدة •

اذا قلت : Vous n'avez pas la parole ليس الكلام لك أو ليس الدور لك Vous n'avez pas de rôle أتبين أن الفروق هي السديدة هنا ــ وبالعكس لا عمل للمشابهات سوى التضليل • نقف هنا على القانون الكبير : اللسان فرقي •

يشدد دوسوسّور على مرمى هذه القوانين اللغوية • انها في ذاتها مباديء انتظام ، ترتيبات • فالبنيوية كلها بحث عن هذا التنظيم لمجال ، مجال القول الذي لن تكون فصولنا المقبلة (في النقد الادبي وحول فوكو Foucault) سوى تدليل عليه • فالتزامن يصنع قوانين المجال من مطابقات وعلاقات ، في حين أن التزمن في اللغة هو الجريان التاريخي (كان هذا ثم صار هذا : كان في اللاتينية patrem - pater

ثـم padre - père ، الخ ..) . ويضيف دوسوسّور (ص ١٣٨)أن تزمن اللسان انما هو في الكلمة ، ويضيف شارحا هذا السر : « انما توجد في الكلمة بزرة كل التبدلات . فكل من هذه التبدلات يطلقه أولا عدد من الافراد ثم يشيع استعماله .

لنلخص مع دوسوسّور المظهرين الرئيسين لموضوع علم اللغات : « يهتم علم اللغات التزامني بالعلاقات المنطقية والنفسية التي تربط بين الحدود المتواجدة التي تشكل منظومة حسبما يدركها وعي جمعي واحد . أما علم اللغات التزمني فيدرس العلاقات التي تربط الحدود المتتالية التي لا يدركها وعي جمعي واحد ، والتي يقوم بعضها مقام بعض دون أن تشكل منظومة فيما بينها » .

لقد تجاوز كثيرا علم اللغات في هذه الايام الموقف الاساسي عند دوسوسّور . فلنلاحظ ، من بين الشواهد ، على أن « مدرسة » ألتوسير تنازع في الترسيمة : تزامن ـــ تزمن لانها لا تفيد عن بنى التاريخ عينها . سنكرس بعض الصفحات لفكرة كهذه ، دون أن ندعي الاتيان بشيء سوى « عرض للمسألة » . أما الآن وقد تنبهنا بحق الى أنه لا يجب في غير مجالات علم اللغات أن تستعمل بصورة آلية ترسيمة دوسوسّور ، فلنكتف باثبات ما صدّقه مر الزمان ، من ان هذه الاسس قد بعثت حقا في المجالات التي يسودها اللسان ، نهضة علم اللغات في عصرنا .

كانت مواقع كل من التزامن والتزمن غير قابلة للدفاع عنها علميا . هذا ما تبينه قضايا مدرسة براغ حوالي سنة ١٩٣٠ . أسهم في تلك الحلقة فرنسيون مثل مارتينه Martinet أو بنفنيست Benveniste وحتى فندريس Vendryes ، ولكن يظل أشهر الاسماء حاليا اسما جاكوبسن Jakobson وتروبتسكوي Trubetzkoj.

هوذا تلخيص مواقفهم : للغة هدف : أن تتيح الاتصال بين البشر • ولكن يجب علينا أن نكتفي بالحالة الحاضرة لمعارفنا ، حالة وحدها واقعية ، هذا الى أن الماضي يجب ألا يُفصل بقدر ما كان يريد دوسوسير عن حالة اللسان الحاضرة المتزامنة • ويعرض بنفست عرضا واضحا جدا الدرب الذي ينطلق من دوسوسّور ويبلغ قضايا البراغيين الراغبين في كتابه : مسائل في علم اللغات العام •

لكي نقدم كشفا عن تطور اللغات يجب التقيد خصوصا بطريقة هي : طريقة التشبيه • فالتشابيه تُظهر قوانين البنيوية من منظومة لغوية الى أخرى حتى حين لا قرابة بين الاثنتين ، وخصوصا حينئذ •

وعليه ، يجب الشروع بمهمة تقديم كشف عن كل لغة وعن علم اللغات عموما ، كأنها منظومة واحدة • هذا ما تستعيره كل البنيوية من علم اللغات •

يرى تروبتسكوي في اللغة ظاهرة عامة يمكن أن تتفرغ عنها علوم كثيرة كعلم الاصوات والصنعة الاسلوبية ، وذلك تبعا لوجهة النظر التي تتناول منها وظائف الصوت الثلاث ؟ فهي دراسة للتذكير (أو المناداة) أو الحضور أو الاستحضار • والوحدة الاولى في اللغة هي الصوت أو الوحدة الصائتة الدنيا التي لا ترتد الى غيرها وتحدد الاصوات حسب التقابلات (مفتوحة / مغلقة) أو حسب التضايفات • ظواهر التضايف الصوتية هذه تعطي نموذجا للتضايفات الدلالية ، التي تجد فيها الفلسفة والنقد والادبي ، كلاً بدوره ، نماذج المعقولية •

اذن ، كلما أقبلنا على دراسة ظواهر متقابلة أو مترابطة ، ألفينا تروبتسكوي ، منشئا للترسيمات البنيوية الحديثة • فمن الاستبدالات المميزة التي أدخلتها البنيوية اللغوية مفهوم التناوب alternance

بديلا عن مفهوم الانتقال passage • كان يقال مثلا : المصوّت النهائي اللاتيني a يصير في الفرنسية الـ e الصامت ، وأصبح يقال منذ بودوان ده كورتنه، سابق دوسوسّور وتروبتسكوي ، هناك في الاصل ظواهر متقاربة بالاشتقاق أو القوانين الصوتية ، **وهذه الظواهر تظهر بالتناوب** • يلزمنا أيضا التذكير بأن الصوت لا يتميز عن المعنى تميزا مطلقا ، رغم تذكير « مدرسة » دوسوسير المستمر بالطبيعة الاصطلاحية للدلالات في الوحدة الصائتة ، اذ نجد الصوت والاستحضار معا • ولكن جب ألا ننزلق في علم النفس فنقول أن المعنى يوسّع قصدا ، والا جعلنا للغة خلفية مثالية لا يمكن أن يقبلها العلم • هذا المعنى هو المقصود في القول بان البنيوية في اللغة تبدأ عهد استبعاد علم النفس• وسنجد هذا عند ليفي-شتروس ولاكان وفوكو وألتوسير متضمنا في صميم استبعاد الايديولوجيا والفلسفة من حيث تفرضان على تطور العلوم الانسانية مفهوما قريبا جدا من مفهوم « الوعي بوصفه انعكاسا عقليا » Conscience reflexive • فلا الوحدة الصائتة انعكاس شفوي ، ولا العلامة انعكاس تحريري لقصد أولي• انما تمثل الاصوات رموزا مادية وحسب ، مترابطة في سلسلة الكلام •

وعندما يحظى هذا الموقف بصياغة منطقية يكتسب خصبافلسفيا• فالمنطق يعزل الظاهرة وفي نفس الوقت يتساءل عن الشروط ولذا يسمى صوريا • يذكّر بروندال[1] Brondal بأن العلم أبان عن الروابط المعقولة القائمة داخل الموضوع المدروس • لكن بروندال أقل تأثيرا من « دانماركي » آخر هو هيلمسلف •

يقحمنا هذا الاخير في مسائل بنيوية • قلنا ان المسألة الصورية ومسألة شروط قيام اللسان متلازمان في البنيوية • هذا ما يبينه لنا

---

(١) عالم لغوي من مدرسة كوبنهاجن .

هيلمسلف في ما كتب [1] : « ••• ان استقصاء النماذج اللغوية واستنفادها أكبر مهمة تعرض لعلم اللغات وأهمها • قوامها أن تجيب على السؤال : ما هي البنى اللغوية الممكنة ولماذا هي ممكنة في حين يستحيل غيرها ؟ » •

لا يسعنا الا أن نهيب بالقاريء الى دراسة الصفحات الثماني عشرة التي تلي هذا التصريح في كتاب هيلمسلف ، لان العالم الكوبنهاغي الشهير يسهم اسهاما مرموقا في دراسة مسألة « المقولات »، تحت عنوان **نماذج البنى اللغوية** • بهذا الصدد يذكرنا بنفنيست أننا مدينون كثيرا لارسطو مع أن مقولاته هي فقط تفكير في اللغة الموضوعة تحت تصرفه (ما هو ؟ أين ؟ متى ؟ كيف ، الخ ••) •

ويذكّرنا هيلمسلف بأن المقولة هي «مجموعة المقادير الممكن ادخالها في موضع معين من السلسلة » (ص ١٢٩) • « نسمي نصا سلسلة لغوية تامة تخضع للتحليل » • « وكل نص يحلل حسب نموذج معين من العلاقات ، مما يتيح (ص ١٣٥) تحديد اللغة بأنها بنية تتبادل فيها عناصر كل مقولة فيما بينها » •

مثال : نأخذ في الانكليزية الاحرف f, l, s, p و a, o, u, i, ونأخذ السلسلة : pat, pot, put, pit, fit, lit, sit, pit ، التي توفر لنا اختبارات للتبادل • (يمكن في الفرنسية التلاعب بالتبادل : d, c, b ••• والمصوت u فنحصل على : du, cu, bu ••• تبادل من أغنى التبادلات بالوحدات الصائتة الدالة) •

يلاحظ هيلمسلف ممهدا لـ رولان بارت Roland Barthes أن تحديدا للغة كهذا يمكن تطبيقه على منظومات أخرى ، الملابس

---

(١) في كتابه : اللسان Le langage ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩

الموحدة مثلا ، والازياء الشعبية ، فيقال :

ثلاثة نجوم = نقيب

أزرق = طـيران

ويمكن التنويع :

أزرق + نجمة / أزرق + نجمتين ، الخ ..

لكن لا يمكن أن نعتبر لغات كل المنظومات التبـادلية عـلى هذا المنوال. «يجب في البنية كي تعتبر لغة ألا يرافق علامة الافتراض لافتراض المتبادل فيها بين المضمون والعبارة علاقة مماثلة بين كـل عنصر مـن مستوى ونظيره من المستوى الآخر » (ص ١٣٩ وهذه الجملة مشـدد عليها في النص) .

يرغب هيلمسلف في أن يقودنا الى نموذجية بنيوية حقيقية. وهذا يجبره على فحص نموذجية الاستعمالات اللغوية . فلا يرى هنا غير المصاعب ويلزمه استنفسار النموذجية البنيوية التي ذكرنا منذ قليـل منطلقها ، كيما يصل عبر دراسة **أحوال اللسان** الى دراسة التحولات . نأمل أن يُجعل في منال القراء الفرنسيين كتابه الصادر بالانكليزية : **مقدمات لنظرية في اللسان** .

اذ ان الانتاج الانكليزي كما قلنا ضخم في علم اللغات . ففي الانتاج الامريكي يلتقي علم اللغات بالاثنولوجيا ، حتى ان **المبسط في لغات الهنود الامريكيين** ، الذي أشرف عليه بواس Boas هو أسـاس النظرية البنيوية في الانطروبولوجيـا اللغوية ، الذي يستلهمه ليفي-شتروس كثيرا .

سابير Sapir وبلومفيلد Bloomfield عالمان ضخمان لا يعرفهما

يرى بلومفليد أن اللغة تملأ بالمعنى العضوي الفاصل بين المتكلم والمخاطب ، وأن تعقيد اللغة صادر رأسا عن تعقيد الجسم البشري لا عن روح اسطوري • هذي هي المرحلة الاولى عند بلومفيلد • ثم يعتنق تحت تـأثير[1] Weiss المذهب السلوكي فـي علم النفس • مـا هو المدلول بالنسبة للسان في علم لغة سلوكي ؟ نقلة الكلام هي التـي تخلق المدلول • نجد مفهوم « التغيرات الفرقية » في كل موضـع تقريبا • وتتصور دراسة هذه التغيرات الفرقية اقتفاء للكوكبات التي تخلقها اذ تتجمع زمرا وتجدد التجمع هذه التغيرات التي توعز الينا • حسبنا بهذا الصدد أن نلمح الى كتاب بنفنست ، **مسائل في علم اللغات العام** ، حيث نرى أجمل مقال (ص ٣٧٢)[2] يحيـل الـى مفهـوم **الايقـاع** الذي يتصوره الاغريق ترسيمة•••وحيث تؤوّل الفروق بين مدلولين بأنها صور ، هيئات (ص ٣٢٩) بمعنى الفلاسفة الماديـين أمثـال ديموقريطس ولوقيبس • لايقـاع هو : « الصورة المميزة ، ترتيب الاجزاء كلا واحدا » • حتى ان هذا المعنى وارد أيضا عنـد المأسويين الاغريق • ثم عرف فيما بعد بعدا زمنيا فدل على « هيئـة الحركات المرتبة في المدة » ، الوزن (بالمعنى الارسطاليسي) •

وهكذا يبرز من التفكير في معنى الالفاظ نزعة عامة في عـلم اللغات البنيوي •

لم يعد عمل العالم اللغوي يقوم على تخيل ذاتي لتحول رؤيـة الامواج الى ايقاع ، لكن « لفظ ايقاع rythmos ، لكونه يعني حرفيا نوعا خاصا من الانسياب ••• وُجد أخص لفظ لوصف وضعيـات أو

---

(١) علم اللغات وعلم النفس Linguistics and Psychology, 1925

(٢) مفهوم الايقاع في تعبيره اللغوي
La notion de rythme dans son expression linguistique

هيئات لا ثبات لها ولا ضرورة طبيعية ، حاصلة عن ترتيب يظل عرضة للتغير » (بنفنست نفس المرجع) • يبين لنا هذا النص بمثال ممتاز كيف تنظم اللغة مكانا وكيف يغور فيه الزمان نوعا ما • يجد علم اللغات مجاله السديد في تأمل النحو والدلالة ، وسنعطي فيما يلي فكرة عن هذين العلمين : العرف البنيوي وعلم الدلالات البنيوي •



الفصلُ الثّالِث

علم قواعد اللغة نفسه



مات علم القواعد التقليدي ولم يُعرف يومُ موته ولا ساعته . هرم جدا في هذه الايام الاخيرة وابتلي بأنه لم يعد يُفهم . حتى انه كان يوكل في بعض البلدان تدريس علم قواعـد تاريخي الى أناس لم يتعلموا ذلك التاريخ . يا للفوضى !

لقد بدأ يُفهم أن اللسان هو اناس يتكلمون وآخرون يستمعون. كم من ضرر سبب الاملاء ، يا للطريقة الغبية ! « يجب أن تعنى القواعد بالاصوات أولا وبعد ذلك فقط بالحروف »[١] .

لنبدأ مع يسبرسن بتمييز **صيغ وتعابير مرسلة** بارزة الاختلاف :

ـ الساعة السابعة توقّف (صيغة) .

ـ لا احب سياسة الـ C. I. A الاستخبارات الامريكية (تعبير مرسل « وكم هو طلق ») .

في هذا الاطلاق « يتطور الكلام بزيادة ألفاظ لا فائدة وظيفية منها . وتسمّى البنية في تحديدها هذا اطنابا . يقال مثلا في لغـة

---

(١) أوتويسبرسن ، فلسفة علم القواعـد Otto Jesperson, The philosophy of Grammar, London, Georges Allen & Unwin, 1924, 8e édition, 1963.

جنوبي فرنسة : « تأكلها أنت هـذه التفاحـة tu te la mange cette pomme » • ويسـتعملون أيضا المـاضي الزائـد التركيـب : « Je vous l'ai eu dit et redit » « قد قلته لك وكررت » • هذه وأمثالها اطنابات • بديهي أن الاطناب الجيد البناء يقوي التعبير • وعلم القواعد البنيوي يستبدل مفهوم السلامةالقواعديةوهو مفهوم كلاسيكي تماما ، بمفهوم اللغة الجيدة البناء ، بحيث يستطيع أن يرى لغة جميلة في الرياضيات كما في القانون المدني كما في الشعر • فيصير علم القواعد أولا منظومة هذا السداد • وينبه يسبرسن الى أن علم القواعد بهـذا المعنى غرضـه غـرض المعجم • (راجـع القواعـد والمعجـم ، Grammar and Dictionnary ، المرجـع المـذكور أعلاه ، ص ٣١ وما يلي) •

يقسم علم القواعد عادة الى صرف Morphologie (صورة الكلمات، صياغتها) ونحـو Syntaxe (ترتيب) • هذان القسمان باقيان لكن محتواهما يلقى تحويلا عميقا • يأخذ يسبرسن الصرف والنحو بدلالتهما الداخلية ويتابع البحث في المثال الذي ضربه لنا على تعقل القواعد • مما يثير اهتمامنا حالة الجمع ، فهو يضعها في القواعد بدلا من أن يدرسها بين الصيغ • هذا لان الصيغة والوظيفة متلازمتان • انه علم قواعد بنيوي يفترض اللسان واعيا • هنا تطرح مسألة الكلمات والاشياء « لبعض المقولات ••• علاقات واضحة بما نجده على صعيد الاشياء : فمقولة العـدد توافق التجزئة الموجـودة في العـالم الخارجي بـين « واحد » و « أكثر من واحد » (يسبرسن ، المرجع المذكور أعلاه ، ص ٥٤) • والزمان كذلك ••• انها حوادث تناقض في غنى تفصيلها رغبات تجريد قواعدي جميل • على أن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بوجود مقولات خارج نطاق علم اللغة تشبه المفاهيم وليست بعـد حوادث • يعنى نحو يانوس بالحوادث والمفاهيم • وعلى احسن حال

تصبح مقولات القواعد أعراض « شيء في ذاته » ؛ لكن علم القواعد باعتباره قواعد لا عهد له بشيء في ذاته مثلما جاء عند كنت .

يجب اذن تصنيف أجزاء القول فعلى أي أساس ؟ لن يكون ذلك على أساس الصيغة ، اذ يجب أن يعمل كل شيء عمله ، « الصيغة ، والوظيفة ، والمعنى » (ص ٦٠) . فيتصور يسبرسن نموذجين للبنية اللغوية : بنية تحتوي دائما معيارا صوريا محددا في كل صنف ، وأخرى لا تحتوي في أي صنف من الالفاظ مثل هذه العلامات الخارجية (ص ٦٠) . يلزمنا لتمييزها أن ننظر في ما يحدث فعلا عندما نتكلم .

الحياة الواقعية مشخصة واللسان مجرد حتما . يبحث اللسان عن عبارات سديدة حتى يُفهم . هذا مفهوم مشترك في علم اللغات بكل فروعه . وفي هذا المنظور يبين علم القواعد الدور التطوري للكلمة . كل اسم في هذا المنظور اسم علم . مثلا ، ما هو «الخاص»، الشخصي في قولي جان ؟ لا شيء سوى أن مخاطبا يتكلم عن جان (جان بول سارتر مثلا) ، وأن هذا حاضر . اذن ، فجان وتفاحة لهما من هذا القبيل نفس البنية . لاني اذا تكلمت عن جان أو عن هذه التفاحة أعرف ما المقصود . ولا يسع علم القواعد الا أن يقف في هذه الحالة على تعسف التسمية .

يؤول تحقيق يسبرسن الى اعتبار أن الاجزاء المنفصلة حقا في القول هي :

- الاسماء ؛
- الصفات التي يمكن تصنيفها بجملتها أسماء ؛
- الضمائر (+ الظروف العددية والضمائرية adverbes numéraux et pronominaux) ؛

ـ الافعـــال ؛

ـ وأخيرا الادوات (أدوات الجر ، الخ ..) .

في نظر يسبرسن ، هذا التقسيم يوافق العقل (ص ٩٢) . وفي دراسة هذه الصيغ المختلفة ُيظهر علم القواعد صعوبة التحديد لماهية الكلمة . زد أنه يحصر تضاربات النزعات وهذا يحمله تدريجا مـع تقدم العلم على مراجعة المصطلحات بقدر ما يتحول اللسان (ص ٣٤٢) . واذ يشدد يسبرسن على هذه التحولات وعلى فكرة « روح القواعد » ، تنتهي أول محاولة في سبيل علم قواعد جديد ، لا يمكن أن يعتبر هو أفضل نموذج له ولا الممثل الوحيد . ويسبرسن مثـل بلومفليد لا يمكن أن يعد بين البنيويين بقدر ما يستدعي عالِمَ النفس. وينفصل كذلك عن البنيوية بفلسفته الانسانية التي نجد شاهدا عليها فـي كتـــابـــه : Mankind, nation and individual from a linguistic point of view (البشرية ، الامة ، الفرد من زاوية عـلم اللغات) ، شاهدا جاذبا ، لكنه قلما يوافق البنيوية بالمعنى الخاص .

كيما نسترسل فـي تحليل بنيوي يلزمنا مثـال لغوي دقيق . الفرنسية أسهل منالا علينا . أية فرنسية ؟ لغـة المدينة والكتّـاب ، وقصارى القول ، لغة معجم روبير ، مهما يكن نقص هذا الاثر الجميل. يلزمنا اذن أن ندرس فرنسية أكبر عدد مـن الافراد ، وهـذه فرنسية وسط . نذكّر في هذا المقام بأنه يجب دراسة ما وراء هذه الفرنسية الوسط ، فرنسية المناطق واللغات المحلية أيضا ، وهذه شواهد أحيانا على ثقافات قومية[1] (مثل الكتالونيـة والبروتانية ولهجـة O C والباسكية) . لكننا ، كيما نستخلص قاعدة ، قانونا هو أعم القوانين،

---

(١) راجع :
Robert Lafont, La Révolution régionaliste,Gallimard, 1966.

نعتبر الفرنسية اللغة الناقلة (والادبية) لاكبر عدد ممكن من المواطنين في المضلع السداسي • تقدم لنا اللغة في حدّها هذا مدونة سارية في هذه اللحظة من الزمن الذي تتكلم عنه •

يستعير السيد دوبوا [1] من ز• هاريس Z. Harris طريقته التوزيعية التي « ترمي في صلبها الى وصف عناصر اللغة بقابليتها للتآلف » (ص ٦) •

ومنه ثلاثة مبادىء :

١ ـ يجب أن تعتبر اللغة « جسما » تاما متجانسا ، لا يمس •

٢ ـ لا تستعمل المعاني بل الصيغ التي تشكل المدونة الواجب « فك رموزها » •

٣ ـ تحليل تلاصقي Analyse syntagmatique ، وهو « وصف العناصر بوضعها في سلسلة الكلام » (ص ٧) •

يؤول هذا الى دراسة محيط مقطع لغوي l'environnement d'un ségment linguistique •

ويذكرنا السيد دوبوا بأن مثل هذه المبادىء كان مفروضا أن تؤدي الى لقاء لا مفر منه ومرغوب ، بين التحليل البنيوي ونظرية التواصل • لنستعر منه تفسيره وهو آية في الوضوح شأن مؤلّفه بالكامل ، مؤلف من أفضل وأمتن ما استطعنا دراسته •

(التواصل) « يفترض مرسلا ومستقبلا ، وعمليتين معقدتين لا متناظرتين هما عمليتا الترميز وفك الرموز » • الترميز يمثل المتكلم وفك الرموز المؤوّل • وهكذا تستعار ترسيمات الآلات الالكترونية وبرامجها ، ومسجلاتها ، الخ •• والتواصل يعرقله الضجيج

(١) Jean Dubois, Grammaire structurale du français, collection « Langue et langage », Larousse, 1965.

فيلزمه حتى يصلح ان يدخل الاطناب • ولذا آثرنا في هذا الكتاب أن نكرر المواضيع البنيوية محاولين ايصالها في كل مرة ، بحيث ان استمرارها ورجوعها (الاطناب) يزيل **الضجيج** (شرود الفكر الاضطراري عند المستقبل) • فيصبح الاطناب جوهريا • مثلا لا يسمع في أيامنا بين الناس المنهمكين الا انصاف الكلمات • فيستعملون لتدارك الامر ضعف ما يلزم من الكلمات كأن يقال : تفهمني جيدا كل الفهم • هذا اطناب ثقيل وخطأ انشائي جسيم لكن المخاطَب يفهم جيدا مدلوله • يبدو لي أن الاطناب من هذا القبيل يمثل عالمًا تتحدث فيه بهاتفين يقبضهما ذراع صنعية وتقرأ في نفس الآن على شاشة مبرقة كاتبة téléscripteur التلعيمات الاخيرة ، مع أنك تتصفح اضبارة قبل توقيعها ، مستعرضا عدا ذلك بنظرة خاطفة الملاحظات التي تعرضها عليك أمينة السر قبل أن تدخل الزائر المقبل• انالانسان «النشيط» الذي يجني الوهن العصبي dépression nerveuse يستهلك ويستهلك الالفاظ ، يبليها ، يحرقها ••••ويضيع •

المقصود هو تقديم البنى الاساسية لحضارة معرضة ، مع اضاعة الالفاظ ، لفقد الاشياء • والحال أن ما يتبين في علم القواعد البنيوي ، مثل قواعد دوبوا ، هو ابراز عامل جوهري : العدد • ليس في الفرنسية غير المفرد والجمع • بفضل هذه البنية المثنوية حيث يتضايف اللفظان ، يلتقي علم القواعد بالاعلامية l'informatique • فيذهب الى تمييز نمطين قواعديين تبعا لعدد المقاطع والمركّبات العاملة • بين المدونة المحكية والمكتوبة فروق : فكلمة « ils mangent » تتضمن علامتين للجمع كتابة ، أما لفظا فيستوي فيها المفرد والجمع • المنظومتان الكتابية واللفظية مستقلتان نسبيا وغير متماثلتين في سير عملهما • اجمالا ، تتضمن اللغة المكتوبة علامات عددية أكثر من اللغة المحكية (راجع دوبوا ص ٢١) •

واللغة المحكية أقل عهدا من المكتوبة بفواصل الالفاظ (فالبياضات في نصي هذا تشكل علامات اطناب حقيقية) • الجملة هي التي توزع العلامات ، لا اللفظ •

مما يفضي بنا الى مفهوم المصادفة Occurrence : فعلم القواعد البنيوي يسترشد بجداول تشير الى احتمالات : متى يرد الجمع حتما ؟ فيدرس ألوفا من الجمل والكتاب الجيدين أيضا، وممن يستشهد بهم ليتره Littré ، كما يدرس كتاب غرفيس Grévisse حسن الاستعمال Le Bon Usage • وتدرس أيضا الابدالات Commutations • مثلا يمكن أن يشار الى الجمع بـ « اسم عدد » (اثنين ، ثلاثة ••) أو بـ : بعض ، عدد من ، الخ •• « في عبارة اسمية تحتوي أداة تعريف يقوى جدا احتمال العثور على اللفظ المعلّم » (دوبوا ص ٢٣) • أما اذا درسنا الاسماء بدلا من أدوات التعريف فيضعف احتمال العثور على العلامة • ٥٠ كلمة فقط ، مقابل ٢٥٠٠٠ تقريبا ، يختلف لفظها في الجمع • أما الافعال فالامثلة فيها وافرة •

يتبين هكذا أن دراسة العدد حسابُ توزيع وأنها تحمل الطابع الرياضي لهذا الحساب • فكلما تكررت العلامة في جملة سهل فهم ما يسمى المطابقة في علم القواعد التقليدي • المطابقة هنا هي التماسك في توزيع العلامة •

ثم يدرس أنظمة ذلك وهي معقدة ، اذ يدرس كل صنف من الالفاظ حسب النظام الداخلي لعلامته المميزة • الالفاظ الاكثر سدادا هي التي لا تنحط فيها العلامة (cheval جمعها **chevaux**) • انها قلة • ومن العلامات ما ينجم عن تراصف صياغات مختلفة (bétail جمعها bestiaux) • وأدوات التعريف(articles, etc.) تفعل في علامات الاسماء : يقول اهل ليون zenfants (تفاعل بين أداة التعريف

والاسم ، تفاعـل غير مرسوم معـا في اللغة المحكية ، لكون enfant لفظة محايدة صوتيا) • وهنا نجدنا امام منظومة تعويضات (راجع ص ٥١) ، « منظومات تنسيق تموّه عطالة اللغة » •

نكتشف من مثال العدد فقط أن التحليل البنيوي للقواعد يتطلب استعادة كل المفاهيم وتجديدها • اذا فهم القاريء نهج السيد دوبوا ، هذا اذا لم نزد في ظلمة ذلك البنيان المعقد والزاخر الذي يكاد رغم تعقيده وغناه أن يكون هوائيا ، فسيلاحظ أن التربية قد تجني فائدة من هذا الترتيب للبنى القواعدية • وفعلا يقترح علم القواعد البنيوي حصائله بمثابة منظومة تصبح مسلّمة قبلية اذا تعلمها المعلّم لا يعود يضيع في مجاهل ماض فقهي يمتنع على طالبيه •

الانتظام القواعدي يتيح توضيحا ليس من باب الملخصات التربوية الكاذبة • والاذهان الفتية تستفيد من الوضوح والإحكام •

لا نبتدع شيئا اذ لدينا كتب ، منها اثنان يشركاننا بالجهود المبذولة في هذا الاتجاه • وكان طبيعيا أن يهتم مدرسو الفرنسية في الخارج بهذه المسائل • فقد نشر السيد فرانسوا ركيدا[١] François Réquédat حول التمارين البنيوية مؤلفا صغيرا ، له الفضل على الاقل في أنـه يعرض علينا نظرية بنيوية على مستوى البحث التربوي • وتضيء هذه الروح التربوية بدورها مجمل الاتجاهات الانسانية في البنيوية ؛ ان ليفي-شتروس ، كما يقال بحق ، يقـدم لنا من خلال مؤلفاته وقـع نظر الغريب علينا•وعندما ينقل الينا مارسيل غريول[٢] Marcel Griaule بصفته عالم اثنولوجيا ، القصص العجيب الذي سـرده أوغوتاملّي

---

(١) Les exercices structuranx, collection « LeFrançais dans le monde », Hachette - Larousse.

(٢) Dieu d'eau, Edition du Chêne, 1947. Réédition Arthème Fayard 1967.

Ogotêmmeli عن خلق العالم ، نشعر بنظر الآخر يثقل على حضارتنا • وكذلك يطرح السيد ركدا مسألة الفرنسية كلغة أجنبية : حين يخاطبنا أجنبي أبعد ما يكون عن التزمت الجاف بـ : « ton père il lui a dit de partir » ، ألا ينورنا في الواقع **بلغتنا الحقيقية** (تلك التي كنا نحكيها صغارا في مناقشات حرة لا تتوقف ، بعيدا عن ضغط المعلمين) ؟ ثم ان الاجنبي يجهل ، ويحق له ، ما اذا كان الاسم مذكرا أو مؤنثا • انه يعيد الينا اللغة وقد أعاد اليها حيويتها •

ثم نجد أشياء معروفة من قبل مثل أن القاعدة في تعليم الفرنسية كلغة أجنبية ، هي الاستعمال • ويعمد السيد ركدا الى ترسيمة للعدد هي نفس تلك التي يعمد اليها السيد دوبوا • لكنه يشدد أكثر منه على مسألة أساسية في علم النفس التربوي : الدافع : La motivation

في عدد خاص من مجلة : Français dans le monde [1] ، تمارين بنيوية تعقب مقالا لـ بيير دولاتر Pierre de Lattre ، غاية فى الوضوح، يـذكر **بمفهوم البنية وفائدته** ويشدد على علاقة الصف بالمخبر • من هذه التمارين : التكرار بدلا من شرح القواعد ؛ استبدال مقاطع ضمن خانات ، داخل جمل ، تنويعا للمحتوى الدلالي داخل بنية واحدة (جنفييف دولاتر Geneviève de Lattre) ؛ تدرج متعدد الاقسام ، الخ ••

ويقترح السيد فالدمن Valdman من جهته دراسة التناوبات ، والمرتسمات الصوتية ، والقواعد التوليدية والتحويلية وسيلة لايضاح التدرج التربوي في التمارين ذات البنى • ويبين لنا السيد ليون Léon من جامعة تورنتو Toronto كيف يُلقّن التلفظ ، سواء دُرس وفق

(١) عدد حزيران ١٩٦٦ نشر Hachette - Larousse • لن نبالغ مهما نصحنا حتى الفلاسفة بمباشرة البنيوية من هذا الكتاب رغم صغره .

محور أفقي أم تدرجا مع محور عمودي ، غير ناسين أبدا أن نظهر النبر على التقابلات (بين الصوامت أو بين الحروف الصوتية) • نلفت الانتباه هنا الى أهمية مدرسة بزانسون في علم اللغات ، اذ ينتمي اليها العديد من علماء القواعد المجلّين امثال جان بيتار Jean Peytard و م• ليون M. Léon •

تمارين بنيوية بلا معلمين (Th. Mueller) أو انطلاقا من نص أدبي (Micheline Dufour) ؛ مفردات وتمارين معجمية (P. D. Eddy) ؛ بنى قواعدية شفوية (S. Belasco) ، كل هذا النتاج الذي نود أن يُعرف جيدا ، يبين لنا أنه يمكن مقاربة البنيوية بالممارسة العملية • طريقة جد مقبولة في نظرنا قد تكمل بكثير من التوفيق مفاتيحنا ، كتابنا هذا المتواضع • لكن هذه المطبوعات تبين في ما تبين أن الفكر المنفتح في عصرنا يتم اعداد قسم كبير منه خارج فرنسة (أليست بزانسون مدينة اسبانية قديمة ؟) •

هذا يطرح مسألة صغيرة ، وهي في الواقع كبيرة جدا ، مسألة علم اجتماع الثقافة • فالكثير الكثير من المجددين يعيشون عيشة المنفيين وهم داخل البلاد ، هذا اذا لم يُضطروا الى الهجرة • ولكن هل المسألة فرنسية في نوعها ؟ لنقل ان النزعات التجميدية في كل جامعة توسع هذه الظاهرة فيظل العديد من الباحثين والمجددين والمعلمين هامشيين • كثير منهم في معهد الدراسات العليا Ecoles des Hautes Etudes ، وهذا يلعب بالنسبة لـ الجامعة (الكليات التقليدية) نفس الدور الذي كان يلعبه الـ Collège de France ازاء الـ Sorbonne في عهد فرنسوا الاول • دع أن ذلك لوحظ أثناء المشادة حول « النقد الجديد » ، التي سنحرك في بعض الفصول رمادها الحار • على أننا سنعكس مسالكنا أولا فنهتم مع علم الدلالات بمسألة بنى المدلول •

الفصل الرّابع

العلامات والإشارات وعلم الدّلالات



يرى هملت شبح والده على السطح • فماذا يعمل الشبح أولا ؟ يشير الى هملت (Ghost beckons Hamlet) • ثم ماذا ؟ يتكلم •

إذا كان اللسان علامة فليست كل علامة لسانا • كيف نميز ذلك ؟ بعلم الدلالات • لكن علم الدلالات يصل متأخرا جدا ، لانه قبل دراسة العلامات كُتب تاريخ الدلالات المختلفة للكلمة الواحدة ، ثم درست الاصوات ، خصوصا وان العاب الصيغ قد أثارت الدهشة •

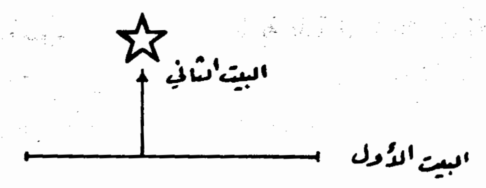
كان دوسوسّور قد اقترح نظرية عامة في العلامات ألا وهي علم العلامات • وفي نفس الحقبة كان بافلوف وهو يُعد نظرية المنعكاسات الشرطية ، يقيم الدليل على انه يوجد في الانسان علاوة على المنظومة الاشارية الاولى » التي يسهل تحليلها ، « منظومة اشارية ثانية » هي اللسان[1] • ويبحث كوسنيه Cosnier في أعماله عن مسلك مشترك بين اللسان والعلامة • تصبح المسألة دقيقة وبالتالي شيقة بقدر ما يصير كل شيء دلالة ، لان كل شيء على صعيد الحياة الانسانية قابل أن يمر بادراكنا• بهذا المعنىفقط لا تختلف علاماتدوسوسّور اختلافا أساسيا

(١) اقرأ بهذا الصدد :
Quentin Ritzen, Les nervures de l'Etre, Edit. Rencontre.

عن علم الدلالات اللغوي• وصف المدلولات كما يصفها ليفي-شتروس هو اطراح الصياغة العقلية المحضة من اجل دراسة مواقف الحساسية أيضا•فلفظ **نيء ومطبوخ** يمكن وصفهما وصفا عقليا ويحملان بنفس الوقت حركات (اذا فكرت وأنا أكتب في الساعة ٣٠ د ١١ س باللحم المطبوخ يحصل لي مثلما يحصل لكلاب بافلوف : يسيـــل لعابي) ؛ واحساسات (في السينما يسيل زيت الفاصولياء الخضـــراء مـــاركة Lesueur ، الصافي تماما ، كأنه عسل على مرأى الناظر المستمتع) • يستعان اذن في علم الدلالات بمفاهيم كيفية • مثلا ، لشرح هـــذين البيتين لـ لامرتين ، وهما بيتان لا بأس بهما في الواقع :

هناك البحيرة الساكنة تبسط مياهها النائمة
حيث ترتفع نجمـــة المساء في زرقة السماء

يـمثّـل لهما بخطين : افقي للبيت الاول وعمودي للثاني ، وتوسم من ثم دلالة هذين البيتين بالترسيمة : أفقية ــ عمودية وهذان اللفظان يمثلان مفهومين كيفيّين[١] •



هذه المفاهيم مثل غيرها في الإحكام • اذ ليس المقصود ادخال مجموعة تابعة ، لها دلالتها في مجموعة ما تابعة ، قابلة للابدال • الكلام بهذا المعنى عن بناء رقصة لا يعني شيئا • فقـــد نظرت مرة وأنا فـــي

(١) علم العلامات هذا العبقري لم آخذه عن رولان بارت ، الذي لا يتنكر له ، بل عن استاذي السيد فيدال في الادب الفرنسي في الصف الاول الثانوي سنة ١٩٤٢ . وتعلمتأشياء كثيرةفي معهد جراسGrasse .

العشرين من عمري الى كنيسة باره لمونيال Paray-le-Monial وخطر لي في الحال معزوفة فوغ fugue لـ باخ ؛ ثم شاهدت منذ ذلك الحين كثيرا من الكنائس الرومانية وسمعت بعض فوغات لـ باخ وأرى الآن أن دلالات باره لمونيال لا تطابق في البنية دلالات الفوغ بلحن ré mineur • لذلك لا يصمد مثلا ما كتبه باريس Barrès عن عرافة أوكسر Auxerre ، أمام تأمل هذه العرافة ، في حين أن ما يكتبه بارت أوليفي – شتروس من تحليل لاحد تفاصيل اللباس (راجع وصف Clouet في كتاب : **الفكر المتوحش**) يصمد في وجه التشبيه •

أما اذا اتجهت شطر حقل دلالي آخر ، حقل اللغات ، فتختلف المسألة كل الاختلاف • سندع جانبا مسائل الصمت في اللسان دون أن ننسى أهميتها الكبيرة ، الصمت من حيث هو لسان (لا من حيث هو فراغ) ، الصمت حالة الصفر من اللسان (The rest is silence) أو موقف جدي • وقد درس بريس باران Brice Parain هذا الموقف الاخير دراسة رائعة في كتاب لم تتمكن للاسف من العثور عليه في منطقتنا[1] كيما نستشهد به بصورة صحيحة ، كتاب لا تزال ذكراه تلاحقنا منذ أكثر من عشرين عاما• وقصةموت جان مادك لـ بريس باران: La Mort de Jean Madec ، تبرز بنفس الطريقة ، بفضل وجه للفلاح يثير الاعجاب ، والموت الحاضر في كل مكان ، احدى حالات الصمت تلك التي هي للسان مثل المدخل الجميل للموسيقى •

ليس هذا الصمت فراغا ، ليس ثغرة في الوجود بل هو الملء البنيوي لـ **أنا** يملأ عنده حضور الشخص الفرجة بين الالفاظ والاشياء والغير • لا ينفي اللسان بل يهيئه بنفس الدلالات أو على الاقل بنفس

(١) Recherches sur la nature et les fonctions du langage, Bibliothèque des idées, Gallimard

العلامات . فيمكن اعتبار اللغة ، لو تجرأنا على وضع هـذه الاستعارة بمثابة مدرج طيران تقلع عنه سلاسل دالة متنوعة . ولكن يجب ألا نعتبر اللغة علامة على الاشياء ، فهي انما توسع في ذاتها علاماتها الخاصة أي علم الدلالات . كل ما بقي هو تحليق ، ايديولوجيا ، وقد يكون فلسفة .

تعادل دراسة اللغة في علم اللغات الثورة التي أدخلها دوركايم في علم الاجتماع حين نادى بطريقة تعالج الحوادث الاجتماعية معالجـة الاشياء . يلزمنا كما علمنا علماء القواعد أن ندخل على علم الدلالات طرائق احصائية وحسابا للتوزيعات (حسابا علميا) ، مستعدين بعـد ذلك لادخال دراسة التنوعات الفرقية الدقيقة ، عن سبيل علم دلالات لا متناه في الصغر .

أول مهمة لعلم الدلالات البنيوي هي أن يعمد الى ما هو أكثـر مباشرة ، الى البنى الاولية ، بنى لا تكون « مفاهيم ارجاعية » ،شبيهة بتلك القوانين الابتدائية التي كان يهدف علم اللغات التاريخي ان يعيد اليها الدلالات . لان اللغة تتألف من ألفاظ متناقضة لا اتصال فيها : فـ نعم/لا لا تتضمن انتقالا بل تقابلا (خصبا) . منفصل هو النسيج اللغوي شأن المقومات الاولية (الجزيئات) في الفيزياء الذرية . فاذا قلت : الموت ، كان قولي مبهما ؛ واذا قلت : البحر فهذا أيضا عام ؛ أما اذا قلت مع غي شامبلان : **الموت البحر** [1] فاني أبني تقابلا مؤديا لان الانفصال يدرك فيه تقابلا وارتباطا معا .

لنقل ان كل علم دلالات يبدأ من مفهوم الكشف révélation الذي يوحّد ويميّز . انه ، هذه المرة أيضا ، موقف ارسطاليسي ، لكنه اكتسب حركة . ليس مجال الدوالّ حقلا ساكنا ، جدولا . فالبنيـة الدلالية الاولية حركية لان العلاقة تربط وتفصل معا . المقصود هـو

---

(1) Au pont de l'épée, 1967

تعيين محاور العلامات وتمفصلاتها • هذا ما يسميه جاكوبسون ملامح des traits • وهذا أيضا ما يوجهنا نحو تخطي التقابل الظواهري بين الدال والمدلول كما يبينه أ• غريماس[1] • يقول السيد غريماس ان العلاقة تنطبق في النهاية ومفهوم البنية نفسه • وربما وجب هنا أن نتطلع صوب هاملان ذلك المنسي • ولكن قد نثير حفيظة الفلاسفة اذا تطرقنا الى حدودهم • بيد أننا سنجيز لانفسنا ملاحظة : يرى السيد غريماس أننا نظل هكذا على صعيد « الفينومينولوجيا » (ص ٢٧) • في الحقيقة ، يقف السيد غريماس ، حسب اعترافه هو ، من جهة رسّل والوضعية الجديدة لا من جهة الفينومينولوجيا الهوسرلية • هذه الاحالات قد تفيد في المناقشات التي سنعيدها باختصار بنهاية هذا الفصل حول مسائل الدلالة • لنلخص هذا التمرين على الاحالات ونقل مع السيد غريماس ان « الكيفيات تحدد الاشياء » • يعني هذا بتعابير لغوية أن « اللفظ موضوع » علم الدلالات يحد بأنه مجموعة جسيمات صوتية sèmes ، د ١ ــ د ٢ ــ د ٣ ، الخ •• ومن ثم يدعى هذا « اللفظ – الموضوع » جسما مفرديا un lexême ، ولا « يشكل جزءا من البنية الاولية »[1] •

يلزم عن ذلك حد جديد للبنية : انها « حال وجود الدلالة تميزه العلاقة المتمفصلة بين وحدتين دلاليّتين » •

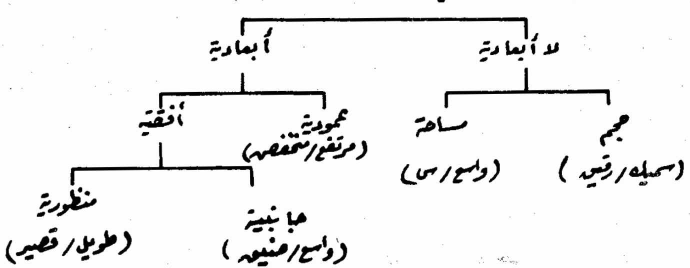
وان أردنا مثالا عما تسديه لنا دراسة المقالة من حيث تمفصلاتها الدلالية يقترح علينا السيد غريماس التحليل التالي لدلالات المكانية • نعرضه لانه يمكن أن يوضح طريقة علوم أخرى ، وأن يوضح ايضا مفاهيم تتضمن مقالة شخص مثل رولان بارت •

---

(١) A. J. Greimas, Sémantique structurale, p. 26, collection « Langue et langage », Larousse. مؤلف جوهري وواضح .

(٢) المؤلف المذكور بالثناء ص ٢٧ .





هذي هي في اول مقاربة الجسيمات الصوتية للمكانية (غريماس، علم الدلالات البنيوي Sémantique structurale ص ٣٣) • هكـذا يتوصل علم الدلالات البنيوي الى تبيان التنظيم في مجال اللسان •

لقد حان أن نحدد اين صرنا من موضوع كبير الاهمية • لنذكّر أولا بأنه ليس كل علم لغة بنيويا بالضرورة • ثم ان بعض المسائل ومنها مسألة أصل الكلمات لا تُحلّ الا مـن زاوية تكوينية • قـد يقول معترض : الوجهة التكوينية هي التي اوجدت مسألة أصل الكلمات • فنرد بـأن المسائل التابعـة للتطور إن وجب فيهـا ألا تغشّي في وقت ما وجود مجموعة قابلة للتحليل ، فانها رغم ذلك لايمكن حذفها أبدا • قد يأتي التزامن من حيث الطريقة بحصائل تفوق دراسة التزمن لكنها لن تستطيع حصر الحـوادث الا ما ندر « facts are stubborn الحوادث جوامح » • وبتعبير آخر : لا يغني التواجد عن التتابع لكنهما يتراصفان عموديا •

هذا بشأن الطريقة • على أن هذه المسائل توجد أيضا في مجالات غير مجال اللسان •

أما المحتوى فنطرح بشأنه هذا السؤال : هل نستطيع أن نستجلي في علم اللغات نزعات أخرى تحد من البنيوية فتمنعها من أن تصبح

ايديولوجيا من غير ان تتنكرها ؟ أجل ، مثل هذه النزعات عديد • فقد صدر عن دار غاليمار في مجموعة « ديوجين Diogène » مؤلف يعرض الموقف بعنوان Problèmes du langage [1] مسائل اللسان ، يبين أن المسألة ما تزال مفتوحة على مصراعيها • اذا استشف علم اللغات امكان انشاء منظومة من حصائله ، فانه لا يقوى على الانغلاق •

في هذه المجموعة يربط بنفنست اللسان بالخبرة الانسانية ، ويذكرنا أن « كل انسان يضع ذاته في فرديته على أنه **أنا** نسبة الى **أنت** و **هو** » .

هذي هي بنية التقابل الحقيقية في المقالة (ص ٣) • وتبدي لنا هذه البنية كل تعقيدها في تحليل **أزمنة الفعل** : زمن العالم ، وزمن التقويم ، وزمننا نحن ، فتدخل منظومة جديدة من الاحالات ، تعطي الزمن اللغوي نوعا من الاصالة • الزمن الوحيد في المقالة هو الحاضر ثم ينقسم هذا الزمن ضمن نوعه الخاص • فيصير لعالم الذوات l'intersubjectivité زمانه الخاص وحدوده وابعاده •• » (ص ١٣)• ويحيل اللسان الى عملية مبادلة • فنستشف أن بنى التحول الرياضي وحدها لن تستنفد هذه العمليات • فما هي منذئذ ثوابت النظرية اللغوية؟ يحللها تُوام تشومسكي ويعيد المكانة الى عوامل قلما كانت تتدخل في البنيوية الاولى التي شاعت زمنا ثم بطلت • يبرز شومسكي واقعا هاما جدا : اللسان **خلاق** • ما كنا نكف عن التعليق على هذا التنبيه لو لم يكن بين يدينا نص بديع يواصل فكر تشومسكي ، ألا وهو رسالة بول ريكور الى المؤتمر : Esprit (كانون الاول ١٩٦٦) وقد نشرت

---

(١) مؤلف من نصوص لاشهر الاسماء :

E. Benveniste, Noam Chomsky, Roman Jakobson, André Martinet, Jerzy Kurylowicz, Ian Fonagy, E. Bach, S. K. Saumjan, A. Schaff, Maurice Leroy, A. Sommerfelt et G-C. Pande (1966).

فـــي مجلة : Esprit [١] • نص أساسي للغاية • بيد أنه ليس لزامـــا علينا اقتفاء خطا ريكور في ربوع هوسرل وهيدجر حيث يقودنا • لان ريكور يتمتع بفضيلة النزاهة الفكرية هذه : انه عند الانعطاف ، حين ينتقل في تحليله الى مستوى آخر ، يترك تلميذه يقف حيث يريد أن يتبع دربا آخر • يرى ريكور أن تشومسكي بفضل بحثه في مفهوم « علم قواعد توليدي » قد أحرز لعلم اللغـــات تقدمـــا بـــاهرا [٢] • فالبنيوية الاولى كانت مشغوفة بقوانين وقواعد التصنيف • أما بنيوية البنيوية تشومسكي فـ « تنطلق رأسا من الجملة ومن المسألة التي يطرحها انشاء جمل جديدة » •

يتتبع المراقب في هذه المسائل نفس التطور الذي عرف للمسائل الانسانية التي طرحها طغيان الآلة • اذ انهم فـــي مرحلة أولى فككوا أشغال الانسان حركات أولية الى حد الحصول على عناصر عمل صغيرة « مفتتة »• كان جورج فريدمن يذكّرنا منذ عهد قريب[٣] أنه صنعت لمقاومة هذه النزعة الذرية المتعقلنة آلات تستدعي ادراكات وتحركات اجمالية منظمة • وكذلك تنتمي الطريقة التي تعتمد على الجملة في علم اللغات الى هذه الحركة المناهضة للتجزيء • والمعلم أيضا يتبع نفس النهج عندما يعلم القراءة الاجمالية بدلا من التعليم الهجائي • ويورد ريكور هذا النص[٤] لـ تشومسكي : « الحادث الاساسي الذي يجب أن ينصب عليه كل علم لغة ذي دلالة هو هذا : يستطيع متكلم متمرس أن

---

(١) عدد ٥ أيار ١٩٦٧ ص ٨٠١ – ٨٢١ •

(٢) راجع تشومسكي •
Chomsky, Syntactic Structures, Mouton, 1964.

(٣) Le travail en miettes, Gallimard

(٤) Current issues in linguistic theory, p.p. 7 - 8, Mouton, 1964

ينشيء في لغته جملة جديدة في الوقت المناسب ، ويستطيع سامعوه أن يفهموها مباشرة رغم كونها مستحدثة . القسم الاعظم من خبرتنا اللغوية ، متكلمين كنا أو مخاطبين ، يمت بصلة الى جمل جديدة ... وبيّن أن نظرية في اللغة تهمل هذا الوجه « الخلاق » لا تفيد الا فائدة هامشية » .

يوجد اذن بنية حركية لتوليد الجمل تشبهما يسميه كنت الترسيمة الحركية .

يرى ريكور أن هذا التصور يستطيع استيعاب البنيوية القديمة. اذ ان البنى المتزامنة في اللغة تستطيع أن تصمد فيه ، تتولى مسؤوليتها الجملة التي هي ترسيمتها الحركية . يستطيع القاريء الفرنسي كيما يتصور شيئا عن خصب هذه الاتجاهات أن يراجع مقالا عنوانه : La grammaire générative de N. Ruwet [1] يوسع فيه تشومسكي « تصورا تحوليا لعلم القواعد » . كتب تشومسكي (ص ٨٠) يقول: « لقد ألمحت الى أنه قد يكون مفيدا أن نتصور علم قواعد للغة ما ، نظرية في جمل تلك اللغة ، وأن نعتبر مسألة الطريقة في علم اللغة تقوم على انشاء نظرية عامة في البنية اللغوية ، تدرس دراسة مجردة خصائص كتب القواعد وما يشتق من أوصاف بنيوية ومستويات لغوية » .

فيكون علم اللغة علم العمليات ، بنيوية كانت أم بنيانية ، أم ذات بنى . يجب في الحقيقة أن نستعيد تمييز سبينوزا الشهير بين طبيعة طابعة وطبيعة مطبوعة ، فنقول انه يلزمنا اذا أردنا التقدم ، أن نعتبر اللغة البانية ما وراء اللغة المبنية . اننا بهذا المعنى نستطيع أن نعمد الى لغوي فرنسي قل من يعرفه خصوصا بسبب صعوبة لغته[٢] .

---

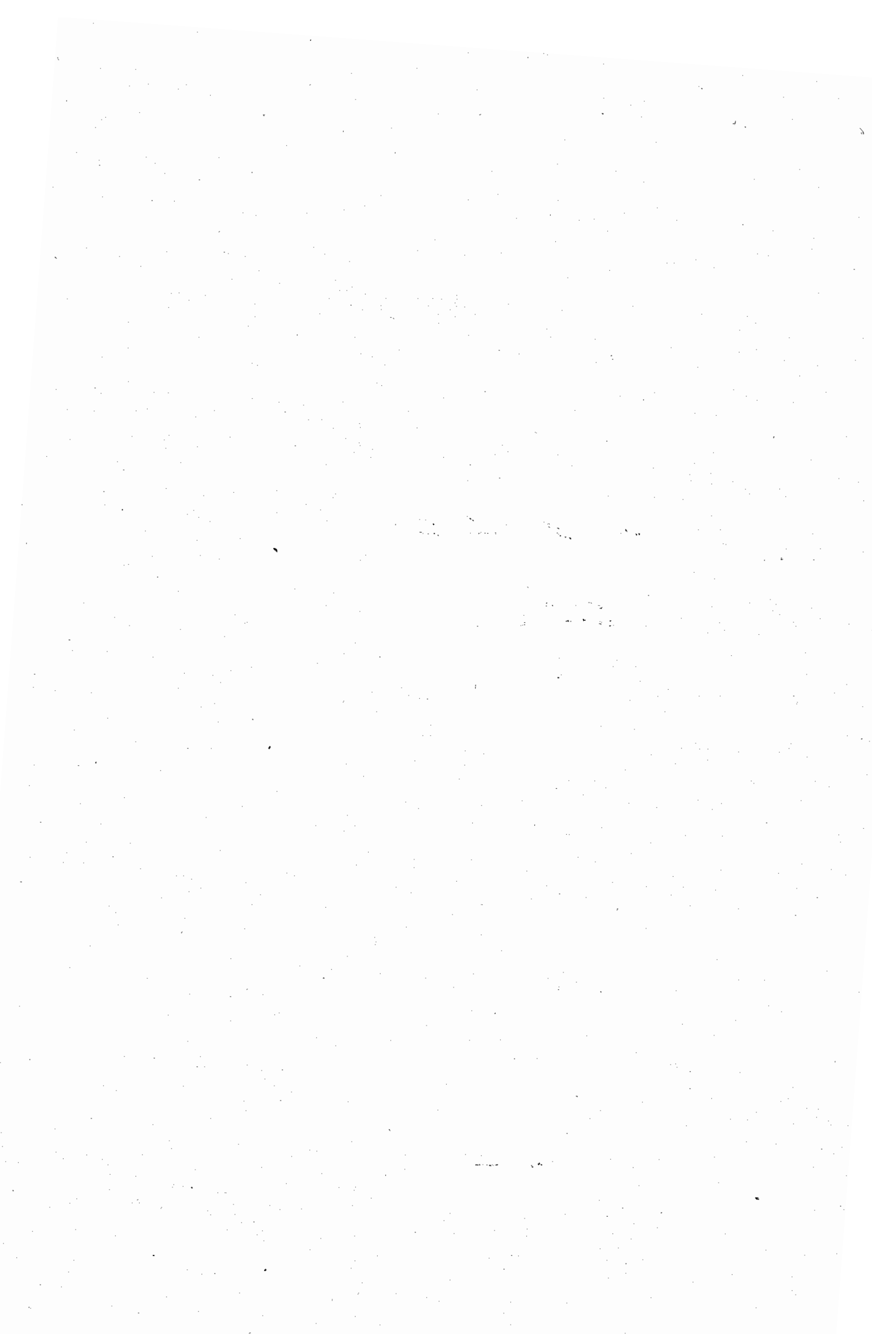
(١) Langages, décembre 1966, nº 7, Didier - Larousse.

(٢) A. Gustave Guillaume, Temps et verbe, Champipon 1965. et Langage et science du langage, Nizet, 1964.

فيتخطى ريكور نقيضة البنية والحدث مذكّرا بماهية الكلمة : الكلمة هي الوسيط المقايض بين البنية والحدث . الجملة تتوارى بعدما يُنطق بها ، أما الكلمة فتستمر حية ، وحين يضيف اليها النطق شحنة جديدة تعود الى المنظومة التي تستفيق من عطالتها لتفسح مجالا لفرقية جديدة ، مجددة بنيانها بالكامل . هذي هي وظيفة الشعر كما يحددها دوفـرِون Dufrenne في كتابه : Le Poétique فن الشعر . يبدو لنا أننا قصدنا ابراز قيمة هذه الوظيفة عينها حين تكلمنا عن « اقتناص اللامتوقع » على يد الشعر والتقنية . تخلق الكلمة تيار تبادل بين البنية والحدث . يلزمنا لادراك هذا « أن نفرق بين علم العلامات ضمن المنظومات وعلم الدلالات أي علم استعمال العلامات في الجملة » (ص ٨١٧ ، المقال المذكور) . ان استعمال الكلمة يدخل حالات تتعدد فيها الدلالات (تعدد الدلالات Polysémie) . فلا يكفي القول بان المعاني المختلفة تدخل كلها في منظومة . كيف تنتظم فيها ؟ عن سبيل تسمية ينقل بها المعنى (انظر ما قلناه وسنقوله عن المجاز) . ان في هذا إسقاطا للواقعة في المنظومة . ومعلوم أن كل منظومة تجدد بنيتها مع كل حدث جديد . اذن يمهد علم الدلالات لمنوال مفتوح . هـذا هو استنتاج ريكور : « وقد حزرتم أن اللسان انما يبلغ اعظم انفتاح لـه وهو في فرحة » . بيد أن كل المسائل تنفتح عندئذ بانفكاك فكيّ المنظومة . أين هو ذلك الكمال البديع الـذي نعرفه لعلم الـدلالات البنيوي ؟ يلزمنا الرضوخ للامر مع الشعراء ومع ريكور : يظل اللسان مهمة ، مشروعا انسانيا وان كان هذا المشروع عمل اللسان نفسه ، رغم كل ما يمثله علم الدلالات من قيم علمية ، وبالتالي . داخل البنى عينها التي يكتشفها في اللسان .

حاشية كتبية صكمو للفصول

الاربعة السابقة



عـــدا كتـــاب جاكوبسن (Essais de linguistique générale)
منشورات Minuit ، مجموعة « Arguments » ، تلفت اهتمام القاريء
الى مسائل الكتابة ، مسائل لم أرد أن أعيد الكلام فيها هنا • لجاك دريدا
Jacques Derrida مقـــالان مرمـــوقـــان فـــي هـــذا الموضـــوع :
De la grammatologie (Critique, décembre1965, février 1966)
مقالان أساسيان ولكن يصعب على غير الاخصائي مباشرتهما • انهمـــا
صدى للمؤلّف الجماعي :
L'Ecriture et la psychologie des peuples (Armand Colin)
وفي موضوع الكتابة أيضا تمكن مراجعة اعمال جـ• دو أجوريا غرّا
J. de Ajouriaguerra ومارغريت اوزياس Marguerite Auzias• (نشر
Delachaux et Niestlé)، هـــذا وقـــد اصدر دريـــدا عـــدا مقالتي :
Grammatologie كتابا عنوانه : L'Ecriture et la différence نشـــر
Editions du Seuil •

وكتب برنار بوتيه ملخصا عن الكتاب المشترك : مسائل اللسان
Problèmes du langage ، عنوانه : ما وراء البنيوية في علم اللغات :
Au-delà du structuralisme en linguistique (نشـــر في مجلـــة :
(Critique n° 237, février 1967 •

ول برنار بوتيه أيضا Systématique des éléments de relation,
Paris, 1955 •

بشـــأن بنفنست ، تحســـن قراءة مقالـــين لتسفتـــان تودورف
Tzvetan Todorov تحـــت عنـــوان : La Linguistique science

de l'homme ، حيث يذكّر في ما يذكّر باسهام كاسيرر (فــي :
(Critique, nos 231 - 232, 8 septembre 1966 •

في علم الجمال: Bernard Teyssedre, Critique, n° 204 mai 1964

حول مفهوم المكان واللسان Georges Matore, L'espace humain,
La Colombe (compte rendu de Gérard Genette, in Critique, mai, 1963)

بشأن دوبوا و تسومتور Zumthor (Langue et technique poétique)
(à l'époque romane, Klincksieck, -963) نجد نظرة اجمالية ممتازة لـ
Batany (فــي : (Critique, n° 240, mai 1967

في مسائل الترجمة مؤلف أساسي لـ Georges Mounin عنوانــه :
Les Problèmes théoriques de la traduction (Bibliothèque des Idées, Gallimard, 1963). لا يسعنا أن نتكلم عنه هنا لضيق المكان

لجورج مونان أيضا :
L'Histoire de la linguistique, parue aux P. U. F.

ولتودوروف أيضا : Recherches sémantiques ، حيث يدرس
تعدد الدلالات والتحليل المزجي : l'analyse combinatoire

في مؤلّف مشــترك ، يــدرس جـ. أبريجان J. Apresjean
التحليل التوزيعي للدلالات والحقــول الــدلالية المبنية : L'analyse distributionnelle des significations et les champs sémantiques structurés ويقــوم Floyd G. Locursbury بـ التحليــل البنيــوي

ـ التحليل البنيوي لالفاظ القرابة L'analyse structurale des termes de parenté ويسترسل تودوروف في لعب الشوارد الدلالية
Anomalies sémantiques (Didier - Larousse, Langage n° 1, mars 1966)

يعالج العدد الخامس من مجلة Langage الاحوال المرضية ، والعدد الثاني **مسائل العلاقات بين المنطق وعلم اللغات** ، وفي العدد الثالث يدرس غريماس ودوبوا **الفعل والجملة** .

واذا شاء القاريء طرائق أخرى يستطيع أن يطالع :

Marcel Cohen : Le Langage, structure et évolution, Editions sociales.

أو :

Knud Togeby : Structure immanente de la langue française, Larousse

هذا ولا ننسى « القدامى » :

Ch. Serrus : La Langue, le sens, la pensée, P. U. F.

ولا ننسى الجد الكبير :

J. Vendryès : Le Langage, Introduction à l'histoire, 1921. La Renaissance de livre.

ونخص بالاشارة كتابا صغيرا جيد التأليف :

Lepschy : La linguistique structurale (piccola biblioteca Einaudi).

ليست هذه القائمة بديلا عن جدول علمي ، فقد أوردنا الكتب هنا حسب مصادفتنا لها .



الفصل الخامس

التاريخ البنيوي



في كتاب ممتلىء بالامثلة المدهشة عن الحضارات ، تثبت عالمة الانطروبولوجيا روت بنديكت[1] من جديد وعلى طريقتها فكرةالتقدم التاريخي ، تقول : « لا يمكن أن نضع موضع الشك الاستمرار الثقافي للحضارة أيا كان ممثلها في هذا العصر أو ذاك ». اللفظ الهام هنا هو : استمرار . انه يطرح كل المسألة التي تتعارض فيها البنيوية من ليفي-شتروس الى ميشـال دوفوكو مرورا بـ ألتوسر ، مـع كل ما تقدمها . لنتذكر باختصار الفكر السائد في الثلاثينيات ، فنرى مؤلفات برغسون بجانب مؤلفات برنشفغ وغيرهم. على أن مايشتركون فيه عبر جهات مختلفة هو هذه الفكرة : ان الماضي زاخر بالحاضر والحاضر زاخر بالمستقبل . هو استمرار تكوّني يربط مراحل الفكر الرياضي فيما بينها أو مراحل الحركة الخلاقة . فيرى برنشفغ أن بين التصورات المختلفة للهندسة في عصر الاغريق وتصوراتنا الاينشتينية لاتحاد الزمان والمكان سلسلة متصلة من التقدم يتم بها للروح النصر وبزوغ عهده . ويرى برغسون أن الصورة الروحية للمعرفة . ليست هي قوام حركة الفكر ، بل المتحرك ، الديمومة العميقة التي تعيدنـا الى ينبوع الحياة ، التي تصلنا شيئا فشيئا ، وهي تحررنا من روابط

---

(1) Echantillons de civilisations, Gallimard, Les Essais, XLII

المكان وبها تتحد مع الحركة الاولى التي انشأت عبر الزمان العـالم والحياة • هذه الحياة تنمو عبر التاريخ ، والتاريـخ يلج بالانسـان مستويات الروح • تتذكر أن بول نيزان يحيل في كتابـه : كـلاب الحراسة ، كل هذه التصورات الجميلة الى أحـلام [1] عنـد هؤلاء المفكرين • لان الماركسية مهما كانت جدلية ـ ومنها ماركسية نيزان ـ لا تقصر عن ابراز نقاط انقطاع أساسي في التاريخ الانساني • انهـا من الدروس الاولى التي يستمدها ألتوسر في نظريته الماركسية مـن ماركس وباشلار معا • نقاط الانقطاع هذه يعثر عليها باشلار فـي المجالات الخاصة بالمعرفة العلمية ويجعل منها احدى القضايا الكبرى في معرفته للمعرفة (ما يسمى ابستمولوجيـا أو فلسـفة العلوم) • انقطاع ابستمولوجي يجعل منذ الآن الباحث في كل حضارة لايقتنص بعدُ استمرارات ظاهرة بل الاستمرارات الحقيقية • فيجب علينا بدلا من البحث عن روح متصاعد في التاريخ ، يظل هو هو في انمـاط مختلفة ، أن ننصرف الى تفهم رموز بمعنى فرويدي • ولا نجد خيرا مـن نص لـ Ernest Jones موجها لنا على درب هذه الصـورة الجديدة لتفسير الانسان بالانسان • هذا النص لـ فرويدي من أتباع الساعة الاولى يورده جاك لاكان في الصفحة ٦٩٩ مـن كتاباتـه :

« اذا نظرنا في تقدم الفكر الانساني من حيث تكوّنه نستطيع أن نرى أنه لا يقوم ، حسب الاعتقاد الشائع ، فقط على التراكم الذي يكتسبه متزايدا من الخارج ، بل على المسلكين التاليين :

أولا اتساع الاهتمام والفهم وانتقالهما من أفكار مبكّرة، بسيطة، أولية ، الخ •• ، الى أفكار أصعب منها وأعقد هي نوعا ما استمرار للاولى ورمز لها ؛ وثانيا رفع القناع باستمرار عن منظومات رمزيـة

(١) Voir Les Chiens de garde, réédition Maspero, et Paul Nizan par Ariel Ginsbourg, Editions Universitaires.

قبلية . نفهم من هذا أن تلك الافكار والرموز ، ان اعتقدت أول الأمر صادقة حرفيا فقد تبين أنها ليست سوى مظاهر أو تصورات للحقيقة ، كانت وحدها ضمن استطاعة أذهاننا في ذلك الوقت ، لاسباب عاطفية وفكريــة »[1] .

ان التبديل الذي يأتي به هذا المحلل النفسي لمسألة تقدم الانوار يعيد النظر في ترسيمة التقدم كما ازدهرت في قرن الانوار . اذ يمكن القول انه قبل القرن الثامن عشر كان في ذهنية القرن السابع عشــر **قَبْلُ**" ، له موقعه في التاريخ ويمثل **الشر** . (مثلا : « قبل مجيء يسوع المسيح الى العالم » ، عند بوسوه Bossuet) . واليوم الحال افضل . وسيكون الغد أفضل أيضا لان الحرية سوف تنتصــر على الاستبداد ويتبدد الظلام . ترى هذا فلسفة موزار الماسونية ، مثلا . ونجد الترسيمة عند باسكال حيث يشبه البشرية بانسان واحد ، هذا بقدر ما يصدق القول بأن القرن السابع عشر قد أعد أفكار عصــر الانوار كلها تقريبا .

ثم يهدف كل شيء في المعرفة ، بفعل هذه « النزعة التقدمية » الى الاتسام بسمة التاريخ ، خصوصا بعد أن أعطى هجل ترسيمةتاريخ يكرر بلا نهاية تآليفه في سلسلة نفي متواتر . حتى الرياضيون كتبوا تاريخ علمهم .

يقول ارنست كاسيرر[2] في كتاب أساسي : « وهكذا تستفيق في فلسفة الانوار ، انطلاقا من التاريخ ، فكرة دراسة الانسان دراسة

---

(1) Traduction Lacan. cf. Jones, Papers on psychoanalysis, 5e édition pp. 87 - 88.

(2) Ernest Cassirer, La philosophie des lumières, p. 230. Traduction, Pierre Quillet, coll. « L'histoire sans frontière », Fayard éditeur.

فلسفية ، فكرة « أنطروبولوجيا عامة » مثل تلك التي سيعدّها كنت بصورة منتظمة ، والتي ستأخذ مكانها في تعليمه » . لـدينا هنـا مصدر هام .

يبدو لنا أن كنت قد أسس وأن كاسيرر ناشره الحديث قد استعاد نمطا في الإشكالية النقدية مرتبطا بما يسمى منظومة الرسوم عنـد كنت ، نمطا يؤدي الى الانطباع الثابت الذي يتركه عند القاريء كتاب كاسيرر ، بأنه يجب اعتبار التقدم الانساني لا على انه حاصل حوادث واقعية تنضاف بعضها الى بعض بل استعادة وتنمية لصور وسلسلة أفاعيل . ولنذكّر باسهام مونتسكيو ، المؤسس لعلم الاجتماع الحديث، الذي ، في كتابه **روح الشرائع** ... ولكن هذا معروف .

أما ما يندر أن يعرفه غير الحقوقيـين فهو **طغيان الرياضيات** على مسألة الحقوق عند غروسيوس . الرياضيات هي طريقة التحليل للافكار القانونية ، تردها الى مكانها الذي ليس هو تعريفا للحوادث ، لان الحق انشاء[1] .

يتيح لنـا كاسيرر ادراك مـا يسميه لوكاتش **النفس والصور**. خلف هذا التصور الذي ما برح ميتافيزيقيا ، تتشكل فكرة تجميـع العوامل القيمة في التاريخ الانساني . هوذا مثال : نجد في كتاب دوهم Le système du monde de Platon à Copernic : P. Duhem دراسة حول قياس الارض في زمن الاسكندرانيين . اراتوستنوس وهيباركوس على طريق الصواب . يملكان في متاعهما فكرة كروية الارض مع تقريب عجيب من الابعاد الحقيقية للارض (الى قرابة ١٠٠٠ كم حسب مـا أتذكر) . تتوفر اذن عند العلماء الاسكندرانيين كل عناصر الحساب الفلكي . كان يلزم لتدقيق ذلك مرور الزمن وكوبرنيك وموبرتوي ،

---

(١) راجع كاسيرر ص ٢٣٩ وما يلي . cf., Cassirer, p. 239 ss.

لكن الجوهري كان حاضرا منذ زمن الاسكندرانيين . بيد أنه اذا قرأنا الآن كتاب مارسيل غريول: اله الماء Dieu d'eau ، نقرأ الكوسمولوجيا الغريبة الغنية بالكشف التي سلمها الحكيم أوغوتاملي قبل موته الى غريول . يأتي الراوي باشارات تهدف الى برهان أن الشمس أكبر بكثير مما تظهر . اذن يملك الدوغون الشيخ هو أيضا المفهومين الجوهريين مفهومي الظاهر العابر والموجود الحقيقي وهذا بقدرة تفكيره فقط . فاذا قرنا التصورين حصلنا على لوحة لصور التفسير لا تمت بأي صلة الى تصورات برنشفغ حول طفولة علمية للانسانية ، ولا الى أفكار ليفي-برول حول عقلية قبل منطقية ، ولا الى ما كان يسميه اجتماعيون آخرون « الصور الدنيا للشرح » . يلاحظ المتأمل توازيات في التصورات ، نقاط تلاق ؛ يجد أنه ليس من تصور قديم قد تُخُطِّيَ وتصور حديث ثبت صدقه ، أنه ليس من بدائية زمنية (العقلية القديمة) أو مكانية (« العقلية الافريقية ») . انه بالعكس يعجب بأن الفكر الانساني يتكون في كل مكان وزمان معملا الشرح العميق (بما لا يُرى من قانون وحساب) وتعليل الظاهرة (حسب الظاهر) . فهو من ثم ينحو شطر البنيوية مما يزعزع فكرة تاريخ الانسانية .

طبعا ، لا يخطر ببال أحد أن يُغرق الواقعة ، الحدث ، في سلسلة من الدلالات المتزامنة بحيث تبطله . اذ يبقى التطابق بين التزامن والتزمن اما بلا أثر واما بلا موقع يمكن تعيينه ، أو بعبارة أخرى ، وقتيا غير معيّن . من يدرس تقدم اللاتينية في جبال البيرنه يصعب عليه أن يفيد بنفس الوقت عن انقلاب الـ v اللاتيني الى الـ b الغاسكوني والـ f الى h (كما في مقاطعة قشطيلة) ، وعن توغل الجيوش الرومانية في تلك المناطق . تتصالب هنا سلسلتان ولا نستطيع جديا تفسير الواحدة بالاخرى . ويمكن كذلك أن نفسر تاريخ تقنية

البارود فنقول ان الصينيين كانوا يستعملونه قبل القرن الرابع عشر الاوربي بكثير ، لكننا ، رغم جهود مؤرخي « التيارات » الحضاريـة الكبار امثال Pirenne و Grousset و Miraux [1] ، نجدنا مقودين الى النظر في تواجدات التقنية أكثر منا في تتابعاتها ٠

ومنه يؤول الامر الى التشديد أكثر على الظواهر المستمرة ٠ فينبسط التاريخ مجالات فسيحة يقتفي فيها الناظر كوكبات تهدينا في سماء عقلية مثل فيزياء كيرشوف حيث المفاهيم تسبق التجربة ٠ ما يحاول المؤرخ البنيوي تمييزه هو المنقّطات التي يخطها الفلكي رسما للكوكبات ٠ وبألفاظ أخرى ، يجب أن تتـذكر أن كل بنية تحد بتمفصلاتها مثلما تحد برسمها ٠ وهذه المسألة واردة عند ألتوسر ؛ اذ يلزمنا كيما نقرأ كيف تتمفصل التواريخ ـ أو مختلف الممارسات ، كما يقول ألتوسر ـ أن نحاول قراءة حركاتها الكبيرة المدى ٠والتاريخ عند فرنان برودل هو الحركات العميقة في مـدد طويلة كما تنص أطروحتـه بصـدد **البحر المتوسط الغربي زمن فيليب الثاني :**
La Méditerranée Occidentale au temps de Philippe II .

هذه الطريقة في جوهرها تقترب من النماذج العاملة التي تبنيها الفيزياء ٠

وفي علم اللغات يفيدنا هيلمسليف ، كما قلنا ، عن اجتياح مفهوم الحالات لتاريخ اللغات ٠ الا أن الحالات لا تنفي التتابع ٠ وسنظل مقصرين في التأكيد ، مهما كررنا ، على أن نفي هذه التتابعات غير وارد ٠ يجب فقط أن نبيّن في احدى حالات اللغة كيف تتمفصل وتترتب البنى والمقولات ٠ ان القواعد التي تتدخل عند مرحلة من مراحل اللغة جزء من سلسلة ظواهر مستمرة تَدخَل تارة وطورا

---

[1] La vie quotidienne en Grèce au temps d'Homère, Hachette.

تخرج . مثال : كان الـ s اللاتيني (من اللواحق es , is , us الخ ..) يستعمل في فرنسية القرن الثالث عشر علامة المفرد للاسم الفاعل ، هنا أيضا لا يكفي التوازي بين البنية والتاريخ حجة للقول بانطباق السلسلتين . فالتاريخ ليس هو الذي يحول السلسلتين بل ان الظواهر المستمرة فيهما هي التي تتمفصل تمفصلات مختلفة فتكوّن التاريخ بحيث لا يكون الانسان في تاريخ هيراكليتسي نظير قطرة في نهر . ومع ذلك ليس ما يمنع أن نعتبر الحالات التاريخية فريدة ، اذ نستطيع أن نحلل للبنى وجها تصير به تاريخية . وهذا بعيد المرمى لانه يتيح لنا أن نفكر بامكان طرائق مشتركة بين التاريخ والعلوم الانسانية الاخرى . فيُعترف مثلا أن بين اللغات الهندية الاوروبية قرابة تكوينية . من ينكر هذا يأت فعلا منكرا مضادا للعلم . ما يبينه التاريخ في مثل هذه الحالة هو أن الظواهر داخل المنظومةالهندية الاوربية يمكن مبادلتها ويتعادل صرفها ضمن المقاطع ، ان في السنسكريتية ، أو الايرانية القديمة ، أو الغاليسية ، أو اللاتينية ، أو الفرنسية ، أو الجرمانية ، أو السلافية . ولكنا نلاحظ في هذه الحالة أن المنظومة التاريخية للدلالات اللغوية مغلقة ، والا لكان لدينا لا المنظومة (التاريخية) الهندية الاوربية ، بل سديم ألتائي ، فنوي أوغري altaïque, finno-ougrienne ، حيث تتحول الكورية الى الباسكية وقد دمجت في داخلها الاوردية والتركية . يلاحظ غريماس[1] بكلما تممتازة : (التاريخ) « يوصد الباب بوجه دلالات جديدة كامنة في البنية ، فهو في وظيفته أقرب الى الايقاف منه الى التحريك ... الاطناب ، تلك العادة التي ، في كل وقت تجمد البنى آلية وتحولها عبارات خاصة ، هي أكيدا أحد العناصر المفسرةللتاريخية ؛

---

(١) « Structure et histoire », Les Temps Moderns, novembre 1966.

ولذا تنطوي على كثير من الحقيقة حكمة الامم تلك الذاهبة الى أنه « في كل تبدل تكرار » • هوذا مثال يساعدنا على فهم ذلك نستعيره من رسالة كتبها لويس كومبه الى « ندوتنا » حول موضوع الامثال، ومن أطروحته الثانية التي نشرها أخيرا(١) • يرى كومبه أن المثل العامي يتجمد في اللحظة التي يعطيه فيها التاريخ محتوى دقيقا • يظل حتى تلك اللحظة صياغة للعلم الضمني (السان ميدار ومطر الاربعين يوما ••• مطر الصباح والحاج ، الخ ••) • اما حين يصير مثلا فيغلق على دلالات زمنية مؤقتة ويفنى • وقد وفر لنا جيوليو سيسكو Giulio Cisco تحقيقا في هذا الموضوع فأتحفنا بمجلد جميل يحوي أمثال الفيناتيين(٢) Venètes • حفظك الله من آكل لا يشرب : Dio te varda da un magnador che non beve ! • مثل خالد لكنه ما يزال على مستوى طعامي • أما المثل: Le done non gh'e scarsela (لا جيوب للنساء) فقد حدده علم العلامات في اللباس مثلما حدده المعنى • اذ ان للسيدات في أيامنا جيوبا ومحافظ تضفي عليهن حرية في الهيئة اللباسية بحيث يفقن الرجال • ثم انهن يعرفن خصوصا كيف يحفظن في هذه الجيوب وهذه المحافظ النقود التي كن يفقدنها أيام أعوزتهن الجيوب • لقد فقد هذا المثل معناه •

وهكذا تحقق دراسة الامثال (البارميولوجيا) عن سبيل السياج الدلالي أن التاريخ يغلق المدلول أكثر مما يفتحه •

وتساءل من ثمّ اذا كان يحسن أن يكتب تاريخ بنيوي •

---

(١) Gonzalo Correas, Vokabulario de refranes y frases proverbiales (1627), texte établi, annoté et présenté par Louis Combet, 795 XXV P., C. N. R. S. et Institut d'études ibériques de Bordeaux, 1967.

(٢) A. Cibotto, Proverbi del Veneto, Aldo Martello, 1966.

للمسألة في صيغتها النظرية البحتة بعض الفائدة لكنها محلولة في الواقع بوجود مؤلفات تاريخية بنيوية . تجدر الملاحظة أن أشهر المؤرخين البنيويين هوفي الحقيقة من عدادمؤسسيها الذين كانوا مثل جاكوبسون يجهلون الى أي تيار فكري مذهل كانت مؤلفاتهم مزمعة أن تنضم . لم يكن عالم « لاتينية » ولا عالم « آثار » بل كان يُعنى بالاساطير والمقارنة . لم ينتظر السيد جورج دومزيل عام ١٩٦٧ حتى ينتج اثرا هاما . فقد تصفحنا في شبابنا على يد أستاذنا في الادب كتابه الجميل عن السنتور Centaures والكرنافال ، الذي كشف لنا في وقت مبكر تاريخ التطابقات اللغوية . ولذا يسعدنا بصورة خاصة أن نرى دار بيو Payot تنشر عام ١٩٦٦ خلاصة دومزيل ، الديانة الرومانية القديمة [١] La religion romaine archaïque

ينبهنا دومنريل في مقدمة الطبعة الفرنسية الى الفائدة الواسعة والضيقة معا ، من طريقة المقارنة . كان قد أعطانا عنها نماذج (فعاد بها مصححة في كتاب ١٩٦٦)[٢] .

كان الموضوع السائد في هذه المؤلفات هو : أن علم اللغات والدراسةالمقارنة لديانات روماوالهند يقنعاننا بأن المجتمع الهندي الاوربي كان مؤلفا من ثلاث طبقات مغلقة : كهنة ورجال حرب وصناع ، تطابق الآلهة الرومانية الثلاثة : جوبيتر (بمضاعفة الـ P) ومارس وكيرينوس ، وقد توارى هذا الاخير بسبب الظروف السياسية ، وينتقل من ثم الى مقارنات فريدة بايحائها ، كالمقارنة بين الكاهن وجوبيتر ، وبين كاهن جوبيتر (flamen dialis) وكهان الهندوس.

---

(١) Payot, éditeur, 795 p.

(٢) Voir (chez Gallimard) Jupiter - Mars - Quirinus et aussi L'Héritage indo-européen à Rome, ou encore le livre sur les Horaces et les Curiaces, etc...

والحال أن المسألة ، تقوم بعد وضع هذه المقارنات على « اقامة ، على تجديد الاتصال بين التراث الهندي الاوربي والواقـع الرومـاني » (ص ٨) • مسألة التراث هذه هي المفهوم المركزي في التاريخ البنيوي• نجدها أيضا محوَّرة في مقدمة **كتاب الابطال** [1] Livre des Héros ابطال السيتيين الحاليين Scythes (أوسّات القفقاز) ، حيث تقـع على تقسيمات اجتماعية واسطورية شبيهة بالتي كـان دومزيل قـد رسمها في أعماله الاولى •

تستعير طريقة البحث عنده ـ استعارة ترى أم لقاء ؟ ـ اتجاهها العام من علم اللغات : « يجب أن ننظر في روما ودياناتها جملة ، فـي ذاتها ولاجل ذاتها » (ص ٨) • ولا حاجة للقول بأن الالتحام بـين هذه الطريقة وما يُعتبر الواقع الروماني عند علماء الآثـار وعلمـاء النقوش ، والمؤرخين من مختلف المدارس ، لا يخلو من المصاعب • لكن كثيرا من المؤرخين ينبهون الى أن التطابق بين المجالات اللغويـة التي تم استكشافها و « الثقافات » التـي يكتشفها علم الآثار فـي الامكنة الجغرافية المقدرة لهذه اللغات ، ليس تطابقا آليـا ، بل هـو أيضا ينطوي على علاقة ارتياب : مثلا علام يبرهن بالضبط اكتشاف أشياء هلنستية في قلعة انسرونه قرب ناربون ؟ من يجرؤ على القـول بأن هذه المدينة السلتية الايبريـة كانت تتكلم اليونانية ، لانـه عثر فيها على راس من الفخار (التجاري) يمثل احدى آلهة إلوزيس ؟

لنلاحظ أن كتابة بنيوية للتاريخ ما كانت ممكنة قبل الانعطاف المذهل الذي حصل في القرن التاسع عشر • هذا الانعطاف نلخصـه بكلمة : الامعان في النقد • مثلا ، في أواخر القرن التاسع عشر كانت تقريبا كل المصادر الهوميرية والانجيلية تبدو أسطورية بحتة أو دفاعية

---

[1] Traduit de l'ossête par G. Dumezil, Collection Caucase, Gallimard, UNESCO.

فكان أول عمل يقوم به المؤرخ هو البرهان أن لاهوميرس ولا يسوع المسيح ولا شكسبير وجد • ثم أتى من عثروا مثل بيرار [1] وغيره أو ظنوا أنهم وجدوا بالضبط التخطيطية التاريخية للنصوص العظيمة • فحل مجال خصب جديد محل الامعان في النقد • واذا بالاساطير على حرفيتها ، واليوميات والحوليات تعيد كنزا دقيقا ودالا • حتى ليقول دومزيل : « ان « الاساطير » التي تبرر سلفا الوقائع لا تنسخها بتفاصيلها ••• اذ ان مراحل السير قلما كانت تستدعي الاهتمام ، بل كان يفضّل اختصار يُدهش » (ص ٢٣) • فالموقف لا يقتضي أن نعتبر في غاية الدقة ما خلّفه لنا القدماء من أخبار ، ولا أن كل شيءاسطورة بل أن نميز بحذق ما فيها من رموز • ترى أنتّهم المسيحي بعبادة الاشجار اذا وجدناه يصلي أمام صليب من خشب ، على غرار ما يحكم غلوتز Glotz عندما يعرفنا بديانات بحر ايجه (ص ٤١) ؟ وعليه ، لا تتجه الديانة الرومانية « الى الرمز بل من خلال الرمز الى الاله » (ص ٤٢) •

فيكون عيب الدعاوى المضادة في مثل هذه الحالة ، وسنجده أيضا بصدد الانطروبولوجيا ، أنها وضعت مفهوما ميتافيزيقيا بحتا للعقلية البدائية • وهاك في ما يلي تبريرا لفكرة عمل التاريخ في البنى ، وتوافدا جوهريا بين ليفي-شتروس ودومزيل •

يبدأ دومزيل ، في دراسته الخاصة بالديانة الرومانية ، بالتنبيه الى أن الاعتبارات التطورية الصرفة لا تأتي بالوضوح • اذ كيف يمكن أن يصير اله منسي في زمن ، الها اغريقيا « فيما بعد » ؟ في الواقع ، ان النظر في الرمز هو الذي يأتينا بالكشف • المقصود أن نفحص « القطاع التصوري » (ص ٤٩) الذي يظهر فيه تأثيرهما ـ النشاطات

(١) Voir au moins Victor Bérard, La Resurrection d'Homère, Grasset, édit.

الزراعية أو الحربية مثلا ـ أو أيضا كل ترهات ليلة الزفاف ، التي اتخذها القديس أغوسطينس على رصانته مواضيع لسخرياته (نص مترجم ص ٤٨) •

ثم تبرز كما عند ليفي-شتروس أو عند فوكو دراسة التسميات التصنيفية حيث تُعلِّمُ علاقات الاجداد « الصغار » بالآلهة «الكبار» • ونرى زمرا تتكون (مثل زمرة جونون) مع زمر تابعة ، تصف مفصلا التدخل المقدس في العملية غير المقدسة •

مجموعات الاسماء ، الدينية منها والعائلية ، تكشف لنا ذلك المجتمع الروماني الذي يحب العمل الدقيق والمقسّم[1] • فندرك من تحليل كاتبنا ، أن الديانة في تصورهم سلسلة من البنى تسودها ميزة ثابتة • وكذلك القول في الحياة الاجتماعية • فيها مثلا كل الشخصيات الثانوية ، من موظفين وغيرهم وفيها وظيفة المستخبر الوظيفة السائدة • لا وجود للشخصيات الثانوية (شأنها شأن الآلهة الصغار) الا عندما يبرز اسمها • « I Lictor » ، انطلق أيها المرافق ! ولا حاجة لتوضيح ما بقي في حياة المرافق • لا يتدخل الا بنسبة الامر الذي يتلقاه « i » « انطلق » • ليس هناك من شيء أولي في كل هذا ، فقول الاسم يستنفد المدلول ، طارحا ما بقي في اللا محدود ، مما يكوّن الوجه التأويلي للديانة الرومانية ، بعكس ما يعرف مثلا عند الاغريق • ان ما نعرف عن الجنية Egérie ان هو الا انها تكلم نوما Numa التقي • هذا هو ما يكونها لا أكثر • ذلك لان الرومان لا يُعملون المخيّلة • انهم حُصَفاء (ص ٥٣) • ينسب دومزيل هذا الى روحهم القانونية • ويلتقي تفسيره بالمدلول الذي يعطيه هجل

(1) G. Dumezil, Les Dieux indo-européens, 1952 (P. U. F.), (cité dans l'ouvrage استشهد به الكاتب) pp. 58 - 59.

لكل التاريخ الروماني: بدء عهد **القانون** • وليس هذا بلقاء مصادفة ، لان الكاتب يشدد هنا (ص ٥٣) قائلا انه سيبين في كل كتابه تعيينات الروح القانونية والحصافة عند الرومان • لفظ ديانة نفسه كان يعني أول الامر التشدد في التوقير (لا يزال يقال : يدين بدين الشرف : il a la religion de l'honnêleté) • للالفاظ في تلك الديانة مدلولها فلا يقال أي شيء ، خصوصا مع الآلهة ، « اهتماما منهم بأن يعينوا في المكان أو الزمان ما يرتقب أو يرجى أو يخشى » • تظاهرات عامة ، حتى في ريغ فيدا rig-veda الهندوس ، تأخذ أبهة فائقة في روما • وفي كل هذا لا نجد قط « ضعفا في التصور » (ص ٥٨) • ولا شيء أوليّ • بدلا من أن نعتبر الآلهة التي لا نفهمها بغياب الوثائق مخلفات من العهود البدائية ، الافضل أن ننتبه الى أن الحضارة الهيلينية قد أفرغتها من مدلولها • وكذلك كثير من البروفنسيين في أيامنا يجهلون الظروف التي مرت بها لفظة aubergine (بلهجة بروفنسة melajaina وفي اليونانية الحديثة melizane) فيظنون أن الكلمة البروفنسية تستدعي كلمة mélange • واذا حدثتهم عن rata - pinhata (الوطواط chauve-souris) ، يعتقدون أنه انما سمي هكذا لانه « يُخطِيء rate » ال pinhata (القِدْر la marmite) في طيرانه على غير هدى ، وذلك لجهلهم أن المقصود هو « فأر مُجنَّح rat penné » • على هذا النحو نشهد تفريغات للمعنى (تضيعه) • وعلى هذا النحو فقد الرومان من ثلاثيتهم البدائية جوبيتر ومارس وكيرينوس ، مفهوم ما كان يمثله كيرينوس • لكن الاساطير القديمة وُجدت فعلا وتكشف تطابقا بنيويا قويا مع الاساطير الهندية والسكندينافية • يبرهن ذلك دومزيل بصدد مثاله على الافكار المرتبطة بالاعياد « ماتراليا » • هذه الطريقة في استرجاع اسطورة من حيث هي حلقة مفقودة في سلسلة بنيوية ، تذكرنا بدراسة قام بها ليفي-

شتروس في كتابه : البنى الاولى للقرابة Structures élémentaires de la parenté ، حول البطن الثامن من قبيلة مورنجن Murngin (شعبة وجدها بعد أن كانت مفقودة) . وهنا في أعياد الماتراليا الرومانية تتضح بعض التفاصيل بالمقارنة مع منظومة اساطير الهة الفجر الفيدية (ص ٦٤ وما يلي) . هذا التحليل لا يكشف لنا فقط الاصول المشتركة بين الطقوس الفيدية والطقوس الرومانية بل ويضع كتاب الطقوس الرومانية على مستوى عال جدا من المفهومية : « ها قد أعيد لاقدم قدماء الرومان مقامهم الفكري على مستوى المغنين الفيديين»[1] .

كما أن الانطروبولوجيا البنيوية تزعزع نظرتنا الى الآخر ، كذلك يضع التاريخ البنيوي أو المقارن أمام عيوننا تلك القارات المفقودة من الفكر الروماني ، حيث يذكرنا الرومان القدماء ساخرين أنهم قبل الاجتياح الهليني لثقافتهم كانوا أذكياء مثل من خلفوهم . ولكن لا نحلمنّ مع مجلة بلانيت Planète أن كل شيء وأكثر قد قيل ؛ أن الحضارات القديمة كانت قد اكتشفت الانابيب الالكترونية الى غير ذلك من الغثاثات الموضوعة على حساب الـ أطلنتيد أو العالم المسكين Chklovski . عندما يكتشف دومزيل قارة مفقودة يطلعنا على كل ما يمكن أن نرى منها ، ولا يستنتج أبدا بنية اسطورية من أي افتراض « لِمَ لا ؟ » يؤخذ بديلا عن آثار قيّمة . ولذا يحترس من أن يحكم استقراء بوجود ديانات لا نعرف عنها شيئا . يجب في التطابق بين عنصرين روماني وفيدي أن يستند الى دلائل موثوقة في الطرفين ، حتى يعتبر تطابقا صادقا .

وانما يستطيع المؤرخ بعتاد مثل هذا أن يقرأ « حركة محكمة للمفاهيم » (ص ٧٨) ، على نحو ما يقرأ الالتوسريون **راس المال** .

---

(١) Religion Romaine archaïque, P. 67.

واحدة من أوطد الحصائل البنيوية تقوم على اعادة القيمـة لـ « العقليات » غير الغربية • يكتشف المؤرخ مـع فوكو في الزمـان ما يبرهنه لنا ليفي-شتروس من قيمة عقلية لا تُرد في حضارة الـ Nambikwara أو في حضارة الـ Bororo• وهكذا يعيـد دومزيـل الى مضمار المعرفة تبحر المتبحرين القدماء • لم يكن أولئك الناس روادا هزيلين لعلم اصبح باهرا في أيامنا بعد أن كان يتلعثم في عصرهم• ينصف دومزيل فارّون و فرّيوس فلاكوس • يذكرنا انيّوس وهـو يترجم افمـار Evhémère بمؤرخينا المحدثين • وموسيوس سيفولا في دراسته للآلهة هو في عصره نظير ميرسيا إلياد في عصرنا • أولئك المتبحرون ما كانوا كلهم اغريقا وضيعين ، "أغيريقا ، اذ ان لهم أصالتهم ويضعون « في التداول معارف مضبوطة » (ص ١٠٩) • فنرى أن هذه القراءة للقديم تستدعي تغييرا عميقا في عقلية المؤرخ أكثر مما تستدعي مواد جديدة • ما يشترك فيه كل الاتجاهات البنيوية ، هو هذا التحول الجذري نحو الموضوع لا تحويل الموضوع • المؤرخ يقيّم ، ماذا أقول ، لا بل يستمد قيمته من قيمة الحقل الذي يستكشفه، وفي النهاية ، القدماء هم الذين ينظرون الينا عبر نتاج دومزيل • مآل هذا التاريخ البنيوي هو اعتبار جديد للموضوع : نظرة الى التاريخ القديم عبر مجموعات فكرية كبيرة ، الاغريق واللامعقول مثلا ، أو علاقات الاسطورة والفكر عند الاغريق • هـذا الاعتبار الجديـد للموضوع يسهل تناوله بصورة خاصة في مقاربة بنيوية • اذ ان العقل يرتاح ارتياحا خاصا الى رؤية قطاعات فسيحة تتكون عبر تلك البنـى التاريخية ، قطاعات يمكن فيها ، ولو عبر دراسات حول اللامعقول[1]، قراءة التاريخ لا قراءة شفافة مثل الرياضيات ، ولكن قراءة تترك شعورا متميزا جدا بوجود ثوابت معقولة في الماضي • يمكن التثبت من جدوى

---

(١) E. R. Dodds, The Greeks and the irrational, University of California Press, 1963.

هذا البنيان الجديد للتاريخ بمطالعة كتاب قيّم لـJ - P. Vernant عنوانه الرئيسي : الاسطورة والفكر عند الاغريق :(١) Pensée et Mythe chez les Grecs وعنوانه الثانوي : دراسات في علم النفس التاريخي : études de psychologie historique نجد في هذا الكتاب ما لم يبرح يُعلَن عبر دومزيل : « أيا كان الموضوع ، حوادث دينية : أساطير ، تمثيلات مصورة ، أم فلسفة أم علما أم فنا أم مؤسسات اجتماعية أم حوادث تقنية أم حوادث اقتصادية ، فاننا نعتبرها دائما آثارا صنعها البشر بمثابة تعبير عن نشاط عقلي منظم » • مشروع تقليدي في الظاهر لولا أنه يفترض كل التيار التفسيري (٢) المعاصر • ان وضع نشاط الاغريق ثانية في اطارهم لهو احد تلك البرامج البريئة زورا التي يتسلل تحت ستارها كل التفسير الحديث بما عنده من شبهات خاصة • نستلفت الانتباه مع ذلك الى أن السيد فرنان يشدد على عدد من النقاط فيها من الالتباس ما في كل مسعى تفسيري • بعد دراسة العينيات realia ، الاشياء المحسوسة ، يحاول المؤرخ ، كما سيفعل ميشيل فوكو بين الكلمات والاشياء أن يجد موقعا « لدراسة الانسان ووظائفه النفسية » • يبقى كثير حول هذا التاريخ لكنا نود أن نكتفي بالتأكيد على نقطة : تسود دراسة العقليات مصادرة : الانسان الباطني موجود ؛ أجل،ولكن ليس مايضمن في مثل هذا التاريخ للعقليات ألا يؤدي علم آثار الثقافات الى طرد هذا الانسان ، كما هو الحال عند فوكو ، على أنه مقولة كاذبة • بهذا المعنى يكتشف التاريخ البنيوي ذاتا غائبة عن « موضوعها التاريخي » ، مثلما تستبدل أنطروبولوجيا ليفي - شتروس بالانسان بوضعه حاملا للحياة الاجتماعية بنى ، كما سنرى في الفصل التالي •

---

(١) Collection « Les textes à l'appui », Maspero, édit.

(٢) نفهم بكلمة herméneutique مع ريكور الدراسة المنهجية للتفسير التي تعتمد اعتمادا أساسيا على مفهوم الرمز .

الفصل السادس

البنيوية بالذات

كلود ل. شتروس



« أكره الاسفار والرواد »

لقد تغير وجه الثقافة منذ أن ظهرت مؤلفات ليفي - شتروس • لا بمعنى أنه لم يكن قد قيل[1] شيء قبلها • لكننا نرى مع الكثيرين أن الثقافة وجدت مع ليفي - شتروس نبرة وصوتا ورنة غير ما تلقيناه من أساتذتنا • هذا النتاج الرقيق والقاسي يشبه بعض الشيء تتاج روسّو في زمانه • لا بد من ترجمة لحياة المؤلف لانه يأتي في كتابه: المدارات الحزينة Tristes Tropiques ، بترجمة لحياته من نوع جديد • يحدثنا [2] Bernard Pingaud ببراعة وسرعة عن هذا المسار الذاهب من الحياة الى الكتابة • مَن مِنا لم يستشعر بالضيق أمام الفلسفة وقد أصبحت مدرسية ؟ لكننا لم نصر بسبب ذلك كلنا اثنولوجيين • فكان يلزم دوافع أخرى : الاله ريشار فاغنر الذي يكن في ذاته أكثر من الموسيقى ، وبودلير ومَلاّرمه وربما رنيه غيل (مجرد تخمين) طبعوا حداثته • نعم ولكن يلزم أن نعرف كل ما بقي : أبوه وعماه رسامون ؛ أما الولد فجمّاعة : يجمّع أغراضا ثقافية ؛ « انه أيضا مرقع حاذق » • حذلقة الترقيع لها مكانة هامة في اثنولوجياليفي- شتروس •

(١) كان اولى بنا ان نستعرض دراسة يضيق بها المقام هنا :
Economie et humanisme 1/68: راجع De Durkheim à Lévi-Strauss
(٢) في عدد خاص من مجلة : L'Arc (عدد ٢٦) .

وتأتي سنوات الرابعة عشرة حتى الثامنة عشرة . الاسرة في فرساي والعطل منوعة . يقول بنغو : « في سن السابعة عشرة يكتشف مراهقنا في الجنوب طبيعة أخرى ، مجهولة ، « اعجمية » ، لا يجد فيها نفس النباتات ولا نفس الصخور ولا نفس المناظر ، طبيعة يمكن أن تؤدي له دور المخاطبة » . دراساته : الحقوق والفلسفة . اكتشافاته : فرويد وماركس . تقوده الاثنولوجيا الى البرازيل . ثم يجد منفاه في نيويورك سنة ١٩٤٠ (معهد الدراسات العليا) ، يلتقي ليفي - شتروس هناك بـ جاكوبسون ويصير بنيويا عن وعي .

لم يتم بعد ، لحسن الحظ ، انتاجه . نميز فيه حتى هنا (سنة ١٩٦٧) أربعة اتجاهات أساسية :

أولا ــ لحظة التجربة . يختبر الاثنولوجي ذاتيا الحضارات الاخرى على أرضها . ثم ينشر برعاية رابطة المهتمين بالشؤون الاميركية Société des américanistes كتابه : [1] La vie familiale et sociale des Nambikwara : حياة النامبيكفارا العائلية والاجتماعية . المهم أنه نشأ عن هذا الكتاب رواية مدهشة لحياة الاثنولوجي الفكرية ، عنوانها : المدارات الحزينة ، صدرت عن دار Plon في مجموعة «ارض الانسان » . هذه الترجمة لحياته غنية بالوثائق الانطروبولوجية . وقد كتب فيها ليفي - شتروس مقدمة للترجمة الفرنسية لكتاب عنوانه Soleil Hopi لـ Don C. Talayesva .

ثانيا ــ البنيوية « القاسية » لا بل العسيرة المنال ، يصوغها ويعبر عنها في أطروحته الكبيرة حول البنى الاولية للقرابة : Structures élémentaires de la parenté ، الصادرة سنة ١٩٤٩

---

(١) ترى هل نعذر لعدم استطاعتنا اليوم الحصول على هذا الكتاب، ولعدم الكلام عنه ؟

فـي الـ .P. U. F • احدى المسائل التي أثارتها هذه الاطروحة هـي مسألة الطوطمية • وقد كتب يبينها في مؤلف صغير سنة ١٩٦٢ عنوانه : الطوطمية اليوم : Le Totémisme aujourd'hui (P. U. F.) .

ثالثا ــ يطرأ زمن تفكير مطبوع بتجميع مقـالات تألف منهـا الكتابان النظريان : **الانطروبولوجيا البنيوية** Anthropologie structurale Plon و **الفكر المتوحش** La Pensée Sauvage (Plon) ، فكـان لهما صدى كبير •

رابعا ــ يلي الدراسات السابقة أثر يثـير الاعجـاب عنوانـه : Mythologiques أسطوريات ، وهو مجلدان **النيء والمطبوخ ومن العسل الى الرماد** • ثم يعد ليفي - شتروس بمجلد آخر في هذه المواضيع • انه يستكشف في هذه الاعمال الاساطير الهندية في أمريكا الجنوبية•

يأتي نتاج ليفي - شتروس بجملته على امتداد وفي نفس الـوقت على جانب نتاج الاثنولوجيين الفرنسيين والامريكيين • فهو يستعيـد تحقيقاتهم وموادهم بطريقة أقوى نسبا الى بحاثة في الامور الصينية مثل غرانه منها الى غيره من المهتمين بالشؤون الامريكية • وفي مؤلفاته الاخيرة ، يترك عن قصد دراسة الاثنوغرافيا الميدانية ، ليسترسل في عمل تعقلي يندر أن تتدخل فيه مدوناته الخاصة • انه يفسر القـول الاثنوغرافي •

المخطط الذي ميزناه هو ، رغم اتباعه التسلسل الزمني ، أقرب الى ان يكون دعوة الى قراءة حسب ترتيب معين ، دعوة الى اكتشاف أربعة « مجالات » أو لحظا تـبتعبير هجلي • فاذا بلغنا المجال الرابـع نلاحظ أن الاثنولوجي يتخذ تجربة الاحتكاك بالحضارات الاخرى كي يسترسل بعد الآن في تفسير نظري صرف • وقد ذكّرت مجلة دفاتر من أجل التحليل Les cahiers pour l'analyse بقرابات بين روسـو

وليفي - شتروس ، تقوم احداها برأيناعلى قطبيةمزدوجة ــ قرب/بعد ــ بين الانسان وموضوعه : والموضوع هنا هو مسائل العقليات ومسائل الحضارة • شموخ أولمبي يخالط تعاطفا شديدا • لكن التعاطف لايعني التبذل • ان في نظرة يلقيها الاثنولوجي ليفي - شتروس على الحضارات الغربية ، لشيئا بعيدا • ليفي - شتروس هو في نفس الوقت نظرة تلاحظ ونظرة يردها الموضوع بالمقابل الى ملاحظة ، بحيث نحسب اننا فـي دارة من دارات التغذية الارجاعية •

●

يمكن لكل شخص أن يحصل على **المدارات الحزينة** ، ويقرأه ، لان الكتاب أصبح ينشر في مجموعة من كتب الجيب • حتى لنقول انه أول كتاب تجب قراءته للتعرف على البنيوية • ولهذا لن نلخصه بل نقدم بعض الملاحظات بصدده •

من عبقرية ليفي - شتروس أنه يدرك فـي تجربته سلسلة مـن التطابقات الكلية • وهو في ذلك لا يأتي على عبادة الأنا تلك التـي كانت نكهة كتّاب المحاولات الفرنسيين من مونتيني الى أندره جيد • حتى لنستطيع أن نحذف شخصية الكاتب من ترجمته لحياته دون أن يختلف معنى الوقائع • مثال :

« أيتها الاسفار والعلب السحرية التي تعلل بالآمال ، لن تلقي بعدُ كنوزك كاملة ••• ألا كيف يمكن أن يأتي الهروب في السـفر بشيء سوى أن يجابهنا بأشقى صور وجودنا التاريخي ؟ » •

هذا ، ولا ننسَيَنّ الجملة التي يفتتح بها الكتاب • ان ليفي - شتروس الذي يعرف القيمة الحقيقية لحضارتنا يفعل ما شرع به جورج بالانـديه فـي كتـابـه : Afrique ambiguë **شبهة افريقيا**

(الصادر للمرة الثانية في نفس المجموعة) • يعرف أن لحضارتنا في رواسبها من المفزع ما في منجزاتها من الروعة • لنذكر مثلا برازيليا وأكواخ التنك فيها ، ولنذكر أيضا ما يُرينا جان رُوخ في فيلمه ، **انا زنجي** Moi un noir • يجب أن يُقرأ الى جانب ليفي - شتروس ما وصفه القدماء ان في اخبار رحلات الاسبان (Bernard Diaz del Castillo : El Inca Garcilaso de la Vega) أم في الاسفار البحرية ، **أسفار** Verazzano و Thevet ، الخ • أيُّ وِقْرٍ ينوء على تلك المداريات ! كم من نفاية وكم من تهديد ! يا للظلام ! أجل ، ما أشد كآبة تلك « المداريات » التي ترك لنا عنها Alfred Métraux تحليلا في كتابه Religion et Magie indienne de l'Amérique du Sud **الديانة والسحر الهندي في امريكا الجنوبية**(١) •

اذا استعرضنا **المدارات الحزينة** من هذه الزاوية وجدناه تنبيها يائسا يعرض به علينا رجل العلم أن نسترجع عبر الاثنولوجيا ما كنا نفقده بدون هذه النظرة التي سوف تتَلقَّنُها • هذه الخلاصة كانت تُعدُّها كل آثار غريول ومارسيل موس في الاثنولوجيا(٢) •

يشهد ميشال ليريس أثناء رحلته مع غريول بين الافريقيين ،تفكك حضارة ، انهيار زمرة ثقافات ، ويشعر الى أي مدى يفوته الاتصال مع هذه الزمرة • وببطء تتفكك شخصيته• ولايقترن يأس الاثنولوجي فقط بهذه المأساة ، مأساة عوالم مبتَلعة يغرق هو في غمارهما • بل

---

(١) Gallimard, Collection « Bibliothèque des sciences humaines ».

(٢) من بين ما تجدر مراجعته كتاب لمارسيل موسَّ : Sociologie et anthropologie (P. U. F.) : (وقد قدم له ليفي - شتروس) ، وكتاب لـ Michel Leiris بعنوان : L'Afrique fantôme شبح افريقيا (نشر Gallimard) .

ان كل فتح يُحرزه ، كـل نور يحفظه ، كل أسطورة يلقاها ، تكلفه انتظار الايام واليأس لدى الصعوبات ، صعوبات « المهنة » . فالاثنولوجي ليس أكثر من فاتح أو رائد أو نخّاس زنوج . يحتاج الى أموال وثقافة وطاولة عمله . ولكنه يجني الثمر أحيانا ، كما يقول الشاعر : « نظرة طويلة الى هدوءالآلهة ، يا للمكافأة تأتي بعد فكرة !» .
« ان صدمة البحاثة ازاء مجتمع لا يزالا حيا متمسكا بتقاليده قوية الى حد الذهول ... » (Tristes Tropiques, P. 184) .

يعمل ليفي - شتروس في زيارته لقرى الهنود الـ بورورو ، على الارض نفسها وبمستوى عال من التجريد ، وان يكن في ذلك مفارقة عظيمة في الظاهر . اذا أردنا مثلا أن نفهم معنى الحياة الاجتماعية عند البورورو في قراهم ، وجب علينا ادراك أن مختلف الاسر مرتبة وفق محاور عشائرية ، زمر رئيسة وتابعة ، وفق ألوان (أحمر وأسود ، راجع ص ١٩١) . فيلزم لتفسير جدي ذهن منطلق ، فيه طابع البنيوية . وأحيانا يطول بالباحث الطريق قبل أن يقف في سلسلة من الاقواس أو في الاسهم على العلامات التي تفسر مراتب كانت تتجلى في توزيع بيوت القرية . حينئذ تنكشف المجتمعات « البدائية » غاية في التعقيد . لكن هذا التعقيد ينمي النشاط الفكري على مستوى عال جدا . « قليل من الشعوب مثل البورورو في عمق تدينهم ، وقليل هم الشعوب الذين تطوّر مذهبهم الميتافيزيقي مثل مذهب البورورو » (ص ١٩٧) . الفهم حتى هنا مسألة ثقافة وذكاء . فالمقصود هو أن يعترف الباحث بوجود المفاهيم وبقيمتها . بل هو أكثر ، لان « المعتقدات الروحية والعادات اليومية وثيقة التداخل ، حتى ان القوم لا يشعرون على ما يبدو ، بالانتقال من مذهب الى آخر » . العمل البنيوي كله يقوم بالضبط على تبيان هذه الانتقالات ، على ادراك تمفصلات المذاهب المختلفة. حتى ليلاحظ ، آخر الامر، تداخلا غاية في الغنى ، بين البنى

الاجتماعية • لا شيء سدى أو لا معقول ، بل كل شيء مترابط • « ان دلالة المسكن البشري لتتجاوز الدلالة المقرونة بمركز الحياة الاجتماعية والدينية التي حاولتُ أن أصفها • لا تقتصر بنية القرية على اتاحة فرص نشاط المؤسسات الرفيع ، بل انها تلخص وتؤمّن العلاقات بين الانسان والكون ، وبين المجتمع والعالم الفوق الطبيعي ، وبين الاحياء والاموات » • يبدو لنا هذا النص اساسيا ، انه مفتاح الانطروبولوجيا البنيوية • ولا بأس أن ُنبرز مستوياته المختلفة وتطابقاته اللطيفة • المجتمع يمثله المسكن لا تمثيلا تأويليا ولكن تمثيلا « بنيويا » أي ان بنية المجتمع وبنية المسكن هوية واحدة • وكذلك القول في الديانة والحقوق والطقوس بشتى أنواعها ، والاحياء والاموات • البنية اذن هي ذلك الكيان المثبت في كل مكان والذي من مهمة الانطروبولوجي أن يخرجه الى النور ، البنية لا شعورية ، لا تلاحَظ : انها كيان ثابت ولكن هذا لا ينتقص قط من فعاليتها • تتبين ذلك في تحليل **البنى الاولية للقرابة** Structures élémentaires de la parenté وهو مؤلف أصعب منالا على جمهور القراء ؛ ينهج فيه ليفي - شتروس نهجا مخالفا للعادات المتعارفة ، منطلقا من تأليف يستخلص منه موضوعا ساد تفكيره ما يقرب من عشرين عاما ، ألا وهو التقابل بين الطبيعة والثقافة • قول بسيط ومع ذلك فالنتائج لا تقدر : ليس من انسان على الفطرة ، والطبيعة معطى يستحوذه الانسان ثقافة • لا شيء ، لا في دراسات ما قبل التاريخ ، ولا في علم نفس الحيوان ، ولا في علم نفس الاطفال المتوحشين[1] ، يكشف لنا عن **قاعدة** وحيدة تدل على الانسان • والحال أن الكلي في الانسان عائد الى الطبيعة ، وأن الثقافة نسبية وجزئية • ثم ان المجتمع

(١) يراجع القاريء بهذا الشأن كتاب لوسيان مالسون :
Lucien Malson, Les Enfants Sauvages, coll. « 10/18 », Plon.

البشري من حيث هو ثقافة وجد منذ أن حرّم السِفاح • هذا التحريم يطرح على عالم الاجتماع سرا هائلا ، لانه يبدي الميزات العامة للغريزة والطابع الاضطراري في **مؤسسة** قُرنت بها عقوبة اجتماعية لا تعرف الشنفقة واحيانا مأسوية • هذي هي المسألة التي تعرض لكاتب **البنى الاولية للقرابة** : « تحريم السفاح هو العملية التي بها تتجاوز الطبيعة نفسها • فتشعل الشرارة التي تتشكل تحت تأثيرها بنية من نوع جديد أكثر تعقيدا ، تتنضد على البنى الحيوانية الابسط منها وتتضمنها ، تعمل وتشكل بذاتها قيام نظام جديد » (ص ٣١) • هناك اذن واقع **طبيعي** هو قرابة الدم يحل محله واقع **ثقافي** : العهد ، الزواج بين طبقات معينة من الناس •يتكرر في الزواج طابع ينسبه دوسوسّور للالفاظ وهو الطابع التعسفي ؛ هذا يعني أنه مفروض على الناس اصطلاحا • فالقاعدة هي التي تكوّن الثقافة اذن • انها قانون يُحل التنظيم محل المصادفة • زد أننا نشهد تقدما اجتماعيا منذ أن تبدأ زمرة اجتماعية تبحث عن زوجات من الخارج (المصاهرة) لان زمرا أكبر تندمج بعضها في بعض• ويخضع هذا الاندماج لمبدأ التبادل المتقابل الموجود في تبادل الهدايا • نذكر هنا مارسيل موسّ[1] • نشاط آخر يفتح الطريق للمبادلات ، هو اللعب • فالمبادلة اذن ظاهرة كلية • ثم ان النساء تشكل في مراتب المبادلات من الملك أثمنه • بهن يتم الانتقال من الطبيعة الى الثقافة ويتفتح مؤسسة : الزواج جزء من نظام هبات مثل الضمان الاجتماعي•

يلزمنا كيما نحسن فهم ذلك أن نتحرر من الوهم القديم • هذا التحرر يشكل مع موضوع الطبيعة والثقافة فتحا كبيرا للبنيوية • اذ غالبا ما يعمدون في شرح « العقلية البدائية » الى تشبيهها (تشبيها خطِرا وخاطئا) بعقلية الطفل • وسعدا لها ! اذا لم تشبه بعقلية المجانين

---

(١) محاولة في الهدية : « essai sur le don » في كتابه المذكور آنفا :**علم الاجتماع والانطروبولوجيا** •

كما يوشك أن يفعل ليفي - برول (في العقلية البدائية : (La Mentalité primitive) • ويعمدون من اجل تشبيه الطفل بالبدائي الى البديهية المشهورة « تكوّن الفرد يكرر تكوّن النوع » أي ان نمو الفرد يمر في مراحل تاريخ النوع • يصدق هذا في علم الجنين ، لا في علم الاجتماع • ليس « البدائي » باقيا وشاهدا على طور تجاوزته البشرية ، على نحو ما يمثل أولادي صورتي اذ كنت طفلا • ناهيك أن ترسيمات عقل البالغ مستعارة من كل المجتمعات ولا تعود بكاملها الى الزمرة الاجتماعية التي فيها نشأت •

هذي هي المعركة التي تخوضها البنيوية ضد أكبر الاساتذة ـ معركة أساسية في الفكر المعاصر • حتى بياجه مثلا مصاب بوهم القديم الواجب علينا التحرر منه • فاذا نجحنا في محاولتنا صرنا أفضل استعدادا لفهم ما هي بنية المؤسسات (المؤلف المذكور ، ص ١٢٩) • المؤسسات « بنى ، الكل فيها ، أي المبدأ المنظّم ، يمكن أن يسبق تلك المجموعة المعقدة التي تكونها تكنولوجيا المؤسسة ، مم تتائجها ومتضمناتها ، مع الاعراف التي تعبر عنها والمعتقدات التي تنتج عنها » • وقد ينطوي هذا المبدأ المنظّم على قيمة عقلية دون أن يصاغ مفهوما عقليا • فلنتوقف هنا : الامر واضح • اذا قدمت لنا احدى الاساطير جاغوارا بمثابة زوج لامرأة فلا نذهبَنّ الى تفسيرات شعرية كاذبة قائلين بأن الجاغوار يمثل دون شك رجلا من عشيرة الجاغوار فاكتسب بالكناية هوية حيوانية • تفسير ذلك يجب أن نطلبه بعيدا كما تبين التحليلات الاسطورية في **النيء والمطبوخ** : لتفسير هذه الاسطورة يجب تحريك معقولية أعمق : معقولية المجموعات المتبادلة ، حيث كل حد دال يعود على المجموعة ، بفضل دورانه ، بسلسلة جديدة من التمفصلات بين العلامات التي تبديها الاسطورة •

مقايضة النساء سلسلة من تلك العلامات التي يعترف الانسان عن

سبيلها بالموجود شخصا آخر يعوزه (ص ١٤٧) وتعني العلاقات الجنسية عندئذ « اعارات كلية » ، النساء واسطتها ومناسبتها الرئيسية. يمكّننا مبدأ التفاعل المعمول به في هذه الحالة ، من أن تتعرف في ملتقى المؤسسة الزواجية ، نمطا كليا تقريبا ، هو الزواج بين النّسباء المتصالبين في القرابة . لنشرح ذلك باختصار : بنت عمي قرابتها معي موازية أما بنت عمتي فقرابتها متصالبة من جهة الاب ، وبنت خالي قرابتها معي متصالبة من جهة الام . في البنى الاولية للقرابة قد يكون لي نصيب في الزواج اما من بنت عمتي واما من بنت خالي . واحيانا يوجد في البنية تعيين (من جهة الاب أو الام) ثانوي جدا .

تكون التشكيلات في الحقيقة دائما أكثر تعقيدا . المحظورات عديدة ، لكن عبقرية ليفي - شتروس نجحت في ادخال قانون بسيط ترسيمة عقلية ، على تلك المجموعة على ما يتجلى من الغرابة فيها .وهذه الترسيمة عقلية الى حد أنأولئكالقوم يوفرون فيافاداتهم للاثنولوجيين مخططا بيانيا واضح التفسير .

في الزواج يجب دائما العطاء والاخذ . ويتيح الزواج بين أنسباء قرابتهم متصالبة الانتقال من التبادل الضيق الى التبادل المعمم . فلا يبقى امتياز للمعطي ولا للآخذ ، اذ ليس الامر شراء . لم يعد الشراء سوى أحد وجوه التبادل . ويختصر ليفي - شتروس في صفحة رائعة تبادل الزوجات حسب هذا المفهوم (ص ١٩٨) : « لقد وضعنا اولا الشعور بالتقابل : تقابل بين نمطين من النساء ، أو بالاحرى بين نمطين من العلاقات الممكنة بين الرجل والمرأة : فهي اما اخت أو ابنة يعني امرأة تخلّيَ عنها ، واما زوجة يعني امرأة مكتسبة ، واما امرأة قريبة أو منتسبة ، وقد بيّنا كيف تنشأ ن هذا التقابل الاولي بنية تفاعل تقضي على هذه الزمرة التي اكتسبت بأن ترد المقابل ، وللزمرة التي أعطت بأن تطالب : فتحققنا هكذا من أن أبناء الاعمام في زمرة ما

يخرجون من أسر في نفس الوضع الصوري الذي نجد فيه توازنا ساكنا ، في حين أن أبناء الاخوال والعمات وغيرهم من ذوي القرابة المتصالبة ، يخرجون من أسر في وضع تَضادّ ، أي ان بعض هذه الاسر بالنسبة للبعض الآخر في عدم توازن حراكي ، هو وراثة القرابة ، لا حل له سوى التناسب فعلاقة التبادل معطاة سلفا للاشياء المتبادلة وبصورة مستقلة • ولئن تساوت المملوكات فيما بينها اذا ما اعتبرت كلا على حدة ، فانها تزول عن هذه الحال اذا ما وضعت في مكانها الخاص من بنية التفاعل » • يختتم ليفي - شتروس نوعا ما بهذه الصفحة مدخلا الى تحليل آخر يواصله ، بعد أن سبك تأليفا في دراسة له حول النظم الاوسترالية • نعلم منه أشياء مشوقة للغاية رغم جنوحه الى التبحر (الكتاب أكثر من ٦٠٠ صفحة) مما يحملنا على ترك تعليقاتنا هنا في سبيل بعض الخواطر • كان مارسيل موسّ قد أجاز أن يعتبر التبادل فعلا غير لازم لزوما طبيعيا عن الاندفاعات الانسانية • أما فضل ليفي - شتروس فهو أن جعل ذلك على مستوى يُمكّن من صوغ قاعدة (الترسيمات بهذا الصدد مثال حقيق بالاعجاب ، على ذلك الضبط) • فيتجنب من ثم ليفي - شتروس العقبة الفينومينولوجية التي كان يمكن أن تقضي باستعراض مختلف عمليات التبادل كلا على حدة ، رادة اياها الى « الشعور الحياتي » في نفوس المتبادلين • تنكشف البنية في عمقها وكأنها آلية • انها اجرائية ، ولا خجل بعدُ منذ ليفي - شتروس من تهمة النزعة العلمية • لا بل قد تكون التهمة ثناء يجتهد المرء لاستحقاقه ، اذ ان ما يحصل في الانسان يجب امكان انشائه انشاء موضوعيا • ولهذا السبب يجدر أن يؤخذ بعين الاعتبار ذلك المظهر اللا شعوري من البنية الذي استلفتنا اليه الانتباه من قبل • ما وراء الصور العديدة للتجربة نجد القواعد البنيوية الاساسية التي تسيّرها • في هذه البنية الاجرائية واللا شعورية نجد الرباط بين الأنا والآخر •

فالمنظومة هي التي تكشف لنا حقيقة الظاهرة الاجتماعية ، لا الوجود .
وتندلع هنا من جديد المساجلة القديمة التي فيها كيركغارد يعارض هجل بمفهومه للوجود وللذاتية ، المساجلة بين الوجودية حوالي سنة ٤٥ والماركسية التي كانت تُتهم بالارهاب (راجع : انسانية وارهاب[1] (Merleau Ponty, Humanisme et terreur لانها مذهبية (كان ينهمك في تبريرها آنذاك بعض الماركسيين الفرنسيين تبريرا مازوكيا). تصوغ التجربة الاجتماعية منظومة تنحو نحو الرياضيات . هذا عدا أن السيد Barbut بيّن باسهاب (في عدد تشرين الثاني ١٩٦٦ من مجلة Les Temps Modernes) وضع تلك الترسيمات الرياضية موضع العمل في البنيوية . ولم يفت الناقدين أن يأخذوا على ليفي - شتروس نهجه العلمي هذا المتطرف . فمنذ شباط ١٩٥١ قذفوه بلازمة الهجوم في مجلة Les Temps Modernes ، حيث نقرأ لـ كلود لفور Claude Lefort : « ما يمكن أن يؤخذ على ليفي - شتروس هو أنه يدرك في المجتمع « قواعد » لا « تصرفات » حسب تعبير موس ؛ انه يصطنع لنفسه معقولية كاملة على أساسها يرد البشر والزمر الاجتماعية الى وظيفة مجردة ، بدلا من أن يبني هذه الوظيفة على علاقات مشخصة يعقدونها فيما بينهم » . حسبه هذا ! بديهي أن الانتقاد بهذه الحدود لا يفي بالغرض . وكل مرة يدعي أحد احلال « الحياتي » محل « المذهبي » ، بمثل هذه الصيغة لا يفعل شيئا سوى استعادة مفاهيم المشادة التجريبية : انه يُحل التجربة الذاتية محل المفاهيم الاجرائية . هذا مجرد عود الى مرحلة قبل علمية . مثل هذه الانتقادات ، وان أغنت الادب الظواهري بصفحات موفقة حقا ، لا يمكن أن تشكل نقاشا جديا . وسنرى فيما بعد أن ليفي - شتروس اذ يُبقي تحليلاته على مستوى عال من التصور ، لا يضرب عرض الحائط بالحياتي ، لكنه

---

(1) Gallimard, Collection « Les Essais »

بالاحرى ينزع الى التنبيه الى وجود مقولات ، منطقية ، في المعرفة يرد عليها قيمتها •

أهم من ذلك هو النقاش الذي دار بين جورج باتـاي" وليفي - شتروس [١] •• لان جورج باتاي" يرفع من شأن المفهومين : المحظور والخروج على ، في كل دراساته حول العشق • فالتخلي « الارادي » عن فئة معينة من النساء ، انما ينسبه جورج باتاي" بالاحرى الى ذلك الجنون المقدس الذي يدخل في روعنا المحظور (وليفي - شتروس نفسه يعترف أن الامرأة المحظورة تغـدو اكثر استدعـاء بسبب من هـذا الحظر) • وباتاي" لا يعجب أن يكون التبادل الذي وصفه ليفي – شتروس ملتبسا ، اذ يثير بنفس الوقت الحساب والسخاء • العشق نفسه يحسب ويعطي ، يتناوب فيه الاغراء والرعب ، الاثبات والنفي • أما الموضوع فالتفاوت بشأنه أكبر • « لا تعطينا قضايا ليفي–شتروس سوى جانب خاص من عملية الانتقال من الحيوانية الى الانسانية ، مسألة يجب النظر فيها جملة » • بهذه الجملة تتلخص تلك المناقشـة الهامة (ص ٢٣٥) • عند باتاي" أن ليفي–شتروس يفيدنا بدقـة « غير مرتقبة » عن جانب من خطر السفاح هو جانب الشرح المقتصد• ومعقول أن لا يتوقف باتاي" في بحثه عند الشرح المقتصد للمحظوربل أن يسلك وهو واضع رواية « أمي » طريقـا أخرى تضـع موضع التساؤل مسألة الخروج على التحريم • السّفاح لا يستمد قيمته فقط من الحظر المقتصد ولكن من ذلك المقدّس ننتهكه ، وقد أثارنا فرويد، وتعداه ، بقدر ما يؤيد باتاي" استاذه Léon Chestov في أنالانسانية الحق انما تبدأ في ما وراء الحدود الانسانية •

---

(١) أعيـد نشره في : L'érotisme (coll. « 10/18 », chez Plon) بعد أن ظهر في : Critique .

هذه المقارنة تعود بنا في الحقيقة الى مسألة أنطروبولوجيا ليفي-شتروس • لانه اذ يعين البنية التـــي تقوم بوظيفـــة اجرائية في قلب المجتمعات التي يصفها يوحي لنا أول الامر بالكليـــة • فنخالنا قـــد اكتشفنا قانون الجاذبية الكلية في المجتمعات البشرية • ثم نقترب قليلا وننظر فنقول مـــع Leroi - Gourhan ان اثنولوجيا مجتمعاتنا الحاضرة المتطورة مشروع ما يزال بحاجة الى انشاء • ليتنا نستطيع ان نعين البنى الاولية لمجتمعنا الغربي ••• ولكن رغم أعمال جديرة بالثناء ومرموقة جدا ، لم تعد تستقيم الامور • يتبين لنا سريعا أن ليفي-شتروس يستطيع تطبيق تحليله بنجاح على المجتمعات التي توقفت في نموهـــا منذ زمن طويل (أو التي تبدي بعدُ تبدلات طفيفة لا تُشَبَّه بالتغيرات الكبيرة التي تميز مثلا منذ قرن « المجتمعات الصناعية ») • فتسمى هذه المجتمعات ، مجتمعات « باردة » ، ويمكن القول ان تحليل ليفي-شتروس لا يُطبق على المجتمعات المتطورة ، في حين تثبت فعاليته فـــي المجتمعات المتوقفة • حين لا يستبد التاريخ بمجتمع تظل البنى فيـــه راكدة • وعندما يكون الامر على العكس فيلعب التطور دوره ، تصبح البنية مجالا لاعادة انشاء فيه تتميز تاريخا بنيويا ، ولكن لاتجري فيها أبدا أنواع التحولات عينها التي يتبينها ليفي-شتروس في مجتمعات البورورو والكنواكيوتنل • واذا تفحصنا عن كثب انطروبولوجيا ليفي-شتروس بدا لنا بوضوح الطابع الجوهري فيها ، أنها عقلانية وليست مثالية كما يخيل الينا لاول وهلة • يتقوّى فيها التجريدُ كـــون الانطروبولوجيا تلعب في عصرنا الدور الذي لعبته الفلسفة في العصور القديمة • تظن علوم الانسان أنها أطاحت بالميتافيزيقا أو كادت ، عـــن عرش الكليات، لسبب على الاقل، أن موضوعها هو الانسان، لكنها حتى حين تزيح الانسان تترك الاطار الذي كان فيه فارغا • ولا تسيّن من جهة أخرى أن **الانطروبولوجيا** لاتزال تدور في فلك الوضعية نسبيا،

عند بعض الانطروبولوجيين،امثال الانكليزي Pitt - Rivers والاسباني Julio Caro Baroja كـاتـب Las Brujas Y us mundo :**الساحرات** وعالمهن" (وهو غير الكاتب القصصي Pio Baroja)•والانطروبولوجيا تخشى تطبيق الرياضيات الكلية قبل الاوان على مجموعات لا يمكن ترسيمها • لقد نشر P. vidal Naquet مقالا حول هذا الموضوع في مجلة [1] Raison présente : العقل الحاضر ، كتبه Edmund Leach في ليفي-شتروس تاركا فيه طابعا قويا للروح « البريطانية » • وليتش وهو « معيد للانطروبولوجيا » في جامعة كمبريدج يذهب الى القول بدعابة لاذعة : « ان البنى وان اعتبرت في أحسن الاحوال فشلا رائعا ، تتضمن في الواقع فكرة أساسية بعيدة المدى : ان السلوك الاجتماعي أي المعاملات التي تبرم بين الافراد تجري دائما وفق ترسيمة ذهنية ، نموذج يدل الشخص كيف هي الاشياء أو كيف يجب أن تكون • الميزة الاساسية في هذا النموذج أنه مرتب ترتيبا منطقيا ••• » (ص ٩٩) •

البنية خفية • هذا ما يقرّب أنطروبولوجيا ليفي-شتروس من علم اللغات • وتقنية الاعلام تعلمنا كيف نفكك في الرسالة (المحتوى الظاهر) رموز مدونة ليست محسوسة ، الا اذا كنا أللهم نعمل على آلة نضع فيها المدونة والرسالة معا •

كتاب **الانطروبولوجيا البنيوية** يقدم لنا بعض الدراسات بهذا المعنى ، جذابة كثيرا وقوية الدلالة منها : « اذا كان النشاط اللاشعوري للذهن يقوم كما نعتقد على أن يفرض صورا على المحتوى واذا كانت هذه الصور هي هي في جوهرها عند كل الاذهان البدائية ــ قديمة أو حديثة ــ كما تبينه تبيانا ساطعا دراسة الوظيفة الرمزية على نحو ما

---

(١) العدد ٣ ، أيار ــ حزيران ــ تموز ، ١٩٦٧ .

تعبر عن ذاتها في اللسان ، يجب ويكفي أن ندرك البنية اللاشعورية الكامنة تحت كل سُنّة وكل عرف ، حتى نحصل على مبدأ للتفسير يصدق على مؤسسات أخرى وأعراف أخرى ، هذا طبعا شرط أن نبعد في التحليل بعدا كافيا[1] » .

والاحالة الى علم اللغات في موضوع القرابة تؤدي الى مفهوم غني جدا ، مفهوم الرمز : « منظومات القرابة ، لانها منظومات رمزية، تقدم للانطروبولوجي مجالا ممتازا ، تستطيع عليه جهوده أن تلحق تقريبا (ونشدد على تقريبا) بجهود علم الاجتماع الاكثر نموا ، أي علم اللغات » (الانطروبولوجيا البنيوية ص ٦٢) . وشرط الوصول الى توسيع هذا الموضوع هو أن نعتبر رموزا الالفاظ التي تعبر عن السلسلتين . اذن تبين **الانطروبولوجيا البنيوية أن النظرية البنيوية تقوم في جوهرها على تمييز شبه أرسطاليسي بين الصورة والمضمون ، بحيث تكمن أصالة البنيوية في طريقة تصورها لارتباط الصورة بالمضمون .**

تظهر اذن الاصالة العميقة لانطروبولوجيا ليفي-شتروس في مناقشته لـ الطوطمية . عدا الطرائق التاريخية الكلية القدرة ، كان أمامه مسلكان : أحدهما وظيفية مالينوفسكي الذي يرى أن البراهين الكلاسيكية تبررها المنفعة ؛ والآخر هو الانطروبولوجيا الثقافية الامريكية ، التي تمثلها Margaret Mead[2] و Ruth Benedict وقد ذكرنا هذه في فصل سابق ، والتي كانت تقدم نماذج شرح تحليلية.

---

(١) الانطروبولوجيا البنيوية ، ص ٢٨ .
Anthropologie structurale, P. 28

(٢) Mœurs et sexualité en Océanie, Plon. L'un et l'autre sexe, Gonthier, éd.

يتميز موقف ليفي-شتروس الذي يجلوه في نقاش مع بول ريكور[1] بوجهة نظر كانتية : تقوم المسألة عنده على تبيين الحدود التي تنحصر فيها التفسيرات ، وأن هذه الحدود ، رغم انغلاقها فعليا ، هي شروط امكان ، وأنها بالتالي تجد خصبها في محدوديتها عينها . هذا القانون وهذا التنظيم الذي تفرضه تلك التفسيرات على مختلف الظواهر ، هذا الترتيب الباطن في كثرة الظاهر ، كل هذا يحملنا على الاعتراف بقيمة عبارة ريكور حيث يقول ان بنيوية ليفي-شتروس هي « كانتية بدون الانا المتعالي » . قد لا تعني هذه العبارة كبير أمر ، لانه ماذا يمكن أن تكون كانتية بدون ذات تكوّن العالم بجعله يظهر تحت قانون مقولات الحساسية والفهم ؟ على أن كلمة كانتية تبرز بالضبط عقلانية هذا النهج . فهو ، حسب ملاحظة سديدة للاستاذ ألبير لاشيزره[2]، يترك مسألة مفتوحة ، مسألةَ من **يكوّن البنيــة** . ربما يعتبر ليفي-شتروس مسألة ذات مكوِّنة البنية مسألة ميتافيزيقية ، اذ انه يتطرق لحقــل المعرفــة ، بــدون هــذه المسألة ، لا فــي تحليلاته الرائعة لـ **الفكر المتوحش** ولا في **الاسطوريات** .

منطلقه في هذه الكانتية هو رفض مقولــة الجملة totalité الديالكتيكية . ثم ينتهي كتاب **الفكر المتوحش** بدراسة طويلة فــي هذا الموضوع . ومــا يأخــذه ليفي-شتروس علــى ســارتر مــؤلّف **نقــد العقــل الــديــالكتيكي** Critique de la Raison dialectique هو اعتبار أفق الجملة هذا هيمنة تاريخية . فيقول : « ان تاريخا كاملا حقا يُبطل نفسه : لان حاصل ضربه يساوي صفرا » (**الفكر المتوحش** ص ٣٤١) . لان للتاريخ مدونة خاصة هي جدول الزمن (في الحقيقة،

---

(١) Cf. No. Esprit sur La pensée Sauvage et le Structuralisme, nov. 1963

(٢) مناقشة للبنيوية لم تنشر .

التاريخ بنظر البنيوي تَزَمُّني وَحسبُ ، وقائعي) . يرى البنيوي في التاريخ نقاطا حارة : ١٧٥١ ــ ١٧٨٩ ــ ١٧٩٣ ــ ١٧٩٥ ــ ١٨٠١ ــ ١٨٠٢ سلسلة تمتاز بالغليان في حين أن بعض السلاسل « باردة » . والحال أن المدونة التاريخية تقوم على « زمر من التأريخات » لا على « خطوط تسللت خلسة » لتعيد « الاتصال التاريخي » . اذن ليس في الواقع من جملة تاريخية يمكن تحليلها تحليلا ديالكتيكيا ، بل تواريخ لا ارتباط لها بالانسان تلك الذات التي يغمرها التاريخ كما يقول البعض (أهل النظرية الميكانيكية) ، أو التي تصنع التاريخ كما يقول البعض الآخر (أهل الديالكتيك) .

يتضمن هذا وضعا للبنية بالنسبة لتعيينات البنية التحتية ... يُداعي ليفي-شتروس بتلمذته لماركس ويرى أن البنى التحتية ، الاقتصادية خصوصا تفعل حقا في الاتجاه الذي أشار اليه ماركس . لكن البنى التي يستجليها هو تفعل في الانطروبولوجيا ، على المستوى الثقافي ، حتى ولو على ارتباط وثيق جدا بالحاجات . هذا هو منطلق التحليل الاسطوري الذي يستمر خلال المجلدين اللذين اصدرهما في مسألة تفسير الاساطير . لنلاحظ عابرين أن ليفي-شتروس يسهم بعمله هذا في اعادة طرح المسائل بألفاظ علمية ، المسائل التي وسَّعها ريكور في مؤلفه حول فرويد . والمشادة الفلسفية الكبيرة في الوقت الحاضر تدور حول مسألة التفسير هذه وبقسم هام حول كتاب ريكور .

لب النقاش يدور حول مسألة الرمز في نفس الاتجاهات التي وجدناها في علم اللغات .

والرمز الذي ينمو في الاساطير ليس مطلقا ، « قد قيل كل شيء وبقي علينا أن نفهم » . كان ليفي-شتروس قد اقترح في مؤلف سابق، **ملحمة أديسواي** La Geste d'Adiswai ، زبدة تفسيره : أن ليس

للصور والرموز معنى أزلي ؛ وموقعها هو الذي يعين معناها وليس العكس (كماجاءعنديونغ حيث النموذج الاصلي يطبع الحلم بالمعنى الاولي)• والموقع يُحَلَّلُ بألفاظِ تقابُلٍ ، لان المنطق الداخلي لمواقع الصور الاسطورية هذه ، ينبني في منظومة تتضح في نهاية المقطوعة ، بعد أن تمر من تقابل الى الآخر • فالـ ٨٥٠ صفحة في مجلدي **الاسطوريات** تحاول أن تغلق هذه المنظومات ، ثم تعود فتفتحها (اذ انها تؤذن بمجلد ثالث) • لكن مجموعة الاساطير المحللةوالمترابطة داخل «زمرة التحول» وان بدت لا تنتهي عندما يعرض توزيع آخر ، فان فهمها فهما كاملا يتوقف عمليا على انفلات المنظومة • وهكذا ينطلق المؤلف من النشيد البوروري وبكلام أدق من اسطورة بورورو Oxibal e iari الارا وأعشاشها ، التي يرقمها M1 جاعلا منها أسطورة مرجعا ،ويمضي في تحليل ٣٥٣ أسطورة ، يضاف اليها اختلاف الروايات • في الصفحة (٤٩) يعود الى ترسيمة القرية البوررورية التي تقدم له عناصر بنيوية ثمينة ، ليقودنا بين تحولات M1 • أهم شيء من حيث المنهج هو اتباع ما تقول الاسطورة ، حتى اذا ناقضت « الواقع الاثنولوجي الذي تدعي الانتساب اليه » (ص ٥٣) • فنهجُه يمثل شرح نص بالمقارنة والتبديل• وبما أنه لا يتم شرح تفصيل من التفاصيل ما لم تدرس توسعاته واختفاؤه على مدى العشرين قبيلة امريكية المعنية بالدراسة ، يعمد المؤلف الى دراسة مختلف « التنويعات » التي تطرأ على الاسطورة حسب وجهة نظر موسيقية، باعتبار أن الاسطورة المرجع تقدم الموضوع، في حين تمثل الاسطورات الاخرى « التنويعات » • بديهي أن وجهة النظر هذه لا يمكن أن تنطبق والنهج الموسيقي على الصعيد التقني •

اذا لم تتصف التنويعات الاسطورية باحكام تنويعات غولدبرغ أو مقطوعات باخ ، نجدنا مستدرجين تقريبا للقول : لقد فُقدت اجزاء من اللوحة على أثر عدد من الظروف والكوارث • على أنه بعد اجراء

التجربة بمواد قدمت معظمها الاساطير الامريكية ، يبقى المثال الاعلى أن تتمكن من اقتراح لوحة ، اجمالية تكون رسالة الاثنوغرافيا أن تمضي في سبيل انتزاع ما فقد من أجزاء هذه اللوحة • أنكون هنا ازاء جدول قبلي يسود التجربة مثل تصنيف مندلييف ! يا للحلم ! تشكل الاساطير شبه جدول تبقى فيه نقاط شاغرة • وتؤلف عدة مسلسلات من الاسطورة M1 زمرة متماسكة • **النيء والمطبوخ** يتتبع جيدا الخنزير البري والافعى والجغوار في اسفارها الصوفية • لكن الوحـدات تظل احيانـا ، رغم وجودها على نفس الخط ، متقطعة ، ولا نستطيع الحصول على منظومة دلالات الا ببناء هذه الوحدات • فتكون المسألة الهامة حينئذ أن نعرف كيف يتم الانتقال من « الكم المتصل الى الكم المنفصل » (انظر الصفحة ٦١) • هذه المسألة يحلها الاوجيبوا والبورورو كل على طريقته •

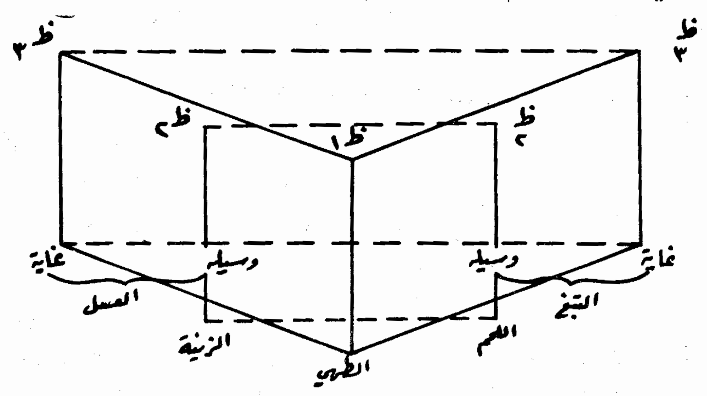
يحقق ليفي-شتروس بهذه الطريقة نمطا من الشرح مدهشا الـى حد ما : « نعتزم البرهان على أن M1 جزء من زمرة أساطير تشرح نشوء طبخ الاطعمة (وان يكن هذا الدافع غائبا في الظاهر) ، وأن أولاء القوم يتصورون الطهي توسطا ، وأخيرا أن هذا الجانب يبقى محجوبا في الاسطورة البورورية لانها عبارة عن عكس أو قلب لاساطير نشأت عند أقوام مجاورة ترى في عمليات الطهي نشاطات وسيطة بين السماء والارض ، بين الحياة والموت ، بين الطبيعة والمجتمع »[١] • ان النظر في الوحدات المتقطعة ، أو بكلام آخر الخصائص الاسطورية المنفصلة ، يجبرنا أن نعمد الى الجملة ، وأن نعتبر جملة الاساطير تقتضـي شرحا على عدة مستويات •

فيمكن هكذا أن تتكامل أساطير أغراضها مختلفة جدا ، مثل أساطير الجاغوار والتابير ، الافاعي والتابير ، الخ •• ، أن تتكامـل

(١) النيء والمطبوخ ص ٧٣ . Le Cru et le Cuit, P. 73

بتقابلها َمثـْنى مَـثْنى • هذه الحدود المتقابلة تفتح الاسطورة وتغلقها بالتناوب ، بحيث نعود الى نقطة الانطلاق عندما تنضح الاسطورة عبر سلسلة تامة • كما أن تحصيل الحاصل في الرياضيات (تكرار نفس الاشياء) « غني » ، « ايجابي » ، « مليء » ، الخ •• ، هنا أيضا يعتبر الدورُ أرفعَ صور التفسير • ولكن ، كما أن المثلث يعتبر في الطوبولوجيا دائرة شأن كل شكل مُغلق كذلك البنية في علوم الانسان تغلق الشرح دون أن تخضع حتما للقوانين « الدائرية » •

يمكن لايضاح ما هي البنية أن نعمد الى الترسيمة التي خطها ليفي-شتروس في الصفحة ٢٥ من كتابه ، **من العسل الى الرماد** ، والتي ترينا كيف يتم الانغلاق •



نتطلق من منظومة اسطورية للطهي ظ١ ، فنجد في جانب الطبيعة منظومة ثانية ظ٢ ، منظومة اللحم ، وفي جانب الثقافة منظومة ثانية ظ٢ للزينة (ريش الارا ، علب من ريش) ، ثم ننهي شكل الترسيمةبمنظومة ثالثة ظ٣ حيث نجد في جانب الطبيعة ، جهة الاستهلاك ، التبغ الـذي يرتقي الى مستوى الثقافة حين يصبح غاية (في الاتصال بالارواح) ،

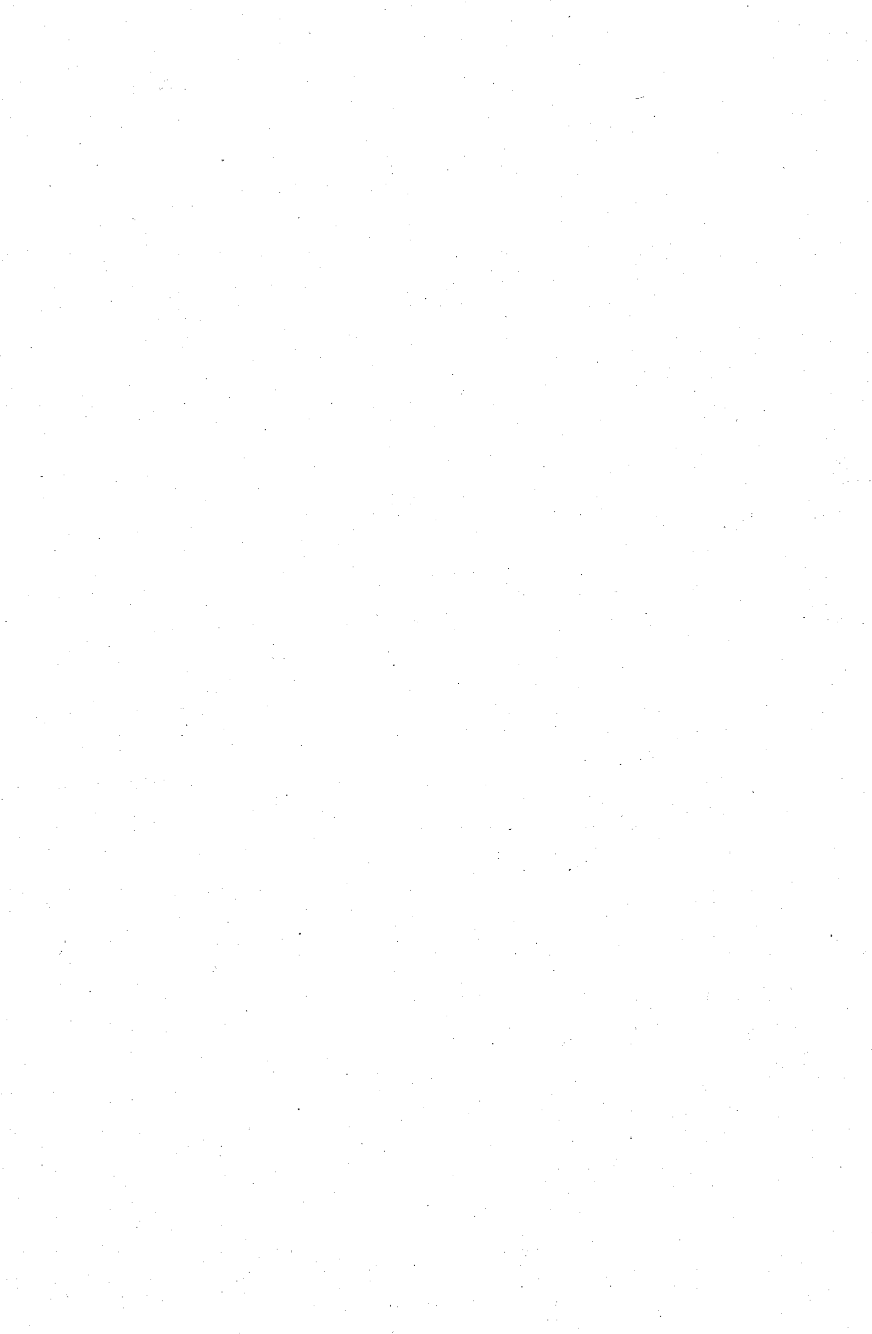
وفي جاذب الثقافة العسل الذي يؤكل دون تحضير ، والذي لكونه لا يستهلك من بعض النواحي يبدو محرّضا ثقافيا حقيقيا . هذي هي الترسيمة التي يفتتح بها ليفي-شتروس المجلد الثاني من **اسطوريات** . فعلينا من ثم أن ننطلق في طلب ظ٣ . تبدو هذه المنظومة عبارة عن سلسلة من التحولات . نعمد من أجل تفسير هذه التحويلات الى النظرية العامة في الاعلام،حيث يبدو معنى الرسالة ثابتا مهما كانت كمية المعلومات المنقولة وأيا كانت الاصوات . بل هناك أكثر : في دراسة الاساطير يستقيم سير عمل الاعلام بمقولات حسية لا عقلية : النيء والمطبوخ ، الجاف والرطب ، تصطحب معها موكبا قوي الدلالة من الضفادع والحرادين ، الـ « زكي الرائحة » والـ « خبيث الرائحة » ، فكانت تسمعنا (بتحويل المشموم الى مسموع) معزوفة الساريغ . وكذلك نجد الاحكام التقويمية التابعة للمتنوعات الحسية،كالخير والشر مثلا ، تتحد بالصمت والضوضاء . حتى لنعجب من رؤية دراسة ليفي-شتروس تتلاقى مع أدق المؤلفات التاريخية . اذ ان ليفي-شتروس يبين بتحليله للغوغاء (في كتابه Le Cru et le Cuit) نفس التقييم الادبي للضجيج الذي عاد فاكتشفه ناتالي دافيس في الغوغاء التي نظمتها جمعيات الرفاق الليونية في القرن السادس عشر[1] . فنرى اذن من هذا التفصيل الذي انصب عليه تحقيقنا ، مدى اهمية التحاليل الساحرة التي كتبها ليفي-شتروس . ما أبعدنا هنا عن تلك الكآبة الجليلة التي كانت تسود المداريات ! ترى هل أعادت الاملَ الى الاثنولوجي الحركةُ العميقة التي شهدها في الشعوب النامية ؟ يلاحظ القارىء أنا لا نؤيد الرأي القائل بأن البنيوية تلغي التاريخ ، وبأنها ، كما يرى سارتر ، فكر رجعي لعصر يدافع نفسه ، على غرار ما يفعل المحافظون حين يزنون النتائج للمحافظة على موقفهم . لن تقدم لانسان

(١) في رسالة ألفها لجمعية التاريخ في ليون .

الغد شيئا من الثقافة والحرية ان لم نحسب ما يجب انقاذه خشية الموت جوعا • لقد أفرزت الانسانية عبر العصور الطويلة أساليبها في السحر ودياناتها وفنها وألسنها ، فلن يمحى بنفخة كل ذلك • ليست على شيء من التقدم تلك النظرية المستقبلية التي ترمي الى قتل الجزئي (اللغات المحلية مثلا) ، هذا اذا تجاوزنا مرحلة بعض الآراء العدمية الفطيرة • ولئن يقم شيء بعد تواري الحضارات التي لا تموت أبدا موتا طبيعيا، على الافق المطفأ أفق العقليات غير الغربية ، على أنقاض عالم أفرغ مـن الدلالات التي تجهد الانطروبولوجيا في استرجاعها قبـل أن يفوت الاوان ، فلن تقوم الا الآلة العظمى ، الاستئصال المطلق لكل دماغ ، ذلك المستقبل الكلي الذي لا غد بعده ، عنيت التفجر الذري •



حاشية كتيبة



نسكت هنا تجنبا للاسهاب في كتابنا هذا ، على كتاب لوسيان سباغ ، Lucien Sebag : Structuralisme et Marxisme, Petite Bibliothèque Payot. كتاب يستحق أكثر من أن نسكت عليه ، وسنعود اليه في غير هذا الموضع . هذا الكتاب لمؤلّف ماركسي ، يدور في فلك ليفي-شتروس .



الفصل السّابعُ

التوسر: الماركسيّة والبُنى



ان الماركسية بمسائلها وتوسعاتها المتقدمة قد جعلت في غاية الصعوبة تناول مؤلفات ألتوسّر ومؤلفات لاكان •

ونعرف ما لمسألة النظرية والممارسة من الاهمية بين المواضيع الكبرى في الماركسية • يميز ألتوسّر مستويات مختلفة من الممارسة : اقتصادية وسياسية وايديولوجية وعلمية ، مسلّما لهذه وحدها المفتاح النظري لتلك الممارسات • لكن النظرية العلمية هذه يشوبها في الماركسية سلسلة من المفاهيم الكاذبة والايديولوجيات المتوفرة عند انجلز في كتابه Dialectique de la nature (Editions Sociales) **ديالكتيك الطبيعة** • فاذا أضفنا الى ذلك اشكالية العمل حصلنا على ما يسميه فوكو الماركسية التخمينية أو الماركسية المبتذلة كما يقول ألتوسّر ببساطة • هذه الماركسية المبتذلة تجهل أن العمل لا يمكن أن يجد نظريته الماركسية الا في الاقتصاد ، وأن الاقتصاد « كل" معقّد معطى دائما سلفا » ، تتمفصل فيه علاقات انسانية لها معناها بصورة مستقلة عن وعي الناس أو انتباههم لهذا المعنى • فاما أن يكون المرء ماركسيا **باللجوء** الى ماركس واما أن يكون ماركسيا **بالرجوع** الى ماركس • ومشروع التوسّر ينطوي فعلا على استعادة للماركسية من زاوية النظرية العلمية المعاصرة • ولباب الامر لن نكف

عن ترديده مع ألتوسّر نفسه : المقصود هو أن نطبّق على ماركس مفاهيم فلسفة العلوم الماركسية (الجزء الاول ، ص ٢٤) • ويذكرنا ألتوسّر ، اشارة الى طريقته في البحث ، بمفهوم الاشكالية الذي يعود الى جاك مارتان ويعني الوحدة النوعية في تشكّل نظري (ج ١ ، ص ٢٤) • يضيف اليه مفهوم **الانقطاع في فلسفة العلوم** ، الذي يستعيره من باشلار « من أجل تصور التحول المفاجيء في اشكالية معاصرة ، اشكالية تأسيس فرع جديد من فروع العلم » (وهذا أيضا نجده في مؤلفات فوكو) • أذكر هنا مرورا التحليل النقدي لمراحل ماركس والذي يقوم في جوهره على تبيان أن ماركس ، في ما يخص علاقته بهيجل أو بـ فويرباخ قد اقتصر على استعارة مفاهيم تخلص منها منذ ١٨٤٥ ، ليؤسس في نصوص سنة ١٨٥٧ ثم في **رأس المال** ، نظرية لم تكتمل ، مفاتيحها حاضرة في قول ماركس ولكنها غالبا لاترى •

في مؤلف له حول ماركس الفتى كتبه بمناسبة عدد من مجلة Recherches internationales (الكراس رقم ١٩) ، يقدم لنا صفحة جوهرية أستعيدها (Pour Marx, P. 59) ، فهي تضع المبادىء التالية :

أولا — ان كل ايديولوجية يجب أن تعتبر كلا حقيقيا توحده داخليا اشكاليته الخاصة بحيث لا يمكن أن يستل منه عنصر دون الاخلال بمعناه • (هذه منطوقة بنيوية تستفيد من أبحاث جاكوبسون في علم اللغات مثلما تستفيد من أعمال ليفي-شتروس حول القرابة • تظهر فيها أيضا فكرة المنظومة ، ولكن سنرى أن هذه المنظومات ، على عكس الاشكالية الفينومينولوجية والوجودية ، لا تتقابل وفكرة الوجود ، لان الوجود العيني هو الذي يقدم البنية والنظرية) •

ثانيا — « ان هذه الايديولوجيا المتميزة ككل تابعة في معناها ،

لا لعلاقتها بـ **حقيقة** مختلفة عنها ، ولكن لعلاقتها بالحقل **الايديولوجي** الموجود ومايسنده وينعكس فيه من **بنى ومسائل اجتماعية ؛** ان معنى نمو ايديولوجيا متميزة ، لا يتبع علاقة هذا النمو ببدايته أو نهايته على اعتبارهما حقيقته ، بل يتبع العلاقة القائمة في هذا التوسع بين تحولات هذه الايديولوجيا المتميزة وتحولات الحقل الايديولوجي وما يسنده من المسائل والعلاقات الاجتماعية » (ص ٥٩) •

ثالثا ــ ان المبدأ المحرك لنمو ايديولوجيا متميزة لا يكمن في قلب الايديولوجيا نفسها بل خارجها ، في ما قبل الايديولوجيا المتميزة، أي في مؤلّفها من حيث هو فرد مشخص ، وفي التاريخ الفعلي الذي ينعكس في هذا النمو الفردي حسب الروابط المعقدة بين الفرد وهذا التاريخ •

يؤكد ألتوسر هنا على أن مقصوده هو المباديء العلمية ، يعني بكلام يبين ملامح هذه الكانتية التي لا ينكرها ألتوسر ، أن المباديء صحيحة من حيث هي « شروط لطرح مسألة بصورة مشروعة » (ص ٥٩) •

فيكون من ثم بدء مطلق للايديولوجيات (قطيعة ابيستيولوجية) هو بمثابة مسرحية ذات « أشخاص ايديولوجية مشخصة يفرض عليها السياق الايديولوجي وجها معينا لا ينطبق حتما مع هويتها التاريخية الحرفية » (ص ٦١) • هذه هي نظرية المجموعات التاريخية عند ألتوسّر • هنا تنطرح مسألة فينومينولوجيا هذه الجمل التاريخية • اذ ان الايديولوجيا تستطيع أن تؤلف على المستوى الوصفي جملة منظمة، لكن هذا يسوغ فقط على مستوى فينومينولوجي أما النظرية فتعمد الى البنى الانتظامية النموذجية في كل ايديولوجيا (أعتقد أني أرى في هذا بعض ظلال كاسّيرر) • انه على هذا المستوى يمكن أن تقام

علاقة بين اشكالية عصر واشكالية عصر آخر • يجب أن نعتبر مادة التفكير (مضمون المنظومة) أقل تشخصا في النظر ، أقل عينية من وجهة التفكير • اذ ان النظري هو الاشكالية الاساسية •

فيظهر من ثم أن تجاوز ماركس لهِجل ، تجاوز ايديولوجي • لا يبدأ ماركس تجاوزا لهِجل ولكن يرتد على الاسس ؛ « ليس تجاوزا للضلال نحو الحقيقة (قصة النواة العقلية ووضع الجدل على قدميه)، بل انه بالعكس تجاوز للوهم نحو الواقع ••• تبديد للوهم وارتداد عن الوهم الى الواقع » (هذه الجملة معلّمة في نص ألتوسّر ص ٧٤و٧٥)•

فالدراما أو القطيعة الابيستيمولوجية ، هي عدول ماركسي عن هجل من أجل اكتشاف منطق للتجربة العينية وللبزوغ الفعلي • فمن لا يلاحظ هذه النقطة وينساق في الماركسية المبتذلة يكتب التاريخ « بالمستقبل السابق » • ويشدد ألتوسّر على أنه تتجلى هنا ارادة ماركس المتصلبة في أن يتحرر من الاساطير ، وهذا يتضمن بدوره ارادتنا المتصلبة في أن « نزيل الاسطورة » عن ماركس • أجد هنا أن ألتوسّر قد عمل بوصية أوصى بها جان لاكروا • فعندما يقترح هذا علينا أن « نكون معاصرين لفكرنا ذاته » ، يقترح علينا ألتوسر بدوره شرطا ينطوي على مفارقة ، « يجب علينا أن نتعلم مع ماركس فن القول لما يزمع أن يكتشفه في ما يجب أن ينساه » • أو بكلام آخر ، لا يكتشف ماركس اشكاليته باستعادة هِجل وانما باستبعاده • من هذا كان أن الموضوع المركزي في كل الاستدلال الماركسي ، ليس « التناقض المحرك » ، رجوع السلبية الهجلية وحسب ، ولكن الاشباع لان عبارة « التغطية » عند هجل هي ميتافيزيقية بالنسبة لماركس (ص ٨٧) • لنؤكد على نقد ألتوسر للشواهد الشهيرة بالرجوع الى مدلولها المجازي البحت • تنطلق الماركسية المبتذلة من التناقض بين الانسان والطبيعة • وبفضل العمل ، بفضل توسطه ، تتأنسن الطبيعة

ويسترجع الانسان سمته الطبيعية • لكن هذا يفترض بذرة بدئية، اختلاطا في الاصل بين الانسان والطبيعة ، فكرة عالجتها نزعتان معاصرتان من زاويتين متكاملتين •

لقد اعلنت فلسفة سارتر أنه ليس من طبيعة انسانية وأن ما يوجد فعلا هو وضع للانسان في العالم ، وأنه بالتالي اذا استحال الرجوع الى الطبيعة ، يظل الرجوع الاصليّ مشروعا يُبرَّر تماما •

وتستعيد البنيوية من جهتها تعبيرا هَيْدِجريا ، الحاضر — مسبقا — أمامنا ، أي ان هناك معطى بدائيا ، مجموعة بنى يتم بفضلها تصعيد الطبيعة ثقافة وان البنية الثقافية ، انطلاقا من حظر السِفاح ، هي المعطى الاساسي • الثقافة هي الطبيعة • وهذا ، بدون أن يكون للعمل دور التوسط الممتاز • انما يستعيد التوسّر في هذا المنظور الجديد مسألة البنى الفوقية والبنى التحتية • فنجد عندماركس بدلا من بنية تحتية مخيفة هي رأس المال ، نجد ديالكتيكا موزعا في سلاسل على مناطق لكل منها علامة سائدة ، وذلك لان رأس المال يدور حول تشكلات ايديولوجية طفيلية مثل الحق والدين ، طفيلية لان هذه البنى الفوقية لم تعد في الماركسية المبتذلة انبثاقات عن الروح المطلق كما كانت عند هجل • وفضل القيمة مثلا لا يؤدي دورا يُتصوَّر بمثابة تناقض أدخله المنتج على تملك انتاج العمال • لفضل القيمة نظام أساسي • انه من المجتمع بمثابة الرحم يُدخل في الحركة الاجتماعية لا تنازعا بل اشباعا ؛ وترسيمة هذا الاشباع الابيستيمولوجية مستعارة من مفهوم الصفة الرئيسية عند سبينوزا ، ومن مفهوم تجاوز التجريبية الجدلية عند غورفيتش (ذكر هذا الاخير لا يَرِد أبدا ، سكوت قوي الدلالة) • فالاشباع يقع من الكل المبني برمته موقع المفصَل لا موقع محرِّك السلب • فالتصفية اذن قضية مستوى لا قضية تنازع • والا لما استطعنا تفسير الاستقرار في

كلٌّ اجتماعي ، ورحنا نطرح كالجهال هذا السؤال : لماذا لا تقوم الطبقة العاملة بالثورة ؟ ، وغيره من الاسئلة الفجة •

الابيستيمولوجيا هذه مثل مذهب غورفيتش في علم الاجتماع لا يمكن أن تقوم ان لم تسلم بأنــه لا يوجــد « عامل رئيسي » (كالاقتصاد والعمل في الماركسية المبتذلة) بل مجموعة مبنية معقدة تقبل سلسلة كانها لا متناهية من التشكيلات • فالصفة الرئيسيــة لا تبتلع هنا الصفات الثانوية بل تتمفصل معها سلسلة لايبنيتزية • السلسلة هي التي تشكل الجملة وليس العكس • وهذا مسلك صارم بينما الآخر تخميني كما يسميه فوكو • فلنؤكد على التحليل القوي الذي يسترسل فيه ألتوسر هنا ، تحليل التصورات المبتذلة : أحــد المفاهيم المزعومة لديكارت والتي تراود الحركة الماركسية ، هـــو اسطورة شرح الامور بعوامل بسيطة • هذا الوجدان النازع الــى الاساطير يرتاح الى الجدل لان الجدل يرد كل شيء الى عامل واحد يزدوج دون ما نهاية ليوجد على مستوى أعلى • فالجدل بالتالي يوفر لهذا الوجدان أن يرى العالم نزاعا بين الملائكة السود والملائكــة البيض ينهيه بالمصالحة القديس ميخائيل ، ميخائيل التأليف ، بعد أن يكون قد سدد ضربات قاضية للملائكة السود • هذا الشرح بسيط وباطل ؛ انه شرح مثــالي ، والحق ليس الا فــي المعقّد • يجب أن نتخلص من الجدل • ناهيك ان الباحثين السوفيات قد أعلنوا عــاليا منذ عهد قريب واجب التخلص من الجدل في العلوم الانســانية ، وقوبلوا بتصفيق العلماء • اذ ان الجدل يرصف فوق التعقيد البنيوي لكل علم منطقا غير مجانس • هــذا المأخذ على الجدل يلتقي فيــه هؤلاء الباحثون السوفيات مع ألتوسر ومــع فلسفة العلوم عنــد باشلار • وهذا يتضمن ، اذا ما سُلّم به أن الوجود العيني « ليس جدليا » ولكنه بنيوي ولكل من تشكلاته اشكالية لازمة فيه • أن

يكون لكل علم اشكاليته أمر يسهل تصوره ، فاشكالية الرياضيات غير اشكالية الكهرباء . لكن المشكلة تبلغ من الاهمية مبلغا عندما تعنى ببزوغ الجديد . فالمذهب التاريخي الهجلي ما كان يوفق في تفسير انتقال القديم الى الجديد ، فاما أن يعزز البقاء على حساب البزوغ ، وإما أن يعزز الانبجاس التعسفي لتصور عن العالم ، يسميه مثلا اتجاها جديدا . ما كان أي مفهوم ليفي بالغرض ، فأدى به الامر في **نظرية الممارسة** الى عالم تبرير الذات ، تهمة ثم تبرئة دون أي معقولية. **أما** ألتوسّر فيجد في مفهوم الاشباع قانونا للانتقال من بنية الى أخرى . نبدأ شرح هذا القانون بصور مثل : نقاط انقطاع ، أضعف الحليقات ، انهدام موضعي أو يعم قسما من البنية . مثلا : لاتستطيع الماركسية المبتذلة أن تفسر لماذا حدثت الثورة ، خلافا لتوقعات ماركس، في بلاد ضعيفة التصنيع بالنسبة لبلاد الرأسمالية الكبيرة . ذلك لان ماركس ما كان يملك تماما مفهوم الموقف الثوري التاريخي ، الذي وسّعه لينين في نظرية الحلقة الاضعف . ذلك لان روسيا التي كانت تظهر مظهر الاستثناء في شمول الرأسمالية كانت هي القاعدة في الحقيقة . وكذلك القول في الصين . لانه يلزمنا أن ننظر في الرأسمالية بالضبط ضمن جملة تشتمل على بنى استعمارية ونصف استعمارية . قلما لوحظ أثر هذه الاشكالية على نظرية ألتوسر . نظل في الحقيقة مثل ماركس غربيين بصورة هائلة . لنشدد على هذه النقطة . العملية هنا منوال بْرِخْتيّ بحت . قطبية الشواذ والقاعدة هي التي يجب عكسها للحفاظ على الحيويةالثوريةفي العلوم الانسانية. فكما أن ليفي-شتروس يعكس في كتابه ، **الفكر المتوحش** ، المعنى الروحي لفكر نباتي أو حيوانيلا يزال متوحشا ، كذلك يجبرنا تصور البنى كلا معقدا تسوده ميزة اشباعية ، على اعتبار الاشباع فضل القيمة مثلا ، موجودا أيضا في التحديدات الثانوية . اذن

فالوعي المبتذل للتناقضات ليس هو الذي يقوّم البنية : والا حصلنا في هذه الحالة على ظاهرة ايديولوجية كلاسيكية بما فيها من ضياع : لان الضياع ، بعد اعطاء التناقضات مضمونا اقتصاديا ، يقوم بالضبط على تخيل هذه التناقضات خاضعة في لعبتها المعقدة لتعيين سيرالسلبية (نزاع رأس المال والعمل مثلا) . لقد فرّغوا عمليات التطور الاجتماعية من كل وجود عيني حين اعتقدوا أنهم أعطوا مضمونا لمقلوب المقولات الهجلية . تعقل الوجود العيني يقوم بالعكس على تعقله بمختلف مستوياته النوعية ، مثلما فعل ماركس في تحليله عملية الانتاج وعملية التوزيع الاجتماعي للعمل . يقوم مثلا على أن نرد لمختلف الممارسات الاجتماعية ما كان لها في تحليلات ماركس من الواقعية . لان الايديولوجيا الماركسية المبتذلة لم تعن بالوجود العيني للبنى الفوقية الدينية واعتبرتها في تحليلها انعكاسا وهميا للواقع الاقتصادي ، فوقعت في ذلك النوع من التفسير الذي يرد نشأة المسيحية الى شقاء الوجدان ازاء الرأسمالية الرومانية . كتابة التاريخ السوفياتية المتأخرة هي التي بينت هذا « الضياع » الجديد ، في أعلى درجاته[1] ، حتى حين تكون الكتب التي تؤلف بوحيها تستدعي الكثير من التحليل . ان الماركسية الحية هي بالعكس ، منصبة بكاملها في البحث الصارم عن المفهوم الذي يوجه بالمعنى الكانتي نظرية كل ممارسة . وكل مستوى من النظرية يقبل هو أيضا بدوره معالجة فكرية تكشف أن كل نظرية ، اذا ما استعرضت في اشكاليتها الخاصة ، تنطوي على « ممارسة نظرية » لا يمكن أن تستنفدها العلاقة الجدلية بين بنية تحتية وبنية فوقية . لكن المشكلة المركزية عند ألتوسر ليست مشكلة انتاج القاعدة للبنية الفوقية بل مشكلة

(1) Voir par exemp : Histoire de l'antiquité, sous la direction de V. Diakov et S. Kovalev, Moscou, s. d.

العلاقات بين التاريخ والبنية . فبما أن المفهوم المنهجي السائد هو ، كما قلنا ، مفهوم الاشكالية أصبح المطلوب عنده اعداد اشكالية لاشكاليات التاريخ والبنية . ومعلوم أن البنية تتميز بـ « الصفة الرئيسية » فيها ، أي بالاشباع في ميزتها السائدة ، في حين أن التاريخ ، كما يبين ليفي-شتروس في غير موضع ، ينتظم تحت مفهوم التغيُّر الفرقي .

فهل تكفي البنيوية لقراءة ماركس ؟ لا ، اذا أُخذ بعين الاعتبار :

– أن فكر ماركس لم يتوضح تجاه ذاته وفي عصره الا توضيحا ناقصا ؛

– أن الماركسية المبتذلة قد جعلت فيه غموضا ؛

– أنه يحتفظ بكل حيويته الثورية ، وبكلام آخر أنه يقوم بقلب الفكر قلبا جذريا ، أي أن فكر ماركس جاء ، ويظلُّ أضخم مجهود لتعقل نظرية العلوم الانسانية وأنه يفترض من هذا القبيل « قطيعة ابيستيمولوجية » .

يستعير ألتوسّر نهجا من مارسيال غِرو Martial Guéroult مُعلّم تاريخ الفلسفة في مرحلتنا . أعطى غرو نموذجا عن هذا النهج في كتابه ، ديكارت في نظام معقوليته[1] Descartes selon l'ordre des raisons كتاب لا يخلو من القرابة العميقة مع كاسيرر . يقول ان نظام العرض عند ديكارت ينطوي على معقولية . واكتشاف هذه المعقولية هو بالضبط اقامة تمفصلات بنيوية ، واقتراح قراءةجديدة لديكارت ، لا تتبع الترتيب التاريخي الاستنتاجي ولكن المعقولية الداخلية لابيستيمولوجيا جديدة جذريا : ابيستيمولوجيا خاصة بـ « قراءة القول » .

---

(١) مجلدان ، نشر Aubier .

على أنه يجب الحذر هنا من موقف يفتقر الى الدقة . فسواء أنجز هؤلاء المؤلفون مشروعهم أم لا ، أفلحوا فيه أم أخفقوا ، يجب في كل حال ألا تتخيل قط أن كلامهم يقوم على صورية هي صورية الكانتية الجديدة . قصدي أن ما يرمون اليه ليس توحيد العيني والمجرد الذي ليس في أغلب الاحيان الا معقولا قبليا من البديهيات . المجرد لا يشبه باي وجه مقولة بعد تجريبية . فهم حين يُعِدّون المفهوم النظري لما يقرؤونه عند ماركس ، لا يكتفون بمقارنة الهياكل الصورية بين النظريات التي تنزع الى التعميم . هذا ما امتازت به التجريبية التي سبقت كانت . أما الكانتيون والكانتيون المجددون فيكتفون بأن يعكسوا ترتيب التعيينات بقولهم ان المجرد ، ان صح ، فهو مقولة ثابتة وقبلية يعني متعالية . أما ليفي-شتروس والبنيويون فيرفضون هذا الربط بين المقولة وموضوعها ، الذي يميز كل فكر نظري بحت . وسارتر أيضا كرس كل كتابه **نقد العقل الجدلي** ، لاقامة براكسيس تخرج بفضل التاريخ عن ذلك التفسير النظري ،بادخال الأنطولوجيا في التاريخية ، فيصير بالتفاعل الوجود الاساسي تاريخا . المصادرة الاساسية عنده هي أن التاريخي معقول لان الانسان ،صانع التاريخ ، يلد هو نفسه الدلالات . والحال أن التاريخية السارترية في بنية اقتصادية يسودها منظور ألتوسر الماركسي ، ترجع الى مقولات من عهد ما قبل ماركس ، مثل النّدرة ، العمل ، الخ .. ، مقولات من الغريب جدا أنها قوام كل قراءة فوكو لماركس ، وأنها دون شك القسم الاقل اقناعا في كتابه **الالفاظ والاشياء** Les Mots et les Choses . أقصى ما يُطلب من هذه المقولات هو معقولية عملية ، لكنها لا تعطينا المفهوم النظري للبنية الاقتصادية . وتتوفر لنا رؤية أوضح اذا استبقنا بالحدس الغاء التوسر وبَليبار (في مواضع مختلفة من كتابهما « Lire « Le Capital) لمفهوم كاذب

في الماركسية المبتذلة ، مفهوم الانسان • معلوم أي دور يلعبه البشر والانسان فيما يسميه ألتوسر « الشواهد الشهيرة » في كتابه Pour Marx = **من أجل ماركس** ، شواهد تتلخص فيها الماركسية المبتذلة • لقد خص آراغوان بهجاء سديد جدا ذلك الانسان الاله الذي تغنى به الادب الدفاعي البورجوازي • وفي دراسة ألتوسّر عدد من المعالم البينة نلخصها :

يميز عند ماركس مرحلتين أوليتين :

آ) النظرة الانسانية الكانتية الفختية ، (راجع كالفز وكورنو) وخلاصته ، بما يشبه أقوال روسّو : الحرية لا يمكن أن تستلب •

ب) النظرة الانسانية الفويرباخية : العقل ضائع في حال العيان : يستعيد ماهيته عن طريق تعاهد البروليتاريا والفلسفة •

بعد هاتين المرحلتين اللتين تتوقف عندهما الماركسية المبتذلة التخمينية ، تطرأ قطيعة ابستيمولوجية « تتضمن جوانب نظرية ثلاثة لا تنفصل » (ص ٢٣٣ ، المجلد I من مجموعة ألتوسّر) وهي :

آ) مفاهيم جديدة جذريا : التشكل الاجتماعي ، قوى الانتاج، علاقات الانتاج ، البنية الفوقية ، الايديولوجيات ، المرجع الاخير للاقتصاد ، الاقتصاد بوصفه مرجعا أخيرا محددا لبقية المستويات ؛

ب) نقد جذري للادعاءات النظرية في نظرة فلسفية انسانية ؛

جـ) تحديد النظرة الانسانية بأنها ايديولوجيا (ص ٢٣٣ ، المجلد I) •

مهما تنوعت البنية التي تسود نظرية عهد ما قبل ماركس ، فانها تؤول دائما الى نظرة انسانية هذه فحواها : **مثالية الماهية يقابلها دائما تجريبية الذات (أو مثالية الذات يقابلها دائما تجريبية الماهية)**

(هذه الجملة معلمة في نص ألتوسر ص ٢٣٥) ٠

ان التصور الماركسي للبراكسس ، انما يتأسس نظرية في هـذا الانفلات الابيستيمولوجي المستمر من المقولات التجريبية والمثالية ٠ البراكسيس في الماركسية المبتذلة هي ما يقابل النظرية ، باعتبارهـا وحدة لا تنفصم بين الفكر والعمل ، الخ ٠٠٠

فينتج عن ذلك في العلوم الاجتماعية التبسيط التـالي وان لم يصـرح بـه :

النظر ، هم رجال الفكر ، والممارسة هي الجمهور ٠ البراكسيس هي الحزب ٠٠٠ مع مراتب في البراكسيس ٠ من الطبيعي أن تقود هذه الترسيمة الى تقديس القرارات حتى لو اتخذتها بدون مبدأ فئـة تسلمت السلطة مؤقتا ٠ لا شيء من مثل هذا عند ألتوسر[1] ، وعنده خصوصا ٠ فالتصور الماركسي للبراكسيس ، هو في رأيه :

« نظرية في مختلف المستويات النوعية للممارسة الانسانية (٠٠٠) والتمفصلات الرابطة بين هذه المستويات ، نظرية مبنية على التمفصلات النوعية لوحدة المجتمع البشري ٠٠٠ » (ص ٢٣٦) ٠ ويبين ألتوسّر أن هذا التصور المناهض للنظرة الانسانية لا يلاشي مع ذلك النظرة الانسانية التاريخية التي يجب مـن ثم أن تـُـدرس من حيث هـي ايديولوجيا ضرورية ، حتى في مجتمع شيوعي ، لان هذا المجتمع لا غنى له عن « تصور العالم » (ص ٢٣٩) ٠ ليس المقصود في هذا المنظور أن نعتبر الايديولوجيا عـُصابا بل بنية جوهرية في المجتمعات (ص٢٣٩)٠

---

(١) نذكر في هذه المناسبة مقـالا لـ التوسـر ظهر فـي مجلـة La Nouvelle Critique ، حول مشكلة الطلاب ، يقف فيه الفليسوف على صعيد التعليم ، ضـد القضايا التـي تنـادي بهـا الـ U. N. E. F. الاتحاد الوطني للطلاب الفرنسيين ٠ ويضع في هذا المقال نظام كفاءات ٠

فهي تستند الى العلاقة المعاشة بين البشر والعالم .

الخيال نفسه يمعن في اشباع الواقع ، وهذا يشير الى أن الايديولوجيا تتميز بفعاليتها ولا يمكن مع ذلك أن تتحول الى وسيلة. فالايديولوجيا البورجوازية في الحرية مثلا ، لا تقتصر على التعبير عن السيادة الطبقية للبورجوازية ولكن بفضلها تتقوّمُ البورجوازية طبقة سائدة . يبدو لنا أن ألتوسّر في هذا الاتجاه يسهم كثيرا في اضاءة العلاقات بين فلسفة الانوار في فرنسا والثورة الفرنسية . وفي مجتمع بدون طبقات تقوم الايديولوجيا بدور جدي . فهي « اُلمقوِّي الذي بفضله ، والعنصر الذي فيه يعيش الناس علاقتهم بأوضاعهم الوجودية لفائدة كل البشر » (ص ٢٤٢) .

ومنه هذا السؤال : ما المغزى من تنمية النظرة الانسانيةالاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ؟

يرى ألتوسر أن في ذلك رفضا وتعرية « موجهين نحو الداخل »، واظهارا لِـ « اللاعقلي » الذي لم تتجاوزه بعد » (ص ٢٤٤) وبالتالي للارهاب النظري الذي لم يُصَنَّفَ بعد . وهو الذي يرفض اللجوء الى النظرية في موضع الايديولوجيا وبدلا منها ، كأن تستنجد بمفهوم لا أصول نظرية له ، مثل مفهوم عبادة الشخصية ، في حين كان يجدر بالاولى أن يوضع تحليل نظري للبنى القومية القضائية في الاتحاد السوفياتي الستاليني من أجل الكشف عن ضلالات كثيرة . يبدو لي أن هذه الدراسة السهلة المتناول ، وان وقعت في آخر المجلد الاول ، تصلح مدخلا جيدا لمجموعة المؤلفات التي استعرضناها هنا .

الانسان المعني هنا والمقصود « ازالة التزييف » من تفسيره ، هو ذلك الذي أُخذ بعالم خلفي فهو يطالب بشيء ما قائم وراء الشرح العلمي ، يطالب بمؤلف يؤلف . العدد ٥ من مجلة Esprit ١٩٦٧ يحمل

بكامله طابع هذا العطش اللاهوتي . بعد موت الآلهة ، وقد كانت وحدها محرك التاريخ يخاف الناس خوفا هائلا من أن يعلنوا مع فوكو وألتوسر موت الانسان . يأتي الانسان على حد قولهم ، في نهاية التحليل ، وفي سلسلة من المفاهيم المنفتحة طبعا بصورة صحيحة ، مبدعا للدلالات . هل من حاجة حقا لذلك ؟

واحدة من أهم الصعوبات تقوم على تأسيس ذلك كله نظريا ، أي على تجنب تجريبية غورفيتش التي تتخطى التجربة بالانخراط فيها ، رغم الصلة الوثيقة معه ، ومن ثم تأسيس نظرية البنية ، بنية ذات خاصة مسيطرة، لان الماركسية بنفس الوقت لا يمكن أن تتخلى عن التناقض المُحَرِّك . يستشهد لذلك بنظرية ماو الذي يرى في كل وضع تناقضا مسيطرا وتناقضات ثانوية . ولا يجب التوحيد بين التناقض وخاصة البنية المسيطرة . وبكلام آخر يجب ألا نخلط بين الاقتصاد بوصفه مرجعا وبين القدرة القصوى على التعيين فنقيم لا مشروطا هو شرط الاقتصاد . هذا ما يفعله بالضبط الاقتصاد غير الماركسي . لا ننسَ أن التناقض الرئيسي في نظر ألتوسر نجده أيضا على مستويات أخرى ، على المستوى الواقعي والمستوى الفكري مثلا. لان للتناقض الرئيسي وجوها عديدة في الكل المركب الذي يُقوِّم البنية . ويمكن للوجوه أن يحل أحدها محل الآخر لان عملها يتم في البنية ذاتها في حين ان المرجع الاخير ، أو الخاصة السائدة ،اقليمي يعمل عمله ، وقد يكون مثلا الثقافة او السياسة .

لاحظنا منذ قليل على طريقنا تسلل المفاهيم التابعة للتحليل النفسي . اذا كان الاقتصادي يعرض عند ألتوسر في صورة الـ هو هكذا ، اذا وجدنا عنده ، مراجع ، واشباعات ، وابدالات ، وتكاثفات وحتى السببية الكنائية الشهيرة ، فلن نكون متطفلين حين نكتشف أنه بنفس الوقت يستعير من التحليل النفسي ويخلع على الماركسية هذه

المفاهيم . فنجدنا لذلك مقودين الى المقاربة بين الاقتصادي عند ألتوسر واللاشعوري دون ان توحّد بينهما . فالاقتصادي عنده ليس حضورا بل احالة ، وهذا يوافق مفهوم السببية الكنائية عند لاكان . « فهل يكون العنصر الاقتصادي بهذا المعنى وفي حركة الواقع ،الغائب الكبير ، الذي لا يسيطر عليه أبدا من حيث هو غائب ، تخفيه باستمرار مجموعات الدلالات من المستويات الاخرى ، الذي لا يُلتَقط أبدا في موضعه الخاص ولكن دائما منعكسا في مجمل الكل المعقد ؟ ترى هل تتجلى سيادته كمرجع أخير ، بصورة أساسية ، في ابدال ضروري لدوره السائد ، في ازاحته ازاحة تقاربية décentration asymptotique ، ودائما في المستويات الاخرى ؟ » هذا ما يقوله Poulantzas (الازمنة الحديثة ص ١٩٧٥) . نلاحظ هنا مفهوم « الدور » ؛ هو أيضا مستعار من التحليل النفسي . لكنه ليس الوحيد. فالتفسير ، اذا اجترأنا على القول ، تفسير قريب جدا من منطلق ريكور، يلعب ملء دوره منذ الصفحات الاولى في تنبيه يوجهه الينا ألتوسر ؛ انه تفسير للشبهة : « اقتصرنا على محاولة تطبيق قراءة الاعراض على قراءة ماركس (يشدد ألتوسر على هذه الكلمة) القراءة التي كان يتوصل بها ماركس الى قراءة ما لا يُقرأ عند سميث ، قائسا قوله الصريح بقوله المضمر » (المجلد I ، ص ٣٢) . المقصود هو صياغة السؤال ، الاشكالية التي لم تُصغ أبدا والتي تجد جوابا عليها في قول ماركس كله ، اعني **رأس المال** بصورة رئيسية :

« جواب لا يقابل أي سؤال مطروح » . أجوبة ماركس ليست في الحقيقة سوى جوانب من الصورة التي يفيدنا بها سؤاله الذي لم يُصرّح به عن « فاعلية البنية في نتائجها » . هذا التفسير للشبهة يحدث مسافة بين الـ هو الذي يتكلم والعبارة التي بها يتكلم في قول ماركس . هذا هو ماجعل الماركسية المبتذلة التي تخلط بين القول

والهو تقف عند جدل رأس المال والعمل ظانة العرَض بنية أو بكلام آخر الظاهرة جوهرا . فصار الافتراض بديهيا وكان ضروريا أن يصير، نظرا للاعتماد على تنف من القول الماركسي ، لان ماركس لم يتسنّ نه أن يصوغ من جديد ، بطريقة الارجاع ، المسائل البنيوية التي كانت تنطوي عليها أجوبته . وبالفعل ، يبين بليبار واستابليت بيانا قويا أن **راس المال** غير متمّم من جهة ومن جهة أخرى أن عدم الاتمام هذا له أساس . أخيرا ان ترتيب **راس المال** ، حسب التمفصلات التي يذكرها استابليت في آخر المجلد II يترابط وفقا لمعقولية يجب أن تطلب في موضع آخر من ماركس نفسه ، أقرب الى الصميم . ويحيطنا ألتوسر علما بأنه يجب من خلال قراءة الاعراض في الآثار ، مادة التفكير الاولية ، أن نرسم سير « الانتاج المنتظم والمتدرج لانعكاس الاشكالية على موضوعاتها » . هذا الارجاع هو الذي يعود الينا أن نفعله ، وهو وحده يستطيع أن يرينا موضوعاته الخاصة . لهذا السبب يضم الجزء الثاني من رأس المال مئة وخمسا وثمانين صفحة لـ ألتوسر في موضوع رأس المال . فإلامَ كان يرمي في الحقيقة **رأس المال** ، وبم كان يتميز عن الاقتصاد الكلاسيكي ؟ يتوجب علينا وقد طرحنا هذه المسألة أن نرد عليها بصورة مفارقة ، مؤلفين سؤالنا من الاجوبة التي تضعها الاشكالية غير المعبر عنها في الماركسية .

الاكتشافات الاساسية هي :

أولا ـ الزوج : القيمة/القيمة الاستعمالية ، وهو يحيلنا الى زوج آخر لم يستطع الاقتصاديون تحديده : العمل المجرد/العمل المشخص . يعطي ماركس أهمية كبيرة جدا ... للقيمة الاستعمالية ولمتضايفها العمل المشخص . وهناك الاحالة الى النقاط الستراتيجية حيث يلعب العمل المشخص والقيمة الاستعمالية دورا حاسما : تمييزات

رأس المال الثابت ورأس المال المتبدل من جهة ، ومن جهة أخرى تمييزات قطاعي الانتاج (القطاع الاول : انتاج وسائل الانتاج ، والقطاع الثاني: انتاج وسائل الاستهلاك) •

ثانيا ـ فضل القيمة •

أختَصِرُ ما سبق : المفاهيم التي تحمل اكتشافات ماركس الاساسية هي : القيمة والقيمة الاستعمالية ، العمل المجرد والعمل المشخص ، فضل القيمة (ألتوسّر في « **قراءة رأس المال** » ، المجلد الثاني ص ١٩) • ذلك هو قول ماركس ومعلوم أن الاقتصاديين غير الماركسيين يرون هنا نقاط الضعف عند ماركس • ذلك لانهم يطبقون مفاهيمهم بدلا من المفاهيم التي لم يفصح عنها ماركس • حتى انجلز أخطأ في ذلك • اذ ان ماركس يعتزم في الحقيقة القيام بثورة كوبرنيكية: أن يرد الظاهرة الرأسمالية الى جوهرها يعني أن يرد الحركة الظاهرة الى الحركة الحقيقية ، أو اذا شئنا ، أن يعود بـ **المعطى الى مفهومه** ، على اعتبار أن « المعايير الصورية للمعقولية العلمية » تعيّن هذا المفهوم • على أن هذه الحركة الفكرية تعرّضنا لأن نجد في ماركس وريثا للاقتصاد الكلاسيكي مع مزيد من الإحكام والموضوعية • ترى أنتصور بوضوح الاشكالية الجديدة التي يميزها ألتوسّر ؟ يتضمن مبدأ التمييز قضيتين :

١ ـ القضية المادية القائلة بأولوية الواقع على الفكر •••

٢ ـ القضية المادية القائلة بتَميُّزِ الفكر وحركة الفكر تميزا نوعيا بمقابل الواقع وحركة الواقع •

فيلزم عن ذلك أن لدى ماركس بنية متصورة للجملة ، تعود بنا الى البنية المعقدة التي تكلمنا عنها من قبل • فالطريقة الجديدة في الاقتصاد ، بفضل هذا الحضور المتصور للجملة ، ليست بأن نحلل العمل

تحليلا تجريبيا ، الخ •• ، ولكن بأن نعمل انطلاقا من « التجريدات البدئية » ألا وهي مقولات سميث وريكاردو • هنا يصمت ماركس اذ لا يؤسس مفهوم قوله ، القول الذي هو مجال استطلاعناء صمت معادل للكبت • فيتساءل ألتوسر : « في أي شيء يمكن أن تكون حاسمة تلك العلاقات المجردة ؟ » • هذا الصمت يطرح مسألة دون أن يصوغها « مسألة الطبيعة الفرقية في التجريدات التي يعمل فيها الفكر العلمي كي ينتج في نهاية سير عمله تجريدات جديدة مختلفة عن الاولى » ((قراءة رأس المال)) (المجلد II ص ٣٣) • فيلزمنا من ثم ، أن نرى ماذا يعني ألتوسر بمفهوم التجريد ، محددين معه لفظ العمومية الذي يستعمله تبعا لقضايا يرتبها في مستويات ثلاثة يميز فيها درجات ثلاثا من التعميم : فالصورة الاولى لتفكير العام تنبثق من البراكسيس والمستوى الثاني هو مستوى الفكر ، والثالث هو المستوى العلمي •

لقد حاول اذن ألتوسر أن يرسي قراءة ماركس على أساس علمي أقوى ، بارجاع الماركسية الى ذاتها ، ناقلا الينا بهذه الطريقة «ماركسية ماركس » والماركسية الحقيقية للقرن العشرين وقد خلصها من عدد لا بأس به من الايديولوجيات • وجهت اليه بعض انتقادات غير سديدة ، يوجد لها اصداء في الملحق الكتبي الذي نقدمه في نهاية هذا العرض البالغ النقص •

حاشية كتبية



تنشـر مجـلدات المجمـوعـة الالتوسـرية عنـد Maspero
(Collection « Théorie ») صدر منها حتى الآن أربعة مجلدات :

I — من أجل ماركس، لويس ألتوسر Pour Marx, Louis Althusser

II — أقرأ «رأس المال»، I ،ل. ألتوسر ، جـ. روسيار ، ب ماشري ،
Lire « Le Capital », I, L. Althusser, J. Raucière.
P. Macherey.

III — اقرأ «رأس المال» ، II ، إ. بليبار ، د. إستابليت، ل. ألتوسّر:
Lire « Le Capital », II, E. Balibar, D. Establet,
L. Althusser

IV — من أجل نظرية في الانتاج الادبي ، ب. ماشري : Pour une
théorie de la production littériaire, P. Macherey.

(لم تتعرض لهذا المؤلف في تحليلنا السريع جدا ، لضيق المجـال أيضا . على أنه لا يخلو من قيمة) .

مقـالات :

أفضلها بلا منازع مقالـة ألان بـاديو فـي مجلة Critique
(ايار ١٩٦٧) بعنوان : « معاودة المادية الجدلية » :
« Le (re) commencement du materialisme dialitique »

مفيد أيضا مقال Jean conille في مجلة Esprit عدد ٥ عام١٩٦٧

ويجد القاريء عرضا بسيطا وواضحا في كتاب Jean Lanoux
بانوراما الفلسفة الفرنسية المعاصرة :

Panorama de la phlisosphie française contemporaine

أخيرا ، مقال يهاجم :

A. Glucksman - Un structuralisme ventriloque. Temps modernes mars 1967

الفصل الثامن

مات الإنسان



من الاموات من يجب أن يقتلوا • اللسان والقول قتلا القيم • علوم الانسان قتلت الانسان • والادب قتل الادباء • اللسان هو الذي يتكلم في الكتب ، لا الانا البغيض • الانا شيء خـارجي ، أما الفكر الحقيقي فهو اللسان• أتكلم، اذن لست موجودا • أحد الامرين • من فهم ذلك يستطيع أن يقرأ قول فوكو على اعتباره مسيرا الى « الفكر بما هو في الخارج » • هـذا عنوان اهم مؤلفاته ، مقـال بـ اثنتين وعشرين صفحة ، حول موريس بلانشو[1] • الوجدان التعقلي ، الذي يثبت الذات منتجة لما تتصوره ، يصطدم بـ لوغوس ينكره • « لايظهر وجود اللسان من أجل ذاته ، الا في تواري الذات » • الفكر بما هو في الخارج ينمو منذ القرن الثامن عشر مع ساد ، هولدرلين ، نيتشه ، ملاّرمه حتى أيامنا مع أرتو ، باتاي ، كلوسوفسكي موريس بلانشو: هذا الفكر يقلب اللسان التعقلي الذي ينكر نفسه ويحرف ذاته • القول الخارجي هو خارج قوله بالذات • أساسات الوجود في الخارج هـي الشوق (ساد) ، القوة (نيتشه) ، الفكر المادي (أرتو) ، الانجذاب ومتضايفه الاهمال • نرى فيه البنية المزدوجة لكيان القلق عند هيدجر• المهمل هو الذي لا يحسب للوقت حسابا ويعتبره خرافة خرافية • هذا

(١) في مجلة Critique ، حزيران ١٩٦٦ .

أساس معنى العتيق أو الاصـل عند فوكو • الاهمـال يترك للبعثرة ما يحاول الانجذاب أن يستقطبه• وفي الخارج يسود أيضا قانون شبيه بما يسميه ياسبرز ا"لمشتمـِل ، لكنه قانون معكوس لانه ليس الوجود• قانون انزعاج كلي "وضع حتى يُخالـَف • (قانون يتوارى كالإثمية عند كافـكا)• يبدو كأنهاصطلاح مرموز دون مدونة، متعدد الدلالات ، لا يدرك ، يستقبل كل ما ينفيه ، متخفيا بهذا الاستقبال ، كشخصية المثـِّل • ينفتح هنا مجال يتميز بلفظة يستعملها فوكو في أغلب الاحيان، لفظة : « محايد » •منظومة مجال محايد ، هذا أبعد الامور مرمى عند فوكو ، ونجده في كتاباته أغلب الاحيان • كذلك يودع بلانشو كتبه « لسانا لا يتكلمه أحد » • لا تمثل الذات أيا كانت ، في هذا اللسان، سوى انثناءة قواعدية • لسان لا ينحل في أي صمت ••• أسرار بلا عمق (تذكرنا قراءة فوكو بشخصية Monsieur Ouine عند برنانوس)•

وظيفة كاتب مثل بلانشو تشبه شبها دقيقا جدا ما هي عليه عنـد مـَلا"رمـِه : انها كشف ، الكشف عن لسان يسعى وراء معنى مسبق فيمعن في ادخال الفوارق (وكأنهـا خطوات أخطأت المرمى) بحيث يعجز عن استرجاع الذاكرة وعن الزام المستقبل • انه لسان يخفـي : كان ستندال يعرف اذ يستشهد بـ مالاغريدا ، أن الكلمة أعطيت للانسان لكي يخبيء فكره • اللسان « هو نسيان بلا عمق وخلاء من الانتظار شفاف » (ص ٥٤٤) • انتظار" لا شيء ، لكنه ليس لا شيء : هــو أتتكال الزمن • أتكلم : أنتظر النسيان الواعـي ، الـذي استشعره دوستيفسكي فـي **ليالي سان ــ بترسبورغ البيضاء** • هكذا نسـي أورفيوس أن لا يلتفت قط ، فنظر الـى اوريديكا وقتلهـا • وأوليس يستمع مكبلا عند اسفل الصاري الى غناء السيرين" Sirènes القتّـال • واذا شف اللسان شفافية يقابلها الاصل والموت ، فالوجود ــ كل وجود يثبت ذاته قائلا : أنا أتكلم ــ يتلقى الوعد والوعيد : وعيد تلاشيـه

ووعد رجوعه » (ص ٥٤٦) • سيعاين القاريء فيما بعد البون الذي يفصل هذا الـ أتكلم عن أتكلم لاكان • نجد عند لاكان مرمى يطلب الامتلاء ، أما عند فوكو فنجد قراءة الخلاء ، (اذا أمكن أن نسمح لنفسنا بوضع تقابل بمثل هذا الوضوح) • وتبدأ هذه القراءة للخلاء بدراسة في الجنون ، تتوقف عند البحث عن أصل النظرة الطبية ، ويلخص فوكو ذاته للحظة واحدة مع ريمون روسّل ثم يستأنف مع الكلمات والاشياء Les Mots et les Choses قراءة الخلاء التي يفعلها الانسان بانسحابه من دلالاته الماضية• هذا هومسار فوكو•

فاقد الرشد :

من الناس من فقدوا رشدهم • فاقد الرشد ، متوتر الحس ، أي كل من خرج من دائرة الحس السليم ، فهو بدون حس ، بدون رشد • الحس السليم والعاطفة والمعقولية ، هي السمات المميزة للشخصية في نظر الناس الاسوياء • والحال أنه رغم ديكارت واثباتاته ، ليس أكيدا أن يعم الحس السليم كل الناس • لقد أعادت الهجلية ، الى مفهوم قديم جدا حيويته ، وذلك بالضبط حين كان المجتمع الحديث يضع « للمجانين » نظاما • هو مفهوم الضياع • الآخر هو نحن (أنا ، هو آخر) وهو فينا ما ليس نحن • لهذا كان التفكير في المرض العقلي لزاما • الطبعة الاولى لاول مؤلفات فوكو كانت تحمل عنوان : **المرض العقلي والشخصية**(١) Maladie mentale et personnalité . لقد نم هذا الكتاب في طبعته الثانية عن تردد المؤلف،اذ انه غيَّر العنوان الى Maladie mentale et psychologie • يلاحق فوكو بهذا الكتاب وهما في الطب • يكتشف في المعالجة الحديثة العهد للامراض العقلية ،سلسلة من المصادرات : « المصادرة الاولى هي المرض ماهية ، كيان نوعي ،

(١) P. U. F. , 1954, collection « Initiation philosiphique »

تسبقه الاعراض التي تكشفه ، لكنه متقدم عليها ، ومستقل عنها الى حد ما ؛ ثم يكتشف خلفية فصامية مخبأة تحت أعراض انحصارية ؛ فيقال بهذيانات مقنعة ؛ ثم يفترض كيان جنون هوس وهبوط وراء بحران هوسي أو حادث هبوطي »[1] • اذن يحدد المرض العقلي باتباع نفس القواعد في تحديد المرض العضوي •

موازاة مجردة تترك مشكلة الوحدة الانسانية مفتوحة • المرض يتوارى في كلية الانسان • كشف منعش دونما دقة ، اذ لا يمكن الاعتماد في الفيزيولوجيا وعلم النفس على نمط واحد من التجريد • ثم ان التمييز العضوي بين الصحيح والمرضي يمحّي في الطب النفسي • أخيرا ، ان علاقة المريض بالبيئة لا تلعب نفس الدور في الامراض الفيزيولوجية والامراض العقلية • يجب تحديد الابعاد النفسية للمرض، أو « البنى » كما يقال الآن • منذ سنة ١٩٥٤ وجد فوكو نفسه في مأزق أساسي : مشكلة التطور • فكتب اذ التقى مع فرويد : « كل مرحلة ليبيدية بنية مرضية كامنة• فالعصاب بحث تلقائي عن الليبيدو »• لا نتوقفن كثيرا ولنتحقق فقط من أنه لا يعيش مشكلة التطور من حيث هي تفكير في الانتقالات بل من حيث هي تفكير في الاحوال ، لا في العابر بل في الاصلي العتيق • سيكون لهذا المفهوم ، مفهوم البحث عن الأصلي العتيق ، حظ كبير بقدر ما تبدو بعض تفسيرات التحليل النفسي على يد « فوكو الفتى » ، باطلة • ولكن عندما نبش فوكو « أسطورة وحدة الهوية بين المريض والبدائي والطفل » (ص ٣٠) ، عاد الى ليفي–شتروس وانطلق في بحث نقدي خصب • « من العبث دون شك القول من منظور الشرح ان الانسان يرجع طفلا عندما يمرض » • يجب الاستعانة بالتاريخ ، حيث يكشف الفرد أنه يدافع عن

(١) Maladie Mentale et personnalité, P: 7

ذاته نفسيا ، كما يبين ذلك التحليل النفسي ، من أجل الخروج من البنى التطورية بالمعنى الدقيق • كان فوكو ينتقد في ذلك الاعادة الفرويدية من حيث تتصور تعبيرا عن غريزة الموت بيد أننا لا نظنه يتعرف الى ذاته في هذه الانتقادات ، ولهذا لن نتباطأ عند « مؤلف من عهد الشباب » قد ينفع لتاريخ أفكار انسان يريد ان يهيمن على عصره ، لكنه لا يشرح تفكير فوكو الراهن •

يبقى بعض العلامات الهامة على الطريق المؤدي الى تاريخ الجنون L'Histoire de la folie • ابتدأ فوكو من هنا : « أمر واقع أصبح منذ زمن طويل مجالا مشتركا لعلم الاجتماع وعلم النفس المرضي وهو أن لا وجود حقيقي للمرض ولا قيمة له الا في ثقافة تعطيه هذه الصفة » (ص ٧٢) • يستند هذا القول الى الانطروبولوجيين الثقافيين الذين يرون أن كل ثقافة تنتخب احد الامكانات في كوكبتها الانطروبولوجية (مثلا يأخذ الكواكيولت موضوعا تفخيم الانا ، بينما يبعده الزوني) • فيصير المرء حسب هذا المبدأ Shaman [1] عند الزولو لنزعة مرضية ، مثلما يصير عندنا من اصحاب التقنيات المتعددة عندما يجيد الرياضيات• وكذلك يـُعتبر المرء مقدسا في بعض القرى ، اذا بدت عليه سمات العته• فيجب ألا يفسر ذلك بالـ « انفراد » والـ « انحراف » اللذين يؤديان في مجتمعنا الى استبعاد المريض ، ذلك الموجود الشاذ • « فتنطرح اذن مسألتان : ما الذي أدى بثقافتنا الى اعطاء المرض معنى الانحراف ، ووضع نظام للمريض يعزله ؟ وكيف يعبر مجتمعنا عن نفسه رغم ذلك بصيغ مرضية يتنكر لها ؟ »[2] •

---

(١) كاهن ينتمي الى دين بدائي يختص أصحابه بالقدرة على الاتصال بعالم الغيب والارواح عن طريق السحر ويتمكنون بالتالي من ممارسة العلاج بالسحر .

(٢) المؤلف المذكور ، ص ٧٥ .

حاول فوكو الاجابة على هاتين المسألتين في كتابين ، أصبح أحدهما يعتبر كلاسيكيا L'Histoide de la folie (Plon) والآخر : Naissance de la Clinique (P. U. F.) نشوء الطب السريري •

لقد صار مقصد هذه المؤلفات أوفر وضوحا لنا الآن بعد أن ذكّر ميشيل فوكو ، في هذه الايام الاخيرة ، ريمون بلڤور ، بما هو التاريخ في نظره • كان ذلك في مقابلة بينهما ، هي المقابلة الثانية التي تنشرها مجلة الآداب الفرنسية Letters françaises • مفاده أنه يجب أن نضع نصب عيوننا نموذج المعرفة العلمية : وتتجلى في الرياضيات التي تفضي الى صياغة صورية خالصة • يجب ان نحاول كتابة التاريخ كتابة منهجية مُحكَمة ما دمنا لسنا (بعد) بصدد صياغته صياغة صورية • الاحكام يقرب مقصد فوكو من مقصد ألتوسر (معلمه ، ولكن من لم يتتلمذ لـ ألتوسّر ؟ كل فلاسفة دار المعلمين العليا كانوا تلامذته) • الا أن الاختلاف في نظريتهما يظهر ساطعا بصدد ماركس • يمثل ماركس في نظر ألتوسر كما رأينا قطيعة ابيستيمولوجية • ولا يرى فوكو هذا الرأي أبدا • يبدو لنا ، بتواضع ، اذا جاز لنا التدخل ، أن النقاش لم ينطلق منطلقا صحيحا • يرى ألتوسر أن ماركس يقطع الصلة كليا مع الفلسفة والاقتصاد اللذين سبقاه • ولا مكان لماركس لدى فوكو الى جانب ريكاردو وسميث • انها مسألة اختصاصات يلزم لحلها أطروحات عدة • فهنيئا لـ فوكو وألتوسر أن يستطيعا حسم هذا النقاش بصورة علمية ، على ما فيه من تفاصيل دقيقة ! على كل لا يبدو لنا أن هذا القسم هو الحاسم من آثارهما • فلنعد الى **تاريخ الجنون ونشوء الطب السريري**• يحاول فيهما فوكو حلا للمسألة المطروحة بشأن علاقة القول بالمؤسسات والممارسات والسياسة ، الخ •• يلتقي بعمله هذا التقاء عميقا مع مشروع ألتوسر الهادف الى خلع القناع عن الايديولوجيا • أكانا هجليين أم لا ، كلاهما على الطريق ، حيث يقودهما النقد العلمي ، الى الشعور

الضياع • ستكلفنا كثيرا هذه الملاحظة ، ولكن أليس في النهاية صحيحا أن من يرد على المعنى قيمته والى اللامعنى منزلته ويبدد المعاني الكاذبة يكون في الواقع يحمل على ضياع المعنى ؟ أول ضياع اذن هو ضياع المجانين الذي يصفه فوكو في **تاريخ الجنون** [١] • نص من أهم النصوص في نظرنا ، لا للفكر الحديث وحسب بل للفكر على الاطلاق • يبين أن **الآخر ليس الآخر الغريب** ، وأنه ، كما جاء في نص لـ دستويفسكي قد استشهد به فوكو في مقدمة الكتاب ، « ليس ايداع جارنا السجن هو الذي يقنعنا بصحة عقلنا » • لان القرن الكلاسيكي المشهور ، قرن العقل ، قرن أنوار حقيقي (أقله على الصعيد العلمي) ، يعتريه بكامله ، خوف لا أساس له ، شبيه بخوف القرون الوسطى من البرص والطاعون وهذا خوف مبرر • لكل عصر سرطانه وسَحر تَه • بعد أن تبختر فاقدو الرشد في الحصانة المقدسة التي احاطهم بها ورع العالم القديم (رحمته) ، جاء القرن السابع عشر يتنظم معسكر اعتقال فسيح الارجاء • كان يوازي تصاعدَ النظام الملكي المطلق (ريشليو، لوباردمون ، راهبات لودان أمثلة حاسمة) تحولُ عالم الرهبنة الى عالم يخشى الآخر فيرفضه • بعد تواري البرص حل الجدري بديلا عنه عاملا للرعب • أول وجه أبداه الجنون كان **سفينة المجانين** : يطوف بالمجانين وقد طُردوا ذلك المركب السكران • جيروم بوش وإراسْم شاهدان على ذلك الجنون الفرِح الذي يستهوي لانه جنون المعرفة، جنون المحاكمة• ألاأيهما المجنون؟ دون كيشوت أو سانشو، هملت أم بولونيوس ؟ لقد أجاب عصرنا على هذا السؤال • كورديليا هي المجنونة حقا وليس لير • هذا هو معنى الجنون في مرحلة الباروك الذي انقطع حبله في فرنسا عندما تركت سفينة المجانين المكان للمستشفى،

---

(١) العنوان الدقيق :الجنون والخروج عن المعقول. Folie et déraison وفي المرحلة الكلاسيكية تاريخ الجنون ، ١٩٦١ نشر Plon .

عندما سقطت الحصون حيث كان يعتصم من بقوا من الاقطاعيين ، لتنفتح السجون ، عندما سجن الصوفيون ليسيطر الوعاظ الشرطة « Campelle intrare » ، احملهم على الدخول. ذلك هو المعتقل الواسع. كل ما يخرج عن المألوف ، بحق أو بغير حق ، يختلط في السجون ؛ العواهر واصحاب الرؤى يعاملون معاملة الجنون المستحكم . جانب جنوني من الكلاسيكية العاقلة التي تنشد قبل كل شيء الاطمئنان . الفقراء والمجانين كلهم مصدر خطر ! « لقد ابتدعت الكلاسيكية الاعتقال على نحو ما ابتدعت القرون الوسطى تقريبا حجر البرص » . فنرى كل ما يمكن أن تتخيله بشأن مجتمعنا اذا اتبعنا هذا التحليل ــ السديد ــ . يمشي الاسعاف والشرطة جنبا الى جنب في هذا الخليط الغريب . وفوق كل شيء عبادة العمل ، الخوف العظيم من ترويج الكسل ، مؤسسات العمل Workhouses ، اطلاق اللعنة على « رفيق العمل السيء » وبكلمة ، التهيب البورجوازي الذي يقابل أزمة اقتصادية عنيفة . خوف الفشل واضح في صميم الكولبرتية ! كل ذلك يقتضي حذف اللاجتماعيين ، الذين ليسوا مندمجين . ولاكان يتكلم عن ذلك في صدد التحليل النفسي التقليدي . اذن فوكو يفكر فينا ، يفكر في عصرنا ويحاكمه جذريا . « عالم الاصلاحات » ليس القرن السابع عشر وحده هو الذي يبتدعه . لقد ابتدعه ولا يزال حتى أيامنا. عالم يؤذن بمعسكرات الاعتقال ، يتسخر فيه العلم الوضعي لخدمة استبعاد الغريب . عنصرية . يتواطأ في ذلك الطب والاخلاق . تنقية ريثما تحين التصفية . تبذل العناية الجيدة للبدن حتى يصمد بوجه الغواية . تزمت « يصنع الخير اذ هو يصنع الشر » . القمع يستعر ، القمع الذي يحلله هربرت ماركوز[1] في عالمنا الحديث. اللوطي يعدم

---

(١) راجع ، الايروس والحضارة ، منشورات مينوي
Voir Eros et civilisation, Ed. Minuit.

شنقا ومعه الشاذ جنسيا. يصبح الحب مسألة عقود تخضع كل الخضوع للاسرة . « لقد وضعت الملكية المطلقة حق الاعتقال تحت رحمة الاسرة البورجوازية » (انظر ص ١١٣) . واني لاجد عند بومارشه هذا النص الذي يؤيد فكرة فوكو : « تربح الاسر ربحا كبيرا عندما تطرد الشرير»[1] . لو قال فولتير لاضاف دون كثير تردد الاشرار وفاقدي الرشد والملحدين : كم من تعنت في التسامح ! وكذا القول في اللادينيين وفي من حاولوا الانتحار أولئك الذين اعتدوا على المقدس . الحياة . الايمان . كل ما يهدد ذلك ممنوع وها هو المجلس الاول ، آخر الكلاسيكيين ، يصدر قرارا يحظر فيه الانتحار .

• ان انصار الفكر الحر أنفسهم في القرن الثامن عشر يفضحون كل « عبث عاطفي او فكري » كما يفعل كربيّون Crébillon ولاكلو (العلاقات الخطرة) . لقد بيّن روجه فايّان Roger Vailland ، أن تلك الاخلاق ليست قناعا ، وانما الضمير (الكلاسيكي) في قلب البورجوازي (الثوري) . الا أن هذا العالم المؤذن بمعسكرات الاعتقال لا يحول دون معاناة الجنون . كل ذلك يضع موضع الشك ذلك المفهوم الملفّق مفهوم الانسان السَوي" . طبعا سقط كل ذلك من الممارسة ولكن الايديولوجيا ألا تستمر حية ، كامنة ؟ هذه الايديولوجيا بنيت في العهد الكلاسيكي على تعرف الى الجنون ، وعلى معرفة له . ولكن لم يبدأ أي حوار في ذلك العهد . بيد أن المجنون عنيد ! يحفظ حريته الاساسية التي ربما كانت حريتنا نحن من عدة اعتبارات . يجب أن يخرج من ذلك الضياع حيث احتُبس ذلك النوع في حديقة مغلقة . ولم يكن عديم النفع أن يُعِد" ساد انتاجَه ، ساد قريبنا كما علمنا كلوسوفسكي ، في الوقت ذاته حين كان بعض مضطهديه يحاولون ،

---

(١) بورماشه ، الام الآثمة . Cf Beaumarhais, La Mère Coupable

بموقف غريب وملتبس ، أن يقدموا العناية للمجانين ويحرروا الناس . ربما أخطأوا في ذلك . ونحن أيضا .

النظرة السريرية :

قبل أن تتناول هذا الاثر الذي استثار الكثير من الاقوال ، يلزمنا أن نستعرض دروب فكر يفصح عن ذاته بشزرات متقطعة مهما تكن أهميتها ، لكنها شزرات نشعر أن لها مواضع في مجموعات وأنها تتماسك ، رغم تناشزها في الظاهر ، ذلك التماسك المستفاد من استعادة مسائل معينة ، بعد استكشافها في حقول ابيستيمولوجية وتاريخية مختلفة .

مفيد ، من هذا القبيل ، كما اختبرناه بنفسنا ، أن يطالع بنفس الوقت كتابا فوكو : كتابه في **ريمون روسل**[1] **ونشوء الطب السريري**[2] ، وقد ظهرا كلاهما سنة ١٩٦٣ .

« يتحدث هذا الكتاب عن مجال اللسان وعن الموت : يتحدث عن النظرة » (نشوء الطب السريري ص ٥) . ويتحدث عن « تجربة صورية ، عميقة ... فتحت الطريق لامكان تجربة سريرية ... بحيث تتمكن أخيرا من القول في الفرد قولا له بنية علمية » (ص ١٠) . تلك هي حلقة الانتقال ، أو « القطيعة الابيستيمولوجية » الكبيرة التي يقرؤها فيلسوفنا في القول الطبي ، ما بعد العهد الكلاسيكي . انه تعليق على ثقافة . يقف فوكو اذن موقف ليفي-شتروس عند تحليله للبنى الفوقية ، في ما يسميه ألتوسر الممارسات النظرية . لكنه يجعل منه ما يسميه أيضا ألتوسر النظرية . التحليل بنيوي ، يقصد تبرير عزل

---

(١) Gallimard, collection « Le Chemin », 1963

(٢) P. U. F. , collection « Galien ».

مدلول (هو الفرد) في وقت يتكون فيه العلم الوضعي • نرى من هنا أن الاحالة الى التاريخ غير منسية • يتصور فوكو « النظرة السريرية » عبر عمليات تفسيرية وعبر الوقائع التي تتقاطع معها • يحاول أن يرى « ذلك المضمر العقلي » الذي ينظم النشاطات الانسانية •

طب حسب « الجدول » السريري (يذكرنا بـ دائرة المعارف) حيث تتراكم التماثلات التي تحدد الماهيات المرضية • تعطى علائم المرض في هذا المجال السريري حيث يعتبر « المريض صورة للمرض وجدت بعد فقده » (ص ١٤) ، ثم بنية سياسية : هل ستُعيّن الدولة الاطباء ؟ انها الثورة • توافق وتقابل ، حسب العصر ، بين الايديولوجيا السياسية والتكنولوجيا الطبية • تجري هنا مناقشة وضع المستشفى وممارسة الطب أيضا • « الاسطورة الكبرى ، اسطورة النظرة الحرة ، في ائتمانها على الاكتشاف القدرة على الهدم ؛ بعد أن تحررت من الظلمة صارت تبدد الاشباح » • انه جدل فلسفة الانوار • يضعه فوكو في بصيرة الطبيب • يظهر هنا تفاوت بين اكتشاف الفرد المريض وأسلوب العيادة • فالمريض في العيادة مثال عن المرض ، لم يصر بعد **اصابة** • أما في المستشفى فتصير النظرة الطبية جديدة كل الجدة • وفعلا ليس هناك متسع من الوقت لتدريب الاطباء • انهم « منفتحون » و «أطفال» أولئك الذين بعثتهم الى الريف حكومة العهد • لقد عوض الطب السريري فيما بعد شيئا عن هذا النقص في الخبرة بتوسع حقل النظرة النظرية • فتعززت من ثم الكفاءةوالفعالية الاجتماعية• وصار المستشفى يقدم الالم مشهدا يُثقّف : « وأصبح الاسعاف يدين بالايادي البيضاء للنظرة السريرية » (ص ٨٦) • فنشأ من ثم عهد سيادة علم العلامات ، عهد حوار العلائم ، الاعراض • العرض يدل فيُعبّر عن دلالته • « وراحت تنتشر في الخفاء تحت ستار مفردات تقريبية مفاهيم يمكن

» أن تتعرف فيها حساب الخطأ ، الانحراف ، الحدود ، قيمة المعدل الوسطي ... » انها بالضبط مفاهيم وضعتها الدراسة الاجتماعية موضع العمل في البنيوية . كان يلزم أن نفيد بهذا الصدد عن التطور الذي أفضى الى البنيوية عبر **الاحصاء** ، لكن ذلك مسألة أخرى . على أن المؤلَّف نفسه الذي ندرسه يضعنا على طريق ذلك ، لان فوكو لا ينسى أن يذكر حساب درجات اليقين (في العلائم والاصابات) . عبر تلك العلائم « تسمع النظرة السريرية لسانا ، في حين ترى **مشهدا** » (ص ١٠٨) .

« افتح بعض الجثث » ؛ يجب أن يستعيد بيشا كل هذا بعقلية طبية جديدة يلتقي فيها فحص الانسجة بالتحليل على مذهب الترابط . ترسيمات الاجسام ترسيمات أنسجة . والموت يفسح مجالا للرؤية داخل الانسان ، « عين مطلقة تُجَثِّث الحياة » (ص ١٦٨) . هو الانسان ، وقد مات ، بالمعنى الحرفي ، أنشأ طب المتناهي ، على هذا الحد الجديد . ماذا تقول في هذا العلم « علم الاصول للنظرة الطبية » ؟ . لقد بدا لنا أنا نشهد حوار القمم ، عندما أتاحت لنا نفس المجموعة « Galien » من المنشورات الجامعية الفرنسية .P. U. F ، أن نقرأ كتاب Dagognet داغونيه La Raison et les remèdes العقل والادوية . يعترف هذا الفيلسوف والطبيب أيضا (في مجلة Critique ، ايار ١٩٦٥) أن كتاب فوكو يربكه ويزعجه . أجل لقد كشف فوكو «تنظيما جديدا»، للفكر الطبي الجديد . ولكن هل طريقة Broussais وطريقة Bichat هما بعد معاصرتان ؟ ألا تُحدث تلك النظرة الجديدة ، نظرتهما ، تغييرا في الموضوع ، على الاقل بقدر ما تُغيِّر نظرة Pinel بشأن المجانين ؟

مهما يكن ، فان بعض الادواء لا تجبرنا على النظر الى الجسم نظرتنا الى جثة ؛ ليس عمل الطبيب دائما أن يُنزل المبضع بالاغشية . عليه أيضا أن « يتعلم القراءة ، أن يرى ويسمع ما وراء النحو الاصم ،

نحوِ المراسلة التشريحية » (داغونيه ، المقال المذكور ، ص ٤٤٧) .
اذن ، مهما استثار عمل فوكو من نقد سديد فانه يظل ولا مطعن فيه تقريبا اذا ما اعتبر بحثا في اصول . يؤخذ أحيانا على فوكو أنه يجمد الماضي . ولكن يمكن على هذا النحو أن ننحو باللائمة على عالم الجمال الذي يدرس « قناع أغاممنون » ، انه لا يرينا لويس الرابع عشر من خلال هذا القناع . من يشأ أن يدرس الوجود فريسة لصُدفه ولمفاجآته فليعمد اذن الى كتب فوكو الاقل شيوعا التي يضع فيها أساسات مذهبه الانطروبولوجي، بصدد آثار أكثر سرية ، مثل Traum und Existenz (الحلم والوجود) لـ Binswanger [1] ، وريمون روسّل ، أو بصدد كتاب الباروك . نتاج ينكشف فيه فوكو « متحذلقا » على حد ما قاله لنا أحد الطلاب منبئا بذلك عن مؤلّف Suivantes التابعات الذي يفتتح بـه كتابـه : **الكلمات والاشياء** [2] .

الكلمـات والاشيـاء : Les Mots et les Choses

لا يمكن أن نتناول هذا الكتاب من زاوية نقدية بحتـة ، لانـه يمتنع علينا من هذه الجهة . بعد أن استطعنا التثبت عن قرب من حجج فوكو حول بعض النقاط الدقيقة ، بدرت منا حركة تراجع . أن يـكون دون كيشوت بطل (معادلة الذات للذات) لانه يحقق التماثلات التي لقّنها ، بأمانة بالغة ، لا بأس ! جائز ! أو ألا يكون ذلك بل يكون بطل (الآخر) ، أيضا لا بأس . ولكن بما أننا لدى اختلاف رائع البنيان فلنترك القارىء يجري في مطالعة ما يعرض فوكو علينا قراءته في بطل سرفانتس . ما يبدو لنا صعبا أن نزدرده هو ألا يتعدى دون كيشوت

---

(١) منشورات Desclée de Brouwers ، مقدمة فوكو ١٢٨ ص ، ونص بنسفانغر ٦٠ ص .

(٢) صدر عن :
Bibliothèque des sciences humaines, Gallimard, 1966

حدود منطقته الضيقة ! مَه° ! لقد راح من إسترامادورا الى برشلونا على ظهر روسّينانْت ولا فلس في جيبه ! وعذرا عن الاقلال • ومن يقول بأفضل من ذلك في موضوع المغامرات ؟ خطأ لا يغتفره لفوكو الحاذقون بالامور الاسبانية • وكذلك القول في ما كتبه بصدد الـ Ménines لـ فلاسكز • هيا الى الـ برادو • الرائع هو تلك المرآة التي تتسع للناظر واللوحة بالكامل • مرآة ربما أضحكت ، لكن الاكيد أنها تفرض نفسها وتخط تمثيلا محدودا يجعل الملك ، وان غائبا ، عنصرا من اللوحة • القول بأن الرسام والمشاهد مفرغان من لوحة الـ منين" هو قرار غياب لا يقل صحة وكذبا عن قرار حضور ؛ نقيضه قول ايحائي لكنه تعسفي • على أن فوكو المتصنع لا يمتنع عن ابداء اعجابه ، في كتابه ، **الكلمات والاشياء** • هنالك حيث المسافات الفلكية الفاصلة بين الانسان والتصور تقلبها الانعكاسات لوحة ، على نحو ما كان الصينيون يمثلون الكون بلطيخات المنقش تلك اللامتناهية في الصغر ، هنالك يقرأ فوكو حديث المسافات والتغيّبات • المواقف الصامتة نفسها لها علامات ، والذي لم يعد يكلمنا كلم غيرنا من قبل ويمكن أن يكلم علم الاصول • ومنه ، معاودة الاهتمام بـ « العالم نثرا » في فصول ظهرت لنا ، على ما هي عليه من التجريد ، أكثر اقناعا • كل ما فسر في الماضي يفسر من جديد ، وتفك الرموز بطريقة محايدة في الظاهر وهي عميقة التعاطف مع موضوعها • « يجب أن نحب الكلمات حتى نقرأ فيها الاشياء كما يفعل فوكو • يجب على المرء أن يعيش الاشياء حتى يستطيع قراءة الكتابة » (راجع ص ٤٩) مستعيدا هكذا عقلية انسان من القرن السادس عشر • هوذا رامُو Ramus ولاكروا دو مين La Croix du Maine وفيجنير Vigenère يدلّونا على ما قصدوا ، تحت ضوء معارفنا المضمرة ، بافصاح عن معارفهم في لسان أعيد الى مباشريّته • هذه هي المعجزة الحقيقية لعلم الاصول : ينبش أثاث :

فيصير معاصرا مع امتناعه عن أن تتمثله في عصرنا • لاننا حينئذ نجعل أنفسنا معاصرين لقول الماضي • قد يجازف بمنازعة فاشلة مع فوكو من لا يريد أن يرى أن التاريخ ليس حتما اتصالا حياتيا في الممارسات أو الافكار • هذه ترسيمة تصح في مجالات غير التي يصفها مؤلِّف **الكلمات والاشياء**، فالاقسام الثلاثة : النهضة ، العهد الكلاسيكي ، القرن التاسع عشر ، لحظات لا متجانسة • المفهوم السائد في عصر النهضة هو بنظر فوكو مفهوم التشابه: تترابط الاشياء **توافقا** ، وتلعب فيمابينها **تنافسا** ، وتتقارن فميا بينها **تماثلا** وتتنافر أو تتجاذب **تعاطفا** • العلم في هذا المنظور كرة (متناهٍ ودائري)[1]• هذا العلم يليه في القرن السابع عشر منهج تحليلي غايته التقريب والفهم : يبحث ديكارت عن رياضيات كلية • فكرة متشعبة عن **بنية نظام** • نرى أن التحليل يبلغ ذروته في دراسة منطق بور–روايال Port - Royal • ينقل فوكو ترتيب ذلك المنطق وعلاماته بدقة ، وهذا يبين محدودية هذا البحث الاصولي في مجالات لسانٍ غير خلاق • اختيار تعسفي ، لان القرن السابع عشر عرف الى جانب الدراسات المنطقية ألسنة جديدة وباروكية وكلاسيكية تستطلع ولادات وحيويّات تتحقق • العلاقة في منطق بور–روايال تمثل نفسها ، لكن هناك علامات أخرى أحسها برمون فعلا عندما تحدث عن النفحة الرومنطيقية في شعر راسين ذلك الشعر المنقح ، الصافي ، الذي فيه من العنف والتوتر ما يبعد عنه في نفس الوقت صفة الرومنطيقية • أما المجالات الابيستيمولوجية للقرن التاسع عشر فورطة فوكو فيها أكبر • يظل فوكو مرتاحا يبسط تحليله لبنية شبه محايدة بنية المجال والقول ، ما ظل مقتصرا على تحليل عمل جمّدته معقولية (كاذبة) ، معقولية التقسيم التجزيئي • اذ ان المنظومات تتفجر

---

(١) يمكن الاستفادة من مقارنة فوكو مع G. Poulet في كتابه Les Métamorphoses du Cercle (نشر Plon) .

في ذلك العصر نحـو فكرة السببية التكوينية ، سببية الصيرورة ، التي قللت البنيوية أهميتها في العينات التي حللناها ، دون أن تجردهـا من قيمتها • لا يمكن حذف التزمن ، وليس هذا مشروع فوكو • مشروعه أصعب • ليس بين الكلمات والاشياء رابطة وحيدة الطرف • فيجب تتبع تقاطعهما بتتبع الحقول المتتالية التي تعمل فيها الالفاظ بموجب « معقولية » • البحث عما يحدث بين الكلمات (كلمات علم المستحاثات مثلا أيام كوفييه) والاشياء يفهمنا بنفس الوقت كيف تتكون المدلولات وكيف تتفرغ • ماذا تعني ثبوتية كوفييه ؟ اذا وضعنا هذه النظرية في عصرها وجدنا فيها سلسلة من المعاني لم تَسْتَبْقِها الشروح اللاحقة • وهكذا اذا درسنا في القرن التاسع عشر فكرة العمل عند سميث ، أو ايديولوجيا دستوت دو تراسي Destut de Tracy ، نقرأ القرن التاسع عشر بدقة أشد صرامة مما يعرف عن مذهب التطور التقدمي • لكن فوكو لا يُوفَّق في تحليله على كل صعيد • لا بد من القول مثلا بـان اخراجه ماركس من الحقل الاقتصادي يظهر لنا في **الكلمات والاشياء** دونما قيمة • واقحام ماركس في الطبقات السفلى في النظرة التخمينية تحيّز هجائي ، لكنه من الوجهة العلمية تعسفي للغاية • نحن بانتظار توسيعات للنقاش ويجب أن يستمر بهذا الصدد •

لا يسعنا هنا الا أن نرسم بعض الاتجاهات لقراءة هذا الكتاب الذي تفاقمت حوله كثير من الاهواء • ولن نجاوز الحد مهما أهبنـا بالقراء أن يتثبتوا من النص نفسه بتواضع ، مما يقوله بشأن كل حقل من حقول المعرفة أو أن يسترسلوا في تأمل شعري ، شبيه بتأمل ايف برترا ، حين يدرس كشاعر وطبيب نفسي **الكلمات والأشياء** [1] • بديهـي

---

(1) منذ قليل توفي ايف برترا ضحية حرية اعطاها قبل الاوان ، ولكنها كانت ضرورية ، لاحد المرضى . نأمل أن تجمع مقالاته في مجلد وأن يواصل نشاطه . يحسن أن يقرأ مقاله في مجلة Esprit عدد ٥ ، ١٩٦٧ .

أنه يمكن مخاصمة فوكو ، بمثل ما يأتي به من القريحة والفَوَران رفو دالون[1] Revault d'Allones ، على ادخاله هكذا الرياضيات في القرن العشرين ورفو دالون مصيب في الغالب واصابته عميقة • على أننا ما كنا لنجاريَه في بعض انتقاداته التي تفتقر الى المنطق افتقارا كبيرا ، كأن يلوم فوكو مثلا على اتخاذه « مكتب ••• التقنوقراطي ••• مجالا ابيستيمولوجيا » • أما هو ، رفو دالون ، فربما كان يكتب على ركبتيه أو بين العمال في مصانع رنو Renault .

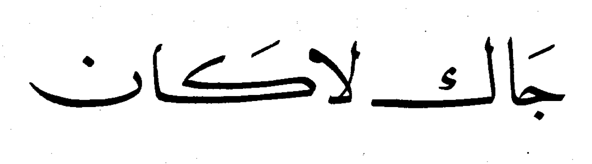
من يدعي أن النظام اللاشعوري للبنية يجعلها شبيهة بالترسيمة التقنوقراطية ، ينم عن استعمال لمفهوم التماثل مُغرِق في اللاهوت ، وهو بالضبط يستعيد محاجَّة سارتر لفوكو • مهما يكن من الشطط ، لا بل من السخرية أو ، كما قلنا آنفا ، من الاستفزاز ، في هذا الفكر ، فان كاتب **تاريخ الجنون والكلمات والاشياء** قد خلصنا من آلهة كاذبة كثيرة كما فعل نيتشه • عندما يبشر نوعا ما بموت الانسان في علوم الانسان ، فانما ذلك ليستبدل « الذات » النفسية التاريخية التي هي الحامل لتاريخنا بمعرفةٍ لما يقوله لسان العلم عنا في البنية المحركة له • من يدري ، ربما يخرج يوما من هذا « البحث الاصولي » انسان آخر غير ايديولوجي ، ويعود لفوكو قسم من الفضل في ذلك • ما وراء خصومات تسممها من كل صوب المجابهات المزاجية وربما الحزازات القديمة ؛ ما وراء المنازعات الايديولوجية والالتزامات الكاذبة ، يرتسم « صفاء متشنج » • ربما كانت النظرة الباردة أقل نصيبا في التعاطف من النظرة العاشقة التي تلقيها على الانسان جوقة سوفوكليس ، لكن هذه النظرة ضرورية أيضا •

---

(١) Michel Foucault, « Les Mots contre les choses »
في مقال له بعنوان : ميشال فوكو « الكلمات ضد الاشياء » في العدد (٢) من Raison présente



الفصل التاسع





ملاحظة اولى :

جاك لاكان ليس بنيويا على نحو ما ينتمي رسام الى « مدرسة باريس » . انه محلل نفسي على مذهب فرويد ويعتصم بالطاعة التامة لمبادئه . التقت ابحاثه مع أبحاث ليفي-شتروس وأتى على ذكره في مواضع عديدة . ان ندرس هنا فكره فانما ذلك لانه يخطر في الحقل البصري ، لا بل في الحقل المغناطيسي للبنيوية . اذ تعيش البنيوية من اللقاءات لا من الالحاقات . يلتقي جاك لاكان مع ليفي-شتروس مثلما يلتقي مع هجل أو ماركس . لاقى لا يعني خضع لـ ، ولا طابق ، ولا دخل في نظام .

ملاحظة ثانية :

ظل جاك لاكان طويلا يجهله الجمهور لا اهل الاختصاص . فستقتصر دراستنا على النص الصادر عن دار Seuil بعنوان Ecrits كتابات . لا تحتوي **كتابات** لاكان شيئا الا ونشر في غير موضع ، عدا بعض « التنويجات » أو الخواطر التي تقيم روابط فتكشف أو تقص حوار المؤلف مع فكره .

مـلاحظة ثـالثة :

اتناجه إذن كلام جعل كتابة • وهو يفترض علاقة خاصة تعبر عن نفسها في أولوية انشاء ينطلق عفويا أو يعتمد متثاقلا • انتاج لاكان اجتياح ، أول اجتياح من التحليل النفسي للادب • ولهذا لن نذهب الى القول مع فرنسوا شاتليه[1] François Chatelet بأنـه زي عابر ، لكننا سنؤكد بالأحرى على امر واقع هو أن لاكان يخولنا أخيرا ، في هذا العالم اللساني حيث تتحرك الثقافة المعاصرة ، أن نقوم ، ما وراء حوار الكلام واللسان ، الذي هو بالتحديد حوار المحلل النفسي والشخص المحلَّل ، بحوار الكلام والكتابة •

وقد أكد على هذا جان لاكروا[2] مستعيدا لاكان ، قال : « يبين فرويد أن اللاشعور يتكلم في كل مكان ، ويعلمنا كيف نفك رموز اللسان في الحلم الذي هو أحجية ، وفي أشكال العصاب ، حيث يمثل العرض دالا من الوجدان لمدلول مكبوت ، وفي الجنون تلك الكلمة التي أبت أن تعرفنا بذاتها ، ذلك القول الخلو من كل ذات » •

اللسان يتكلم من خلالي ، لكنه يعبر عن الشهوة • وموضوع الشهوة هو الآخر • فيجب الرجوع الى الكلام الاولي، «بنية اللاشعور الاولى » (جان لاكروا) • وأتكلم بالرموز • تلتقي اذن شهوتي باللسان ــ هذا هو الرمز ــ فعلي أن افك رموز لا شعوري لاسترجع عبر رموزي تاريخي اللاشعوري الذي ما يزال صفحة بيضاء • هـذا

---

(١) فرنسوا شاتليه ، « الى اللقاء بعد سنتين » « Rendez - vous dans deux ans » في الـ Nouvel observateur تاريخ ١١ كانون الثاني ١٩٦٧ •

(٢) جان لاكروا ، « كتابات لاكان او عود الى فرويد » « Les Ecrits de Lacan ou retour à freud » ، في Le Monde تاريخ ٢٤ كانون الاول ١٩٦٦ •

الى أني بحاجة الى أن يساعدني المحلل ولا يفرض شيئا علي . ومنه مـا لقـوة **الاقرار** من أثر على مستقبل الذات . على أن مستقبلي ليس ما يتوهم أنه رجوع الى الانسان الفطري الذي هو الطفل (.طفل في اللاتينية تعني : **من لا يتكلم**) . اذ يحرر المحلل كلمتي يربطني بثقافة. فيعتقد لاكان أن التحليل يؤدي الى مشاركة بين الذوات يتحقق فيهـا مشروع ماركس ومشروع فرويد . من يدري ، ربما يطفق الالم البشري يتكلم خلافا لكل توقع : فتدين الحرية للجنون بمعرفـة حـدودها . مشروع لاكان النهائي هو اذن أن يجد في الذات ، عن سبيل التحليل النفسي ، الينابيع الثلاثة ــ اللانفسانية ــ للانسانية الفردية ، ألا وهي السعادة والحرية والحقيقة .

مـلاحظة رابعـة :

لاكان عنده فعلا نظرية بنيوية يفيدنا عنها أندره روبينه[١] على النحو التالي : « ينفتح التحليل نصف انفتاح حسب مصراعي أبواب الحرب : « الواقعيون » من جانب يعتقدون أنهم يعملون في طبيعـة الوجدان ، ومن الجانب الآخر « البنيويون » لا يتكلمون الا بألفاظ تدرك التجربة التحليلية على المستوى اللغوي حيث تتجلى ويفكونها ».
ليس من قول يمكن أن يقال في لاكان أفضل من أنه يفسر التحليـل النفسي بألفاظ ثقافية لا بألفاظ طبيعية ، دون أن يقف شأن الوجودي بجانب « الموقف التحليلي » ، مفهوم كثير الغموض . مثل هذا الموقف يتركه لاكان طوعا لـ ريكور ، الميتافيزيقي ، بنظره ، صاحب نظريـة التفسير ، الذي يرى أن التحليل النفسي ينتهي عند حد ، أو بكلام آخر ، هو سلسلة رمزية يجب تفسيرها على أنها علامة على ما وراء

---

(١) في مقالة : « لاكان الملك » في **الانباء الادبية** ٩ شباط ١٩٦٧ .
André Robinet, « Lacan Roi » , Les Nouvelles littéraires, 9 févier 1967

للكلمة هو الكلمة (الإلهية) •

كل محاولة لاكان التي سنتتبعها عن كثب متعلقة بهــذا اللزوم : اكتشاف البنى لاعطاء التحليل النفسي صفة علمية • هنا بالضبط يلتقي لاكان مع ألتوسر وليفي-شتروس في مطمح مشابه لما يهدفان اليه • هذا العود الى العلم لا يتقاعس حتى ازاء تهمة بالفلسفة العلمية •

لكن العلم محاكمةمستمرة•يبوح جاك لاكانالى Pierre Daix[1] بأن اللاشعور ما يزال مفهوما جديدا ، لان الأساة مستمرون في « دس العملة المزوّرة » ، عملة التفسيرات القديمة •

اذن بعد أن احتطنا لنفسنا من أخذ المفاهيم الفرويدية الا بمأخذها الدقيق ، سنحاول التوغل في النص نفسه ، متجنبين من جهة أخرى الكلام عن الانسان بوجه عام ، ورافضين ، خشية الوقوع في خطأ أن نوحد في الماهية بنى اللاشعور وطبقات الموجود •

قراءة لاكـــان

لا يبتدىء لاكان الريبة بل يكلمها • الحقيقة تختبيء ، ولكن أين؟

ما هي بنى الحقيقة ؟

الحقيقــة أشبه بلعبــة منظمة مثــل ذلــك البحث عن تلــك **الرسالة المسروقة** (٢) ، التي يعقد حولها جاك لاكان حلقة دراسية •

الحقيقة حركةذهابوایاب بينالذينيقولونها (التناوببينالذوات)•

---

(١) Entretien avec Jacques Lacan, Les Lettres françaises, 1er - 7 décembre 1966 محادثة مع جاك لاكان ، **في الآداب الفرنسية ،** العدد ١ ــ ٧ كانون الاول ١٩٦٦ •

(٢) راجع ا• بو : حكايات خارقة •
Cf. E. Poe : Histoire extraordinaires.

في حركة الذهاب والاياب هذه ، تصطدم الحقيقة المتخفية وترتد الى الوراء ، شبيهة بمقطورة على خط حديدي ، تُدفع الى حيث تصطدم فترتد .

اللعبة اذن هي التالية : عندما أقول أكذب ، لان الحقيقة لم تمتحن ، فهي « حقيقة باطلة » . يجب الارتياب من كل حقيقة تتخفى تحت مظاهر البداهة والمقالة الصادقة . يجب فيها عدم الثقة : حقيقة بوليسية غالية على طلاب الاحاجي . من الاشياء ما يختبيء خلف البداهة : الجوارير السرية للمعرفة هي دائما فارغة ، لكن الحقائق المعروضة أمام عيوننا تحمل كذبها . تقول عاهر كي **تضلّنا** : « لست ما تظنون » . أليس **غريبا** ؟

نقف هنا على بنية للحق . **« الحق الحقيقي »** يُعرف من بعض القرائن الغريبة ، الطريفة ، الفريدة لا بل الخارجة عن الصواب . انه يُعرف بعلامة لا ترد الى غيرها ، لا تقسّم ، كطرفة عين يغمزنا بها اللامشروط عبر كثافة شبهاتنا . ليس في تلك الغرابات **بعض** الحق بل الحق .

للحق حضور النفايات التي لا يريد المرء أن يعرفها . التعرف اليها ، تلك هي طريقة الشبهة . لا يتساءل صاحب هذه الطريقة عن محتويات الرسالات بقد ما يتساءل عن مدلولاتها وعن شيوع هذه المدلولات بين الموجودات . ولكن ماذا يشيع بين الموجودات ؟ الكلمات والكتابات . في البحث الذي يتدخل فيه الكلام ، لا يكشف عن موضوع البحث ، كما يكشف عنه في حركة وصف الظواهر الفينومينولوجية . فالكلام يقوم بدور خاص مع كل مشترك ويتحول معه . عندما تتكلم ليس يهم المحتوى بقدر ما يهم القصد . مثلا ، الفرق في المنطوق الصوتي بين mal و mâle ، بين mer و mère (خصوصا

في اللفظ الباريسي) قريب من الصفر • المتكلم أو مرسل الكلام هو الذي يدل على المعنى • وهذا أهم عند لاكان من المحتويات الصوتية التي تكاد التغيرات الفرقية تتلاشى بينها •

يظهر حينئذ مؤقتا صلب الموضوع : تتنقل الدوال[3] كما في أشرطة الدعاية المضيئة ، تترك مكانها لتعود اليه بحركة دائرية ،والجميع يتبعون • أقول في أحد الاجتماعات « أمك » وكل واحد ينقل الاشارات الرمزية حتى تعود الي الاشارة • فيكون في هذا الوقت كل واحد قد وقف من اشارتي موقفا ولعب دورا •

لكن هذا الدور ينزع مني دوري ، حتى اذا ما خرجت كلمتي من أيدي الغير تكون قد أُفرغت من قصدي • فمن يستقبلها ثانية ؟ الموجهة اليه • هذا هو فحوى **الرسالة المسروقة** عند ادغار بو ، في نظر جاك لاكان •

يجب على من يريد أن يُفهم أن يكرر القول • لكن الشريط المضيء يتقدم • فاذا كرر الحضور كلمة « أمك » التي لفظتها ، فهم يحاولون أن يقولون من جديد شيئا ما ، وبتكرار هذا الشيء يستعيدون البحث عن شيء لم يرد (في ذهني) • لو كررت قولي بالضبط لمت • هذي هي غريزة الموت في" • وهنا ، كما نرى ، تبرز أمامنا من جديد المشاكل الاساسية في البنيوية : البنية نَزوع" الى التكرار • على أن التكرار هو التصلب يهدد بالموت ! فالبنية اذن يمكن أن تكون آلية تكرار ! هيا معلمي" الطيبين الذين كنتم تقولون : « التكرار روح التربية » ، ويا أيها النقاد الاعزاء هواة « المراجعات العامة » ، ألهذا الحد كنتم ولا تزالون تحبون الموت ؟

يثير لاكان اعجابنا بإدراكه هذه النقطة المركزية من تتاج فرويد الفتى • وهو يجد في كيركيغارد المبدع الاول لاشكالية التكرار هذه•

من الذي في التكرار يكرر ؟ كانوا الى أن جاء فرويد يجيبون ، خشية الوقوع في فكرة القدر القديمة : « ألا ان وجدان الانسان هو الذي يعاود نفس الاشياء ! » • أما فرويد ولاكان فيدعواننا الى رؤية الامور عن كثب • نحيل القارىء الى المؤلفات التي تعرض تلك الرؤية القريبة [1] •

يهمنا هنا استنتاج لاكان وحده حيث يقترب من ميشيل فوكو في بعض اتجاهاته : «لايمكن بعد اعتبار عالم الرمز صنع الانسان ولكن صانعا له » • اذن الانسان في التكرار التذكّري يُتكلَّم به وليس هو الذي يتكلم •

« يكرّس الانسان بالمعنى الحرفي وقته ليبسط التناوب البنيوي، حيث الحضور والغياب يستدعي كل منهما الآخر » (ص ٤٦) • نص رئيسي ينتج عنه أن عالم المدلول (الرمز هنا) تحتي كالقسم المغمور من جبل جليد ، أو بتشبيه أفضل كالنار المركزية في الارض ، هناك حيث لا يظهر الا النهايات الدقيقة من الشعور اللسان • بكلام آخر ، **الوظيفة الرمزية** تدخل الاشباع على الشعور •

الذاكرة مبنية ؛ يعيّن بنيانها قوانين توزيع ـ قوانين ليست

---

(١) ندعو اذن الى قراءة : أ) فرويد ، **مخطط أولي لفلسفة علمية** ، في **ولادة التحليل النفسي** ؛
Freud, Esquisse d'une philosophie scientifique, dans la naissance de la psychanalyse, P. U. F. , 309 s q;

ب) فرويد ، **ما وراء مبدأ اللذة** ، في **محاولات التحليل النفسي** ؛
Freud, Au - delà du principe du plaisir, dans essais de psychanalyse, Payot.;

ج) لاكان ، **كتابات** ، ص ٤٤ وما يلي ؛ ومن أجل نظرة أخرى : ريكور ، **في التأويل** •
Ricœur, De L'Interprétation, Editions du Seuil pp. 277 s q.

بسيطة طبعا ـ تجعل منها نحوا (سنتاكس) ـ سنتاكس تعني اشتقاقا : « تصفيفا معا » • وانشاء هذه القوانين صوريا هو اظهار بنى التبادلات التي تتخطى الاستذكارات وتمتد اهميتها الى الانطروبولوجيا عامة • اذ اننا نرى في « نحو » الـذاكرة ، العينـيّ والخياليّ والرمزيّ تتمازج ، وتتنضد بعضها فوق بعض • ولكن الحذر ! اذا كان هناك احتمالات رياضية حقيقية لظهور علامة ، فان التعيين الرمزي هو وحـده واقعي ، ولا شيء عند فرويد يخولنا أن ننتقل من هذا الواقع الـى محتوى عيني للرموز (محتوى خفيّ : يُكشف فَيَكشِف) • هـذه النقطة أساسية ، وتبدو لنا أنها احد الفروق الكبيرة بـين البنيويـة وفينومينولوجيا بول‌ريكور• لا يغيّر ريكور شيئا في الرمز الفرويدي، لكنه يرى فيه علامة تحيل الى ماوراء ، الى تعالٍ يُحزر ويكشف • أما عند لاكان فلا شيء من ذلك • « وهكذا ، فان يتعقل المرء النظام الرمزي فلان كيانه غائص فيه ••• » • أكشف عن ذاتي في اللسان عبر الآخر (هذه « مرحلة المرآة ») •

كان فرويد قد فهم جيدا على أي نحو يجب في تتابـع حـديث المريض ، وان أحالنا الى ماضيه ، أن نرده الى سلسلة بنيوية ينتظم فيها • اذ يعيد الى النور المعطيات « التكوينية » لا يقوم بتتبع تطور فـي الاتجاه المعاكس كمن يصعد مجرى نهر زمني ، وانما يُدرِج علاقات انسانية في أوضاع أساسية : هي العقد لا تكشف عن معانيها الا اذا تم تهييء كل شيء من جديد • شبيه ذلك بعلم الآثار المعاصر الـذي لم يعد يقتصر على طلب التماثيل الجميلة والنقود ، بل صار يطلب أيضا بقايا الطعام واختام التجار وقيود العبيد والهياكل العظمية للقطط • وكذلك يوجد في التقليد الهجلي مفهوم الاشكال والصور التي يمكن بها ان تتقصّى من خلالها الاوضاع الانسانية• تحتوي الصورة الفرويدية شحنة قويةمن الإعلام لانها تشير الى علاقات ـ مثلا صورة الاب في

حلم تحتمل توسعات دالّة لا تحصى • المقصود هو تعرف الكوكبات التي تتشكل من النقاط الدالة •

فيفتح التحليل النفسي السبيل هكذا الى « أسلوبية بنيوية في اللا شعور » ، اذا جرؤت على استعمال هذه التعابير • نجد في علوم انسانية أخرى مثل هذا التتبع للكوكبات ـ اللفظية أو العائلية أو الرياضية حتى •

أول ما تتجلى فيه هذه البنية هو اقتناص معنى المكان • أمام المرآة يقيم الطفل علاقة بين البدن ووجوده العيني (كتابات ص ٩٦) • منذ ١٩٤٩ كان لاكان يعترف أن نهجه هكذا يمت بقرابة الى كل التيار الحديث الذي يرى أن المسألة الاولى في الانطروبولوجيا هي المقارنة بين الطبيعة والثقافة • اذ يحدد مرحلة المرآة يجبره التحليل على أن يرى في الطفل الهجومية حتى ولو كانت هذه الهجومية رِقّة • أن يقتنص الطفل المكان والغير في نظره الى ذاته ، هو بادرته الاولى والاساسية في تعرف الاشياء • كان لويس لافيل قد برهن أن الوضع الاساسي للشعور نرجسي[1] • لكنه لم يصب اذ عده هفوة • « الهجومية هي النزعة المضايفة لحال من التقمص نصفه نرجسيا ويعين البنية الصورية لانا الانسان ، ولسجل الكيانات المميزة لعالمه » (كتابات ، Ecrits « الهجومية في التحليل النفسي » القضية IV ، ص ١١٠ : L'agressivité en psychanlyse, thèse IV P. 110) • يشكل هذان السطران احدى العقد في الفكر البنيوي • وعمل لاكان في ما يخص الهجومية يقوم على اعطاء النور لبعض « النوابض البنيوية » التي تفجر من جديد في حياة البالغ أوضاعا مرتبكة مرتبطة بالصور الاصلية•

---

(١) لويس لافيل ، هفوة نرجس ، نشر غراسه .
Louis Levelle, L'Erreur de Narcisse, Grasset

من مهمة المحلل أن يتفحص هذه اللحظات المربكة • ان تعبير « نابض بنيوي » يوحي بأن الحيـاة النفسية تتسم بالتوترات • وتعيين هـذه التوترات في الهجومية هو تحليل لحقـل قوى تُحدث فيه العُقـد خطوطا زائغة يعيد المحلل بنيانها مع مساهمة « الزبون » • لكننا نصل هنا الى جدل بنيوي حقيقي • لاننا اذا درسنا توترات ونوابض تطلقها ، ننتهي من ذلك الى الوقوف على التضادات ـ التي تكشفها الهجومية، حقل عملها المفضل • وتجد هذه التوترات حلا لها عن طريق الجدل ، وهذا هو التصعيد الفرويدي الشهير •

بكلام اكثر تشخيصا : في مرحلة المرآة ، يضاد الطفل ويجذب ذاته معا على نحو نرجسي • يعرف وحدة ذاته في ازدواجية الصورة • ثم تلعب هذه البنية لعبتها على صعيد عقدة اوديب ، عندما يتقمص الطفل شخصية أبيه لينام مع أمه (أو شخصية أمها لتنام مع أبيها) • هي بنية المنافسة مع الذات تلعب لعبتها • اذن ، فالهجومية اذا اعتبرناها شيئا سويّا ومقوّما للشخص وجدناها متسقة وطريقتنا في تنـاول المكان ، في مفاجأتنا له ، في احاطتنا به ، واذا اجترأنا ، في شروعنـا بـه • فتشرح لنا من ثم فيما تشرح ، جوانب عديدة من خلل حضارتنا (القضيـة V ص ١٢٠) • يلتقي هنا لاكان تماما مع لويس مومفـُرد Leuris Mumford في تحليلاته التي لن نبالغ مهما عدنا اليها • لا يخطر ببال الانسان الحديث الا أن يأخذ مكانه • أقصد بهذا مثالا محسوسا : مصفاة فيزين في مقاطعة ايزير Feyzin dans l'Isère • أليس غريبا من التقنيين «التقنوقراطيين» الذين أنشأوا هذا المصنع ، أن يتوجوا بصورة عفوية بنيانه الجميل بمشعل في رأس عمود ؟ اثبات" قضيبي وهجومي : فالليل كله تبدل من ليون الى فيين ، بعد أن حل عصاب جماعي فـي اللهب المهدد (معلوم أي مأساة وقعت في فيزين ، مأساة جعلت من قرب المصفاة صادما نفسيا دائما) • تصوروا أنه كا نكافيا لازالة هذا

الليل العصابي الذي يصيب على الاقل بضعة مئات الالوف من المواطنين، أن يجعل مهرب الغازات أفقيا ، عدا عن أن هذه العملية يمكن أن تؤدي بفضل الغازات المتهربة وحدها الى انشاء مصنع حراري اضافي • ولكن لا ! يطمئن التقنوقراطي على نفسه كلما أقلق الحياة في الجوار • للتحليل النفسي كثير من الكلام في مداخن المصانع هذا العوض القضيبي عن أبراج القرون الوسطى والاهرام وغيرها من المظاهر الجنسيةالمرضية، التي تثبت ذاتها في الحجارة بقدر ما ••• ولكن لا نبالغنّ في الوقاحة•

يأتي جاك لاكان في حديثه عن « خلل الحضارة » هذا ، بصدد علم الاجرام ، بهذا الافتراض : « كما لو أن خلل الحضارة أوشك على تعرية المفصل نفسه الرابط بين الطبيعة والثقافة » (ص ١٢٧) • وتوفر لنا عقدة اوديب مثالا عن ذلك ممتازا بقدر ما تتحول فيه الغريزة الى بنية عقدية مثلثة (الاب ــ الام ــ الولد) •

فالثقافة اذن موضوعة في شكل هذه النية العلاقية • عندما يتحول الطفل الى أنا ، يصير قمة المثلث ويبدأ بتصعيد الاوديب مُجْرِيا سلسلة من النَقْلات هي الحركة الثقافية عينها • القول بوجود انسان يعني الاعتراف ، انطلاقا من هذا التحليل ، بأن الغرائز عند الانسان « منساقة في حركة تقمص تكون فيه صيغة العضو والاتجاه والموضوع لكل منا مثل سكين جانو ، يمكن تبديل قطعه بلا نهاية من غير أن يتبدل » (كتابات ص ١٤٧) • ولهذا يجب ألا نُثبِت بحماقة أن المجرم يقدم لنا مثالا عن فيضان الغرائز ، في حين أن التحليل يكشف لنا عنده عن « برودة ليبيدو » نميل في ما يخصنا الى اعتبارها أساس الساديّة • يُقرأ لنا المجرم بلاواقعية اللذة ، وينم بهذا عن كونه انسانا مبتلى بالشقاء النفسي • ذلك ضرب من ضروب « الاخوّة الخالدة » •

ان التحليل النفسي يستهدف في نهاية المطاف احلال الاخوة محل الزجر ولهذا ناهض جاك لاكان في نقاش شهير التثقيف النمطي للمحللين النفسيين ، وذكّر بهذه المناسبة بأن التحليل النفسي لا يمكنه الا أن يستنير عندما « تتكافأ لغته مع اللغة الراهنة للانطروبولوجيا ، لا بل ومع اللغة التي تتكلمها الفلسفة في احدث مشكلاتها حيث يسترد في أغلب الاحيان التحليل النفسي ما أعطاه » ، (كتابات ص ٢٤٠) • يرتكز هذا التأكيد على المطالبة الهجلية الذاهبة الى أن « كل معقول واقعي وكل واقعي معقول » ، قضية كان قد طرحها قبل هذا الموضع ببضع صفحات • وبالواقع ، ان الوعي للسان مشترك ، لارتقاء نحو بنى مشتركة بين علوم الانسان ، يعتمد على تلك الثقة الموضوعة في الوجود الواقعي جملة على أنه معقول في جملته ، بحيث تستطيع علوم الانسان أن تبين تحت مختلف المظاهر وحدة هذا الوجود الواقعي ، لا وحدة مجردة ، ولكن ، مثل كل مرة ، ولادات جديدة ، انبجاسات متنوعة • المقتضى الجذري لكل البنيوية هو المعرفة الوثيقة للقضايا الاولى في كل ما تحمله من مغامرة اذ ان ادراك حقيقة ما يتأسس على هذا اليقين • هذا هو ما تسهم فيه المحاولة في **الزمن المنطقي وقضية اليقين الاستباقي** (ص ١٩٧) ، وفيها برهان دامغ عن جدل سوفسطائي ، يعود الى ذكره لاكان فيلخصه بما يلي : « ان كل ما يُخلق يتجلى في المبادرة الملحة حيث يولّد تجاوزه كلاما » (ص ٢٤١) • بتعابير أخرى ، للاتيان بالجديد يجب الاندفاع قُدُما : لكن اليقين الذي يعطيه عمل كهذا ينطوي دائما على شيء مُبتَسَر ؛ فيجب اذن وضع هذا الزمن المنطقي موضع تساؤل فعلي واللسان هو الموضع الذي تحاول فيه الاختلالات أن تنحل في تماسك الوجود الواقعي • يستخلص لاكان ، كما يفعل هجل وألتوسّر (مقاربة ثابية)، أول نتيجة منهجية لعقلانيته قائلا : « لا يستطيع أن يفهم التقنية ولا

بالتالي أن يطبقها من يجهل المفاهيم التي تقوم أساسا لها » (ص ٢٤٦)
الى هذا تهدف جهود ماشري وبليبار من أجل ارساء شرح **رأس المال**
على مفاهيم ماركس • أما المفاهيم الفرويدية فلا تتخذ محتوى ولاتتحمل
التوسع ، بنظر لاكان ، الا اذا وجهت الى حقل لساني • فها نحن قد
عدنا الى الالهام السائد في البنيوية • الفن لسان والعلم لسان وسلوك
الانسان ليس تطويرا للغرائز الفطرية بل هو لسان • كان هذا مُتوقَّعا
منذ أن وضع لاكان النبر في كتاباته السابقة على الفارق (الفرويدي)
بين الطبيعة والثقافة عند الانسان •

يُخرج التحليل الى النور كلاما هو كلام ا'لمعالَج ، جوابُه
حضورُ المحلل وان صامتا وكذلك حقيقته • بيد أن الغلطة الكبيرة ـ
المضادة للبنيوية ـ التي تنوء على التحليل منذ بداية الكتاب ، هي
تلك التي تقوم على أن التحليل هو فقط ردّ الحاضر (حالة ا'لمعالَج)
الى اسباب ماضية (الطفولة) • وهم النظرية التكوينية ! ليس السبب
النفسي لحالاتي في ذلك الماضي ، وجودها فيه وجود المادة ، أو
بالاحرى وجود وسائل رحمي أولي ـ تترسب فيه وتتكثف حاضرا
هو حاضر لعبة التعبير الواعي ـ ثم تعود منقاة لتستعيد مادتها في
العقد النفسية الراهنة ، بل ان قول المحلّل يُبرز بنى الخيالي • أجل
يمكن أن يتكلم المحلل كما لو أنه « لا يقول شيئا » ، ويمكن ما يحدث
كثيرا ـ أن يوجد « كلام فارغ » متسم بالعطالة ، ولكن من واجب
المحلّل أن يحركه من جديد (ص ٢٥٤) •

يعمل التحليل كلاما مفعما « باعتبار أنه » يضفي معنى على
وظائف الفرد ؛ صعيده هو صعيد القول المشخص باعتباره مجالا
لواقع الانسان ، يتخطى وجوده ذاتا ، وعملياته هي عمليات التاريخ
يكوّن بروز الحقيقة واقعا •

لقد أصبح مألوفا منذ برغسون أن يعتبر التاريخ ديمومة هيراكليتية لا بنية لها ، كحركة يصير خلالها ذلك « الآن » الذي لا يدرك (القاتل للفكر) ما سيكون وقد زال عما كان . هروب واستراق بلا معقولية . فماذا لو أن التاريخ تَصوّرٌ لا نقاطا من مسير بل مساحات تصل الى مُستَقَرّ ، على غرار الفَوَرانات البركانية والاندفاعات الجيولوجية ! ماذا لو أن الزمان الهيراكليتي الذي كل شيء فيه سيولة ، تَوَقّفَ قليلا ، ما يكفي فقط لان يسيل الزمان في صُوَرِ ... المكان ! في الحقيقة ، يستند التاريخ « الوقائعي » الى فكرة لا يُقِرّ بها ، أن ما يحدث عرضي . أما التحليل الفرويدي فيعرف بالعكس في التاريخ الفردي سمة لا شعور مبني ، حسب أزمنة النسيان وأزمنة التعرف . يسهم اللاشعور ، في ما يسهم ، ببناء الذات ، على قدر ما يقتفي قول الآخر تلك التي يرفضها الوعي ، ويجعلها في حوار بحيث « يكون لاشعور الذات قول الآخر » (ص ٢٥٦) ، « حادث بجاوب الصدى في شبكات مستطرقة » (نفس الموضع) . فيلزم عنه أن حقل التحليل النفسي محدود بصرامة كما أنه يتلقى صورته من اللسان ، والدليل على ذلك أن « للحلم بنية جملة ... » (ص ٢٦٧) .

ولكن لا يكفي الاقتصار على علم القواعد ، يجب الارتقاء الى ينبوع الكلام عينه . السلوكيون والبافلوفيون مثل صديقنا جاك كوسنيه بشأن « الجرذان المولعة بالنظيف » ، رغم كل محاولاتهم لا توصلون الى اتناج أدنى مفهوم . أما بريفير Prévert فيجعل حاضرة دائما أبدا كلّ الجرذان المولعة بالنظيف وقد تحررت من الانتماء وغيره من الآليات النفسية العميقة التي لا تنطق . الانسان ينطق ، فيصنع ذاته انسانا بالرموز التي ينطقها ، مثلما يضع نفسه في البنى الاولية للقرابة عندما ينطق بها . ومنه فالشريعة الاولى التي تحظر السفاح قانون

لساني : لا تجامع° تلك التي تدعى لك اما • انتصار الثقافة اللسانية على الطبيعة • فيلزم منذئذ أن تدل الشهوة على نفسها في العلاقة التحليلية • يبحث لسانها عن كلمة محرّرة تتلقى عبر عمليات الكفّ والاعراض والقلق[1] ، « المجال الممتاز لاكتشافات التحليل النفسي » (ص ٢٨٠) • يجب قراءة متاهات الاختلاط المكفوف حيث يدخلنا نتاج ارَبال Arrabal وخصوصا كتابه: **عيد الاختلاط وطقسه** [2] ؛ أو في مجال أكثر مرونة ، قراءة : **ساروكا العملاقة** [3] لـ جاك كارلمان؛ أو أيضا تلك المدينة حيث يكتب الظفر لبربرلا [4] ؛ نتاج يحاول فيه المؤلفون والقراء والكتب ، في علاقة اوديبية مثلثة ، أن يفكوا الهيروغليفية للوساوس الاولية ، حيث العملاقات البودليرية الشابة تبعث الافكار الميتة التي يغطيها بلاط الكبت والرقابة •

الا أنه لا يجب افلات الفريسة طلبا لتلك الظلال التي تلقيها على ألسننا التهويمات • وسيلة التقدم هي علمية بالمعنى الدقيق • فيجب ايجاد صيغ رياضية قمينة بأن تجعل تخمينات التحليل النفسي منطقية • يجب اذن الرجوع الى صيغة اللغويين التي تميز بين البنى « الزمنية » أو التزمنية ، والبنى المتقارنة « المتزامنة » • مثلا ، اذا أخذت اية صيغة عامة لزلة لسان ، لكلمة الاحترام يراد بها عكس المقصود ، أكون قد أعطيت للزلة معنى كليا من وجهة نظر فرويد • غير أن لسان الزلة هذا ، يشبه لسان الزهور أو لسان العشاق الذين يتراسلون ببطاقات

---

(١) فرويد ، عمليات الكف ، والاعراض والقلق .
Freud, Inhibitions symptômes et angoisse, P. U. F.

(٢) نشر اريك لوسفلد Eric Losfeld .

(٣) Le Terrain vague, Losfeld

(٤) نفس الموضع .

بريدية تحمل رسم البارتنون ، معبد مينرفا في أثينا • انه يتلقى حقيقته الوحيدة من الذات التي يصير بها كلاما دالا • اذا كانت برتا هي التي ترسل الي رسم البارتنون فليس كما لو كانت لوسيا هي المرسلة، حتى لو لم تملأ القسم المخصص للكتابة •

بم تحلم برتا اذ ترسل الي الباتنيون ؟ (عَرَض مقلق بالفعل !) انه غير ما تحلم به لوسيا من الامجاد ! ما أكثر تلك الرموز ! تقتضي معرفتها ثقافة كلية مثل ثقافة فرويد (ص ٢٩٥) ، وعدم الاقتصار على فكرة سطحية جدا هي أن اللسان سلسلة من العلامات ، حتى ان ما اشتهر بأنه لسان النحل يكفي كي يعرفه الانسان ان تتاح له مدونة سديدة • لسان النحل هذا ليس لسانا لكونه يبدي « تضايفا ثابتا بين علاماته والواقع الذي تدل عليه » • كلما كانت الزهرة في الوضع كذا أعطت النحلة المشيرة العلامة الموافقة ، مجرد « مواصلة للعمل » وكفى ، اذ ها هي نحلة أخرى تنقض نحو الزهرة ! ز ه° ! أما أن يصار بين النحل الى التخاطب « أحبك » فمن لا يشعر بالفرق ؟ « أقول عين ما تقول » ، هذا ما يجيب به خادم موليير ذلك المعتوه المجرد من شخصيته • لا يكرر المرء ابدأ ما يقوله مرتين • « ما أنشده في الكلام هو جواب الآخر » (ص ٢٩٩) • فان قلت : « اثنان واثنان يساوي أربعة » فلكي أعرَف بأني سليم العقل • وان أقل : « آ س^{٢} + ب س + جـ = • » فلكي أضع نفسي على مستوى أعلى• وان أقل : « قرأت لاكان وفهمت عنه كل شيء » فلكي يتعرف الى لاكان وحده ••• الا أن هذا القول لا يقومني الا في مرحلة المرآة (المرحلة النرجسية) احاول اقتناص المجال الذي يحتوي أجمل صورة لي • ما يقومني ذاتا هو فقط اسئلتي • وهنا تتعرف العيب الاساسي في تعليمنا بالمسابقات ، ألا وهو أن الذات لا يعترف بها أبدا ، لكونها لا تطرح على الفاحصين أي سؤال ، هذا بقدر ما يصدق أن الجامعة

تعتمد أصلا على قوة تأثير الشخصية على الفرد وعلى أصالته ! اذ ان المسألة هي هي دائما : **تحديد موضع** للذات ، معرفة أين يوجد ذلك الأنا الذي يحده فرويد بأنه نواة من الكَلِم حول ضمير المتكلم الذي ينطق به المعالَج في حديثه عن نفسه .

في التعرف الى الأنا يجب ان يقاوم سلطان الاعراف . يشعر الطبيب أنه من طبيعة غير طبيعة المريض . يحقق هنا التحليل النفسي الفرويدي مع لاكان ثورة بقضائه على هذا العرف . « ترى أيكون عقلنا على درجة من الضعف بحيث لا يستطيع التعرف الى ذاته في القول الفكري وفي مقايضة الاشياء بأشكالها البدائية الرمزية ، على حد سواء ؟ » (ص ٣٠٧) . هكذا أعلن ليفي-شتروس في **الفكر المتوحش** نهاية أسطورة « العقلية القبل منطقية ، البدائية » ، تلك الاسطورة العزيزة على ليفي-برول . هكذا شأن تهويمات الشرح ــ ان في علم الاجتماع او في التحليل ــ فانها ، عن سبيل فكر سحري أدنى ، منصب على موضوع الدراسة ، تلتقي بالافكار البالية ، لصالح طريقة تتعرف عبر الامكنة الجغرافية والامكنةالداخلية، هوية الفكر البشري عندما يتكلم . في هذا الاتجاه تعطينا البنيوية في جملة دروسها هذا الدرس : « لا تجعل نفسك سيدا ، واترك الآخرين يحققون هويتهم . اكتفِ بترقيم دقيق جدلي لاقوال الآخرين لان الآخر معقول" ، اذ هو جزء من الواقع » . لكن ما ينكشف هكذا في الكلام يلقى خارج الكلام حدا له : هو الموت الانساني ، وليس قط التواري الحيواني ، يعطي القول بنية باغلاق حلقته ، عملية مازالت بعد جدلية . فالسؤال الاساسي على هذا الصعيد ــ صعيد الشفاء ــ هو بالتالي : « ماذا يجب أن يكون أنا المحلّل حتى يضطلع بمسؤولية أن يكون مقياسا لحقيقة كل الذوات الذين يكلون أنفسهم لعنايته ، ولكل واحد بمفرده ؟ » (ص ٣٣٩) . وبتعابير

أخرى ، يلزم للمحلّل النفسي تحليل نفسي ، لأن القائم بالعملية نفسه ، « لا يبلغ ، كما يقول فرويد ، بشخصيته درجة الاستواء التي يريد أن يصل بمن يعالجهم اليها » (وارد في ص ٣٤٠) • هـذا هو أصل التعاطف في التحليل النفسي • يخضع فيه المحلّل لشروط المحلل عينها • المحلّل والمحلَّل يعيشان معا تحت سلطان الموت المطلق • هذا السلطان هو الذي يؤدي وظيفة السخرية التي تعلق معرفة القائم بالعملية في ذلك الجهل العليم ، الجهل السقراطي الذي بشر به أيضا نقولا دوكوسا Nicolas de Cues • يجب أن تتذكر في هذا الصدد أن العلاقة في التحليل النفسي علاقة تبادل بين ذاتين ، حتى لا نستسلم لاغراءات علم النفس الثقافي الذي يهدف سرا الى دمج عقلية الشخص في نماذج ثقافية يضعها مسبقا ، ويعتبرها بالتالي سويّة ، لا بل تفوق السوي" ، ويكون من شأنها على أكبر تقدير أن تجعل من المحلِّل نصيرا بوليسيا للنمطية • انما العلاج تبادل كلام يمس كيان المتخاطبَين نفسه ، والباقي لغو • كل مقارنة علمية للاستحواذ على الانسان تتميز عن الآراء الغامضة (التخمينات) بأنها ترتد باستمرار الى نقد اسسها الخاصة، مثلمايدعونا ألتوسّر باستمرار الى «ألا نكون ماركسيين» كي **نقرأ ماركس** يعني أن نعود الى بنى ماركس نفسها • ولاكان من جهته، اذ يدعو المحلّل النفسي الى التواضع ، الى ممارسة الكلمة الجاهلة بسخرية سقراطية غير مبيتة حتى يكتشف في المريض الموجود" ،الكيانَ الذي يعبر عن ذاته فيه ، يذكّر بأن الفكر البنيوي هو رجوع تعقلي الى شروط امكانه • أمَذهب" كانتي ؟ ولم لا ؟ لقد برزت لنا قبلا هذه المسألة • ليس المقصود احالات الى التاريخ ، فلاكان نفسه ينبه الى أن المذاهب الفلسفية ، رغم تعيّنها التاريخي الرائع ، هي بنى مختلفة للحق ــ لا يمكن تجاوزها • لا يمكن تجاوز كانت ولا هجل• ولكن يوضع موضع العمل مقتضيان **نقدي** يتطلبه الاول اذ يرى أنه

لا يقوم علم بدون دراسة لشروط امكانه • **ومفهومي** يتطلبه الثاني اذ يرى أن مفهوم علم ما هو سببه بالذات ووجوده الذي يتحقق في العيان •

ليس كلام المحلل النفسي تعليم معلم • انه في أبعد تقدير رعاية • تدور كل دلائل المعالجة حول المقاومات التي من خلالها **يفرض المعالَج هذين السؤالين اللذين لا يشكلان الا واحداً : من** يتكلم و **الى من** ؟ (ص ٣٧٥) • فليست المسألة من ثم ، أن تُؤوَّل مقاومات المعالج على نحو نرجسي ، باعتبارها عالم هجومية ، أو حاجة للحب حتى ، ولكن أن تعتبر اغفالات « عقلية » تفعلها ذات تبحث عن ذات أخرى • هذا البحث في الواقع ، هو دائما ادراك لتلك النقطة التي تضع الكلمة انطلاقا منها البنى العاطفية موضع العمل لتلقحها بالبنى العقلية ، خصوصا عندما يمر البحث في لحظات تنكر فيها الذات أنها تفكر بما تفكر به في الحقيقة (مايسميه فرويد بالتنكر)• تقول لي اذن، حسب ما فهمتُ منك ، انك لم تحلم بتلك التي أظنها ، لانك تتحول تجاهها نحو موقف العاقل ، أي بكلام آخر اني شاهد تصعيد (انتقال من الصعيد العاطفي الى صعيد البنى العقلية) • فنجدنا من ثم ضمن نظام « الشؤون الفرويدية » التي تبدأ بالتمييز الاساسي بين الدال والمدلول • الدالّ له نظام علاقات خاص ، انها مواد اللسان «المتزامنة» التي تبدأ مثلا من التقابل الزوجي : مصوتات //صوامت—منبورة// غير منبورة — مفتوحة // مغلقة ، الخ •

أما المدلول فهو ما قيل « تاريخيا » ، مع ما يحيل اليه من مواضع صمت ، وشيء غير منطوق به ، ومكبوت ، ومراقب ، ومُغْفَل ، وما يُزَلّ به ، اذن مجموعة •

هنا يتواطأ المحلِّل وشريكه على اصطناع النفس الجميلة بالمعنى

الهجلي : فنحن نشهد بالمعالجة خللا لكن المحلَّل والمحلِّل يعيشانه بكل معنى الكلمة • أشكو من العصاب وهذه الشكوى بديل عن غائب يستغله المحلل الرديء •

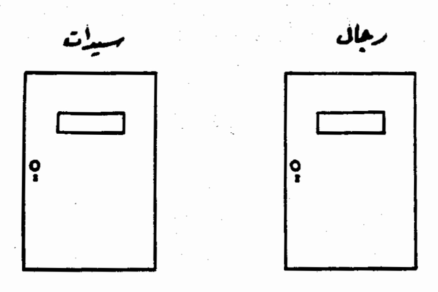
ان الملخص البالغ الجفاف الذي نضطر الى تقديمه هنا ، لا يمكن أن يعطي فكرة عن التوسيع الجدلي لهذه الافكار في كتاب لاكان • اذ غالبا ماتتخذ لـ **كتابات** صيغةتدخلات مبهرةاحياناوخصامية،مثل تلك الصفحاتاللذيذة التيتحمل عنوانا **وضع التحليل النفسي في ١٩٥٦** • يمكن لقارىء سريع ولكن منتبه أن يقف من خلال هجاءات لاكان على متطلبات فكره بكامله ، ويالها من قريحة ! •

هذه الاوقات من الراحة تتيح لنا أن نعود أوفر انتباها الى غرضنا الواجب تفحصه بالعدسة المكبرة ، اذا جاز القول ، وفي أقصى مـآل له ، في علاقاته باللسان • لاكان يأخذ فرويد بالمعنى الحرفي ، ويلمح الى أن المحلِّل يجب أن يأخذ كلمة المعالج حرفيا • باختصار ، يجب كي نفهم جيدا بنى التواصل أن نأخذه اللسان بمأخذه الحرفي ، لا من زاوية علم علامات أيا كان (تفسيرا أو علم علامات) •

هي ذي صيغة أساسية في علم اللغات مستعارة مـن فردينان دوسوسّور :

$$\frac{S}{s} \qquad \frac{\text{د}}{\text{مـد}}$$

يجب أن تقرأ : « الدالّ (د) على المدلول (مد) »• الـ علـى هو الذي يشكل الفاصل • بكلام آخر ، من يتكلم يدخل في علاقـة مع ما يريد أن قول ، وهذه العلاقة معقدة • ليس المقصود تنضيـد عاملين بدلا من توازيهما ، فالخط بين د و مد يجب أن يمثل علاقات من الواحد الى الآخر • يورد لاكان مثالا ، نلوم أنفسنا اذا لم نكرره• فلتكن الترسيمة التالية :



هذا المثال يبين أن **اللفظة لا تدل دائما على الشيء** (ص ٤٩٩) .
نرى هنا جليا **أن السياق** هو الـذي يقرر . يزدلف المـدلول تحت الدال فنحصل على هذه القاعدة :

د

مد (مدَ مدُ مدِ)

صيغة لم ترد عند لاكان لكننا نقترحها ايضاحا لتغيرات المدلول الفرقية.

ان السلسلة الدالة في بنية أساسية هي « التكلم بين الاسطر » ، ما يبينه تماما المثال أعلاه حيث تعني لفظتا رجال وسيدات غير مايعرف من حدهما في المعجم . انها وظيفة الكناية تلعب دورا أساسيا فـي بنيوية لاكان ، حتى **انها** صارت مضرب المثل . كذا شأن رودريغ : بفضل ذاك الضياء المعتم الذي تزيده عتمة الاقوال السوربونية ، يبصر ثلاثين شراعا ، وكما يستدل ديكارت بوظيفة الكناية على أن تحت القبعات التي يراها رجالا ، يستدل رودريغ ، بمعجزة بنيوية ، شأن السيد جوردان ... أن تحت الثلاثين شراعا ثلاثين مركبا . انه يأخذ الجزء بمثابة الكل في كلامه لا في فكره : هذي هي الكناية . فلا ننسين أن الترابط بين الشراع والمركب ينطوي هنا على ترجمة حرفية . خصوصا اذا أردنا أن نستبقي في ذهننا أن الكناية غير المجاز .

سررنا جدا لما شهدنا أثناء تجولنا في أثينا كلمة Metaphorai مكتوبة على ناقلات عديدة • كلمة métaphore تعني « النقل » • **خذ كلمة بمثابة أخرى** تجدك لدى ذلك النقل اللساني الذي يسمى **شعرا** أو مجازا ، الذي « يقع بالضبط في النقطة التي يحصل فيها معنى حيث لا معنى » (ص ٥٠٨) ، عندما تحيل الفكاهة الى اللاشعور، كما يقول فرويد • انما يسلم اللاشعور كلمته عن سبيل المعنى الحرفي• لهذا السبب يبدو فرويد في تناجه دائم التعلق بالتحليل اللساني • نجد نفس التأكيد على الحرفية في **علم الاحلام** : « قراءة » الحلم هذه هي وحدها التي تتيح لنا أن نميز فيه ازدلاف المدلول لا شعوريا تحت الدال (نقل) • فالمجاز حيث **يتكاثف** حقل الدوال ، والازاحة الكنائية مظهران لكفاح اللاشعور من أجل مخاتلة ما يمنعه من حرية التصرف •

يقول فرويد ويترجم عنه لاكان : حيث كان هذا يجب بالتالي ان اكون • كلمات غالبا ما يرددها لاكان تنبيها الى أن فرويد لايقسم الشخصية خلسة الى شعور ولاشعور ، بل يأتيها بـ مصالحة (حواجز ذات فتحات بين الدال والمدلول ، وأنتظر تشبيها أفضل من تشبيهي هذا المؤقت) • أجل ان اللاشعور هو « قول الغير » ، لكن الغير بحاجة اليّ حتى يُعرَف •

يجب اذن « أن أعرف » كيف « يفكر الهذا » ، يعني كيف يحاول اللاشعور أن يُمَفصل بُناه مع أنا أفكر ، أقله في المعالجات الحاسمة ، معالجة الذهان • ذاك القول الذي يتحول بلا رجعة الى قول الآخر في حالات انعدام الشخصية ، يجب أن أدمجه من جديد في قولي • يثير لاكان مشكلة « المركزية القضيبية » ، اذ يطرح الطفل في حداثته على نحو مثالي ، قضيبا مغايرا ، في الام ، مُجَرِّدا هكذا من الواقع علاقته الاوديبية بواسطة هذا الاسقاط المضيع لغرض خيالي ، بدلا من أن تتحقق في قضيبه هو • « وظيفة القضيب الخيالية

هـذه كشف اذن فيها فرويـد محور العملية الرمزيـة التي تكمل في الجنسين طرح قضية الجنس عن سبيل عقدة الاخصاء » (ص ٥٥٥) • ولننبه عابرين الى أن لاكان يعود هنا مرة أخرى الى حرفية فرويد والى أنه يحمل من هذا القبيل على علم النفس الامريكي الـذي يغالي بقضية « الحرمان » التي ليست عند فرويد •

حسبنا في عملنا الراهن أن نلمع الى المراجع الفرويدية دون أن ندخل في تفصيل يبين لنا ونحن غير مرتبطين بالموضوع ، القيمة الكلية والانسانية في التحليل النفسي ، بحيث نشعر نحن أيضا أننا طرف معني في معالجة الذهان كما يصفها لاكان • ويأتي صاب الكتابات على ذكر حواره مع هنري ايّ Henri Ey حول السببية النفسية ، فيطلق هذه العبارة البديعة التي تتناغم بعمق مع الشعر الحياة عند أنطونان أرتو ومع أبحاث ميشال فوكو بنفس الوقت : « كيان الانسان لا يمكن أن يُفهم بدون جنون ، لا هذا فحسب ، بل انه ما كان كيان الانسان لو لم ينطو على الجنون بمثابة حد لحريته » (ص ٥٧٥) • من على هذا « المنبر للذاتية الهاذية » ، يكتشف لاكان « الذاتية العلمية : نقصد تلك التـي يشترك فيها العالم المنكب على عمله العلمي مـع انسان الحضارة الحامل له » (ص ٥٧٦) • ومن هذه الزاوية ينبثق أمامـه وجها لوجه « التماثل المشروع » بين الذاتية الهاذيـة و « الذهـان الاجتمـاعي » • بَخْ بَخْ ! « أن يثبت توافق هـذا الذهان مـع ما يسمى النظام المرعي ليس موضع شك ، ولكن ليس هذا ما يخول الطبيب النفسي ، ولو محللا نفسيا ، أن يعتمد على توافقه هو مع ذاك النظام فيظن أن عنده فكرة مطابقة للواقع الذي يبدو المريض مخالفـا له » (ص ٥٧٦) •

ترى هل من حاجة للتشديد هنا ؟ حسبنا أن نعلّم قليلا هـذا النص فندرك قيمته الهدامة تجاه « البعثرة القائمة » في سوق التحليل

النفسي . من المفيد أن نبرز ، في حركة لاكان هـذه الثائرة حقا ، القرابة العميقة بين كاتبنا و « التجربة الداخلية » ، كما اختبرها جورج باتاي، وأرتو (وبالنسبة لهذا الاخير ، خصوصا في صرخته الطويلة : « Pour en finir avec le jugement de Dieu » كفانا مـن الاحكـام الغيبيـة) . تعلن ثورة لاكان أن الدال ، لعجزه عن معرفة نفسه فـي ذاتيته ، يضيع تماما في آلهة كاذبة يُخشى فعلا أن تصير الاله وحسب، الاله العديم الفرح ، الشبيه بالسيد « كل الناس » الذي يتحدث عنه بريفـير Prévert والذي لا يزدريه لاكان . يحتاج السيد كل الناس الى مرشدين روحيين . لكن المريض بتجربته الكلية أصدق منـه ، لا يحتاج الى سلطة بل الى محلل نفسي ، الى كائن يُبحر معه الـى صميم كيانه (صميم كياننا ، كما يقول فرويد) .

هجمات لاكان على ديانة السيد كل الناس السقيمة ، يشدها نداء تتعرف فيه الى صوت سان جوست ومن ورائه نبرة روسّو مهما يكن من تعبيراتها ، نبرة تجدها أيضا عند ليفي-شتروس . مـا الغـاية من العلاج ان لم تكن السعادة ، سعادة تتوحد عنده مع الحرية، لانها ليست « فطرية » بل « ثقافية » ؟ « مفروض أن يكون المحلل النفسي انسانا سعيدا » (ص ٦١٤) . ويقول بعد هذا بصفحتين : « المحلل النفسي هو الانسان الذي يُتحدث معه و ُيتحدث بحرية ». ذلك يعادله القول بأنه سيزيف .

بعد هذه اللحظة الجوهرية التي أفضى فيها لاكان باعترافاته حيث يستسلم « أعزل » لسلطان الكلام وحده الذي يعطي الذوات صورها ، سيضيق نطاق الحوار حول الاسئلة الحاسمة ؛ حوار لأن كتابـه هو حوار ، ان لم يكن كذلك بذاته فعلى الاقل في ردوده ولجاجاته . وما زلنا منذ النص الاول حول الرسالة المسروقة ينبئنا الحدس أننـا

واصلون حتما الى توضيح أقوى (واستعادةمستمرة) لمسألة بنيةالذات.
نأتي الآن الى غرض لاكان من الـ **ملاحظة على تقرير دانيال لاغاش :**
« التحليل النفسي وبنية الشخصية » . سنتتبع هـذه الملاحظة حسب تمفصلاتها .

١ ـ البنيـة والـذات :

يفتتح لاكان هذا الفصل باحالة صريحة الى كلود ليفي–شتروس فهو يفهم البنية بمعنى مماثل . نغتنم الفرصة اذن فنثبت أن حضور لاكان في كتابنا الصغير هذا من كتب المطالعة ، ليس في غير محله . أما بعد فما هي تلك البنى الشهيرة ؟

تسودها مقولة ، مقولة المجموعة بمقابلة الجملة . **فمنطق الشخصية** اذن ليس منطق « شخصية تامة » تتضمن أقساما مختلفة أو حقولا ذات تنظيم عضوي . يطرح لاكان ما يشكل عنده مسألة البنيوية ، يقول : « أتسمح لنا البنيوية ام لا بأن نضع خبرتنا على أنها الحقـل الذي يتكلم فيه الهذا ؟ » . يلتقي هنا في نقاط عديدة مع تعليم دانيال لاغاش الذي يرى أن الطفل يبدأ وجوده من الغير ولاجله . نعم ، قول الآخر هو اللاشعور ، وهو يقبل استكشافا بنيويا ، يسعى فيـه لاكان ولاغاش بنفس الخطوة .

٢ ـ أين هـو الهـذا ؟

يسأل دانيال لاغاش بنية الـ **هـذا** ، ويتبعه لاكان . **اذن** سيقفز هنا القاريء المطلع فوق شروحنا ، أما الذي لا يعرف تحديدات فرويد للهذا والانا والانا الاعلى ، فننصحه بالاستعانـة بعلم نفس مبسط وبمعجم . يبقـى علينا أن نكرر أنـه يجـب أن تُقرأ وتقـرأ الـ

محاولات في التحليل النفسي ، ومؤلفات غرودِّك [١] الذي وضع نظرية في الهذا يعتبرها فرويد مطابقة تماما لنظريته (انه يستشهد به دون تحفظ) . يقول فرويد : « ... غرودِّك الذي لا يني يكرر أن ما ندعوه بالانا يتصرف في الحياة على نحو سلبي تماما ، وأننا ، على حد قوله ، تعيش فينا قوى مجهولة ... » . لنعد هنا الى الوراء : في هذه المحاولة ، يربط فرويد ال أنا بالادراكات (المنظومة . P = إ د .) يرتبط بالانا ادراك خارجي وادراك باطني . ولكن على أي مستوى؟ وحسب أي تدبير ؟ يعاني الاناانتسارات ولا يعي كل ما ينتابه من توترات وحاجات وغرائز تؤثر بطرق ملتوية كي تصل الى الوعي(المنظومة C = و)،وباختصار: تقودنا سلسلة أولى من البنى الى « توضيح العلاقات القائمة بين الادراك الخارجي والادراك الداخلي والمنظومة السطحية « الادراك الوعي » [٢] . أما الهذا فانما يستنجد به الشرح في مرحلة لاحقة . « أقترح أن يؤخذ بتسمية الانا تلك الهوية التي تجد منطلقها في المنظومة P والتي هي منطلق في المرتبة الاولى ، وأن يخص بتسمية الهذا (ES) كل العناصر النفسية الاخرى التي تشكل امتدادا للانا في تصرفه اللاشعوري » . « وهكذا يتألف الفرد عندنا من « **هذا** » نفسي **مجهول لاشعوري** ، يتوضع فوقه الانا السطحي ... » واذا نحن أمام جغرافية نفسية نهائية قد أنشئت ، تتموضع فيها (بتخطيطية) كيفيات الوجدد ، والجهات ، **والانا** ، **والهذا** ؛ يسمى الاخيران في هذه التخطيطية مرجعين للانا . يضاف اليهما (في نفس المحاولة) مرجع ثالث ، **الانا الاعلى** ، اذ انه ليس فقط « غرائز الهذا موجودة في لاشعورنا » .

---

(١) Cf. Groddeck, Au fond de l'homme cela, Gallimard, le titre allemand est Das Buch wom es (1923).

(٢) Freud, Essais de Psychanalyse, Petite Bibliothèque, Payot, P. 191.

ويقول فرويد (في نفس الكتاب ص ١٩٥) : « لا يمثل الانا الواعي الا البدن » . فالفرد ، نظرا للطبيعة العائلية لانفعالاته وأشواقه الاولى يحمل طابع « مثال للانـا » يسميه فرويد الانا الاعلى . هـذي هي المراجع الثلاثة : الهذا ، الانا ، الانا الاعلى ، التي تتموضع فيها بنى العمل التحليلي .

وجدنا ضروريا أن نأتي بهذه الشروح توضيحا لمعنى المسألـة التي نعالجها في هذه الفقرة : أين هو **الهـذا** ؟ أين هـي المسألـة « التخطيطية » والهذا الذي يمثل المراجع . كان بغنى عن هذه الشروح من ألِف تناج فرويد . (ناهيك أن أليف آثار فرويد يستطيع أن يقرأ مباشرة كتب لاكان دون أن يمر بتلعثماتنا) .

في أي موضع يتكلم الهذا ؟

حيث **اللاشيء هو مبدأ الخالق** ، حيث لا يمكن للفكر أن يكتفي بأي منظور تطوري . حيث تكشف الشهوة عن نقص . بنية التحليل النفسي هي بنية الثقوب والحدبات (إي نعم والعيب على من !....). وفي « موضع الـ لا أحد هذا » لا تحاولن أن تزج المولى الكريم فتجعله إلها تعسا مثل الله الـمهَـلنوَسين (الها يأباه كل ايمان صادق) . إلامَ يهدف اذن الانا الاعلى ؟

٣ ـ المثل العليـا للشخص :

– اسقاط في مجال الخيال (الحدبات) .

– كبت (الثقوب) .

ثم اقرن هذين معا . فالانا عند لاغاش ، ويستعيده لاكـان ، يتخذ مثالا له أنا مثاليا (مقرونا بالنرجسية) ومثالا للانا . الانـا

المثالي هو حلم ، تطلّع ، ومثال الانا هو النموذج (كالاب في الانـا الاعلى مثلا) .

٤ ـ نحو أخلاقية :

يجب الاخذ بالانا الاعلى من زاوية الوجود ، على أنه مقتضى للعقل العملي ، العزيز على كانت (يستعيد لاكان فكرا اشكالية كانت) . الانا الاعلى هو الصوت الغليظ صوت الضمير . وكلامنا هو الذي يكشف لنا هذا الصوت لا لوحا الشريعة لانه لم يُدوّن عليهما الا كلام الذات الناطقة . هذا هو أساس « أخلاق » التحليل النفسي .

اضطلع أولا بمسؤولية قضيبك : **التحليل النفسي بهذا المعنى هو** ردّة بطيئة ضد **الخصاء** . وأخطره ما كان خياليا ، خصاء **الام** .

ما القضيب يا آنستي ؟ لا تحمرّي فهو ليس العضو الذي تظنين، لا الذكر ولا البظر . فلكي تحصلي على فكرة عنه إقرئي ملهاة لأريستوفان[1] تفدك أكثر من رسم صغير . « اذ ان القضيب هو دالّ ... » (لاكان ، ص ٦٩٠) . القضيب هو حضور في الشهوة (لا في الحاجة) . يوجد كوجيتو للقضيب . أنتصب **اذن أنا موجود** ، وقلما تطمئن النساء لهذا الامر . غياب هذا الكوجيتو يسبب انحرافات ومفاسد ، الخ ... العلاقة الجنسية ، اذا كانت « كلاما ممتلئا » ، هي الجواب الوحيد على عقدة الخصاء عندها : **فهي اذ تجعل المرأة سببا للشهوة ، تجعلها سببا للقضيب** . فيا قديس توما ، لا علاقة لهذا بتكاثر النسل ، ولكن بالسعادة والحرية،

---

(١) Cf. Théâtre d'artistaphane (Livre de proche) traduit par V - H. Debidour

لا بل بالمعرفة لكون « القضيب هو الدال الممتاز لتلك العلامة حيث ينضم قسط اللوغوس الى اقبال الشهوة » (الكتابات ص ٦٩٢) • ولكن (وا أسفي) ليس الانتصاب حالة مستمرة : ومع حجبه يبدأ عهد الحشمة •

دلالة القضيب ، يعطينا فرويد كلمته الاخيرة فيها : ليس من ليبيدو[1] الا واحدة ، ليبيدو الانسان • وهذه ليست « النفس » التي يقول بها يونغ لكنها مفهوم هو من نطاق الطاقة • لنلاحظ هنا أن البنيوية الفرويدية المنزع تتكون مناهضة لفكر يونغ • الرمز الذي يترجم الليبيدو هو نقل « من فكرة أكثر تشخيصا ••• الى فكرة أكثر تجريدا » وفي اتجاه واحد : يعني ، أيضا ضد يونغ ، أنه ليس من نفسٍ مستودعٍ للصور العامة (النماذج الاصلية) تستمد من الليبيدو دلالات ذهابا من المجرد الى المشخص • بل العكس • كل التيار البنيوي يقف ضد النظرية القائلة بصور في النفس ، تطفو من أعماقها فتتجلى في الحلم مثلا • هذه قضايا مشعوذين • يحدد لاكان موضع الفكر الرمزي ، في تذييل لدراسة حول جونسَ ، يقول : «يجب أن يُعيَّن للفكر الرمزي موضع ، كما يُحاول ذلك للفكر العلمي ، ولكن من يبحث عن هذه العلاقة في ما هو بالقوة أو الكامن [2] لن

---

(١) من أجل قارىء لم يألف فرويد ولا اللاتينية ، نفتح معجم غافيو Gaffiot ص ٩٠٧ حيث نجد معاني Libido : ١ ـ رغبة ، شهوة ـ ٢ ـ خصوصا ، شهوة منحرفة ، رغبة جموح ؛ تصرفات عشوائية . وفي الجمع Libidines : الاهواء ، الافراط من كل نوع . ٣ ـ حب اللذات الجسدية ، شهوة الغرام ، فجور ، انحراف (حيث يتبين وجوب تحليل الكتاب اللاتيني تحليلا نفسيا ...) . ولنضف الى ذلك تحديدا لاكانيا فرويديا (« الليبدو ، الشهوة الجنسية ») (كتابات ص ٧١٩).

(٢) يعني : الفكر الرمزي ليس رشيما ينمو (يتعقلن) في العلم . الفكر الرمزي هو فعل العلم . (ملاحظة المترجم) (المترجم الذي ترجم الكتاب المذكور الى الفرنسية) .

يجد شيئا » • « هذه العلاقة موجودة في ما هو راهن • لم يوجد قط فكر غير الفكر الرمزي ، والفكر العلمي هو الفكر الذي يرد الرمزية بحيث يؤسس عليها الذات : هذا ما يسمى الرياضيات في اللغة الدارجة » (كتابات ، ص ٧٢٤) •

الا أن الرمزة تغدو أقل وضوحا عندما يتحول الحديث عن الرياضيات الى الخير والشر • يلزمنا شجاعة نادرة مثل شجاعة Etiemble حتى نضع في نفس الوعاء نعاج بلاك وفتيان كانت وتيوس ساد • هذه لعبة يباغتنا بها إتيامبل اذ درس معا[1] برناردان دوسان بيير وساد • ولاكان يباغتنا بلعبة أخرى ، **كانت مع ساد** • للكاتب الخالد، صاحب **نقد العقل النظري** ،يقدم لاكان هدية « شبقية » بريئة ولاشك ، لكن يمكن ملاحظتها ••• » • هيا جان لاكروا ! لقد نسيت هذه النقطة [2] ! وربما أكسب هذه الاضافة كتابك نكهة سادية خفية ولكنها من نوع شخصانية شخص المقاصير •

« اعمل دائما بحيث تعتبر الشخص الآخر وسيلة لا غاية » • إه ! إه ! يا حضرة التحليل النفسي ، تسدي أحيانا نصائح ممتازة ، وسوف يعمدون كثيرا الى اخراجك من الحقيبة ! خصوصا وان أكراس Achras سوف يبرع في بنيان نصائحك بِمَواشيره [3] !

---

(١) في المجلد III من موسوعة البلياد ، المكرس لآداب اللغة الفرنسية .

(٢) جان لاكروا ، كانت والكانتية ، منشورات فرنسا الجامعية مجموعة « زدني علما » .
J. Lacroix, Kant et le Kantisme, P. U. F. , Coll « Que sais - Je ? ».

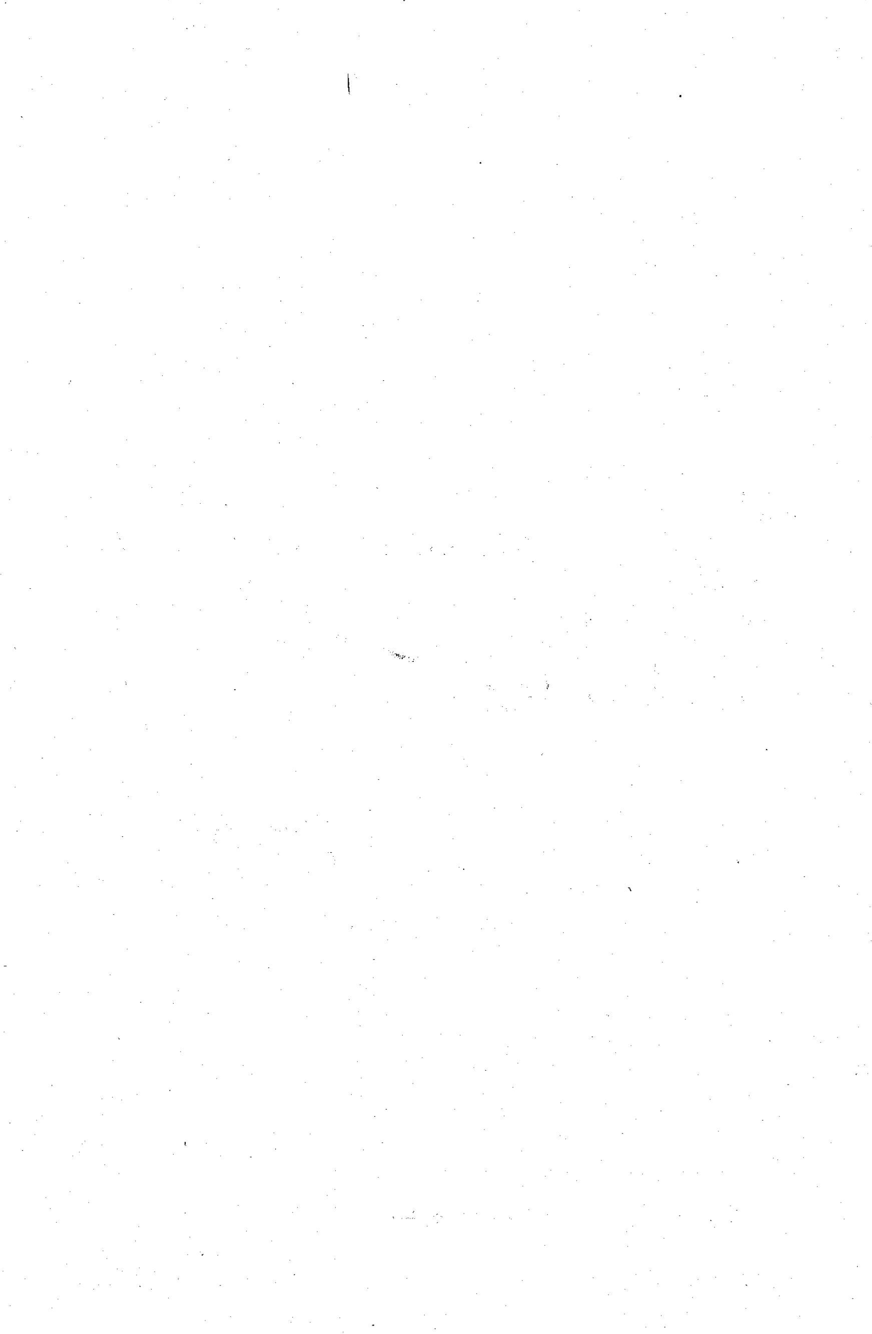
(٣) من أجل فهم هذه الفقرة ، بامكان القاريء الغير مطلع أن يقرأ udu cocu حيث يجد جاري Jarry سابقا عبقريا للتيار المضاد للبنيوية .

وهكذا تنقلب عبارة كانت بفضل زلّة الى عبارة سادية وان لم تعد أخلاقية أبدا ، تصير على الاقل موافقة لامنياتنا الدفينة ، الشبقية والسياسية ... اذ يستعيد التحليل النفسي التهويمات السادية يصير نقدا (يسبغ المشروعية) على العقل غير الخالص (الدنس) وهـذا النقد يتجهز بشبكة كاملة من العلاقات التي تقبل منطقا بنيويا استنفاديا نوعا ما . لا كانت ولاساد أسسا جدل الشهوة . يعتبر الاول الشهوة ظاهرة من الانا « المريض نفسيا » والثاني يلاحق تهويما في رفضه قطعا أن يسأل عن شهوة الآخر . فيبقى هو أيضا اسير شهوة ـ حاجة مختلفة عن الشهوة . لاننا نقول مع لاكان قولا هجليا : الانسان شهوة لشهوة : مثل الشهوة مثل ذلك **الابليس العاشق** عند كازوت Cazotte الـذي يسأل Che vuoi ماذا تريد ، الذي يلمح اليه لاكـان فـي الصفحة ٨١٥ قبالة ترسيمة بديعة . لم نستشهد بذلك هنا كي نجنب القارىء لطائف ، جميلة رغم صعوبتها وجذابة ، ولكن لا يجتذبنا اليها فعلا الا قراءة فطنة للكتاب . نقول مع ذلك ان الدقة والصرامة في هذه الترسيمات تكشف قرابة بين ميشيل فوكو في تحليله للوحـة الوصيفات ولاكان . هذا اللقاء ليس صدفة . لاكان يأخذ في نهايـة كتابه مواضيع وُضعت من قبلُ خطوطها الاساسية ، فيوسّعها نحـو مفهومين هامين جدا يسودان الاثر بكامله . نقول ان العودة الـى فرويد التي يضطرنا اليها لاكان رغم كثرة الحذلقات الفرويدية ، تقوم على تحليل المحلل النفسي ، رغم طابعها الخصامي . الرفض للمفاهيم « الفرويدية المستحدثة » مثل الحرمان ، التحذير من التموضع المبتسر لمحتوى اللاشعور ، الدراسة المدققة لحرفية هذا اللاشعور ، الانتقال من **الهذا** الى **الانـا** أو السير من **اللسان** الى **الكلام** ، كل ذلك يضعنا من جديد في الحقل البنيوي الذي هو علم الالسن المختلفة ، باعتبار أن التحليل النفسي هو **صياغة اللسان عن سبيل تبادل الذاتين** .

فلم نعد هكذا ضمن ما كان يسمى بالعلوم الانسانية . فكما أن الانسان من حيث هو موضوع العلم الانساني يطرحه فوكو بين الكيانات الميتافيزيقية ، ومثلما يحذف ألتوسّر الانسان موضوع الاقتصاد الماركسي ، يطرح لاكان مفهوم علوم الانسان ليستعيض عنه مفهوما أدق ، مفهوم العلوم التخمينية . ولا يكفي هذا سببا حتى نعلن مع كثير (أكثر مما ينبغي) من الفينومنيولوجيات أنه بعد أن أعلن نيتشه موت الاله ، جاء فوكو والتوسر ولاكان وشركاؤهم يعلنون نهاية الانسان ان لدى لاكان (تخمينية) هادئة وشغوف تستبعد هذه التنبؤية النيتشوية الجديدة ، تخمينية تزيد في اشكالية الانسان ، ومع ذلك فقد تفتح سبيلا للامل أمل بزوغ الذات وكلامها .

الفصْل العاشِرُ

حتى (لا يكون) ختام



النقـــد والادب

ينفتح هنا كتاب جديد : لقد شهدنا أكثر من مرة تدخل عـلم العلامات وعلم اللغات . وشهدنا فوكو يدرس قول الماضي . كـان ذلك يؤذن أن البنيوية ، سواء تبعناها خطوة خطوة على أنها نظرية متماسكة ، أم استوحيناها بحرية ، أم شكلت جزءا من الجو المعاصر ، تثير أدبا ونقدا أدبيا .

بديهي أن تلخيصا صحيحا لهذا المجال يقتضي بـالفعل نحوا من مئة صفحة . سنعطي هنا بعض الاتجاهات .

نذكر أولا بأن البنيوية تستثير تيار نقد حول الصوريين الروس . نشرت بعض مقالاتهم تحت عنوان « نظرية الادب »[1] . وهذا التيار الصوري الروسي لم ينتج تحليلات نظرية فحسب ، ولكن آثارا أدبية تُرجم عدد منها أو ما زال قيد الترجمة . منهـا أثر لـ خلوفسكي Chklovski عند غاليمار في مجموعة آداب سوفياتية[2] . أما جاكوبسن وتزفتان تودوردف فقد نشرا مؤلفاتهما خارج البلاد . وكذلك أصبـح

---

(١) في مجموعة « Tel quel » ، باريس ١٩٦٥ . حللنا الكتاب في غير هذا المقام .

(٢) مؤلفان : حديقة الحيوانات Zoo وَ رحلة عاطفية .
Voyage sentimental

فلادمير بوزنر ، أحد الصوريين الروس الاولين ، كاتبا شيوعيا فرنسيا من أجل الكتاب • تتمنى توضيحا منه لذلك العهد ، أو اعادة طبع كتبه القديمة ، لانه بارع في سرد ذكرياته •

على كل ، نشهد ملامح لقاء بين كتّاب « Tel quel » الـــذين نشرت مجلتهم عدة مرات أعمالا لـ جاكوبسن ، وكتاب التيار الصوري الروسي • مؤلفات جان بيير في Jean - Pierre Faye وفيليب سولّر Philippe Sollers ، وحتى مؤلفات « الاب » جان كيرول Jean Cayrol وأيضـــا الـ « Nouveau Roman » = القصة الجديدة ، تعج باللمحات البنيوية المقصودة أو العفوية • وتأملهم في مسائل القصص والانشاء والتواصل ، غالبا مـــا يخص الحقل البنيوي • أحـــد تأمـــلاتهم ، « Compact » = كثيف ، لموريس روش ، يتوصل الى ضم مواضيعية موسيقية من الموسيقى الحديثة ومواضيعية لسانية، في حدود الكابوس والكتابة • أثر آخر يبدو لنا قوي الدلالة : [1] Aa Fiancée Posthume = المخطوبة بعد الموت ، كاتبه جان نويل فوارنيه Jean - Noël vuarnet يعالج مواضيع ما انفك تيار Tel Quel والصوريون الروس يستكشفونها مثل مسألة الخلاص بالكتابة ، تهويمة الموت ، الانقطاع بين الانـــا والغير تلك الدلة المفقودة والواجب لقيانها ، الموت ، الله ، الحيـــاة ، الكتاب •

يوجد اذن أدب يمكن أن نسميه أدبا بنيويا • لكن النقد الادبي بالمعنى الخاص هو الذي يقدم لنا حقلا بارز المعالم • ماذا يكون من أمر النقد الادبي ؟ انه يبدأ بهجر مملكة التاريخية ؛ فتاريخ الفِكر وتاريخ الاثر ، المصادر ، التأثيرات ، تشكل بصورة اجمالية حقل النقد الوضعي الجامعي • من أهم الآثار المميزة لهذا الاتجاه La Carrière de Jean Racine

---

(١) منشورات Seuil ، ١٩٦٧ .

= مهنة جان راسين ، لـ ريمون بيكار[1] • يشكل هذا الاثر مع الـ
Corpus Racinanum = المجموعة الراسينية ، أقوى الخلاصات علما
ودقة حول راسين • على أنه اذا نظرنا من هذه الزاوية الى الرجل وتاريخه
نلاحظ أننا لا نصادف مرة واحدة ولادة أثره • هنا ينحرف بنا
التاريخ عن الهدف اذا ما شاء أن يكون تمهيدا للاثر الادبي • ناهيك
أن يكون ريمون بيكار لا يدعي أنه يفيدنا عن الاثر وهو يعرف حدود
التاريخ الادبي • من واجبنا أن ننصفه هكذا قبل أن نقف ضد
استحواذية هذه الطرائق ونعلن عملا مشروعا استكشاف رولان بارت
لراسين ، اذ هو نموذج للنقد البنيوي • لا يدعي بارت أكثر
من أن يبيّن لنا كيف ينبجس من المعاني لسان • وغالبا ما يؤول ذلك
الى نقد كثير من الافكار الموروثة ، لا بل الى السماح بتسرب بعضها•
فقد أشار بلانشون مثلا الى أنه لا يؤيد بارت في نظرته الى « حب »
تيتوس لـ برينيس • ان اخراج بلانشون لـ **برينيس** صفحة من اجمل
ما نستطيع أن نذكره في النقد البنيوي • لكن في النقد الادبي لقاءات
أوفر تفصيلا مع البنيوية بالمعنى الدقيق •

نلاحظ أولا أن النقد الادبي هو قول حول قول ، فكرة يعود
اليها مرارا رولان بارت في **محاولاته النقدية** • انه يقع على عالم
روب-غريّه Robbe - Grillet : فكما يؤول القول البنيوي عند فوكو
غالبا الى اعداد مجال محايد محلا لترتيب في مادة القول ، ومثلما
يرى روب-غريّه في الكتابة الرومانسية محلا لـ « كتابة بيضاء » من
شأنها أن تندمج في النظرة ، يُنسّق بارت في سياق نقده الادبي أغراضا
يرتبها على نحو أقوى دلالة مكملا بقوله النقدي المعطى الخام في القول
الادبي • « لايوجد عند روب-غريّه أبدا موقع للحادثة » ، مثلما

---

(1) Bibliothèque des Idées , Gallimard.

يتركز المكان جليـا خارج اللوحة عند رامبرانـدت [١] Rambrandt (لله درّك يا وصيفات فيلاسكز) • يرتسم اذن على مرأى منا مكان متزامن ، عالم تطابقات ولكن فلنؤكد على أنها تطابقات موزعة توزيعا عقليا كما في اسطوريات ليفي-شتروس • « هذه الفسحة الادبية » ، حاول موريس بلانشو رسمها في سلسلة أعمال جمعها تحت هـذا العنوان[٢] • كما أن العين عند كلودِل تصغي بالمعنى الحرفي ، كذلك مع النقد المسمى خطأً [٣] نقدا جديدا ، تتجاوب التطابقات في سماء المعقولات حيث المرآة التي يناولهـا ألفونس دست Alfonse d'Est الى لورا ديانتي Laura Dianti تعكس نظرة غائبة مثل غياب انعكاسات ذلك الحضور الغير مدلول عليه في الوصيفات • وجان باري ، مؤلف **المكان والنظر** ، يجعل هكذا للمكان لحظات مثلما جعل هجل للتاريخ• عندما ينظر الينا المسيح الكلي القدرة في لوحـات سِفالـّو Cefalu أو دافني Daphni ، عندما ننظر الى التأويل لتيسيان Titien نجعل عـالما يبرز أمام عيوننا • بين عيني النور والماء ، على تلك المرآة التي تجعله اثنين ، يطلب نرجس كارافاج Caravage « تلك البداهة أي انه فـي العيان وتدركه الابصار » (جان باري : المكان والنظر ص ٢٥٤) •

يجب أن يُعتبر كلُّ أثر قطعةً مغلقةً على نفسها ، عيّنةً مـن عالم ثم يُعاد تأليف المجموعة من خلال هذه الاجزاء ، أي المكان أو الرسالة • لا يؤول هذا الى تشكيل أدب ميتافيزيقي يكون هو حقيقة

---

(١) **محاولات نقدية** ، ص ٦٧ •

(٢) نشر جاليمار Gallimard .

(٣) Cf. Picard, Nouvelle Critique , Nouvelle imposture (J - J. Pauvert) , et Barthes, Critique et vérité (Seuil).

راجع ر. بيكار : نقد جديد ، مكر جديد (نشر ج ـ ج بوفير) و بارت : النقد والحقيقة (نشر سوي) .

الاثر ، ماشري على حق بهذا الشأن في كتابه المذكور قبلا [1] ، يكفي أن نعرف أن النقد ينحو نحو علم العلامات ، ورولان بارت يقوده تطوره الحالي الى بناء علم علامات للّباس [2] ، اذن ما من نقد ، بمقابلة أثر ، الا أن يعمل في الدلالات ، انما يعد النقد ابداعا بطريقته الخاصة ، بهذا المعنى ، ولكن شرط أن يحترم الدعوة اللسانية التي دعي لها الادب ، بهذا المعنى يقدم لنا الشعر أقوى المواضيع دلالة لانه إعمال مستمر للمفاهيم ، يبين لنا هكذا جورج كاتوي Georges Cattaui بيانا ممتازا تطور مفهوم اللذة عند كافافي [3] Cavafy ، مهما يحترس كاتوي من النقد البنيوي فانه في استعراضه هذا المفهوم الجديد كثيرا ، مفهوم اللذة يُعمِل البنيوية ضمنا ، كذلك شأن جيل دلوز Gilles Deleuze في مؤلّفه : **مارسيل بروست والعلامات** Marcel Proust et les signes ، حيث يعتمد تصنيفا من العلامات يقودنا به ، تصنيفا لم يعد يحتاج نقدا متطرفا يبرره مسبقا ، ويحسن أن نذكر Présentation de Sacher - Masoch (Editions de Minuit) **تقديم ساشر مازوش** لـ دلوز الذي يُعمِل علم العلامات ذاك إعمالا رائعا في هذا الكتاب ، وهكذا بدلا من الابطاء لحل الرمز ، يطرح النقد الادبي ، بقدر ما يكون بنيويا ، مسألة

---

(1) Pour une théorie de la production littéraire , Collection « Théorie » , t. IV Maspéro .

نحو نظرية في الانتاج الادبي ، المجموعة « Théorie » المجلد الرابع ، نشر Maspéor .

(2) منظومة الزي ، نشر سوي
Système de la mode , Editions du Seuil, 1967

(3) Constantin Cavafy, Par Georges Cattaui, Collection « Poètes d'aujourd'hui » Seghers éditeur

قسطنطين كافاني، تأليف جورج كاتوري، مجموعة « Poètes d'aujourd'hui » نشر Seghers

المعنى ولا يتوقف عند التمرين الصوري الذي ليس من النقد الأدبي • فدراسة مواد الصور لا يمكن أن ترد اليها الدلالات • مثلا ، يمكن أن ندرس المظهر الرنّان في لغة مِريمه Mérimé وِ فنلون Fénelon ولكن لن نعثر فيها الا على فروق غير دالة : في حين أن رولان بارت، في **درجة الصفر في الكتابة** يبرز وحدة الهوية في الكتابة والموقف الادبي لهذين الكاتبين • ربما كان هنا مجرد محاولة مُفارِقة ، منهج يجب اختباره ؛ لكنه لا يخلو مع ذلك من قيمة ، فالنقد الادبي يعيش أيضا في مناطق الارتياب هذه • اخراج الكتابة البورجوازية الى النور (نفس المصدر ص ٧٩) يعني وضع البنية الى جانب الفن ، يعني تمييز فنون كثيرة في صميم بنية كاتبة موحّدة • بهذا الصدد ينبهنا جِرارجنيّت الى الانقلاب الذي أحدثه النقد البنيوي : « اذن كل حافزيّة فردية ، تعسفية من الجهة الموضوعية ، وذات أساس من الجهة الذاتية ، يمكن أن تعتبر دليلا على هيئة نفسية • في هذه الحالة ترد الفرضية على اسلوبية الذات ما تنتزعه من اسلوبية الموضوع » (ص ٣٤)[1] •

ماوراء الاشياء والالفاظ هذا الذي نجده في القول الشعري يقتضي صياغة : النقد البنيوي هو تنويع لا متناهٍ حول المجازات • نراه فجأة يغوص في المركز الذي تصدر عنه الزمرة كلها • ودراسة مُصوّرات الاشياء عند فوكو شبيهة بدراسة نظرتنا اليها • فكتاب « مصورات » لـ جيرار جنيت Gérard Genette ، هو بالضبط أحد المؤلفات الجيدة في هذا النقد • يحبس النقد قوله مؤقتا على هذه المصورات لكن المصورات تظل مع ذلك ملتبسة • ويوجد نقد يُعنى ببزوغ المعنى كما يوجد علم لغة توليدي • خير مثال على ذلك هو

---

(١) البنيوية والنقد الادبي ، العدد ٢٦ من مجلة L'arc خاص بـ ليفي ـ شتروس ، راجع ترجمة هذا المقال في هذا الكتاب .

l'œuvre ouverte الاثر المفتوح لـ أومبرتو إيكو [1] Umberto Eco .
يَنْشد أومْبِرتو مواده لا في الرسم أولا ، ولكن في الموسيقى الحديثة ، عند : شتوكَهوْزن Stockhausen ، بِرغ Berg ، بوسور Pousseur ، بولز Boulez • يعني الانفتاح عنده الجدل بين المفسر والاثر • فكما كان علم اللغات التوليدي يفتح الدلالات بحرية أمام المتكلم ، كذلك الموسيقى الجديدة ، كما يريدها فرلين في كتابه فن الشعر Art Poétique ، لا تتضمن أمرا تطرحه وليس لها من ثقل • أحدث ما جاءت به موسيقى الجازّ الحديثة ، يفتح الموضوع الى حد أنه يلاشيه تماما عند أرتشي شِب Archie Shepp وعند المشاركين في « ما هو جديد » • نشهد نفس الانفتاح عند جويْس Joyce وعند جويس الايطالي ايتالو سفافو Italo Sevevo • النزاع الذي ينشب هنا يقع على صعيد الطرائق ، حيث يتقابل النقد الاسلوبي وعلم الدلالات التاريخي • خلاصة المواقف التي ينطوي عليها هذا النزاع ، جمعها ليوشبيتزر Léo Spitzer في كتاب لا ندري اذا كان له في الفرنسية ترجمة : **النقد الاساسي وعلم الدلالات التاريخي** [2] ، نشره ألفردو شيوفّيني Alfredo Schioffini • هذه الاسلوبية التي باتسابها الى دوسوسّور والى ش• بالّي Ch. Bally تخدم كقاعدة للنقد ، مدينة بكثير لعلم الجمال الذي وضعه بندتو كروتشه • يجب أن نذكر أيضا Damaso Alonsa : يقول المعلّم الاسباني ، وليست كل مواقفه مثل هذا علما واستنارة : الاسلوبية هي العلم الوحيد الممكن في الادب • انها قاعدة راسخة • يأخذ جورج بوليه كثيرا من هذا التعليم (يستشهد شيوفّيني بتبادل قوي الدلالة بين بوليه وشبيتزر) (ص ٢٤٨ ، عدد

---

(١) ترجمه عن الايطالية الى الفرنسية C. Roux de Besieux بمعاونة A. Boucourechliev ، باريس ، ١٩٦٥ .

(٢) نشر دار Universale Latèrza في Bari ، ١٩٦٦ .

٢٩) • المسألة الجوهرية مطروحة في محاولة عنوانها وبرنامجها : الشعر (على انه فن الالفاظ) وعلم اللغات • تهتم اسلوبية شبتزر بجانب الابداع في الالسن الادبية • « يمكن أن يتلخص اسلوبـي في مجابهة النصوص الادبية بهذا الشعار « كلمة وعمل » • وهـذا يقتضي عنده تطابقا عميقا « بين الارادة المبدعة والصبغة الكلامية » • هذا مبدأ الاسلوبية • انه يقود شيئا فشيئا الى النقد الادبي • ويعطي شبتزر ، مثل أهل عصره ، أهمية لتاريخ الادب ، أكثر ممـا فعـل اللاحقون • فبهذا المعنى نقده فقهي ، لكنه غني ، اذ يبقى في نطاق الكاتب• عندما يتكلم جورج بوليه عن ماريفو ، «يتكلم بلغة ماريفو» لا حول ماريفو • وعندما يكتب جان-بيير ريشار حول شاتوبريان ، يدخلنا من أول وهلة في عالم ينشئه شاتوبريان ذلك الساحر القـديم كتابة كما ينشيء المرء وجوده • من الروائع تلك المهارة التي يستعيد بها شبيتزر عفريت الادب الفرنسي ذاك ، خبر ترامـين Théramène عندما يستخلص دلالة المأساة بجملتها ويرد الخبر الى موضعه مـن الجملة • فيدر هي اذن مأساة باروكية ، مأساة تبديد الوهم • هـذه الباروكية يكشفها شبيتزر ببراعة تترك لنا من الدهشة ما تتركه شروح ليفي-شتروس • اذن يريد النقد شيئا فشيئا ، بعد أن وقف عـلى تقاطع المكان الانشائي والمكان التاريخي ، أن يتكون علما ، حسب رغبة الصوريين الروس • الا أنه يجب ، كما ينبه الى ذلك فوستوكوري Fausto Curi [1] ، ألا نجعل من هذه العلمية صنما ، لان المهم ، فـي نظره ، هو ألا تغيب عن رؤيتنا أصالة الموضوع الادبي ، التي لاتمنعه من أن يلعب دورا في الانطروبولوجيا مثلا • بهذا المعنى يمكن للنقد

---

(١) في كتابه ، الترتيب والخلل ، منشورات فلترينلّي .
Ordine e disordine, 1965, Feltrinelli.

أن يُغفل الوقع غير الادبي في الاثر ، كأن يعنى النقد البنيوي مع[1] Adorno بأشكال لعنة الفن في مجتمع بورجوازي يندمج فيه الكتاب المرذولون والكتاب الطليعة . وهانس ماغنوس اتسنسبرغر Hans Magnus Enzensberger درس أيضا الجماهيرية على انها « فساد الافضل » في ما يخص الثقافة[2] . كل هذه مسالك مفتوحة لنقد يستطيع بنفس الوقت أن يرد الى اللغة أو الكلمة أصالتها ، وأن يبين مع ذلك الهيئات التي يتعرض فيها المعنى المفتوح للالتغاء ، للتأرخ ، بقدر ما يصدق أن التاريخ هو الذي يغلق الدلالات ولا يفتحها ، كما كان ينبه الى ذلك غريماس بصدد التاريخ البنيوي . في ما يخص الاثر الادبي ، تحاول البنيوية ان تطلعنا على بنية باطنية . روسّيه Rousset هو الذي يقدم لنا أفضل تحديد لذلك . وكان جان روسيه قد أعطانا نموذجا لدراسة بنيوية ، حين درس الكوكبات الدالة في عصر الباروك ، في كتابه البديع حول الادب الفرنسي الباروكي . نظرة جان روسيه للامور تجد نظرة مثيلة لها تقريبا عند جاك أوديبرتي الذي لا ينطلق من حكم مسبق ، في كتابه موليير[3] كتاب يعد عجيبة صغرى (« شمس تشرق : الملك » !) في تراث الباروك البنيوي . ينهض روسيه نهوضا موفقا بمشروع نقد مواضيعي ، اذ يكتب : « ليس من صورة تدرك الا حيث يرتسم توافق أو علاقة ، خط قوة ، شكل "ملازم"، لُحمة (حضورات) أو أصداء، شبكة توافدات، ربما سميت « بنى تلك الثوابت الصوريّة ، تلك الارتباطات التي تنم عن عالم

---

(١) راجع كتابه حول فاغنر (المحاولات) ، نشر Gallimard

(٢) راجع مقاله « ثقافة أم تهيئة دعائية » في الآداب الجديدة .
Cf. « Culture ou mise en condition » , Lettres Nouvelles.

(٣) مجموعة « Les grands dramaturges » = المسرحيون الكبار ، نشر دار L'arche .

عقلي يبتدعه من جديد كل فنان حسب حاجاته »[1] • نص حاسم خصوصا حين يعرض لنا باقي الكتاب تطبيقا عميقا له • لكننا لسنا بعد هنا على مشارف قول فوكو • نقولها بدون سوء نية • جورج بوليه ، جان بيير ريشار ، روسيه ، مارسيل ريمون ، يحاولون أن يطابقوا موضوعهم ، على غرار أحد أساتذتهم البيربغان Albert Béguin أو شأن باشلار في الـ « Poétiques » • أصبحت نظرة التعاطف هنا بديلا عن نظرة فوكو الباردة ، اذ يأخذ التفسير على عاتقه كل خطايا الاثر الادبي ، فيجعلها مجازية ، ينقلها ، يقودها الى غير موضع مع بقائه ضمن الاثر • البنية هنا هي سمعان القيرواني مساعدا يسوع في حمل الصليب • تقتضي هذه المعالجة ممن يقوم بها أن يكون عميقا في مسيحيته (يعني أن يصهر في باطنه اليهودي واليوناني) • يمكن أن نفسر مونتيني على هذا النحو ، ولكن كيف لنا بـ Toukaram أو بـ Natsumé Soseki ؛ ترى أيكون نقد التفسير غربيا ومسيحيا ؟ على كل ، من صالح ما هو مسيحي فيه أن يُعرف بهذه الصفة • مجاله الممتاز هو التواصل بين شخص وشخص • هذه المسلمة هي العنصر المشترك بين راسين مورياك وراسين تيري مولنيه Thierry Maulnier وراسين بيكار ، اذ يمكن أن نلتقي براسين وتتحاور معه ، نستطيع أن نسأله ، يسعنا أن نجعل صمته ناطقا • أما راسين بارت فهو مغلق بوجه اسئلتنا من شخص الى شخص • يجب أن نقترب منه كمن يستكشف بحرا داخليا ، فنعتبره « شيئا جاهزا » ، كلا معطى سلفا ، وبعد ذلك نَجوبُ مماشي الاثر الادبي حتى نقرأ ، ما وراء الدورب المعلَّمة، النيةَ ، حسب قول البعض ، أو البنية كما يقول غيرهم ، كما لو أن كل كتاب كان الكتاب الفريد ، ولينخسف بعد ذلك العالم • في الحقيقة ، ينتمي النقد البنيوي الى كيركيغارد : فقد اختار التعمق في الموجود :

---

(١) **الصورة والدلالة** ص ١٢ ، نشر جوزه كورتي José Corti

والموجود هو المنظومة • في هذه المنظومة يجب أن نُحسِن قراءةماهو **تراث** ، على قول دومزيل ، يعني قول **الثقافة** ، وأن نقرأ أيضا ما هو تحرّ ، انبجاس مضمون للجديد الذي بفضله فقط يتخلص الاثر الادبي من الاجناس الادبية وقواعدها الجامدة •

منظومة كل الكتب ، مكتبة بابل كما يصفها بورغس Borges في كتابه ـ أخيلة ـ ، ذلك هو النقدي البنيوي • يجب أن نأتي على ذكر تينك الاسطورتين الخارقتين عند بورغس : El Aleph ، ثقب صغير في دَرَج ، في مكان ما ، يُرى منه كل مدينة بيونس ايرس (ولكن أين ؟ ولم لا ، ألا هو ما يبهر في تلك الممكنات التي هي على التأكيد مستحيلات) • آه لو يمكن للنقد أن يكون تلك « العين » ! وتجميع تلك الرؤى كلها في برج بابلي تُقيم فيه ، كما يبين فيلم ألان رنيه عن المكتبةالوطنية، **ذاكرة كل العالم** • انتصار القول ، انتصار اللسان • لا يمكن الغاء الكتابة ، وفي النهاية تفرض القراءة نفسها حدثا لا يرد الى غيره • في النهاية نجد اللسان كذا متمكنا من وجوده حتى ان دلوز Deleuze يتعرف عند بيير كلوسوفسكي مجموعات لسانية • ونقول دون تلاعب بالكلام انه ليس مستبعدا بين المستحيلات أن يُرسم منحنى اجمالي للتطور الذي حصل بين مفهوم مجموعات اللغة كما كان يقول به اللغويون منذ ثلاثين سنة والمجموعات اللسانية عند كلوسوفسكي ، التي تنبسط في « أوضاع » لا تحصى ومراتب[1] أو مستويات المعاني ، المنضدة بعضها فوق بعض كأنها تأتي من أفواه مرتبة في سماء أرسطاليسية •

نعلم منذ الآن فصاعدا أن النقد الادبي ليس ما وراء الادب •

---

(١) عدا مقال دلوز (في مجلة Critique) ، نوصي بقراءة Le Baphomet et les lois de l'hospitalité لبيير كلوسوفسكي ، نشر Mercure de France , Gallimard

نعرف أنه أدب أيضا ولكنه أدب مغاير . فلنكرر أننا نكتب هنا فصلا تتعذر كتابته ونأسف ألا نضعه في كتاب كامل . منذ قليل كان جورج بوليه يبشرنا بـ « فلسفة النقد » . تتمناهـا بحرارة . وتجـدر أيضا الافادة من المجهود الذي بذلـه بيـير شافر مثـلا Pierre Schaeffer في الجمالية العامة أو في مختلف مجالات الموسيقى والفنون التشكيلية؛ وعن مجهود فازارلي Vasarely وفيـيرا داسيلفـا Vieira da Silva في الرسم ؛ وعن مجهود مارتان Martin وكيمنـي Kemeny وكثـير غيرهما في النحت ؛ عن سبيل فِرقٍ دراسية مختلفة أو عن سبيل مجلة Communications = **تواصلات** . لا ترمي هذه المجموعة من الاسماء الى سوى الايحاء بعناصر للبحث . ان النقد الادبي والفني في الايام الاخيرة ، حتى ما كان على يد الجامعيين أمثال أندره فيال André Vial وفلوشـير Fluchère وروبرموزي Robert Mauzi هو منازعة في الـ ما هو جاهز ، في العالم السائر على علاته ؛ وهو في الدرجة الاولى « يعيد المكانة » لكثير من الممارسات النظرية حسب رغبة ألتوسّر . « والا ، يصبح كل نقد مصادرة على المطلوب ، وحجة لا لشيء يحكم عليـه ولكن حكم عليـه مسبقا » عـلى حد قول مـانويل ديغز Manuel Dieguez أحد النقاد الاكثر أصالة بين أولئك الذين ينتمون علنا الى البنيوية .

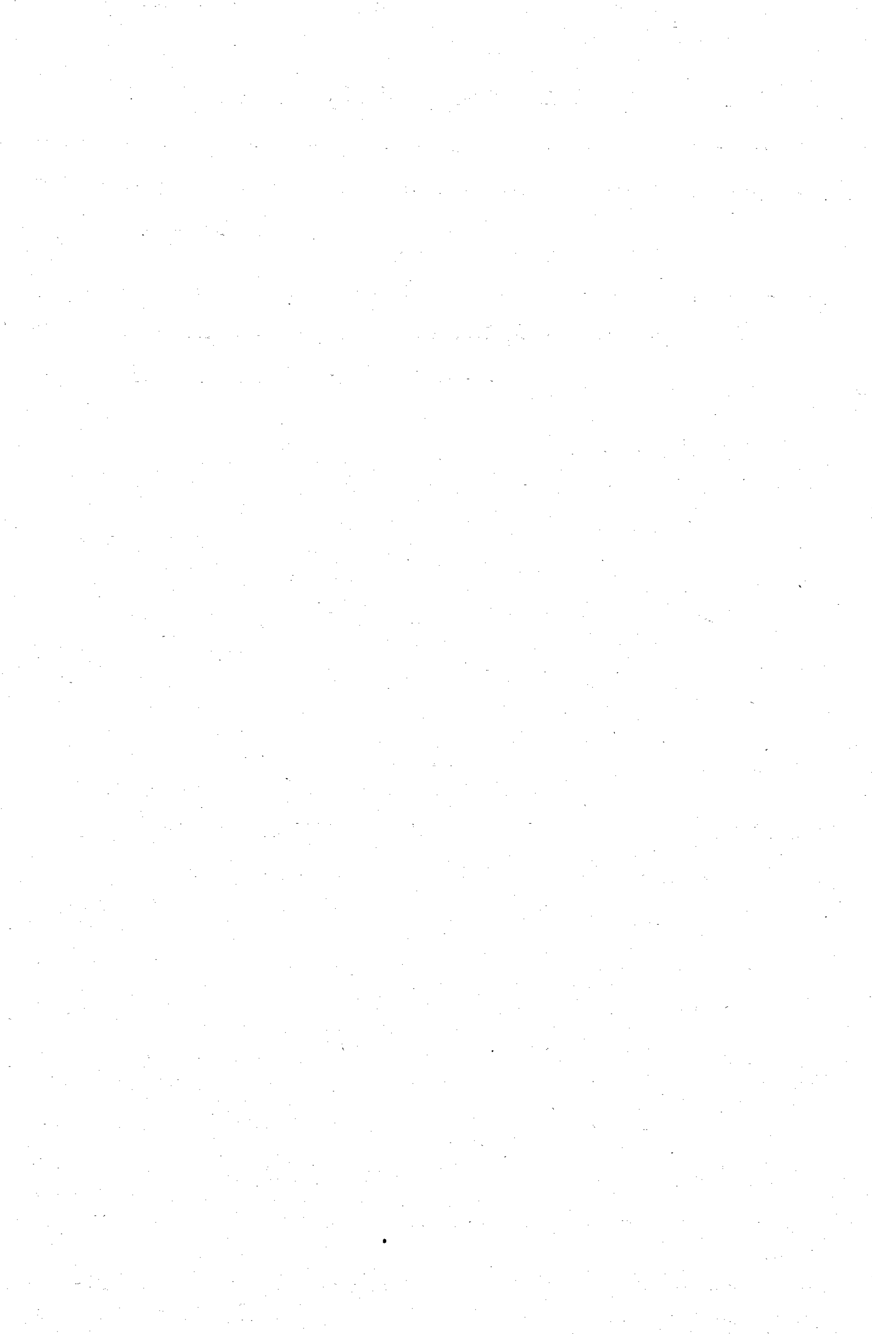
لا ندري الى أين يصير النقد البنيوي . انه أمين لموضوع الثقافة. ويحاول جهده أن يكون أمينا لموضوع المستقبل ، اللسان . كم من مؤلَّفٍ ينتظر الولادة ! وكم من منظومة تبدي انغلاقا وتعرف مـع

---

(١) راجع لـ أ. فيال،كتابه حول موباسان (نشر Nizet) ؛ولـ فلوشير كتـابـه Sterne خصوصـا Gallimard ؛ ولـ موزي ، من جملة كتبـه مقدمته (علم العلامات)لـ **تاريخ اللغة اليونانية الحديثة** .
L'histoire d'une grecque moderne, Plon, « 10/18 ».

ذلك كيف تنفتح ، وكم لغوي يحاول استنفاد البنى فيجعلها تنفتــح فجأة مثل تلك الزهور التي يتلألأ بها حجر النحات ، وتلك العمارات حيث تولــد الحنية مــن جديــد تحت أثر الدفع الغير منتظر مــن الحنية المعاكسة !

تغذي البنيوية شوقا لاستنفاد صور الشرح . لكنها لاتتحد في هذا الشوق . فكل شيء بداية مستمرة . البنية الجوهرية تكمن في البدايات المتجددة ، في فجر الثقافة .



القسم الثاني

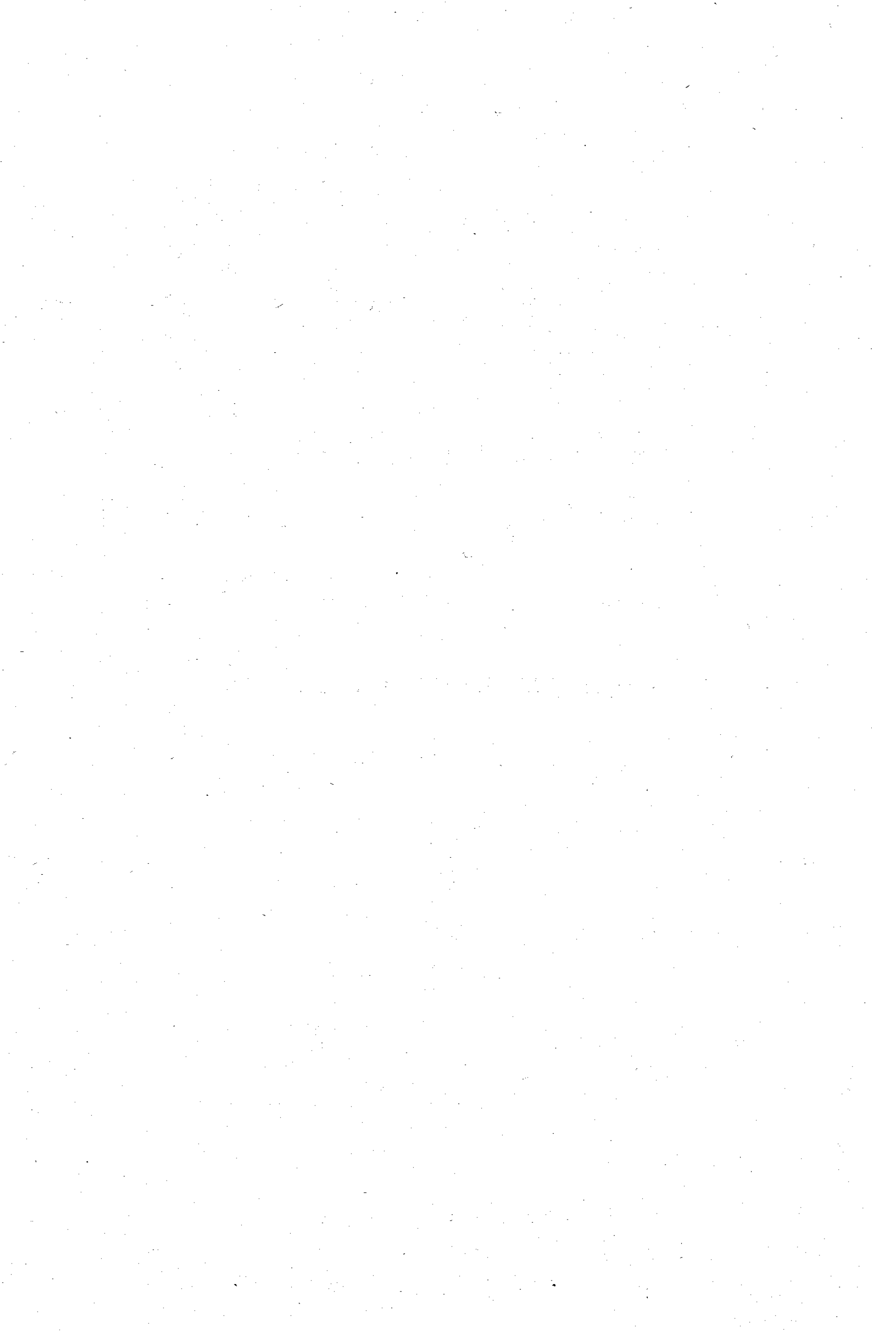
دِرَاسَات في البنيويَّة



البنيـــة والتفسيريّـة

بول ريكور

(من مجلة Esprit ، أيلول ١٩٦٣)



أود أولا أن أحدد من أي زاوية أتناول الموضوع في اسهامي هذا بالمجموعة المخصصة لنتاج كلود ليفي-شتروس[1] .

قصدي أن أقارن البنيوية ، باعتبارها علما ، مع التفسير ، باعتباره تأويلا فلسفيا لمحتويات اسطورية ، مستقاة من تقليد حي ، ومستعادة في تفكير وانشاء نظري حاليين .

وسنرى أن وضع المسألة في هذا المنظور يقودنا الى الاعتراف بحق البنيوية السوي وبحدود صلاحيتها معاً .

أو بكلام أدق ، أود أن أتخذ محكا لهذه المقارنة المعنى الذي يعترف به للزمن التاريخي كلا العلمين . اذ ان البنيوية تتكلم بحدود تزامن وتزمن ؛ والتفسير يتكلم بحدود تقليد وتراث واستعادة (أو « ولادة جديدة ») لمعنى عتيق في معنى جديد ، الخ ..

ماذا يخفي هذا الاختلاف في التعبير ؟ ما الذي يجعل الواحد يتكلم بحدود تزامن وتزمن والآخر بحدود تاريخية ؟ وليس قصدي أبدا أن أقيم التقابل بين البنيوية والتفسير ، بين تاريخية هذا وتزمن

(١) هذا المقال مقتطع من مجموعة دراسات عن ل. ستروس وهو مستقل عنها (الناشر) .

تلك : فالبنيوية من مصاف العلم ، ولا أجد فى الوقت الحاضر بحثا أقوى إحكاما وأوفر خصبا منها على صعيد معقوليتها الخاصة ؛ أما تأويل الرمزية فلا يستحق أن يسمى تفسيرا الا بقدر ما هو جزء من فهم الانسان لذاته وفهم الوجود ، وبدون هذا العمل على تمثل المعنى ، ليس التأويل شيئا . فالتفسير بهذا المعنى فرع من فروع الفلسفة . لانه بقدر ما تهدف البنيوية الى اقامة فاصل دون البنية ، بنية مؤسسة كانت أم بنية أسطورة أم بنية طقس ديني ، والى فصلها عن المعادلة الشخصية للباحث وموضعتها ، بقدر ذلك يوغل الفكر التفسيري في ما سمي « الدائرة التفسيرية » للفهم والاعتقاد ، التي تخلع عنه صفة العلم وتخلع عليه صفة فكر متأمل . فلا مجال اذن لان نضع جنبا الى جنب هذين المنحيين من الفهم ، بل المسألة هي بالاحرىأن نقرنهما كالموضوعي والوجودي (أو البعد الوجودي للموجود !) . فلما كان التفسير وجهاً من تمثل المعنى ، مرحلة بين التفكير المجرد والتفكير المشخص ، لما كان التفسير استعادة الفكر للمعنى المعلق فى الرمزية ، كان لا بد له أن يجد فى عمل الانطروبولوجيا البنيوية مستندا لا مصدر ارتكاس ؛ اذ لا يتمثل الانسان الا ما استبعده أولا كي ينظر فيه . هذا الاعتبار الموضوعي ، المعمول به فى مفهومي التزامن والتزمن ، هو الذي أريد أن أمارسه هنا ، آملا أن أقود التفسير من فهم ساذج الى فهم ناضج ، عبر نظام الموضوعية .

لا يبدو لي مناسبا أن أنطلق من الفكر المتوحش بل أن انتهي اليه ؛ لان هذا الكتاب يمثل آخر مرحلة من سيرورة متدرجة فى التعميم ؛ اذ ان البنيوية ما كانت تدعي فى بدايتها أن تحدد تركيب الفكر بكامله ، ولا حتى فى حالته المتوحشة ، ولكن أن تحدد زمرة معينة بدقة من المسائل التي تمت ، اذا جاز القول ، ببعض القرابة الى المعالجة البنيوية. ان كتاب **الفكر المتوحش** يمثل نوعا من الانتقال الى الطرف ،نوعا

من المذهبة الناجزة تدعو بسهولة مفرطة الى اعتبار الاختيار بين عدد من المناحي فى الفهم ، بين عدد من المعقوليات ، مفاضلة كاذبة • قلت ان هذا خلف في المبدأ ؛ فحتى لا نقع فعلا فى الفخ ، يجب أن نعالج البنيوية أولا على أنها شرح محدود ثم يتوسع شيئا فشيئا متتبعا خيط تسلسل المسائل ؛ لان الشعور بصحة الطريقة لا يمكن أبدا فصله عن الشعور بحدودها • إني أتوخى انصاف هذه الطريقة وخصوصا أن اتعلم منها ولهذا سأحاول ادراكها في حركة توسعها، انطلاقا من نواة لاتناقش، بدلا من أن أتناولها من مرحلتها النهائية ، بعد أن تجاوزت نقطة الحرج حيث يمكن ان تفقد معنى حدودها •

النموذج اللغوي :

البنيوية ناشئة كما نعلم من تطبيق نموذج لغوي على الانطروبولوجيا والعلوم الانسانية عموما • ففي أصل البنيوية نجد أولا فردينان دوسوسّور وكتابه: **دروس في علم اللغة العام** ، ونجد خصوصا اتجاها شطر علم اللغة وقد أخذ مع تروبتسكوي وجاكوبسن ومارتينه شكل علم الاصوات • نشهد على يد هؤلاء انقلابا للعلاقات بين المنظومة والتاريخ • فالفهم يعني فى التاريخية اكتشاف التكون ، الصورة السابقة والاصول ، ومعنى التطور • أما فى البنيوية فيعني الوقوف على الترتيبات والتنظيمات المذهبية فى حالة من الحالات ، وهذه التنظيمات هي المعقولة أولا • وقد شرع فردينان دوسوسّور في هذا الانقلاب حين ميز في اللسان بين اللغة والكلام • فاذا فهمنا من اللغة جملة من المصطلحات التي يعتمدها هيكل اجتماعي من أجل ممارسة اللسان عند الافراد ، ومن الكلام فعل الذات المتكلمة عينه، قادنا هذا التمييز الحاسم الى ثلاث قواعد سنتتبع فيما يلي ، تعميمها خارج صعيدها اللغوي البدئي •

أولا ، فكرة المنظومة : تصبح اللغة وقد انفصلت عن الذات

المتكلمة منظومة من العلامات • أجل ، ليس فردينان دوسوسّور عالم أصوات : اذ ان تصوره للعلامة اللغوية على انها علاقة بين الدال الصوتي والمدلول المفهومي ، يعود الى علم الدلالات أكثر مما يعود الى علم الاصوات • ومع ذلك فان ما يبدو له موضوعا لعلم اللغة هو منظومة العلامات الناتجة عن التعيين المتبادل بين سلسلة الدال الصوتية وسلسلة المدلول المفهومية • فالمهم فى هذا التعيين المتبادل ليس الالفاظ كلا بمفرده ، ولكن التباعدات الفرقية ؛ ان فوارق الصوت والمعنى وعلاقاتها بعضها ببعض ، هي التي تشكل منظومة علامات ، لغة • فنفهم من ثم أن تكون كل منها علامة تعسفية من حيث هي علاقة منعزلة بين معنى وصوت ، وأن تشكل مجموعة علامات اللغة منظومة ، وأن يقول دوسوسّور : « في اللغة يوجد فروق وحسب » ، (Cours de linguistique générale, P. 166)

ثانيا ، ان هذه الفكرة–القوة تسيّر الموضوع الثاني الذي يخص بالضبط علاقة التزمن بالتزامن • اذ ان منظومة الفوارق لا تظهر الا على محور التواجدات المتميز تماما عن محور التتابعات • فينشأ هكذا علم لغة تزامني على أنه علم وضع اللغة فى شكلها المتمذهب ، متميزا عن علم لغة تزمني ، أو علم التطورات المطبق على المنظومة • فالتاريخ يتلو ، كما نرى ، ويظهر وكأنه تحريف للمنظومة • لا بل ان هذه التحريفات أقل معقولية فى علم اللغة منها فى أوضاع المذهب ، اذ يقول دوسوسّور : « لا تُحوَّر المنظومة أبدا بصورة مباشرة ،لانها في ذاتها غير قابلة للتغير ؛ أما التحريف فيطرأ فقط على بعض العناصر بدون اعتبار للتضامن الذي يربطها بالكل » ، (نفس المصدر ، ص ١٢١)• فالتاريخ اذن مسؤول بالاحرى عن الفوضى لا عن التغيرات الدالة ؛ ودوسوسّور يقول ذلك بصراحة : « ان حوادث السلسلة التزامنية علاقات ، أما حوادث السلسلة التزمنية فأحداث تطرأ على المنظومة »•

ومن ثم فان علم اللغة تزامني أولا ، ولا يعقل التزمن الا كمقارنة بين اوضاع المنظومة المتقدمة وأوضاعها المتأخرة ؛ فالتزمن يعتمد على المقارنة ، وهو من هذا القبيل تابع للتزامن • وقصارى الكلام أن الاحداث لا تدرك الا متحققة فى منظومة أي أنها تستمد من المنظومة أيضا مظهر الانتظام ؛ فالحادث التزمني هو التجديد المنبثق عن الكلام (كلام فرد أو عدد من الاشخاص ، لا فرق) ، وقد « أصبح واقعة من وقائع اللسان » (نفس المصدر ، ص ١٤٠) •

وستكون المسألة المركزية فى تفكيرنا أن نعرف الى أي حد يقودنا النموذج اللغوي للعلامات بين التزامن والتزمن فى فهم التاريخية الخاصة بالرموز • فانقل توا : ان النقطة الحرجة سنبلغها عندما نصبح بازاء تقليد حقيقي، أي سلسلة من الاستعادات المؤوّلة التي لايعود بالامكان اعتبارها على انها دخول البلبلة على وضع من اوضاع المنظومة •

ولنكن على بينة مما نقول : أنا لا أنسب للبنيوية ، مثل بعض نقادها ، القول بتقابل محض وتام بين التزمن والتزامن • وليفي- شتروس محق من هذا القبيل فى رده على خصومه (Anthropologie Structurale, P. 101, 103) بالمقال الكبير الذي كتبه جاكوبسن حول مبادىء علم الاصوات التاريخي حيث يفرق تفريقا صريحا بين التزامن والسكونية • المهم هو تبعية التزمن للتزامن لا التقابل بينهما ؛ وهذه التبعية هي موضع التساؤل فى الفطنة التفسيرية ؛ فالتزمن ليس دالا الا بعلاقته بالتزامن وليس العكس •

ولكن هوذا المبدأ الثالث الذي لا يقل أهمية عن الاولين بالنسبة لمشكلة التأويل وزمن التأويل ، يعود أمر استخلاصه الى علماء الاصوات بصورة خاصة ولكنه كان موجودا من قبل فى التقابل الذي أقامه دوسوسّور بين اللغة والكلام : وهو أن القوانين اللغوية تدل على

مستوى لاشعوري ، وهو بهـذا المعنى ليس من مستوى الفكر أو التاريخ ؛ هذا اللاشعور ليس الذي يقول به فرويد ، لا شعور اندفاعة الحياة والرغبة في قدرته على انشاء الرموز ، بل هو بالاحرى لاشعور كانتي ، لا شعور من مستوى المقولات وتآلفها ؛ انـه نظام متناه أو تناهي النظام ولكن من حيث انه **يجهل** ذاته • وأقول لاشعورا كانتيـا بالنظر فقط الى تنظيمه ، اذ اننا حقا بصدد منظومة من مستوى المقولات بدون احالة الى ذات مفكرة • ولذا فان البنيوية من جهة ما هي فلسفة تنشيء نوعا من المعقولية مختلفا اختلافا جذريا عن المعقولية الفكريـة والمثالية ، والفينومينولوجية ، بحيث يصبح نقيضها • ولذا فان هذا الفكر اللاشعوري يمكن أن يعتبر مماثلا للطبيعة ، بل ربما كان طبيعة• سنعود اليه بصدد **الفكر المتوحش** ؛ ولكن منذ سنة ١٩٥٦ كتب ليفي-شتروس مستندا الى **قاعدة الاقتصاد** في شرح جاكوبسن ، يقول : « التأكيد بأن الشرح الاكثر اقتصادا هو أيضا الاقرب الى الحقيقـة ــ بين كل الشروح المعتبرة ــ يستند فى النهاية الى المصادرة التـي توحّـد بين قوانين العالم وقوانين الفكر » (**الانطربولوجيا البنيويـة** ، ص ١٠٢) •

هذا المبدأ الثالث يعنينا مثلما يعنينا المبدأ الثاني ، لانه يقيم بين الملاحظ والمنظومة علاقة هي نفسها غير تاريخية ، بحيث لا يكون الفهم استعادة للمعنى • فليفي-شتروس يخـالف شلايرماخر في كتابـه : **التفسير والنقد** (1828) Hermeneutik und Kritik، وديلتي في مقاله : **نشوء التفسير** (1900) Die Entstehung der Hermeneutik وبولتمان في كتابه : **مشكلة التفسير** (1950) Das Problem der Hermeneutik ويقول أنه ليس من « دور تفسيري » ؛ وعلاقـة الفهم ليست تاريخية• ان العلاقة موضوعية ، مستقلة عن الملاحظ ؛ ولذا فان الانطروبولوجيا البنيوية علم لا فلسفة •

نقل النموذج اللغوي الى الانطروبولوجيا البنيوية :

نستطيع تتبع هذا النقل فى تتاج ليفي ـ شتروس مستندين الى المقالات المنهجية التي نشرها فى **الانطروبولوجياالبنيوية** • وكان موسّ قد قال من قبل : « لو أن علم الاجتماع نهج فى كل موضع على غرار علم اللغة •لكان قد حقق أكثر مما فعل من التقدم » (فى مقال من سنة ١٩٤٥ نشر فى **الانطروبولوجياالبنيوية** ، ص ٣٧) • لكن ثورة علم الاصوات فى علم اللغة هي التي تشكل المنطلق الحقيقي فى نظر ليفي - شتروس : « فهي لم تجدد المنظورات اللغوية وحسب : لان تحولا بمثل هذه الابعاد ليس مقصورا على علم من العلوم • ان علم الاصوات لا يسعه الا أن يلعب تجاه العلوم الاجتماعية نفس الدور المجدد الذي لعبته الفيزياء النووية تجاه العلوم الدقيقة • فعلام تقوم هذه الثورة عندما نحاول استجلاء مضامينها الاكثر تعميما ؟ ن• تروبتسكوي ، سيد علم الاصوات الشهير ، هو الذي يجيبنا عن هذا السؤال • ففي مقال برنامجي من سيكولوجيا اللسان Psychologie du langage عنوانه **علم الاصوات الراهن** ، يرد تروبتسكوي طريقة علم الاصوات بالاجمال الى أربع خطوات أساسية : أولا ، ينتقل علم الاصوات من دراسة الظواهر اللغوية **الواعية** الى دراسة بنيتها التحتية **اللاشعورية** ؛ وثانيا ، انه يرفض أن يعالج الالفاظ كأنها وحدات مستقلة ، ويستند بالعكس فى تحليلها الى أساس هو **العلاقات** بين الالفاظ ؛ وثالثا ، انه يدخل مفهوم المنظومة ؛ يقول تروبتسكوي : « لا يقتصر علم الاصوات الراهن على التصريح بأن الوحدات الصوتية هي دائما أعضاء فى منظومة ، بل يفصح عن وجود منظومات صوتية مشخصة ويوضح بنيتها » ؛ أخيرا ، انه يرمي الى اكتشاف قوانين **عامة** ، اما عن سبيل الاستقراء ، واما باستنتاج منطقي يعطيها طابع المطلق » • وهكذا يحدث لاول مرة أن يتوصل علم

اجتماعي الى التعبير عن علاقات ضرورية ، كما يعني تروبتسكوي في جملته الاخيرة ، « فى حين أن القواعد السابقة تبين كيف يجب على علم اللغة أن يتدبر أمره حتى يتوصل الى هذه النتيجة »
(A. S., P. 39 - 40)

لقد وفرت **منظومات القرابة** لـ ليفي – شتروس أول مماثل دقيق للمنظومات الصوتية . وهي في الواقع منظومات مكونة على المستوى اللاشعوري من الفكر ؛ ثم انها منظومات ، الدوالّ الوحيدة فيها هي أزواج التقابلات ، وبوجه عام العناصر الفارقة (أب ـ ابن ، خال ـ ابن أخت ، زوج ـ امرأة ، أخ ـ أخت) : فالمنظومة بالتالي ليست على مستوى الحدود بل على مستوى أزواج العلاقات . (ونذكر الحل الانيق والمقنع لمشكلة الخال : نفس المصدر ص ٥١ ـ ٥٢ و ٥٦ـ٥٧). أخيرا انها منظومات يميل فيها وزن المعقولية نحو التزامن : فهي مبنية دون مراعاة للتاريخ وان انطوت على شريحة تزمنية ، لكون بنى القرابة تربط سلسلة من الاجيال [١] .

ولكن ما الذي يمكّن ليفي–شتروس من هذه النقلة الاولى للنموذج اللغوي ؟ هو بالدرجة الاولى أن القرابة نفسها منظومة تَواصُل؛ وانه من هذا القبيل يمكن تشبيهها باللغة : « ان منظومة القرابة لسان؛ لكنها ليست لسانا كليا ، ويمكن أن يفضل عليها وسائل أخرى للقول

---

(١) يقول ليفي–شتروس في **الانطروبولوجيا البنيوية** ، ص ٥٧ : « ليست القرابة ظاهرة سكونية ، بل انها لا توجد الا لتستمر . ولا نفكر هنا برغبة ادامة العرق ، بل بواقع أن اختلال التوازن فى معظم منظومات القرابة ، الذي يحدث فى جيل معين ، بين من يتخلى عن امرأة ، ومن يأخذ امرأة ، لا يمكن اصلاحه الا بهبات مقابلة فى الاجيال اللاحقة . حتى بنية القرابة الاكثر بدائية توجد فى وقت واحد على صعيد التزامن وعلى صعيد التزمن » . يجب أن نقرب هذه الملاحظة من التي وضعناها آنفا بصدد التزمن في علم اللغة البنيوي .

والعمل • وذا يؤول ، من وجهة النظر الاجتماعية ، الى القول بأننا نستطيع دائما ، لدى ثقافة معينة ، وضع هذا السؤال التمهيدي : هل هذه المنظومة منتظمة ؟ يبدولاول وهلةمن الخلف أن نضع هذا السؤال، لكنه ليس خلفا الا بالنسبة للغة ، اذ ان اللغة هي المنظومة الدلالية المثلى ، لا يمكن الا أن تدل ، ووجودها بكامله قائم على الدلالة • وبالعكس ، يجب النظر فى السؤال بدقة متزايدة كلما ابتعدنا عن اللغة لنواجه منظومات أخرى ، تدعي الدلالة ، لكن قيمتها الدلالية تظل جزئية ومقطعة وذاتية ، مثل التنظيم الاجتماعي ، والفن ، الخ •• » (المصدر المذكور ، ص ٥٨) •

اذن يقترح علينا هذا النص أن نرتب المنظومات الاجتماعية ترتيبا متناقصا ، « ولكن بدقة متزايدة » ، انطلاقا من المنظومة الدلالية المثلى ، اللغة • ان تكن القرابة المماثل الاقرب للغة ، فلانها ، مثل اللغة، « منظومة تعسفية من التصورات ، وليست نموا عفويا لوضع قائم فى الواقع » (ص ٦١) ؛ بيد أن هذا التماثل لا يظهر الا اذا نظمناه انطلاقا من الخصائص التي تجعل منه ارتباط قرابة ، لا نمطا بيولوجيا : اذ ان قواعد الزواج كلها « تمثل وجوها من تأمين تبادل النساء داخل الفئة الاجتماعية ، يعني ابدال منظومة من العلاقات الدموية البيولوجية، بمنظومة قرابة اجتماعية » (ص ٦٨) • وعلى هذا الاعتبار تجعل تلك القواعد من القرابة « شبه لسان أي مجموعة من العمليات الرامية الى تأمين نمط من أنماط التواصل بين الافراد والفئات • ولان يكون « الارسال » هنا مكونا من **نساءالفئة** التي تتبادلها العشائر والسلالات أو الاسر (بدلا من أن يكون ، كما فى اللسان ، مكونا من **ألفاظ الفئة** التي يتداولها الافراد) فان هذا الفرق لا يعطل في شيء وحدة الظاهرة فى كلتا الحالتين » (ص ٦٩) •

ان هذه النظرة تحتوي كل برنامج **الفكر المتوحش** ومبدأ التعميم،

وسأكتفي بايراد نص يرجع الى سنة ١٩٤٥ : « نجدنا فى الواقع مسوقين الى التساؤل فى ما اذا كانت جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية ، بما فيها الفن والدين ـــ الذي نعرف أن دراسته يمكن أن تستعين بطرائق ومفاهيم مستعارة من علم اللغة ـــ تقوم على ظواهر تلتقي فى طبيعتها باللسان . فكيف يمكن تحقيق هذه الفرضية ؟ سواء اقتصرت الدراسة على مجتمع أو امتدت الى عدد من المجتمعات ، يجب أن نمضي فى تحليل مختلف الجوانب من الحياة الاجتماعية الى عمق نبلغ معه مستوى يمكننا من الانتقال من الواحد الى الآخر ؛ أي انه يجب اعداد مدونة كلية من شأنها أن تعبر عن الخصائص المشتركة بين البنى المميزة لكل جانب من الحياة الاجتماعية . واستعمال هذه المدونة يجب أن يكون مشروعا لكل منظومة بمفردها ، ولكل المنظومات فى مقارنة بعضها ببعض . فنضع هكذا أنفسنا فى موقف يمكننا من معرفة طبيعتها العميقة ، وهل تقوم على حقائق واقعية من نمط واحد » (عين المصدر ، ص ٧١) .

اذن ان الجوهري فى هذا الفهم للبنى يتركز حقا فى فكرة المدونة ، بمعنى المطابقة الصورية بين البنى المعينة ، أي بمعنى التجانس البنيوي . وهذا الفهم للوظيفة الرمزية هو وحده الذي يمكن القول فيه انه مستقل عن الملاحظ ؛ يقول ليفي ـ شتروس : « فاللسان اذن ظاهرة اجتماعية تشكل موضوعا مستقلا عن الملاحظ ولدينا عنه سلاسل احصائية طويلة » (ص ٦٥) فتكون مشكلتنا أن نعرف كيف يمكن لعقل موضوعي يقوم بنشاطه على ذلك مصطلح المدونة ، أن يربط بعقل تفسيري يقوم بفك الرموز ، أي يستعيد لذاته المعنى وفي الوقت نفسه ينمي ذاته بالمعنى الذي يفك رموزه . وها هي ملاحظة قد تهدينا السبيل ، ينبه فيها ليفي ـ شتروس الى أن «الاندفاعة الاصلية» (ص ٧٠) نحو تبادل النساء ربما تكشف ، بارتكاس على النموذج

اللغوي ، بعض الشيء عن أصل كل لسان ، يقول : « ألا يجب ، كما في حالة تبادل النساء ، أن نطلب الانـدفاعة الاصلية التي أرغمت البشر على « تبادل » الكلام ، في تصور ازدواجي ، ناتج هو نفسه عن الوظيفة الرمزية عند بدء ظهورها ؟ اذ حالما يدرك موضوع صوتي على أن له قيمة مباشرة للمتكلم والسامع في آن واحد ، يكتسب طبيعة متناقضة ولا يمكن رفع التناقض منها الا بتبادل قيم يتمم بعضها بعضا ، وكل الحياة الاجتماعية تنحل الى هذا التبادل » (ص ٧١) • أليس هذا القول يعني أن البنيوية لا تباشر عملها الا على أساس مكون سلفا « من التصور الازدواجي الناتج هو نفسه عن الوظيفة الرمزية» ؟ أولا يستدعي تفهما آخر ينصب على الازدواج نفسه ، منطلق التبادل؟ وعلم التبادلات الموضوعي ألا يكون جزءا تجريديا من الفهم الكامل للوظيفة الرمزية ، فهم يكون في صميمه فهما دلاليا ؟ حينئذ تصبح الغاية من وجود البنيوية عند الفيلسوف أن تعيد ذلك الفهم الكامل ، ولكن بعد خلعه وموضعته ورفده بالفهم البنيوي • وهكذا يصير الاصل الدلالي بعد توسط الصيغة البنيوية ممكن البلوغ لفهم أقل مباشرة ولكن أكثر ضمانا •

لندع الآن المسألة عالقة (حتى نهاية هذه الدراسة) ، ولنقتفِ خيط المماثلات والتعميم •

إن تعميمات ليفي-شتروس حـذرة جدا في البداية وتكتنفها التحفظات (انظر مثلا ص ٧٤ ــ ٧٥) • فالتماثل البنيوي ، بين باقي الظواهر الاجتماعية واللسان في بنيته الصوتية، هو بالفعل معقد جدا • اذ بأي معنى يمكن القول أن تلك الظواهر « طبيعتها مطابقة لطبيعة اللسان » (ص ٧١) ؟ على أنه لا خوف من الالتباس حين لا تكون علامات التبادل نفسها عناصر في القول ، فيقال ان الناس يتبادلون النساء **مثلما** يتبادلون الالفاظ ، فالانشاء الصوري الذي أبرز التجانس

فى البنية ليس مشروعا فحسب ولكنه يلقي ضوءا قويا • لكن الامور تتعقد عندما تتناول الفن والديانة ؛ اذ لم يعد لدينا « نوع من اللسان » فحسب ، كما فى حالة قواعد الزواج ومنظومات القرابة ، ولكن صرنا حقا بصدد قول دال مبني على أساس اللسان باعتباره أداة تواصل ؛ فالتماثل قد انزاح داخل اللسان نفسه وصار منذ الآن منصبا على بنية هذا القول الخاص أو ذاك بالمقارنة مع البنية العامة للغة • اذن ، ليس من الاكيد **قبليا** أن علاقة التزامن بالتزمن ، التي تصلح في علم اللغة العام ، تتدبر بنفس القوة بنية الاقوال الخاصة • اذ ان الاشياء التي تقال ليس لها حتما بنيان شبيه ببنيان اللسان من حيث هو أداة القول الكلية • وكل ما يمكن اثباته هو أن النموذج اللغوي يوجه البحث نحو تمفصلات شبيهة بتمفصلاته ، يعني نحو منطق تقابلات وتضايفات ، أي فى النهاية نحو منظومة فوارق • فقد كتب ليفي-شتروس عن اللسان يصفه بأنه شرط تزمني لتكون الثقافة من جهة ما يحمل وينقل التعليم والتربية ، قال : « اذا نظرنا الى اللسان من زاوية نظرية ظهر لنا أيضا شرطا للثقافة بقدر ما تكون هذه مشابهة للسان في بنيانها • اذ ان كليهما يدل بواسطة تقابلات وتضايفات ، أو بكلام آخر ، بواسطة علاقات منطقية • حتى إننا نستطيع اعتبار اللسان مؤسسة ، غايتها أن تتقبل بنى أكثر منها تعقيدا فى بعض الاحيان ، لكنها من نمط بناها وتطابق الثقافة من وجوه مختلفة » (نفس المصدر ص ٧٩) • الا أن ليفي-شتروس مجبر على التسليم بأن التضايف بين الثقافة واللسان ، لا يبرره تبريرا كافيا الدور الكلي الذي يؤديه اللسان فى الثقافة • فيلجأ الى حد ثالث يؤسس عليه التوازي بين اللسان والثقافة من الجهة البنيوية ، يقول : « لم نفطن بشكل كاف الى أن اللغة والثقافة نمطان متوازيان من فعالية اكثر اساسية : أقصد هنا ذلك الضيف الحاضر بيننا ، وان

لم يخطر لاحد أن يدعوه الى مناقشاتنا : **الفكر الانساني** » (ص٨١)٠ وهذا الشخص الثالث المستدعى يثير مسائل خطيرة : لان الفكر يفهم الفكر لا بفضل التماثل فى البنية فحسب ولكن أيضا على سبيل استعادة ومواصلة الاقوال الخاصة ٠ وفى الحق ، لا شيء يضمن أن هذا الفهم يعتمد على مباديء علم الصوت نفسه ٠ فيبدو لي اذن أن المشروع البنيوي يظل شرعيا تماما وفى مأمن من كل نقد ما ظل واعيا لشروط صحته أي لحدوده ٠ لان هناك شيئا ثابتا فى كل فرضية وهو أن التضايف يجب البحث عنه ، لا « بين اللسان والمواقف ، ولكن بين التعبيرات المتجانسة ، عن البنية اللسانية والبنية الاجتماعية ، تعبيرات أصبح لها صيغتها الصورية » (ص ٨٢) ٠ بهذا الشرط وبه وحده ، «ينفتح المجال أمام أنطروبولوجيا تُفهم على أنها نظرية عامة في العلاقات ، وأمام تحليل المجتمعات تبعا للسمات الفارقة ، الخاصة بمنظومات العلاقات التي تحدد تلك المجتمعات » (ص ١١٠) ٠

ومن ثم تتضح مسألتي وتجد لها تعبيرا فى هذه الاسئلة : ما هو موقع « نظرية عامة فى العلاقات » من نظرية عامة فى المعنى [1] ؟ وماذا

---

(١) وليفي-شتروس يستطيع قبول هذا السؤال لانه يضعه على نحو ممتاز اذ يقول : « تنتمي فرضية عملي الى موقف وسط : وهو أن بعض التضايفات من الراجح اكتشافها بين بعض المظاهر وعلى بعض المستويات ، ويهدف عملنا الى تعيين تلك المظاهر وتحديد موقع تلك المستويات » (ص ٩١) ٠ وفي رد على هودريكور وغرانيه يبدو أن ليفي-شتروس يسلم بوجود منطقة فيها تتحقق امثل صلاحية لنظرية عامة في التواصل ، اذ يقول : « هذه المحاولة ممكنة منذ اليوم على مستويات ثلاثة : لان قواعد القرابة والزواج تنفع لتأمين تبادل النساء بين الجماعات مثلما تنفع القواعد الاقتصادية لتأمين تبادل الاملاك والخدمات والقواعد اللغوية لتبليغ الرسائل » (ص ٩٥) ٠ ومما تجدر أيضا ملاحظته تحفظات المؤلف ازاء تطرف الامريكيين فيما يسمونه « علم اللغة » (ص ٨٣ – ٨٤ ، ٩٧) ٠

نفهم من البنية فى مجال الفن والدين ؟ وفهم البنية هذا كيف يفيد فى فهم التفسير المتجه نحو استعادة للمقاصد الدالة ؟

وفى هذا الموضع بالذات يمكن أن توفر لنا مسألة الزمان محكا جيدا • فنتتبع مصير العلاقة بين التزمن والتزامن فى عملية النقل هذه للنموذج اللغوي ، ونقارنه بما يمكن أن نعرفه من مصدر آخر عن تاريخية المعنى في حالةالرموز المتوفر لدينا عنها متتاليات زمنية جيدة •

الفكر المتوحش :

في كتاب الفكر المتوحش يشرع ليفي-شتروس في تعميم للبنيوية جريء • وليس معنى ذلك أن المؤلف نبذ أي نوع من انواع التعاون مع أنماط الفهم الاخرى ، أو ان البنيوية تجاهلت وتجاوزت كل الحدود ، فليس في قبضتها كلية الفكر ، بل مستوى معين من الفكر هو **الفكر المتوحش** • ولكن بالرغم من ذلك عندما ينتقل القاريء من **الانطروبولوجيا البنيوية** الى **الفكر المتوحش** يشعر ويدهش بتبدل الموقف والنبرة : فالمؤلف لم يعد ينهج نهجا تدريجيا منتقلا من القرابة الى الفن فالدين ، بل ان مستوى من التفكير قائما بذاته قد أصبح بوجه الاجمال موضوع بحث واستقصاء ، وأصبح يعتبر صورة الفكر الواحد غير المروّضة ؛ فلم يعد هناك أقوامتوحشة بمقابلة أقوام متمدنة ، ولا عقلية بدائية ، ولا فكر أناس متوحشين ، ولاتغرب مطلق؛ فوراء « الوهم الطوطمي » فكر متوحش فحسب؛وهذا الفكر ليس سابقا للمنطق ، ليس فكرا قبل منطقي ،ولكنه مماثل للفكر المنطقي ، ومماثل بالمعنى القوي : لان تصنيفاته المتشعبة وتسمياته الدقيقة هي الفكر المصنّف بعينه ولكن عمله يقع على مستوى ستراتيجي آخر ، كما يقول ليفي-شتروس ، على مستوى المحسوس • فالفكر المتوحش هو فكر الترتيب لكنه فكر لا يفكر • **وبهذه الصفة**

يلبي حقا شروط البنيوية المذكورة آنفا وهي : ترتيب لا شعوري ــ وترتيب يُتصور منظومة فوارق ــ وترتيب قابل للمعالجة الموضوعية أي « بصورة مستقلة عن الملاحظ » • وبالتالي فان الترتيبات اللاشعورية هي وحدها المعقولة ؛ وعملية الفهم لا تقوم على استعادة مقاصد المعنى واحيائها بفعل تأويل تاريخي يندرج هو نفسه فى تقليد متصل ؛ بل ان المعقولية اصبحت منوطة بمدونة التحويلات التي تؤمّن التطابقات والتماثلات بين ترتيبات موزعة على مستويات مختلفة من الواقع الاجتماعي (كالتنظيم العشائري ، وثبت الاسماء ، وتصنيفات الحيوانات والنباتات ، والفنون والاساطير ، الخ ••) • وبكلمة ، تتميز هذه الطريقة بأنها : تغليب النحو على علم الدلالات • وهذا الاختيار يظل مشروعا تماما ما ظل رهانا يراعى فيه التماسك • لكنه يفتقر للاسف الى التفكير فى شروط صحته ، وفى الثمن الذي يكلفناه هذا النمط من الفهم ؛ وبكلمة ، انه يفتقر الى التفكير فى الحدود التي لا يجوز له تخطيها ، فى حين أن هذا التفكير فى الحدود كان يبرز من وقت لآخر في مؤلفات ليفي-شتروس السابقة •

أما أنا فيدهشني أن تكون الامثلة كلها مأخوذة من المدى الجغرافى الذي عاش فيه ما سمي بالطوطمية ، وأنه لم يؤخذ أي مثال البتة من الفكر السامي أو الفكر السابق للفكر الهليني أو الفكر الهندي الاوربي ؛ واني لأتساءل عما يتضمن هذا الحصر البدئي للمواد الاثنوغرافية والانسانية • ترى ألم يبالغ المؤلف فى تسهيل المهمة على نفسه ، اذ ربط مصير الفكر المتوحش بنطاق ثقافى هو بالضبط نطاق « الوهم الطوطمي » ، حيث الترتيبات أكبر اهمية من المضامين وحيث يقوم نشاط الفكر على حذلقة الترقيع بمواد مختلطة وانقاض من المعاني ؟ وفى الحق أن هذا الكتاب لا يطرح أبدا مسألة وحدة الفكر الاسطوري • ويعتبر تعميم النتائج على كل فكر متوحش أمرا مسلما

به . بيد أن سؤالي هو بالضبط : هل يخضع للعملية نفسها الرصيد الاسطوري الناهضة عليه ثقافتنا ـ وهو رصيد سامي (مصري ، بابلي آرامي ، عبري) وهيليني قديم ، وهندي أوربي ؟ أو أقول بالاحرى، وهذه نقطة أشدد عليها ، قد يخضع للعملية أكيدا ، ولكن هل يخضع لها بدون بواقي ؟ يبدو لي فى أمثلة كتاب **الفكر المتوحش** أن ضآلـة المضامين وغزارة الترتيبات تشكل حالة قصوى أكثر مما تشكل صيغة قانونية . فى الواقع ، ان قسما من الحضارة ، وهو الذي لم تنبثق منه ثقافتنا ، يقبل أكثر من أي قسم آخر تطبيق الطريقة البنيوية المنقولة عن علم اللغة . لكن هذا ليس برهانا على أن الفهم البنيوي ينورنـا فى الاقسام الاخرى مثلما يفعل هنا ، أو أنه يكتفي بذاته . وقـد تكلمت آنفا عن الثمن الذي يقتضيه منا تعميم الفهم البنيوي ! هذا الثمن ـ أي عـدم دلالة المحتويـات ـ ليس باهظا على المفكرين الطوطميين نظرا لكبر المقابل وهو قوة الدلالة فى الترتيبات . ويبدو لي أن الفكر الطوطمي هو بالضبط أقرب ما يكون الى البنيوية ؛ لكني أتساءل اذا كان يصح أن يتخذ مثالا أم أنه مجرد استثناء [1] .

---

(١) ويجد القاريء بعض التلميحات بهذا المعنى في **الفكر المتوحش** : « قلما تبدي الحضارات بقدر ما تبدي الحضارة الاوسترالية ميلا الى التبحر والتأمل ، وما يظهر أحيانا وكأنه تأنق فكري ، مهما يكن من الغرابة فى اطلاق هذا التعبير على قوم يمثل ذلك المستوى البدائي من الحيـاة المادية ... فلما كانت أوستراليا قد عاشت آلاف السنين منطوية على نفسها وفى ذلك العالم المغلق حيث استمرت النقاشات والتأملات ، ولما كانت تأثيرات الموضة حاسمة فى الغالب ، فقد أصبح ممكنا لنا أن نفهم تكوّن شبه اسلوب اجتماعي وفلسفي مشترك لا ينفي وجود تنويعات مقصودة بصورة منهجية ، كانت فى أدنى أشكالها موضوع فرز ثم تعليق موال او معاد » (ص ١١٨ ـ ١١٩) . وفي أواخر الكتاب يقول ليفي ـ شتروس : « إذ إن بين التاريخ ومنظومات التصنيف تنافرا أصليا ، وهذا قد يفسر لنا ما يستهوينا أن نسميه بـ « الفراغ الطوطمي » اذ ان كـل ←

وفى الحق ، ان للفكر الاسطوري قطبا آخر ، فيه التنظيم النحوي أضعف، والاتصال بالطقس أقل بروزا، والارتباط بالتصنيفات الاجتماعية أوهن ، لكن الغنى الدلالي فيه يسمح باستعادات تاريخية لا حصر لها فى مجالات اجتماعية اخرى أكثر تنوعا • **وفى هذا** القطب الآخر من الفكر الاسطوري ، الذي سأقدم بعد قليل أمثلة عليه آخذها من العالم العبراني ، ربما كان الفهم البنيوي أقل أهمية ، وعلى كل حال أقل استئثارا ، ويحتاج بصورة أجلى أن يتمفصل على فهم تفسيري يعنى بتفسير المضامين نفسها ، كيما يطيل حياتها ويدمج جدواها فى الفكر الفلسفي •

واني هنا لمتخذ محكا مسألة الزمان التي حركت تأملنا : فـ **الفكر المتوحش** يستخرج كل النتائج المتضمنة فى مفهومي التزامن والتزمن اللغويين ، ويستجلي تصورا اجماليا للعلاقات بين البنية والحادثة • فتقوم المسألة بالتالي على أن نعرف **هل** تظل العلاقة بين البنية والحادثة هي هي على مدى الفكر الاسطوري •

يحلو لليفي–شتروس ان يستعيد كلمة بواس : « يخيل الينا أن العوالم الاسطورية قد جعلت لتهدم حالما يتم تكونها ، كيما ينشأ من أنقاضها عوالم جديدة » (ص ٣١) • وكان قد استخدم هذه الكلمة استهلالا لاحد المقالات التي يتضمنها كتاب **الانطروبولوجيا البنيوية**، (ص ٢٢٧) • وهذه العلاقة العكسية بين متانة التزامن

← ما يمكن أن يذكرنا بالطوطمية يبدو بصورة ملحوظة مفقودا حتى أثره من الحضارات الكبرى في آسيا واوربا. أليس السبب هو أن هذه الحضارات قد اختارت أن تفصح عن ذاتها لذاتها بالتاريخ ، وأن هذا المشروع يتنافى وذاك الذي يصنف الاشياء والكائنات (الطبيعية والاجتماعية) زمرا محددة ؟ » (ص ٢٩٧ ــ ٣٠٨) •

وهشاشة التزمن في العوالم الاسطورية ، هي التي يضيئها ليفي ـ شتروس بالمقارنة مع حذلقة الترقيع •

اذ ان المرقع الحاذق ، على خلاف المهندس ، يعمل بمواد لم ينتجها من أجل الاستعمال الحاضر ، ولكن بمجموعة من المواد محدودة ومختلطة ، ترغمه على العمل بالوسائل المتوفرة ، كما يقال ؛ وهذه المجموعة ملفقة من بواقي المنشآت والانقاض السابقة ؛ فهي تمثل اذن في وقت من الاوقات حالة من الاداتية ناشئة عن الاتفاق والمصادفة ؛ ان المرقع الحاذق يعمل بعلامات سبق أن استعملت، وتلعب دور القسر القبلي تجاه التنظيمات الجدية • والاسطورة شأنها شأن حذلقة الترقيع « تعنى بمجموعة من بواقي المنجزات الانسانية ، أي بمجموعة ثقافية ثانوية » (ص ٢٩) • أو نقول بألفاظ الحادثة والبنية، التزمن والتزامن: ان الفكر الاسطوري يقيم البنية من بواقي أو انقاض الحوادث ؛ فهو اذ يبني قصوره من أنقاض القول الاجتماعي السابق، يقدم نموذجا هو مقلوب النموذج العلمي الذي يعطي بناه صورة حادثة جديدة ؛ يقول ليفي-شتروس : « ان الفكر الاسطوري ، ذلك المرقع الحاذق ينشيء بنى بتنضيد الحوادث ، أو بالاحرى ، بتنضيد بواقي الحوادث ، في حين أن العلم يخلق « في مسيرته » وبمجرد تأسيسه ، وسائله وحصائله في صورة حوادث ، بفضل البنى التي يصنعها بلا توقف ، وهي فرضياته ونظرياته » (ص ٣٣) •

أجل ، ان ليفي-شتروس لا يقابل بين الاسطورة والعلم الا لكي يقرب بينهما ، لان « كلا النهجين صحيح » ، كما يقول ، « اذ ان الفكر الاسطوري ليس فقط أسير الحوادث والتجارب التي لا ينفك ينسقها ويعيد التنسيق بلا ملل ، كي يكتشف لها معنى ؛ بل انه أيضا فكر يحرر عن سبيل الاحتجاج الذي يناهض به اللا معنى الذي رضخ العلم لمهاودته في البداية » (ص ٣٣) • ولكن يبقى أن المعنى هو

بجانب التنسيق الحالي، بجانب التزامن ، وهذا ما يجعل تلك المجتمعات بهذا التهافت أمام الحادثة ؛ فكما أن الحادثة تلعب فى علم اللغة دور التهديد ، دور الاخلال ، على كل حال ، ودائما دور التداخل الجائز ، كذلك تفعل الاضطرابات السكانية ـ من حروب وجائحات ـ التي تخل بالنظام القائم : « فالبنى التزامنية فى المنظومات المدعوة طوطمية، سريعة العطب للغاية أمام تأثيرات التزمن » (ص ٩٠) • فيصبح هكذا عدم استقرار الاسطورة علامة على أولوية التزامن • ولذا فالطوطمية المزعومة انما هي « قواعد تفسخت فغدت ألفاظا » (ص ٣٠٧) ••• « فمثل التصنيف مثل قصر اقتلعه نهر وحمله ، فراحت أقسامه تتهدم وتتراكب خلافا لرغبة المعمار ، تحت تأثير التيارات والمياه الراكدة والعوائق والمضائق • وبالتالي فان الوظيفة متغلبة حتما على البنية فى الطوطمية ؛ والمسألة التي ما انفكت الطوطمية تضعها للنظريين هي مسألة العلاقة بين البنية والحادثة • ثم ان الدرس الكبير الذي تعطيناه الطوطمية هو أن صورة البنية يمكن أن تبقى أحيانا بعد سقوط البنية نفسها أمام الحادثة » (ص ٣٠٧) •

والتاريخ الاسطوري نفسه مسخر فى نضال البنية هذا ضد الحادثة ، ويمثل مجهود المجتمعات من أجل ابطال العمل المشوش الذي تقوم به العوامل التاريخية ؛ انه يمثل تكتيك إبطال كل ما هو تاريخي، واستهلاك كل ما هو حوادثي • فاذا رأينا التزمن يجعل التاريخ ونموذجه اللازمني كلا منهما انعكاسا للآخر ، الجد الاول خارج التاريخ والتاريخ نسخة عنه ، فلنفهم أن « التزمن قد روّض نوعا ما ، فصار يتعاون مع التزامن دون خطر نشوب نزاعات جديدة بينهما » (ص ٣١٣) • ثم هناك وظيفة الطقوس التي تناغم ذلك الماضي الموضوع خارج الزمان على ايقاع الحياة والفصول وعلى تسلسل الاجيال • فالطقوس « تقول كلمتها فى التزمن ، لكنها تقولها بحدود

التزامن ، اذ ان مجرد الاحتفال بالطقوس يعادل تحويل الماضي الى حاضر » (ص ٣١٥) •

وهذا المنظور هو منظور ليفي-شتروس في تفسير الـ «شورنغا» ـ تلك الاشياء الحجرية أو الخشبية أو تلك الحصى الملساء التي تمثل جسد الجد الاول ـ بأنها شاهد على « الوجود التزمني للتزمن فى صميم التزامن بالذات » (ص ٣١٥) • ويجد لها ما لمحفوظاتنا من النكهة التاريخية ، أي انها : الوجود الحوادثي مجسدا ، ثبوت التاريخ الخالص فى صميم الفكر التصنيفي • وهكذا نجد التاريخيةالاسطورية نفسها مجندة فى عمل المعقولية ، اذ ان « الشعوب المدعوة بدائية قد عرفت أن تُعِدّ طرائق معقولة كي تدمج في المعقولية اللامعقولية بما تنطوي عليه من جائزية منطقية وقلقلة عاطفية • فالمنظومات التصنيفية تتيح اذن دمج التاريخ ، حتى وخصوصا ذلك التاريخ الذي قد يظن مستعصيا على المنظومة » (ص ٣٢٣) •

حدود البنيوية ؟

لقد تتبعت عن قصد عبر نتاج ليفي-شتروس سلسلة تطبيقات النموذج اللغوي حتى آخر تعميم له فى **الفكر المتوحش** • وقد قلت فى البداية ان الشعور بصحة طريقته لا ينفصل عن الشعور بحدودها • وهذه الحدود تبدو لي على نوعين : أولا ، يبدو لي أن الانتقال الى الـ فكر المتوحش قد تم عن سبيل مثال ملائم أكثر مما ينبغي وقد يكون شاذا ؛ وثانيا ، قلما يبدو لي مرضيا الانتقال من علم بنيوي الى فلسفة بنيوية ، بل انه يفتقر الى التماسك • وهذا العبور المزدوج الى الحد الاقصى بتداخل طرفيه احدهما مع الآخر ، يضفي على الكتاب نبرة خاصة ، مغرية ومثيرة ، تميزه عن الكتب السابقة •

ولكن هل المثال حقيق بأن يقاس عليه ؟ طرحت هذا السؤال

أعلاه ، لاني كنت أقرأ الى جانب كتـــا بـليفي-شتروس ، **الفكر المتوحش** ، الكتاب القيم الذي كرسه جرهاردفون راد Gerhard von Rad لـ **لاهــوت التقاليد التاريخية للتوراة** ، المجلد الاول من **نظريـــة فى** لاهوت العهد القديم (مونيخ ١٩٥٧) • في هذا الكتاب نجدنا أمام تصور لاهوتي معاكس بالضبط للتصور الطوطمي ، ويوحي ، لانه معاكس ، بعلاقة معكوسة بين التزمن والتزامن ، ويطرح بصورة ملحة مسألة العلاقة بين الفهم البنيوي والفهم التفسيري •

أي شيء هو الحاسم من أجل فهم نواة المعنى فى العهد القديم ؟ انه الحوادث المؤسسة ، لا ثبت الاسماء والتصنيفات • فاذا اقتصرنا على الاسفار الستة الاولى وجدنا أن المضمون الدال هو « الرسالة »، تعلن إرادة الرب ، حركة تنثق عنها شبكة من الحوادث • انه تاريخ خلاص ، تتضمن المتتالية الاولى منه : النجاة من العبودية ، عبور البحر، الوحي على جبل سينا ، التيه فى الصحراء •• الخ ، ثم هناك محور ثان منظم يتكون حوله موضوع مسيح الرب وموضوع الرسالة الداودية، وأخيرا ، يتأسس محور دلالي ثالث بعد النكبة : يظهر فيه الخراب حادثة أساسية منفتحة على تخيير غير محسوم بين الوعد والوعيـــد • فالطريقة الممكن تطبيقها لفهم هذه الشبكة الحوادثية تقوم على اعادة التخيير غير المحسوم بين الوعد والوعيد على اعادة العمل الذهني ، يستثيره ايمان تاريخي ، ايمان هو اعلان فى صورة انشاد أو فى صورة عبادة • فـ جرهارد فون راد مصيب حقا اذ يقول : « فى حـــين ينزع التاريخ النقدي الى تحصيل الحـــد الادنى الممكن التثبت منه » ، « تجنح الرسالة فى بهائها نحو المزيد من معرفة الله » • وفى الحق أن ما هيمن على انشاء التقاليد وانتهى بهذا الانشاء الى ما نسميه حاليا الكتاب المقدس ، انما هو عمل عقلي • ويبين جرهارد فون راد كيف تكوّنت ، انطلاقا من اعلان ايمان في حده الادنى ، فسحة استقطبت

تقاليد مبعثرة ، ترجع الى مصادر مختلفة ، تتناقلها فئات ، أو قبائل، أو عشائر مختلفة . هكذا نجد أن قصة ابراهيم وقصة يعقوب وقصة يوسف التي تنتمي جميعا الى فترات مختلفة فى الاصل ، قد امتصتها النواة الاولى ، لايمان يشيد بفعل الرب التاريخي . فيمكن اذن ، كما نرى ، أن نقول هنا بأولوية التاريخ ، وبمعاني عديدة : أولها معنى تأسيسي ، لان كل علاقات الرب بشعبه تستمد معناها من حوادث ، لا أثر فيها للعمل العقلي اللاهوتي ـ أما المعنيان الآخران فقد كنا طرحناهما فى بداية هذا المقال . فالعمل اللاهوتي على هذه الحوادث هو أيضا تاريخ مرتب وتقليد مؤوّل . واعادة تفسير جذور التقاليد لكل جيل تضفي على هذا الفهم للتاريخ طابعا تاريخيا ، ويستثير حركة نمو موحدة الدلالة يمتنع اسقاطها فى منظومة . اننا أمام تفسير تاريخي لما هو تاريخي ؛ ومجرد كون هذه المصادر متجاورة ، والازدواجات مستبقاة والتناقضات مبسوطة ، له معنى عميق : هو ان التقليد يصلح نفسه عن سبيل الاضافات وأن هذه الاضافات هي التي تقيم بذاتها جدلا لاهوتيا .

فالتفسير واعادة التفسير هما المصدر الذي يستمد منه الشعب هويته ووحدته . ذلك أنهما يجعلان من الحوادث المبعثرة والتي قد لا تكون وقعت حقاً كلاً ذا دلالة ، باضفاء المعنى على الماضي . فالهوية ، هوية شعب ، لا تنفصل عن بحثه المستمر عن معنى التاريخ فى التاريخ . والايمان هو الذي يجمع المعنى بحيث يرتبط مصير الانسان بارادة الله .

وهكذا تتسلسل التاريخيات الثلاث : فبعد تاريخية الحوادث المؤسسة ، أو الزمن الخفي ـ وبعد تاريخية التفسير الحي على أيدي الكتّاب المختصين بالشؤون الدينية ، التي تؤلف **التقليد ـ هي ذي** الآن تاريخية الفهم ، **التاريخية التفسيرية** . ويستعمل جرهارد فون

راد لفظ Entfaltung « النشر » ، ليدل على مهمة نظرية لاهوتية فى العهد القديم تحترم طابعه التاريخي الثلاثي ، الذي يشمل **التاريخ المقدس** Heilige Geschichte (مستوى الحوادث المؤسِّسة) ، والتقاليد Ueberlieferungen (مستوى التقاليد المنشئة) ،وهوية الشعب (مستوى التقليد المكوِّن) • يجب فى هذا اللاهوت أن يحترم تقديم الحادثة على المنظومة : « فالفكر التوراتي هو تفكير فى التقاليد التاريخية وهمه الرئيسي يقوم على مزج ملائم بين التقاليد وتأويلها اللاهوتي ؛ فيستعيد التجميع التاريخي فى هذا المنوال أسبقيته على التجميع العقلي واللاهوتي » (ص ١١٦) • ثم يختتم جرهارد فون راد الفصل بصورة منهجية على النحو التالي : « ان فهمنا لشهادة الكتاب المقدس يفقد كل قيمته اذا وضعنا هذه الشهادة من الاصل فى اطار المقولات اللاهوتية ؛ فهذه ، وان كانت مما ألفناه ، لا علاقة لها بلاهوت ذلك الكتاب الحوادثي » •ومن ثم فان « استعادة القصص » Wiedererzählen تظل الصورة الاكثر شرعية لقول العهد القديم • ان تأليف المفسِّر اعادة للتأليف الذي هيمن على انشاء تقاليد التوراة فى نواتها الاساسية •

فما هي نتيجة ذلك بالنسبة للتزمن والتزامن ؟ ان شيئا أثار اعجابي فى الرموز الكبرى للفكر التوراتي التي قيض لي أن درستها في كتابي رمزية الشر Symbolique du mal، وفى الاساطير ـ مثل اسطورة الخلق والسقوط ـ المبنية على طبقة رمزية أولى ، هو أن تلك الرموز وتلك الاساطير لاتستنفد معانيها فى ترتيبات مماثلة للترتيبات الاجتماعية؛ ولست أعني بهذا أنها غير قابلة لتطبيق الطريقة البنيوية ، بل فى قناعتي العكس ؛ انما قصدي هو أن الطريقة البنيوية لا تستنفد معنى تلك الرموز والاساطير ، لان معناها احتياطيٌّ معنى جاهز لان يستعمل من جديد في بنى أخرى • فيرِد علي أن هذا الاستعمال الجديد هو قوام

حذلقة الترقيع • وجوابي أن لا أبداً : لكون المرقع الحاذق يأخذ مادة عمله من أنقاض ؛ ففي حذلقة الترقيع البنية هي التي تصون الحادثة ، والانقاض تقوم بدور القسر السابق ، دور الرسالة المنقولة مسبقا ؛ فلها اذن قصور ما يسبق المدلول : أما اعادة استعمال الرموز التوراتية في نطاقنا الثقافي فترتكز بالعكس على غنى دلالي ، على فائض مدلول، ينفتح لتفسيرات جديدة • فاذا نظرنا من هذه الزاوية فى سلسلةالطوفان المؤلفة من القصص البابلية ومن قصة الطوفان فى التوراة ومن سلسلة التفسيرات التوراتية والتفسيرات المسيحية ، يتبين لنا على الفور أن هذه الاستعادات تمثل معكوس حذلقة الترقيع ؛ اذ لا يمكن القول بعد باستعمال بواق فى بنى أهمية النحو فيها أكبر من أهمية علم الدلالات ، بل صار يجب القول باستعمال فائض معنى هو نفسه ينظم ، بوصفه هبة أعطيت للفكر ، تلك المقاصد المصحِّحة ذات الطابع اللاهوتي والفلسفي ، التي تستند الى ذلك الرصيد الرمزي • فى تلك السلاسل المنظمة انطلاقا من حوادث دالة ، الفائض البدئي من المعنى هو باعث التقليد وتفسيره • ولذا يجب فى مثل هذه الحالة القول بناظم دلالي بواسطة المحتوى وليس فقط بناظم بنيوي كما فى الطوطمية • ان الشرح البنيوي يحقق كسبا عن طريق التزامن (لان « المنظومة معطاة فى التزامن ••• » ، **الفكر المتوحش** ص ٨٩) • وهو لهذا السبب يرتاح الى المجتمعات التي يقوى فيها التزامن ويكون التزمن عامل اخلال كما فى علم اللغة •

وأعرف أن البنيوية ليست عديمة الوسائل أمام هذه المشكلة ، وأسلم بأن « الاتجاه البنيوي ، اذا كان يقاوم الصدمة ، فانه يتصرف لدى كل خلخلة بوسائل عديدة فيعيد انشاء منظومة مماثلة للمنظومة السابقة أو على الاقل من نفس النمط صوريا » • ونجد فى **الفكر المتوحش** أمثلة على مثل هذا الثبات أو استمرار المنظومة ، اذ يقول

ليفي-شتروس : « لنفترض لحظة بدئية (مفهومها نظري بحت) تكون فيها مجموعات المنظومات قد ضبطت تماما ، فان هذه المجموعة سترد على كل تغير يطرأ على أحد أجزائها مثل آلة ذات **تصحيح ارتجاعي** : اذ انها ، نظرا لخضوعها (بالمعنى المزدوج لهذه اللفظة) لتناسقها السابق ، توجه العضو المختل نحو توازن يكون على الاقل حلا وسطا بين الحالة القديمة والخلل الطاريء » (ص ٩٢) • لكننا نرى أن مثل هذا الناظم البنيوي أقرب بكثير الى ظاهرة القصور منه الى الاستعادة الحية للتفسير التي تميز في نظرنا التقليد الحقيقي •ولئن يحمل زمن الرموز الخفي التاريخية المزدوجة للتقليد الذي ينقل ويرسخ التفسير ، والتاريخية المزدوجة للتفسير الذي يديم ويجدد التقليد ، فانما سبب ذلك أن الناظم الدلالي صادر عن فائض الضمني فى المعنى بالنسبة لاستعماله وبالنسبة لوظيفته فى المنظومة المعطاة فى التزامن •

فيكون ، اذا صحت فرضيتنا ، أن ثبات البنى والتحديد التضافري للمحتويات شرطان للتزمن مختلفان • ونستطيع التساؤل اذا لم يكن تمازج هذين الشرطين على درجات مختلفة ، وبمقادير معكوسة ربما ، هو الذي يتيح لمجتمعات معينة ــ حسبما يلاحظ ليفي-شتروس ، أن « تـعِـدّ ترسيمة واحدة تمكنها من دمج وجهتي نظر البنية والحادثة » (ص ٩٥) • لكن هذا الدمج عندما يتم على منوال آلة ذات **تصحيح ارتجاعي**، كما قلنا آنفا ، لا يكون بالضبط سوى « حل وسط بين الحالة القديمة والخلل الطاريء » (ص ٩٢) • على أن التقليد ، الذي يؤمل له الدوام ، والقادر على التجسد من جديد فى بنى مختلفة ، يعود كما يبدو لي ، الى اشباع المضامين بالمعنى أكثر مما يعود الى ثبات البنى • فيقودنا هذا النقاش الى أن نضع موضع التساؤل كفايةالنموذج اللغوي ومرمى النموذج الفرعي الاثنولوجي المستعار من منظومة التسميات والتصنيفات التي درجت تسميتها بالطوطمية • لهذا النموذج

الاثنولوجي الفرعي علاقة توافق ممتازة بالنموذج السابق : فكلاهما يقتضي نفس التفاوت الفرقي ؛ اذ ان ما تستخلصه البنيوية من هنا وهناك « هو مدونات من شأنها أن تحمل رسائل يمكن نقلها الى ألفاظ مدونات أخرى ، وأن تعبر في منظومتها الخاصة عن رسائل استقبلت من قناة مدونات مختلفة » (ص ١٠١) . ولكن ، اذا كان صحيحا ، كما يعترف المؤلف أحيانا ، أنه « يبدو غائبا من نطاق الحضارات الكبرى الآسيوية والاوربية غيابا ملحوظا ، حتى لا أثر ، كل ما قد يذكّر بالطوطمية » (ص ٣٠٨) ، فهل يحق لنا ، تحت طائلة الانزلاق في «وهم طوطمي » من نوع جديد ، أن نوحد بين الفكر المتوحش بعامة وبين نموذج ليس نموذجيا الا لانه في وضع طرفي ضمن سلسلة من النماذج الاسطورية كان يجب أن نفهمها من الطرف الآخر أيضا ؟ أعتقد مطمئنا أن بقاء الرسالة التوراتية بصورة استثنائية عبر تاريخ البشرية ، وفي أسيقة اجتماعية وثقافية متجددة بدون حدود،يمثل من الفكر الاسطوري قطبه الآخر ، والنموذجي أيضا لانه طرف .

في هذه السلسلة من النماذج التي بيّنّا قطبيها ، تتخذ الزمنية ، ــ زمنية التقليد وزمنية التفسير ــ مظهرا مختلفا تبعا للموقف ، تغلّب التزامن على التزمن أو العكس : ففي أحد الطرفين ، النموذج الطوطمي، لدينا زمنية مكسورة تحقق تحقيقا كافيا عبارة بواس : « يخيل الينا أن العوالم الاسطورية مقضي عليها بالتهدم حالما تتشكل ، كيما تنهض من أنقاضها عوالم جديدة » (أوردت ص٣١) ؛ وفي الطرف الآخر ، الرسالة بوصفها نموذجا ، لدينا زمنية تنظمها الاستعادة المستمرة للمعنى عبر تقليد مفسِّر .

اذا كان الامر كذلك ، فهل نستطيع مواصلة الكلام عن الاسطورة دون التعرض لخطر الالتباس ؟ نستطيع التسليم بأن الاسطورة في النموذج الطوطمي حيث البنى أهم من المضامين ، تنزع نحو اتخاذ شكل

« قوة اجرائية » ، «مدونة » فهي ضابطة لمنظومة تحوّل ؛ وليفي-شتروس انما يحددها على هذا النحو : « ان المنظومة الاسطورية والتصورات التي تحركها هذه المنظومة كلاهما يفيد في اقامة علائق مجانسة بين الشروط الطبيعية والشروط الاجتماعية ، أو بتعبير أدق ، يفيد في تحديد قانون تعادل بين التضادات القوية الدلالة ، الواقعة على مستويات مختلفة كـ : الجغرافيا ، وعلم الانواء ، وعلم الحيوان ، وعلم النبات ، وعلم التقنية ، وعلم الاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، ومجموعة الطقوس ، والدين ، والفلسفة » (ص ١٢٣) • ومن ثم فان وظيفة الاسطورة ، وقد عرضت هكذا بألفاظ بنيوية ، تظهر على صعيد التزامن ؛ وصلابتها التزامنية على عكس الهشاشة التزمنية التي كان يذكرنا بها بواس •

أما فى النموذج الآخر واعني الرسالة فالشرح البنيوي يلقى ضوءا بلا ريب ، كما سأحاول تبيانه فى ختام هذا البحث ؛ لكنه يمثل طبقة تعبيرية من الدرجة الثانية ، تابعة لفائض المعنى فى الرصيد الزمني : وعليه فالاسطورة الآدمية هي ثانية بالنسبة لإعداد التعبيرات الرمزية عن الطاهر والدنس ، وعن التيه والمنفى ، التي تشكلت على مستوى الخبرة العبادية والتكفيرية : ان غنى هذا الرصيد الرمزي لا يظهر الا في التزمن ؛ ومن ثم فان النظرة التزامنية لا تدرك من الاسطورة الا وظيفتها الاجتماعية الحالية ، التي تشبه بقليل أو كثير وظيفة القوة الاجرائية فى الطوطمية ، التي تضمن كما رأينا تحويل الرسائل الواردة على كل مستوى من الحياة الثقافية ، وتضمن الوساطة بين الطبيعة والثقافة • فالبنيوية ما تزال تصلح هنا منهجا (وما زلنا بحاجة الى استعادة المشروع بكامله تقريبا فى نطاق ثقافتنا حتى نشعر بخصبه ؛ ومن هذا القبيل نرى المثال زاخرا بالفوائد ذلك الذي يقدمه لنا ليفي-شتروس في الانطروبولوجيا البنيوية (ص ٢٣٥ ـ ٢٤٣) محللا أسطورة أوديب) ؛

ولكن الشرح البنيوي الذي يظهر بدون بواق تقريبا حين يتغلب التزامن على التزمن ، لا يقدم لنا الا شبه هيكل عظمي ، بارز عليه طابع التجريد ، حين يتطرق الى مضمون مشبع ، لا ينفك يثير التفكير ، ولا يتوضح الا فى سلسلة الاستعادات، التي تضفي عليه مع التفسير تجديدا.

أود الآن أن أقول بعض الكلام فى هذا العبور الثاني الى الحد الاقصى ، الذي ذكرته آنفا ، العبور من علم بنيوي الى فلسفة بنيوية. فبقدر ما تبدو لي الانطروبولوجيا البنيوية مقنعة ما ظلت تفهم ذاتها امتدادا متدرجا لشرح صح أولا فى علم اللغة ثم فى منظومات القرابة ، وصح أخير بالتدرج فى كل أشكال الحياة الاجتماعية بنسبة قرابة هذه الاشكال من النموذج اللغوي ، تبدو لي بنفس القدر موضع شبهة حين تقيم نفسها فلسفة ؛ اذ ان ترتيبا موضوعا في حالة لاشعورية لا يمكن أبدا فى نظري أن يكون الا مرحلة مفصولة فصلا تجريديا عن فهم الذات لذاتها ؛ لان الترتيب فى ذاته هو الفكر خارج ذاته . أجل ، « ليس محظورا أن نحلم بأننا سنستطيع يوما ما أن ننسخ كل الوثائق الجاهزة بشأن المجتمعات الاوسترالية على بطاقات مثقبة ، ونبين بواسطة ناظم الكتروني أن مجموعة بناها الإثنية ــ الاقتصادية ، والاجتماعية والدينية ، تشبه زمرة كبيرة من التحولات » (ص ١١٧) . لا ، « ليس محظورا » أن نحلم هـذا الحلم ، شـرط ألا يضيع الفكر فى موضوعية هذه المدونات . فاذا لم يكن فك المدونة المرحلة الموضوعية لقراءة الغوامض ، وقراءة الغوامض لاحقا وجوديا ــ أو بعدا وجوديا للموجود ؟ ــ لفهم الذات والوجود ، يبقى الفكر البنيوي فكرا لايعي ذاته . وبالمقابل فانه من شأن فلسفة منعطفة على الذات أن تفهم ذاتها بوصفها تفسيرية كيما تخلق بنى استقبال تنفتح لانطروبولوجيا بنيوية ؛ ومن هذا القبيل تقوم وظيفة التفسير على جعل فهم الآخر ــ مع علاماته فى مختلف الثقافات ــ يطابق فهم الذات والوجود . وحينئذ يمكن

للموضوعية البنيوية أن تظهر بمثابة لحظة تجريدية ـ تجريدا مقبولا ـ للتملك والاعتراف ، لحظة يصير فيها الفكر المجرد فكرا مشخصا • وفى النهاية ، يقوم هذا التملك وهذا التعرف على استرجاع تام لكل المضامين الدالة فى معرفة للذات وللوجود ، على نحو ما حاول هيجل أن « يحلم » بها فى منطق مضامين لا منطق نحو • أجل من البين أننا لا نستطيع أن نأتي الا بأجزاء تعرف نفسها جزئية لهذا التفسير للذات وللوجود • لكن الفهم البنيوي ليس فى حالته الراهنة أقل جزئية ؛ هذا عدا كونه مجردا بمعنى أنه لا ينبثق عن استرجاع للمدلول بل يدرك « مستواه المنطقي » فقط بافقار فى الدلالات » (ص ١٤٠) •

بسبب نقص هذه البنية الاستقبالية ، التي أتصورها بمثابة تمفصل متبادل بين الفكر والتفسير ، يبدو لي أن الفلسفة البنيوية مقضي عليها بالتذبذب بين عدد من الفلسفات التي ما زالت فى خطوطها الاولى • اذ نخالها أحيانا كانتية بدون ذات متعالية ، بل صورية مطلقة تؤسس العلاقة المتضايفة بين الطبيعة والثقافة • والباعث لهذه الفلسفة هو النظر الى ازدواجية « النماذج الحقيقية فى الكثرة المشخصة : اذ نجد الواحد على مستوى الطبيعة ، وهو نموذج كثرة الانواع ، بينما نجد الآخر على مستوى الثقافة وتوفره لنا كثرة الوظائف » (ص ١٦٤) • فيمكن من ثم أن نطلب مبدأ التحولات فى منظومة تمازجية ، في ترتيب محدود أو فى محدودية للترتيب ، تكون أساسية أكثر من كل واحد من النماذج • فكل ما قيل فى « الغائية اللاشعورية ، التي تفوت التاريخ البشري تماما ، رغم كونها تاريخية » (ص ٢٣٣) ، ينحو فى هذا الاتجاه •فيكون قوام هذه الفلسفة أنها تجعل من النموذج اللغوي نموذجا مطلقا ، بعد أن عممته شيئا فشيئا • يقول المؤلف : « لا تقوم اللغة بالعقل التحليلي الذي عرف به النحاة القدماء ، ولا بالجدل المكوّن عند علم اللغة البنيوي ، ولا بالجدل المكوّن للبراكسيس الفردية فى

مجابهتها للعملي قصورا عمليا ، لكون الثلاثة تفترض اللغة . ان علم اللغة يضعنا أمام موجود جدلي مجمل ، لكنه خارج (أو دون) الوعي والارادة . فاللغة اذن ، بوصفها مجملا مستقلا عن العقل ، هي عقل بشري له معقولياته وهذه يجهلها الانسان » (ص ٣٣٤) . ولكن ما هي اللغة ان لم تكن تجريدا عن الموجود الناطق ؟ فيرد علينا بأن « قول الموجود الناطق لم يكن ولن يكون أبدا حصيلة اجمال واع لقوانين علم اللغة » (نفس الموضع) . فنرد على الرد بأن ما نطلب اجماله كي نفهم أنفسنا ليس قوانين علم اللغة بل معنى الكلام ، وأن قوانين علم اللغة انما هي وساطة أداتية أبدا لاشعورية ، بالنسبة لهذا المعنى . لاني ، حين أحاول أن أفهم نفسي ، استعيد معنى كلام كل البشر ؛ والزمن الخفي انما يصير تاريخية تقليد وتفسير ، على هذا المستوى .

بيد أن المؤلف يدعونا فى آونة أخرى الى « أن تتعرف فى منظومة الانواع الطبيعية وفى منظومة الاشياء المصنوعة ، مجموعتين وسيطتين يستخدمهما الانسان كي يتغلب على التقابل القائم بين الطبيعة والثقافة ويتعقل هاتين جملة واحدة » (ص ١٦٩) . فهو يأخذ بأن البنى متقدمة على الممارسات ، لكنه يسلم بأن البراكسيس متقدمة على البنى . فيثبت من ثم أن البنى هي بنى فوقية لـ البراكسيس ، وأن هذه ، عند ليفي-شتروس كما عند سارتر ، « تشكل الكلية الاساسية لكل علوم الانسان » (ص ١٧٣) . اذن ، فـ **الفكر المتوحش** يتضمن عدا الرسم الأولي لتعالية بدون ذات ، الرسم الاولي لفلسفة تلعب البنية فيها دور الوسيط وقد أدرجت « بين البراكسيس والممارسات » (ص ١٧٣) . لكنه لا يستطيع التوقف عند هذه النقطة ، والا تعرض لان يسلم لسارتر بكل ما قد أنكر عليه حين أنكر عليه جعل **الكوجيتو** اجتماعيا (ص ٣٣٠) . فهذه المتتالية : براكسيس ـ بنية ـ ممارسات،

تتيح للمرء أن يكون بنيويا فى الاثنوغرافيا وماركسيا فى الفلسفة . ولكن تبعا لأي ماركسية[1] ؟ .

ان **الفكر المتوحش** يتضمن فى الحقيقة الرسم الاولي لفلسفةمختلفة جدا عن الماركسية ، الترتيب فيها هو ترتيب الاشياء وهو نفسه شيء ؛ والتأمل فى مفهوم « النوع » يجنح الى هذه الفلسفة بصورة طبيعية : أفليس للنوع ـ نوع التصنيفات النباتية والحيوانية ـ « موضوعية مفترضة » ؟ « ان تعدد الانواع يوفر للانسان أقوى الصور حدسا ، وأقرب الظواهر الى ادراكه المباشر لانقطاعية الواقع النهائية : انه التعبير الحسي لفعل مدونة موضوعية » (ص ١٨١) . وامتياز مفهوم النوع هو فى الحقيقة أنه « يوفر نمطا من انماط استحواذ الواقع لتمازجية معطاة موضوعيا فى الطبيعة ، يقتصر نشاط الفكر والحياة الاجتماعية نفسها على استعارتها لتطبيقها في ابداع تسميات تصنيفية »(ص١٨١).

ربما كان النظر فى مفهوم البنية وحده يعوقنا عن تجاوز « تفاعل بين منظور ومنظور يجعل الانسان والعالم يرى كل منهما نفسه فى

---

(١) يقول ليفي ـ شتروس : « لقد أقامت الماركسية ـ ان لم يكن ماركس نفسه ـ محاكمتها كما لو أن الممارسات تحصل مباشرة عن البراكسيس . اما نحن فنعتقد ، دون أن نضع موضع تساؤل الاولوية اللامنازع فيها للبنى التحتية ، أن وسيطا يندرج دائما بين البراكسيس والممارسات، وهو الترسيمة التصورية التي بفعلها تستكمل المادة والصورة، اللتين تفتقر كل منهما الى الوجود المستقل ، تستكملان وجود البنية أي تصبحان موجودين تجريبيين وعقليين فى آن واحد . ان نظرية البنى الفوقية هذه ، التي ما كاد ماركس يضع خطوطها الاولى ، هي التي نريد أن نسهم فيها ، تاركين للتاريخ ـ وتساعده الديموغرافيا والتكنولوجيا والجغرافيا التاريخية والاثنوغرافيا ـ أن يعنى بتوسيع دراسة البنى التحتية بالمعنى الدقيق ، لأن هذه الدراسة لايمكن ان تعنينا بصورةرئيسية لكون الاثنولوجيا بالدرجة الاولى سيكولوجيا » (ص ١٧٣ ـ ١٧٤) .

مرآة الآخر » (ص ٢٩٤) • ولذا ينهض صاحبنا بعد أن دفع النواس جهة أولوية البراكسيس على الوساطات البنيوية ، فيوقفه كما يبدو ، بفعلة اكراه لا مبرر لها ، فى الطرف الآخر ، ويعلن أن « الهدف الاخير لعلوم الانسان ليس تقويم الانسان ولكن تفكيكه ••• ، واعادة دمج الثقافة فى الطبيعة ، وأخيرا دمج الحياة فى مجمل شروطها الفيزيائية والكيميائية » (ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧) • « وبما أن الفكر شيء فان سير عمل هذا الشيء يعلمنا عن طبيعة الاشياء : حتى التفكير المحض يتلخص في ان العالم بوصفه نظاما قد أقام لذاته بعدا داخليا» (ص٣٢٨، الحاشية) • ويلمح لنا فى الصفحات الاخيرة من الكتاب ، أن مبدأ عمل الفكر من حيث هو شيء ، انما يتوجب علينا أن نطلبه في « عالم الإعلام الذي تسوده قوانين الفكر المتوحش » (ص ٣٥٤) •

تلك هي الفلسفات البنوية التي لا يسمح لنا العلم البنيوي بالاختيار بينها • ولكن ألا نحترم تعليم علم اللغة اذا اعتبرنا اللغة وكل الوساطات التي تتخذ اللغة نموذجا لها ، اللاشعور الاداتي الذي تعتزم بواسطته الذات الناطقة أن تفهم الوجود والموجودات ونفسها ؟

التفسيرية والانطروبولوجيا البنيوية :

أود فى الختام أن أعود الى المسألة التي بدأت بها وهي : ما الذي يجعل الاعتبارات البنيوية اليوم مرحلة ضرورية لكل فهم تفسيري ؟ أو بصيغة أعم ، كيف يتمفصل التفسير والبنيوية •

١) أود أن أبدد سوء تفاهم قد يغذيه النقاش السابق : اذ قد يخيل للقاريء أني ، عندما ألمحت الى أن النماذج الاسطورية تشكل سلسلة أحد طرفيها النموذج « الطوطمي » وطرفها الآخر نموذج « الرسالة » ، قد تراجعت عن اعلاني البدئي بأن الانطروبولوجيا البنيوية من فئة العلم وأن التفسير من فئة الفلسفة • لا شيء من ذلك ،

لان التمييز بين نموذجين ثانويين لا يعني القول أن أحدهما لا ينتسب الا للبنيوية وان الآخر يخضع مباشرة لتفسير غير بنيوي ؛ ولكن يعني فقط أن النموذج الثانوي الطوطمي أكثر تقبلا لشرح بنيوي يبـدو أنه لا يترك بواقي لكونه أكثر النماذج الاسطورية قرابة الى النموذج اللغوي البدئي،في حين أن الشرح البنيوي لنموذج الرسالة «الارسالي» ـ وهو شرح ما زال يحوجنا فى أكثر الحالات ـ يحيلنا احالة صريحة الى فهم آخر ، فهم المعنى • لكن هذين الوجهين للفهم ليسا نوعين ، متقابلين على مستوى واحد ، داخل جنس مشترك للفهم ؛ ولذا فهما لايستدعيان أي انتقائية منهجية • أريد اذن قبل محاولتي بعض الملاحظات الاستكشافية حول تمفصلهما ، أن أؤكد من جديد على تباين المستويين : فالشرح البنيوي ينصب (١) على منظومة لاشعورية (٢) مؤلفة من اختلافات وتقابلات [من تفاوتات دلالية] (٣) وتكونها هذا مستقل عن الملاحظ ؛ أما تفسير المعنى المنقول فيقوم (١) على استعادة واعية (٢) لرصيد رمزي مشبع (٣) على يد مترجم يقف فى الحقل الدلالي لما يفهمه ، ويدخل هكذا فى « الدائرة التفسيرية » •

ولذلك فان ذينك الوجهين لابراز الزمن ليسا على مستوى واحد : فان نكن قد تكلمنا عن أسبقية التزمن على التزامن فقد فعلنا ذلـك باهتمام تعليمي ؛ وفى الحقيقة ، يجب ابقاء تعبيري التزمن والتزامن ضمن حدود رسم شرحي يشكل فيه التزامن منظومة بينما يشكل التزمن مسألة • وسأحتفظ بألفاظ التاريخية ـ تاريخية التقليد وتاريخية التفسير ـ لكل فهم يعرف نفسـه ـ ضمنـا أو صراحة ـ على طريق الفهـم الفلسفي للذات وللوجود • بهذا المعنى تعود اسطورة أوديب الى الفهم التفسيري عندما تفهم وتستعاد ـ كما سبق أن فعل سوفوكليس ـ كتلمس أول للمعنى ، فى سبيل تأمل فى معرفة الذات ، والنضال من أجل الحقيقة و « المعرفة المأسوية » •

٢) ان الارتباط المفصلي لهذين الفهمين يطرح من المسائل أكثر مما يطرحه تمييزهما • والمسألة جديدة بحيث لا نستطيع أن تتجاوز ملاحظاتنا الاستكشافية • فنتساءل أولا : هل يمكننا أن نفصل الشرح البنيوي عن كل فهم تفسيري ؟ هذا الفصل ممكن بلا ريب خصوصا لان وظيفة الاسطورة تستنفد فى اقامة تماثل بين تضادات دالة تقع على عدة مستويات من الطبيعة والثقافة • ولكن ألا نستطيع القول اذ ذاك بالضبط أن الفهم التفسيري قد اعتصم فى تكوين الحقل الدلالي حيث تجري علاقات التجانس ؟ ثم نذكر الملاحظة الهامة التي يقولها ليفي- شتروس فى « التصور المتضاعف الناتج عن الوظيفة الرمزية منذ ظهورها » • يقول ان « الطبيعة المتناقضة » لهذه العلامة لا يمكن إبطالها « الا عن سبيل ذلك التبادل للقيم التكميلية الذي ترتد اليه كل الحياة الاجتماعية » (الانطروبولوجيا البنيوية ، ص ٧١) • اني أرى فى هذه الملاحظة مسلكا يجب اتباعه من أجل ربط مفصلي لا يكون قط انتقائية بين التفسيرية والبنيوية • وأعني أن التضاعف المقصود هنا هو ذاك الذي يولد وظيفة العلامة بوجه عام لا المعنى المزدوج للرمز كما نفهمه هنا • بيد أن ما يصدق على العلامة فى معناها الاولي يصدق أكثر على المعنى المزدوج للرموز • وفهم هذا المعنى ، وهو فهم تفسيري فى صميمه ، يفترضه دائما فهم « تبادلات القيم التكميلية » الذي تحركه البنيوية • ان فحصا مدققا لـ **الفكر المتوحش** يوحي لنا أننا نستطيع البحث ، فى أساس التجانسات فى البنية ، عن تماثلات دلالية ، تجعل من الممكن مقارنة مختلف مستويات الواقع ، التي تضمن « المدونة » امكان عكسها • اذ ان « المدونة » تفترض تطابقا ، قرابة بين المضامين، أي رمزا يقرأ [١] • وهكذا نجد فى تفسير طقوس صيد النسور

---

(١) قيمة الرمز هذه تدرك أولا في العاطفة : فقد بين ليفي - شتروس، بتفكيره فى سمات المنطق المشخص ، أن هذه السمات « تظهر خلال الملاحظة ←

عند قوم الهيداستا (ص ٦٦ ــ ٧٢) أن تكوين الزوج التقابلي ، فوق / تحت ، الذي تنشأ عنه كل التفاوتات واعظمها التفاوت بين الصياد وطريدته ، لا يوفر انموذجية اسطورية الا بشرط فهم ضمني لفائض المعنى فى الفوق والتحت • أسلم بأن القرابة بين المضامين فى المنظومات المدروسة هنا هي نوعا ما قرابة رواسب ؛ لكنها ليست معدومة • ولذا فان الفهم البنيوي لا يكون أبدا بدون درجة من الفهم التفسيري ، حتى ولو لم يكن الفهم التفسيري التحول الى موضوع • ونجد مثالا جيدا للنقاش في التجانس بين قواعد الزواج ومباديء تحظير الاطعمة (ص ١٢٩ ــ ١٤٣) ؛ فالتماثل بين الاكل والتزوج ، وبين الصيام والعفة ، يكوّن علاقة مجازية سابقة لعملية التحويل • أجل ، هنا أيضا ليس البنيوي بأعزل : اذ انه هو الذي يتكلم عن المجاز (ص١٤٠)، ولكن ليجعل منه صيغة عامة لانضمام تكامل • ومع ذلك يبقى أن ادراك التشابه يسبق هنا صوغ القاعدة ويقوم له أساسا ؛ ولهذا السبب حقا يجب حل التشابه لابراز تجانس البنية : « اذ ان الرابط بينهما ليس سببيا ولكن مجازيا • فالعلاقة الجنسية والعلاقة الغذائية تعقلان مباشرة

→ الاثنولوجية ... بمظهرين ، عاطفي وعقلي » (ص ٥٠) فالتسميات التصنيفية ينسحب منطقها على خلفية شعور بالقرابة بين البشر والموجودات: اذ ان « تلك المعرفة النزيهة واليقظى ، العاطفية والرقيقة ، التي تكتسب وتنقل فى مناخ زوجي وبنوي » (ص ٥٢) ، يلقاها المؤلف من جديد عند أصحاب السيرك وموظفي حدائق الحيوان (نفس المصدر) . فاذا كانت « التسميات التصنيفية والصداقة الرقيقة » (ص ٥٣) الشعار المشترك بين الانسان الذي يفترض أنه بدائي والانسان الذي يهتم بالحيوانات، الا يجب تخليص هذا الفهم من العاطفة ؟ بيد أن التقاربات والتطابقات والتشاركات والتقاطعات والترامزات التي يتكلم عنها المؤلف فى الصفحات التالية (٥٣ــ ٥٩) والتي لا يتردد فى تشبيهها بالهرمسية والشعاراتية ، تضع التطابقات ــ أي الرموز التي يجب أن تقرأ ــ أصلا للتجانسات بين التفاوتات الفرقية العائدة الى مستويات مختلفة ، وبالتالي أصلا للمدونة .

في تشابه ، حتى في وقتنا الحاضر .. ولكن إلامَ « تعود معقولية هذه الواقعة وكليتها ؟ هنا أيضا نبلغ المستوى المنطقي عن سبيل الافقار الدلالي : لان المخرج الاصغر المشترك بين اتحاد الجنسين واتحاد المأكول بالآكل هو أن كلا الاتحادين يمثل انضمام تكامل » (ص١٤٠). وعملية « اتباع التشابه منطقيا للتضاد » (ص ١٤١) هذه ، تتم دائما عن سبيل مثل هذا الافقار الدلالي . أما التحليل النفسي هنا في استعادته للمسألة نفسها فيطرح الدلالة عن طريق التماثل من حيث هي قيمة استثمارية ، وينحاز الى جهة دلالية المضمون يرجحها على تنظيم شبيه بتنظيم النحو [1] .

٣) ان ربط التفسير ذي المرمى الفلسفي ، مفصليا ، بالشرح البنيوي ، يجب أن يؤخذ الآن في الاتجاه الآخر ، فقد ألمحت منذ البداية الى أن هذا التمفصل البنيوي أصبح اليوم الانعطاف الضروري ،

---

(١) وذلك نتيجة هامة لعدم قبول منطق التضادات تجاه التشابه : لان الطوطمية ــ وان سميت بـ « الطوطمية المزعومة » ــ قد فضلت تفضيلا جازما على منطق التضحية (ص ٢٩٥ ــ ٣٠٢) وهذه تعتمد « الانابة مبدأ أساسيا لها » (ص ٢٩٦) ، وهذا شيء غريب عن منطق الطوطمية ، الذي « يقوم بشبكة من التفاوتات الفرقية بين حدود وضعت متقطعة » (نفس الموضع) . فتظهر التضحية اذ ذاك « عملية **مطلقة** أو قصوى منصبة على موضوع **وسيط** » (ص٢٩٨) ، هو الضحية . ولماذا **قصوى** ؟ لان التضحية **تقطع** بالاتلاف العلاقة بين الانسان والالوهية ، كي تفتح الباب للنعمة التي تملأ الفراغ . وهنا لم يعد الاثنولوجي يصف بل أصبح يحكم فيقول : « ان منظومة التضحية تأتي بحد غير موجود : هو الاله ، وتتبنى تصورا للسلسلة الطبيعية خاطئا موضوعيا ، لانها ، كما رأينا ، تتصورها متصلة » . فأمام الطوطمية والتضحية يجب القول : « احداهما صادقة والاخرى كاذبة . وبكلام أدق ان المنظومات التصنيفية تقع على مستوى اللغة : أي انها مدونات تتفاوت اتقانا ، لكن غايتها هي دائما التعبير عن المعاني ، في حين أن منظومة التضحية تمثل قولا خاصا مجردا من الحس السليم وان يكن كثيرا ترداده » (ص ٣٠٢) .

مرحلة الموضوعية العلمية على مسار استعادة المعنى . وأقول فى عبارة معاكسة ومناظرة للسابقة ، أن لا استعادة للمعنى بدون حد أدنى من فهم البنى . ولماذا ؟ فلنأخذ مثلا الرمزية اليهودية ــ المسيحية ، ولكن لا في منشئها ، هذه المرة ، بل في أكثر مستوياتها نموًّا أي حيث بلغ فيضها حد الغلو وايضا فى أعلى مستوياتها تنظيما ، كما عرفت فى القرن الثاني عشر ، الغني جدا بالاستكشافات فى جميع الميادين ، والذي أعطانا عنه الاب شنو Chenu لوحة بارعة فيكتابه، لاهوت القرن الثاني عشر (ص ١٥٩ ــ ٢١٠) : Théologie au XIIe siècle (pp 159 - 210) هذه الرمزية تجد لنفسها تعبيرا فى التفتيش عن الـ غرآل ، وفى قصص الحجارة الكريمة وقصص الحيوانات المنحوتة على مداخل الكنائس وتيجان أعمدتها ، وفى تفسير الاسفار المقدسة تفسيرا تأويليا ، وفى الطقوس الدينية ، وفى النظريات الخاصة بالطقوس وبشعائر التقديس ، وفي التأملات حول **العلامة** في مفهوم أوغوسطنيس وحول **الرمــز** في مفهوم ديونيزيوس ثم حول **التماثل والتسامي** اللذين ينتجان عنهما . ان بين المنحوتات وأدب **الرموز والتمييزات** بكامله (تلك المجموعات من أبنية المعنى ، المغروسة فى ألفاظ الكتاب المقدس ومفرداته) ، ان بينهما ليجري قصد واحد يقوم به ما يسميه المؤلف نفسه بـ « **العقلية** الرمزية » (الفصل السابع) ، مصدر « اللاهوت الرمزي » (الفصل الثامن) . وفى الحق ، ما الذي يجعل المظاهر العديدة والطافحة لهذه العقلية **تتماسك** ؟ يقول المؤلف ان أناس القرن الثاني عشــر أولئك « ما كانوا يخلطون المستويات ولا الموضوعات : لكنهم كانوا ، فى مختلف تلك المستويات ، ينتفعون بمخرج مشترك فى اللعبة الدقيقة ، لعبة التماثلات ، حسب العلاقة العجيبة بين العالم الطبيعي والعــالم المقدس » (نفس المصدر ، ص ١٦٠) . فمسألة « المخرج المشترك » هذه لامناص منها، اذا اعتبرنا أن لامعنى لرمز منفصل، أو بالاحرى أن الرمز

المنفصل يفيض معنى ؛ وقانونه هو التعدد الدلالي ، مثلا : « النـــار تدفىء وتنير وتطهر وتحرق وتجدد الحياة ، وتستهلك ؛ ويكنى بهـا عن الروح القدس مثلما يكنى بها عن الشـــهوة » (نفس المصدر ص ١٨٤) • فالقيم الفرقية انما تبرز ، والتعدد الدلالي انما يحتبس فـي توزع اجمالي • ورمزيو العصر الوسيط انما بذلوا جهودهم بحثا عن « تماسك صوفى للتوزع » (ص ١٨٤) • أجل ، كل شيء فى الطبيعة رمز ، لكن الطبيعة فى نظر انسان العصر الوسيط لا تتكلم الا بوحـي انموذجية تاريخية اتخذت سنة فى مقارنة العهد القديم والعهد الجديد • و « مرآة » (speculum) الطبيعة لا تصير « كتابا » الا بمخالطـة الكتاب يعني مخالطة تفسير للكتاب متخذ سنة فى جماعة منظمة • واذن فـالرمز لا يرمز الا ضمن « تـوزع » وترتيب • وهـذا الشرط هو الـذي أتاح لـ هوغ دوسان فكتور Hugues de Saint - Victor تحديده على النحو التالي :

« Symbolum est collatio id est coaptatio visibilium formarum ad demonstrationem rei invisibilis propositarum » :

« الرمز هو مقاربة أي موافقة الصور المنظورة المقدمـة للدلالة على الحقيقة اللامنظورة » • أما أن تتنافى هذه « الدلالة » مع منطق القضايا الذي يفترض مفاهيم محددة (يعني مطوقة بنطاق مفهومي متواطىء)، وبالتالي مفاهيم ذات دلالة لانها تدل على شيء **واحد** ، **فليست هذه** المسألة تعنينا الآن • أما ما يهمنا فهو أن هذه المقاربة Collatio أوالموافقة coaptatio لا يمكن أن تفهم علاقة ، وتطمـح الى مرتبـة الدلالـة démonstratio ، الا ضمن تـوزع اجمـالي • وهنـا ألتقـي مـع ادمون أورتيـغ Edmond Ortigues فى كتابـه : **القـول والرمـز** Le discours et le symbole حيث يقول : « ان اللفظ الواحد يمكن أن يكون خياليا اذا اعتبرناه على وجه الاطلاق ، ورمزيا اذا فهمناه

قيمة فرقية ، مضايفة لالفاظ أخرى تحده ويحدها بالتبادل »(ص١٩٤)٠
« فحين نقترب من التخيل المادي ، يقل شأن الوظيفة الفرقية ، وننزع
الى المعادلات ؛ وحين نقترب من العناصر التي تكوّن المجتمع تقوى
الوظيفة الفرقية وننزع الى التكافؤات المميزة » (ص ١٩٧) ٠ ومن هذا
القبيل نجد قصص القرون الوسطى التي تدور حول الحجارة الكريمة
وحول الحيوانات تقترب جدا من التصوير ؛ ولهذا السبب فعلا تلتقي
فى قطبها الخيالي برصيد من التخيلات غير متميز ، قد يكون كريتيا
كما قد يكون آشوريا ، ويبدو تارة طافحا فى تنوعاته وطورا جامدا فى
تصوره ٠ ولكن اذا كانت قصص الحجارة الكريمة والحيوانات هذه
تنتمي الى التوزع نفسه المعروف للتفسير التأويلي وللتأمل
فى العلاقات والرموز ، فلان الطاقة الدلالية الغير محدودة للصور تتميز
عن سبيل تلك التمارين اللسانية التي يتقوم بها التفسير ؛ فنحن اذن
لدى نموذجية تاريخ ، تمارس فى اطار الجماعة الكنسية ، على اتصال
بالعبادة والطقوس ، الخ ٠٠ وهذه النموذجية هي التي تناوب الرمزية
الطبيعية العديدة الاشكال ، وتقوم سدا بوجه تكاثرها الجنوني ٠
فالمفسّر انما ينسب للمصوّر مبدأ تخير بين طفحات الخيالي ، حين يؤوّل
القصص ويقرأ غوامض **تاريخ خلاصي** ٠ فيجب القول منذئذ ان
المنظومة الرمزية لا تقوم بهذا الرمز أو ذاك ، لاولا بقائمتها المجردة ؛
اذ ان هذه القائمة ستظل دائما اما فقيرة أكثر مما يجب بسبب تكرار
نفس الصور ، واما أغنى مما يجب لكون كل واحد من الرموزيتضمن
بالقوة دلالة كل الرموز الاخرى ؛ لكن المنظومة الرمزية تقع بالاحرى
بين الرموز ، بمثابة علاقة ، وبمثابة تصريف اقامة العلاقات بينها ٠ ونظام
الرمزية هذا لا يظهر فى أي موضع خارج المسيحية حيث لا تتخلص
الرمزية الطبيعية وتترتب الا في ضوء كلمة ، ولا تتوضح الا في انشاد
القائي ٠ فبدون نموذجية تاريخية ، ليس من رمزية طبيعية وتأويلية

مجردة أو مواعظية (لان هذا دائما مقابل ذاك ، لا عكسه فحسب ولكن ثمرته ، نظرا لكثرة ما يستهلك الرمز مرتكزه الفيزيقي ، المحسوس ، المنظور) • وبالتالي فان المنظومة الرمزية تقوم بهذه اللعبة المنظمة بين الرمزية الطبيعية والتأويلية المجردة ، والنموذجية التاريخية ، أي أن علامات الطبيعة ، وتمثيلات الفضائل ، وأعمال المسيح تفسر بعضها بعضا فى هذا الجدل بين المرآة والكتاب ، الذي يستمر فى كل خليقة •

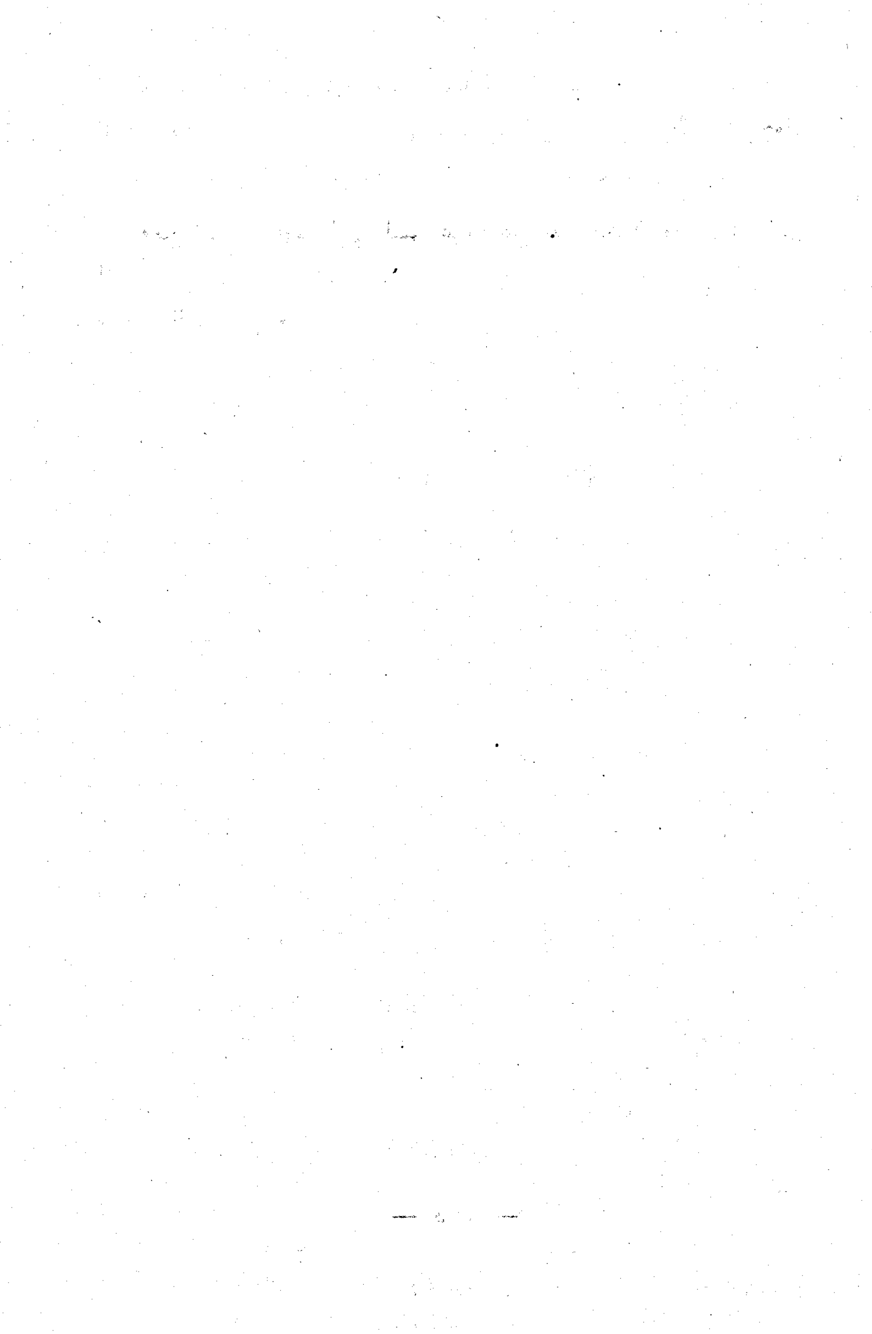
• • •

تشكل هذه الافكار المقابل الدقيق للملحوظات السابقة : فقد قلنا ان لا تحليل بنيوي بدون فهم تفسيري لنقل المعنى (بدون «مجاز»، بدون نقلة translatio) ، بدون هبة المعنى هبة غير مباشرة ، تؤسس الحقل الدلالي الذي يمكن أن تميز انطلاقا منه تجانسات بنيوية • فالاساسي فى لسان رمزيي القرون الوسطى ــ لسان منحدر من أوغسطينوس وديونيزيوس وموفق مع مقتضيات موضوع متعال ــ هو النقلة ، نقل المنظور الى اللامنظور عن طريق صورة مستعارة من الامور الحسية ، وضع الدلالي فى صيغة « المشابه/المغاير » أصلا للرموز والتمثيلات • وانطلاقا من هنا يمكن القيام باعداد تجريدي لتنظيم نحوي للعلاقات على مستويات عديدة •

ولكن بالمقابل ليس من فهم تفسيري بدون تدبير أو ترتيب تجد فيهما المنظومة الرمزية دلالتها • فالرموز باعتبار ذاتها مهددة بتأرجحها بين التثاقل فى الخيالي والتلاشي فى التأويلية ؛ فهي ، بغناها وطفوحها وتعددها الدلالي ، تعرض الرمزيين السذج للغلو والمراعاة • ثم ان ما سماه القديس أغوسطينس بـ« شبهات التعابير المجازية verborum translatorum ambiguitates فى كتابه : المذهب المسيحي De doctrina Christiana (شنو ، المؤلف

المذكور ،ص١٧١) ، وما نسميه تسمية غاية فى البساطة ، تعدد الدلالة ، ازاء التواطؤ (وحدة الدلالة) الذي يقتضيه الفكر المنطقي ، يجعل الرموز لا ترمز الا ضمن مجموعات تحد من دلالاتها وتقويها معا .

ومن ثم فان فهم البنى ليس غريبا عن فهم تكون مهمته التفكير انطلاقا من الرموز ، وانه اليوم الوسيط الضروري بين السذاجة الرمزية والفهم التفسيري .



كلود ل. شتروس

يرد على بعض الأسئلة

(مقتطع من مجلة Esprit ، تشرين الثاني ١٩٦٣)



خـلال السنة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ ، كرس « الفريق الفلسفي » لمجلة Esprit عدة جلسات لقراءة كتاب الفكر المتوحش والتعليق عليه . وقد تفضل كلود ليفي ـ شتروس واشترك فى آخر حلقة عقدها الفريق فى حزيران ١٩٦٣ ، فأجاب عن الاسئلة التي كانت قد أثارتها دراسة عمله . وهاكم فيما يلي نص المناظرة مـأخوذا عن الاختزال .

بول ريكور : تنقسم الاسئلة المنهجية التي أود أن أضعها أمـامكم الى ثلاثة أنواع ؛ وكلها تعنى بـامكان تنسيق منهجكم العلمي ، أي البنيوية من حيث هي علم ، مع أنماط أخرى من الفهم ليست مستعارة من نموذج علم لغات معمم ، لكنها تقوم على استعادة للمعنى في فكر تعقلي أو تأملي ، أي باختصار مع ما سميته أنا بالتفسيرية .

السؤال الاول يمس عدم الهوادة في الطريقة ، أي توافقها وعدم توافقها مع أنماط الفهم الاخرى . وقد استلهمت هذا السؤال المنهجي من تأملي فى أمثلتكم نفسها : اذ تساءلت الى أي حد لا يعود نجـاح طريقتكم الى يسر المدى الجغرافى والثقافى الذي تعتمد عليه ، أي مدى

الطوطمية القديمة ، مدى « الوهم الطوطمي » الذي يمتاز حقا بفيض من الترتيبات على نسق علم النحو يفوق المألوف ، وربما يمتاز بمقابل ذلك بافتقاره افتقارا كبيرا الى المضامين ؛ أو ليس هذا التضاد هو الذي يفسر لنا ظفر البنيوية السهل ، بمعنى أنها تظفر دون رواسب ؟

وسؤالي الثاني يتناول وحـدة الفكر الاسطوري ، ويبحث فى امكان وجود صيغ أخرى للفكر الاسطوري أقل طواعية للبنيوية .

وهذا الشك يقودني الى السؤال الثالث : ماذا تصير فى نمـاذج أخرى نسبة البنية الى الحادثة والتزامن الى التزمن ؟ فالمنظومة التـي يكون فيها التزامن أكثر معقولية ، يظهر فيها التزمن اختلالا وهشاشة ، وهنا أذكر عبارة بواس التي تحبون الاستشهاد بها ، والتي يصف فيها تهدم العوالم الاسطورية وانهيارها ، فور تشكلها ، لان متانتها آنية ، فكأنها لا توجد الا فى التزامن . لكن الامر يختلف كل الاختلاف عندما نفكر فى التنظيمات الفكرية التي تعزى الى نسبة التقليد والحادثة لا الى نسبة التزامن والتزمن . وهذه المسألة الثالثة تلتقي بمسألة التاريخية التي كانت فى آخر كتابكم موضوع نقاشكم مع جان بول سارتر .

ثم اننا تطرقنا ، فى حلقتنا الدراسية ، الى مناقشة الفلسفة التـي تتضمنها طريقتكم ، ولكن دون ابطاء ، اذ وجدنا أن ليس من الانصاف تجاه كتابكم ، الانطلاق توا الى هذه المسألة ؛ واعتقد من جهتي أنـه لا يجب الاسراع فى الانتقال الى مناقشة الفلسفة البنيوية ، وذلك مـن أجل التوقف طويلا عند الطريقة البنيوية ؛ فأقترح اذن أن نبقي للاخير مناقشة الامكانات الفلسفية المختلفة ، التي تمازجون بينها ممازجة بدت لي غير مستقرة : سواء كان ذلك فى قضية تجديد الفلسفة الجدلية ، أو بالعكس في ما يخص نوعا من تمازجية معممة أو أخيرا حتى في صدد مادية محض ، كما تقولون ، ترد البنى كلها الى الطبيعة .

فها هو حقل الأسئلة التي أسمح لنفسي بأن اضعها امامكم تاركا لكم أن تتصرفوا فى تناولها كيفما شئتم •

كلود ليفي ــ شتروس : يبدو لي أن الكتاب هو دائما طفل يولــد قبل أوانه ، وشعوري ازاءه شعوري أمام مخلوق حقيق جدا بالكراهية، بالمقارنة بما كنت آمل أن آتي به الى النور ، ولا أشعر ببالغ الفخر اذ أعرضها لنظر الغير ؛ ولذا فلست هنا فى وقفة المحارب ، أحاول الدفاع بعناد عن مواقف أنا أول من يدرك جانبها الضعيف الذي يضيئه عمل السيد ريكور اضاءة سديدة جدا [1] •

اسمحوا لي أن ابتديء بهذه الملاحظة : هناك سوء تفاهم ، تقــع مسؤوليته علي وحدي ، حول موقع هذا الكتاب من جملة مؤلفاتي • فهو بالواقع ليس ــ وأستعيد هنا تعابير السيد ريكور ــ ليس « المرحلة الاخيرة من حركة تعميم تدريجية » ، « مذهبة نهائية»، « حدا نهائيا »• يمكن بلا ريب أن يظن ذلك ، لكن المقصود فى الحقيقة شيء آخر • فكما أن كتاب **الطوطمية اليوم** مقدمة لـ **الفكر المتوحش** كمــا سبق أن شرحت ، كذلك **الفكر المتوحش** هو مقدمة لكتاب أهم ؛ ولكن لما كنت أثناء كتابتي له غير متأكد من أني سأبدأ يوما كتابة الآخر ، فضلت السكوت على الامر ، لئلا أعرض نفسي للتراجع عما أكون قد قلته • فهو يمثل اذن فى تفكيري وقفة ، محطة ، لحظة أجد لي فيها متنفسا ، وأسمح لنفسي بتأمل اللوحة المجاورة ولكنها لوحة لن أتوغل فيها اذ لا أستطيع ولا أريد ذلك : انها تلك اللوحة الفلسفية التي ألمحها من بعيد ، لكني أتركها فى الغمام لانها ليست على دربي •

والآن ، أين تقع هذه الوقفة ؟ تقع بين مرحلتين من مشروع واحد

---

(١) يلمح هنا . ك• ليفي ــ شتروس الى دراسة بول ريكور : البنية والتفسير ، التي اطلع عليها قبل المناظرة .

نستطيع تعريفه بأنه شبه تعداد لالوان الاكراه الذهنية ، ومحاولة لرد التعسفي الى النظام واكتشاف الضرورة متضمنة فى وهم الحرية . ففي **البنى الاولية للقرابة** كنت اذن قد انتقيت مجالا يستلفت النظر بسمة اللاتماسك والجواز ، وحاولت أن أبين أنه من الممكن رده الى عدد صغير جدا من القضايا الدالة . غير أن هذه التجربة الاولى لم تكن كافية لان الاكراه فى مجال القرابة ليس من الامور الداخلية المحض . وأقصد بهذا أنه ليس أكيدا أنه يستمد أصله من بنية الفكر فقط : اذ يمكن أن ينتج عن متطلبات الحياة الاجتماعية ، وعن طريقة هذه الحياة فى فرض اكراهاتها الخاصة على نشاط الفكر .

أما المرحلة الثانية المكرسة بكاملها للاساطير ، فتحاول أن تتخطى هذا العائق ، لان مجال الاساطير الذي يبدو الفكر فيه أكثر حرية في الاستسلام الى تلقائيته الخلاقة ، هو بالضبط المجال الذي يجدر حسب رأيي أن تتحقق فيه فيما اذا كان الفكر يخضع لقوانين . لقد كان ممكنا بعد فى صدد القرابة وقواعد الزواج أن تتساءل فيما اذا كانت الاكراهات آتية من الخارج أو من الداخل ؛ أما بصدد الاساطير فلم يعد موضع للشك : لانه اذا كان الفكر فى هذا المجال مقيدا ومسيرا فى كل عملياته، **فالاولى** أن تكون هذه حاله فى كل المجالات .

ولذا فاني شاكر للسيد ريكور بصورة خاصة أنه أشار الى القرابة الممكنة بين مشروعي ومشروع الكانتية . فقوام الامر يتلخص بنقل البحث الكانتي الى المجال الاثنولوجي ، مع هذا الفارق فى أننا ، بدلا من التوسل بالاستبطان والتفكير فى حالة العلم فى المجتمع الخاص بالفيلسوف ، ننتقل هنا الى اقصى الحدود : أي اننا نسلك سبيل البحث عما يمكن أن يكون مشتركا بين انسانية تبدو لنا بعيدة جدا والطريقة التي يعمل بها فكرنا ؛ أي اننا نحاول استخلاص الخواص الاساسية والقسرية لكل فكر أيا كان .

ذلكم ما كنت أريد أن أقوله أولا ، فأنتقل الآن الى السؤال الاول الذي أثاره السيد ريكور ، والذي ، على ما يبدو لي ، يسود دراسته ومفاده : هل الميثولوجيا منوطة بتفسير واحد ؟

ان أمرا أقلقني في محاجة السيد ريكور : يبدو لي أنه كان أحرى بهذه المحاجة أن تصدر منطقيا ، لا عن شخص فى مثل موقفه ، ولكن عن موقف قائم وراء الفكر المتوحش يتخطاه اذا جاز القول ، فيأخذ علي أني لم أخضع الكتاب المقدس والتقليد الهلنستي وعددا آخر من التقاليد لقوانين هذا الفكر • فمن مسألتين مسألة : إما أن هذه الآثار تنتمي الى الفكر الاسطوري ، فاذا سلمنا بصحة الطريقة لتحليل هذا الفكر وجب علينا أن نستنتج صحتها أيضا لتحليل تلك الآثار ؛ واما أن نعتبر الطريقة غير صالحة للتطبيق على هذه الحالات ، فنستثني بالتالي هذه الحالات من ملكوت الفكر الاسطوري • اذن كان من الاجدر أن ألقى التأييد على تركي لها خارج الفكر الاسطوري •

وبالواقع ان موقفي فى منتهى الحذر والحيطة • فأنا لا اتبنى قط كمصادرة أن كل ما يمكن أن نضعه ، مقتضبين جدا ، تحت لفظ الفكر الاسطوري — والتعبير فى نظري هو نفسه أضيق مما يلزم — أن كل شيء فى ذلك رهن بنمط واحد من الشرح • بل ان ما فعلته يتلخص بأني حاولت أن أتلقط عددا من الاشياء التي شعرت أنهـا فى حوزة التحليل البنيوي ، ثم درستها ، وحرصت على ألا أتعداها • أجـل ، لقد قام زميلي الانكليزي النابغ ادمون ليتش ، من جامعة كمبريدج ، بتطبيق التحليل البنيوي على الكتاب المقدس ، على سبيل التسلية ، فوضعه تحت عنوان قوي الدلالة : ليفي–شتروس في جنـة عـدن Lévi - Strauss in the Garden of Eden ؛ والكتاب هـذا عمل بارع وهو فى قسم منه فقط لهو • أما أنا فقد أتردد كثيرا قبل الاقدام على شيء من هذا النوع ، بسبب وساوس ألتقي بها مع السيد ريكور •

وذلك ، أولا ، لان العهد القديم ، يستخدم بالتأكيد مواد اسطورية لكنه يستعيدها لغاية غير التي وضعت لها فى الاصل تلك المواد • اذ ليس من شك فى أن كتّابا خرجوا بها عن صورتها فى تأويلهم لها ؛ فهذه الاساطير قد أخضعت اذن ، كما يقول بحق السيد ريكور ، لعملية عقلية • فهذا الامر يوجب البدء بعمل تمهيدي يهدف الى استخراج البواقي الاسطورية العتيقة المستترة فى الادب التوراتي ، ومن البديهي أن هذا العمل لا يمكن أن يضطلع به الا اخصائي • ثانيا ، يبدو لي أن مشروعا من هذا النوع ينطوي على شبه دور فاسد يعود فى نظري الى أن الرموز ــ وهذا تعبير عزيز على قلب السيد ريكور ــ لا تحتوي أبدا على دلالة متضمنة فيها ــ وهذه نقطة ربما خالفته فيها • ليس لها معنى الا « بحسب الموضع » وبالتالي لا سبيل لنا الى هذا المعنى فى الاساطير نفسها ، ولكن بالاحالة الى سياق اثنوغرافى ، يعنى ما يمكن أن نعرفه عن نوع الحياة والتقنيات والطقوس والتنظيم الاجتماعي للمجتمعات التي نقصد تحليل أساطيرها • ففي دراستنا لليهودية القديمة نصطدم بموقف له سمة المفارقة ، اذ ان السياق الاثنوغرافى مفقود تماما وليس لدينا الا ما نجده في النصوص الكتابية • ففي هذه الحالة اذن تعتمد كل فرضياتنا على مصادرة المطلوب• وما أقوله فى الكتاب المقدس يمكن أن ينسحب على مصادر أسطورية أخرى ، مثل النصوص المشهورة فى أدب الهند القديم ، والنصوص الكلاسيكية فى التاريخ الياباني القديم ، الكوجيكي والنيهونغي ، وكثير من الاشياء الاخرى • فهناك اذن ركام كبير من المواد التي لم أتصد لتحليلها : نظرا لفقدان السياق الاثنوغرافى من جهة ، ومن جهة أخرى لانها تستدعي تفسيرا مسبقا ليس الاثنولوجي مؤهلا للقيام به •

ثم اني أبصر مستويات لا متجانسة حتى فى الاساطير التي يكاد كتابي المقبل يقتصر على معالجتها أعني أساطير أمريكا المدارية • ولذا

أفضل أن أدع جانبا بعض النصوص ، لفترة على الاقل ، لان تنظيمها الداخلي يبدو منوطا بمبادىء أخرى ؛ ففي أمريكا الجنوبية يخالط الاساطير أدب يكاد يكون روائيا وقد يصح اجراء التحليل البنيوي عليه ، ولكن هذا التحليل البنيوي يجب أن يكون متطورا ورهيفا ولا أستطيع مباشرته فى الوقت الحاضر .

اذن نلتزم من وجهة النظر هذه بموقف حيطة مفروض علينا ؛ فنقدم على تحليل ما يبدو لنا فى تحليله مردود ، ونترك الباقي لظروف أنسب احتياطا ، حين تكون الطريقة قد تجاوزت مرحلة الامتحان . وهذا الاحتياط يبدو لي ميزة كل مشروع يتوخى أن يكون علميا . فلو كان العلماء قد بدؤوا دراسة المادة بنظرية التبلور لوجد كثير من الفيزيائيين حقا فى الاعتراض : أن ليست هذه الاحوال هي الاحوال الفريدة للمادة وأن هناك أحوالا أخرى ليس بمقدوركم أن تشرحوها ؛ فيجيبهم أصحاب التبلور القدامى : أن نعم ، ولكن هذه الحالات هي أجمل الخصائص وأبسطها وتوفر لنا شبه طريق مختصر الى البنية ، ولهذا السبب نستبقي فى الوقت الحاضر مسألة ما اذا كانت دراسة البلورات تشرح كل المادة أو اذا كان يجب التبصر فى أشياء أخرى .

أما الاعتراضات الفلسفية فأمر الآن عليها سريعا لان السيد ريكور يرغب أن نبقيها مؤقتا على حدة : لقد أشار الى جانب « التخطيط الاولي » منها ، الجانب المتقلقل . وأنا أوافقه فى هذا كل الموافقة . فأنا لم أقصد وضع فلسفة ، وانما حاولت فقط أن أعي ، من أجل فائدتي الشخصية ، المتضمنات الفلسفية لبعض جوانب عملي . وما أود أن أقوله عابرا هو أن السيد ريكور يرى فلسفتين متناقضتين ربما ، فلسفة تلتحق بالمادية الجدلية وتقبل أولوية البراكسيس ، وفلسفة تميل الى المادية المحض ، بينما أرى بالاحرى مرحلتين من تفكير واحد ؛

ولكن ليس لهذا عندي سوى أهمية ثانوية ، وأنا مستعد لتلقي لوم الفلاسفة على هذه النقطة .

وأجدني على اتفاق تام مع السيد ريكور ، حين يحدد موقفي ـ كي ينقده ، بلا ريب ـ بأنه « كانتية بدون ذات متعالية » . هـذا النقص يثير تحفظه ، فى حين لا شيء يضايقني فى قبول عبارته .

فأتناول اذن ما يبدو لي أنه الاعتراض الاساسي الـذي كـان يستعيده السيد ريكور منذ قليل ، والذي كنت قد نسخته عن نصه ومنه هذه الجملة القوية الدلالة : « فى الواقع ، ان قسما من الحضارة ، وهو الذي لم تنبثق منه ثقافتنا، يقبل أكثر من أي قسم آخر تطبيق البنيوية» . فهنا اذن تنطرح مسألة خطيرة . فهل المقصود ترى هو فرق صميمي بين نوعين من الفكر والحضارة ، أم انه فقط الموقف الخاص بالملاحظ الذي لا يستطيع أن يتبنى تجاه حضارته هو نفس المنظور الذي يجده سويا بالنسبة لحضارة أخرى ؟ وبكلام آخر ، ان قلق السيد ريكور واقتناعه هو أني لو حاولت تطبيق طريقتي على النصوص الاسطورية فى تقليدنا (مع العلم أني أحترس من الاقدام عليه) ، لتبين لي وجود بواقي لا تنحل ، رواسب يستحيل امتصاصها ... فاجيب بأني موافق عن رضى ، من حيث أنا عضو في حضارتي، في صميمي تقليدها الذي تغذيت به ؛ لكن ما يثير تساؤلي هو أن أي حكيم من الاقوام التـي أدرسها يستطيع ، عند قراءته الفكر المتوحش وملاحظته طريقتي فـي معالجة أساطيره الخاصة ، أن يقابلني ، وبحق ، بنفس الاعتراض تماما . فحين يقيم السيد ريكور فى نصه تقابلا بين الطوطمية والرسالة (ولا أعرف بدقة معنى اللفظ الاخير عند الفلاسفة واللاهوتيين المعاصرين ، لكني اذا أخذته من الاشتقاق وجدته يتضمن فكرة الوعد والجهر) ، تحضني الرغبة على أن أسأله هل من شيء أحق بصفة « الرسالة » من

تلك الاساطير الطوطمية الاوسترالية التي ترتكز هي أيضا على وقائع مثل : ظهور الجد الاول الطوطمي في احدى نقاط الاقليم ، وتجولاته التي قدس بها كل مكان مر به والتي تحدد ، بالنسبة لكل فرد من أولئك القوم ، حوافز تعلق شخصي يضفي دلالة عميقة على أرض الاجداد ، وهي فى الوقت نفسه ، بشرط أن يبقى المرء وفيا لها ، وعد سعادة وضمان خلاص ويقين تجسد ثان ؟ هذه اليقينيات العميقة نجدها أيضا عند كل من عاشوا أساطيرهم في الصميم ، لكنها تظل محجوبة على من يدرسونها من الخارج ، ويجب أن تترك جانبا • حتى ان شبه التسوية المعروضة علي : أن يُسلَّم لي بوجود مجال يسوده التحليل البنيوي وحده ، وأسلم بالمقابل بوجود مجال محدودة فيه صلاحيات التحليل البنيوي ، تثير خشيتي من أنها قد تقودني الى اعادة التمييز التقليدي بين عقلية بدائية وعقلية متحضرة ، أو على الاقل الى التمييز بصورة مصغرة بين نوعين من الفكر المتوحش : احدهما يخضع بكامله للتحليل البنيوي والآخر يزيد عنه بعض الشيء • هذه التسوية أتردد فى قبولها لانها قد تعطيني أكثر مما أريد أن أداعي به •

ربما قصّرت في كتابي بحق هذه النقطة : ان ما حاولت تحديده بـ « الفكر المتوحش » لا يمكن أن يسند على وجه التخصيص الى أي كان ، حتى ولا الى قطعة أو نمط من الحضارة ، وليس له أي طابع اسنادي • ولنقل بالاحرى ان ما أعنيه تحت اسم الفكر المتوحش هو منظومة المصادرات والبديهيات اللازمة لتأسيس مدونة ، تمكّن ، بالمردود الاقل سوءا ، من ترجمة « الغير » الى « الـ نحن » أي الى جملة الشروط التي بها نفهم أنفسنا أفضل فهم ، وبالعكس ؛ وبالطبع تترك هذه الترجمة دائما بواقي • فى الحقيقة ليس « الفكر المتوحش» فى قصدي سوى محل لقاء ، أي حاصل مجهود بذلناه للتفاهم ، اذ وضعت نفسي موضعهم ووضعتهم فى موضعي • ان أجدر التقاريب

بايضاح طبيعة الفكر المتوحش تستنجد بمفاهيم المحل الهندسي ، والمخرج المشترك ، والقاسم المشترك الاكبر ، الخ •• ، مع استبعاد فكرة أن يكون شيء ما خاصية ذاتية فى قسم من البشرية تقومه تقويما مطلقا • حتى لاشعر أني فى الحقيقة على اتفاق تام مع السيد ريكور باستثناء أن مبدأ الفرق الذي يصادره يبدو لي أنه لا يوجد فى الافكار نفسها ولكن فى المواقف المتنوعة التي يوجد فيها الملاحظ بالنسبة الى تلك الافكار •

بول ريكور : تبديل الملاحظين هذا لا يرضيني تماما ، اذا عدت الى مؤلّفكم ، اذ ان موضوع الدراسة عينه فيه فروق لا يمحوها تبديل الادوار بين الملاحِظ والملاحَظ • وهذه السمات الموضوعية هي التي تضمن فى عهد الطوطمية الكلاسيكية العلاقات الفضلى بين التزمن والتزامن ضمن مجموعة ثقافية • اذن ليست وجهة نظر الملاحِظ هي التي تميز مجموعة اسطورية عن غيرها ، لانها مختلفة من وجهة نظر واحدة ، وهذا ما يجعلها تخضع للمعالجة البنيوية ، ولكن على درجات مختلفة من التوفيق ، فقد بينت فى نهاية دراستي أن ليس من منظومة رمزية طبيعية ، وأن الرمزية لا تعمل الا ضمن تدبير فكري ، ضمن بنية ، ولهذا السبب لا يقوم التفسير بدون البنيوية • أما تساؤلي فهو عما اذا لم يكن هنالك ممالات ، أو اذا شئتم نجاحات مطابقة لرجحان التزامني على التزمني ، تتحكم بممارستكم لمهنة البنيوي • لا أعتقد أنها مسألة تتعلق بالملاحِظ : اذ ليس للزمانية نفس الدلالة فى كل موضع : فحيث تستطيعون القول بالضبط ان التزامن قوي والتزمن هش ، لا يبدو لي ذلك ناتجا عن موقعنا كملاحظين ولكن عن تكوين خاص بالمجموعة التي تدرسونها •

كلود ليفي ـ شتروس : هذا صواب • ذلك أنك تأخذ نعت « طوطمي » بمعنى أوسع بكثير مما أعنيه به ، لاني ، بوصفي

اثنولوجيا ، استخدمه بمعنى تقني ومحصور • وقد لاحظت أنك ،طيلة مقالك ، تقيم شبه تكافؤ بين «الفكر الطوطمي» و «الفكرالمتوحش»• أما النسبة بينهما عندي فهي مختلفة : نعم ، ان الطوطمية من الفكر المتوحش ــ وقد شددت كثيرا علىهذه الناحية ــ لكن الفكر المتوحش يزيد زيادة هائلة عن اطارات المنظومة الدينية والحقوقية التي أرادوا خطأ عزلها تحت اسم الطوطمية • وبالتالي ، عندما أشير الى « الفراغ الطوطمي » فى الحضارات الاوربية والآسيوية ، لا أقصد أنه لا يوجد فيها أيضا بصور أخرى السمات المميزة للفكر المتوحش • وهاتان المسألتان لا تنطرحان على مستوى واحد •

أما اذا كانت حجتك فى صميمها ترجع الى القول بوجود فرق موضوعي بين حضارتنا وحضارات الشعوب التي لا تعرف الكتابة ، أي أن حضارتنا تقبل البعد التاريخي بينما ترفضه الحضارات الاخرى، فنحن على اتفاق ، لاني أنا نفسي شددت كثيرا على هذه النقطة• ولكن يبدو لي حينئذ أننا لا نتكلم بعد عن تاريخ واحد بالضبط : اذ ان الزمانية التي تقحمها على أنها خاصة ذاتية فى بعض أشكال الفكر الاسطوري ، ليست بالضرورة وظيفة من وظائف تاريخية حضارتنا الغربية الموضوعية ، ولا طريقة من انشاء صيرورة هذه الحضارة انشاء تاريخيا • فالاساطير « المؤرّخة » لدينا منها الكثير فى العالم ؛ ولكن يدهشنا للغاية ، مثلا ، أن نشهد اساطير الهنود الـ زوني الذين يقطنون جنوبي غربي الولايات المتحدة ، قد جرى « تأريخها » على يد لاهوتيين من أولئك القوم ، بطريقة شبيهة بطريقة غيرهم من اللاهوتيين المنطلقين من أساطير بني اسرائيل ، (وبمواد لا نجدها على نفس المستوى ، فى غير حضارة) • فيبدو لي اذن أن الفرق ، كما يظهر فى دراستكم ، لا يعود الى وجود تاريخ في **المنظومة الاسطورية** (اذ انه حتى الاساطير الاوسترالية الاكثر « طوطمية » ، تسرد قصة ، فهي في

الزمانية) ــ ولكنه يعود الى أن التاريخ اما ان يكون مغلقا على نفسه ، تُرتِجُهُ الاسطورة ، واما أن يبقى منفتحا كنافذة على المستقبل .

بول ريكور : أتظن انه من باب المصادفة أن تكون الخلفيات السابقة للهلينية ، والهندية الاوربية ، والسامية قد أتاحت بالضبط كل تلك الاستعدادات التفسيرية التي أعطاناها الفلاسفة واللاهوتيون، الخ.؟ ألا يعود ذلك بالضبط الى غنى المضمون الذي يستدعي تفكيرا فى علم الدلالات بدلا من علم النحو ؟ واذا سلمنا بالوحدة العميقة للملاك الاسطوري فهذا يتضمن أيضا بالمقابل أنه يمكن تطبيق طرائق أخرى على الطوطمية غير طريقتك ، وأنه يمكن التفكير فى ما تقول الاساطير لا فى كيفية قولها ، وبأن قولها مليء بالمعاني، مثقل بالفلسفات المضمرة، وبأنه يجوز بالتالي أن ننتظر ظهور شلينغ الطوطمية يوما أو ظهور هيجلها .

كلود ليفي ــ شتروس : لقد بُذِلَت محاولات ولكن بدون كثير من التوفيق .

بول ريكور : ولكن اذا كان فهمي للاساطير لا يجعلني أفضل فهما لذاتي ، فهل أستطيع بعد أن أحكي عن المعنى ؟ اذا لم يكن المعنى بعضا من فهم الذات فاني لا أعرف ماذا يكون .

كلود ليفي ــ شتروس : ولكن بما أننا هنا أسرى الذاتية ، لا نستطيع أن نحاول معا فهم الاشياء من الخارج ومن الداخل ؛ اذ لا نستطيع فهمها من الداخل الا اذا ولدنا داخلها ، أي اذا كنا فعلا داخلها . والمشروع الذي يقوم على نقل باطنية خاصة ــ اذا جاز القول ــ الى باطنية عامة ، يبدو لي فاشلا سلفا . هنا نقطة اعتقد أننا متباعدان بشأنها كثيرا : تقول فى دراستك ان الفكر المتوحش ينحاز الى علم النحو ضد علم الدلالات ؛ أما فى نظري فلا مجال للاختيار .

لا مجال للاختيار ، بقدر ما تقوم ثورة علم الصوت التي تذكرها عدة مرات ، على اكتشاف أن المعنى ينتج دائما عن تمازج عناصر ليست دالة بذاتها • وبالتالي ، فان ما تنشده هو **معنى للمعنى** ، معنى قائم خلف المعنى — ولا أظنني أخون هنا فكرتك لانك تقول ذلك وتدعو اليه في حين أن المعنى في منظوري ليس أبدا ظاهرة أولى : المعنى يقبل دائما رده الى شيء آخر • وبكلام أوضح ، خلف المعنى يقف اللامعنى ، والعكس غير صحيح • فالدلالة هي عندي دائما من نطاق الظواهر •

مارك غابوريو : لقد تعرض الحوار قليلا للتاريخ ، لـ «التزمن» ؛ فأود أن أطرح بعض الاسئلة حول هذا الموضوع ، وبصورة أخص حول مسائل « التزمن » • كيف يحدث أن يتطور مجتمع ما عبر الزمن ؟ ثم انك في بعض تتاجك — خصوصا في **الانطروبولوجيا البنيوية** وفي مقدمتك لـ **سوسيولوجيا وانطروبولوجيا موس** — تشدد على أنه يجب نشدان عوامل التحول لا فى المنظومات الاجتماعية فرادى (مثل منظومة القرابة ، ومنظومة الاساطير ، الخ •) ، ولكن فى كيفية تراصفها وترابطها • وهذا يشكل فى نظرك سلسلة من العوامل تجب دراستها قبل النظر فى التأثيرات الخارجية • فأود أن أستوضحك بعض الامور حول هذه السلسلة الاولى من العوامل : في نهاية **الانطروبولوجيا البنيوية** تدخل مفهوم « بنية تابعة » ؛ ولكن يبدو لي أنك تتكلم بهذا اللفظ على شيئين مختلفين : من جهة التباينات الاجتماعية (مثل تعدد الزوجات ، والامتياز ، الخ •) ومن جهة أخرى تراصف المنظومات المختلفة التي تكون المجتمع • فهل يمكن أن تعطينا بعض التوضيحات حول هذا الموضوع ؟

كلود ليفي — شتروس : أنك تطرح هنا سؤالين ، أليس كذلك ؟ الاول سؤال عام ، أعترف بأني عاجز عن الاجابة عنه • وأعتقد ان الاثنولوجيا والسوسيولوجيا وكل العلوم الانسانية مجتمعة ، عاجزة

كاملة ، وبالتالي ان مجتمعا من المجتمعات لا يمكن أبدا أن يظل هو هو .

كلود ليفي ـ شتروس : نعم ، ان ما نحاول البحث عنه ، داخل مجتمع مقصور على عدد من الترتيبات البنيوية المنضدة بعضها فوق بعض أو المتشابكة بعضها ببعض ، هو الوسائل للكشف عن انواع من اختلال التوازن تشرح لماذا « يتحرك » على كل حال مجتمع من المجتمعات حتى لو كان بمعزل عن التأثيرات الخارجية .

ميكال دوفرين : أود أن أعود الى ما ذكر منذ قليل عن مسألة علاقات النحو وعلم الدلالات . اني أتساءل اذا لم يكن هناك تعارض بين قولك ان المعنى يأتي دائما فى المرتبة الثانية بالنسبة لمعطى قبل اسطوري وغير دال وبين ما قمت به من تحليلات . مثلا : حين تبين في تحليلك لاسطورة أسديفال ، في مجلة الدراسات العليا ، أننا اذا نظرنا فى تصرف قوم تسيمشيان أمام السمك وخصوصا النساء منهم ، نجد الرجل يتقمص السمك ، حين تبين هذا الامر يستضيء بدوره كل ما بقي من الاسطورة . فكأن بالتحليل السابق الذي كان يعمل على أزواج التقابلات : فوق ــ تحت ، شرق ــ غرب ، بحر ــ جبل ، الخ .. ، كان يُعِدّ الى حد ما لهذا التفتق النهائي للمعنى، وكأننا بالمعنى معطى حينئذ على نحو آخر فى شبه وعي مباشر ، وليس ناتجا عن تحليل نحوي . واذا كان يصدق فى الرياضيات ، أي بالنسبة لفكر صوري حقا ، أن علم الدلالات يكون نوعا ما دائما على مستوى النحو وتابعا له ، فاني أتساءل اذا لم يكن فى مثل ذلك التحليل ، أو أيضا فى تحليلك لادويب حيث تبين فجأة أن أوديب المشوه القدم يعني بذاته شيئا ، يعني شكلا يخالف غيره من أشكال الولادة ، أتساءل اذا لم يكن بالمقابل فى ذلك شبه ثأر لعلم الدلالات على النحو ، أي وجود مباشرية معنى لا يمكن توليدها منطقيا .

كلود ليفي ـ شتروس : يخيّل إليّ أن المعنى في الامثلة التي توردها لم يدرك مباشرة ولكن جاء عن سبيل الاستنتاج والانشاء بالتحليل النحوي . لاني في هذا المقطع من **ملحمة أسديفال** ، **أبين** ، على ما أذكر ، أن بعض النسب النحوية لا يمكن قلبها (بعكس ما يجري في قواعد اللغة ، حيث يمكن القول : بطرس يقتل الثور ، مثلما يمكن القول : الثور يقتل بطرس . أجل ، لما كانت القضية لا يمكن أن تصاغ الا بمعنى ، أمكن وضع فرضيات حول النهج الخفي للفكر عند أولئك القوم ؛ ولكن فى النهاية أنا الذي أقول ذلك من قبيل الفرضية ؛ فيبدولي اذن أن المعنى « نتيجة انشاء » أكمل مايكون الانشاء . والآن يجب علي تجاه السيد دوفرن والسيد ريكور أن أضيف أني لا استبعد بأي شكل من الاشكال ــ وهذا مستحيل أصلا ــ تلك الاستعادة للمعنى التي يلمع اليها السيد ريكور ؛ولكن ربما أتى الفرق من أنها فى نظري تظهر وسيلة اضافية تتصرف بها كيما نضبط بعد تمام الامر صحة عملياتنا النحوية . فبما أننا نكوّن «علوما انسانية » ، وبما أننا بشر يدرسون بشرا ، نستطيع أن نجيز لانفسنا تعرف وضع انفسنا فى مواضعهم . لكن هذا هو اللحظة الاخيرة ، آخر استمتاع نسمح به لانفسنا متسائلين : هل يصح ؟ اذا جربته على نفسي فهل يستقيم ؟ وبالتالي ، تبدو لي استعادة المعنى ثانوية ومشتقة من حيث الطريقة ، بالنسبة للعمل الاساسي الذي يقوم على تبيان آلية الفكر الذي غدا موضوعيا ؟ ولا أستطيع هنا أن أفعل شيئا أفضل من أن استعيد نفس الالفاظ التي استخدمها السيد ريكور فى نقده ، لاني لا أرى فيه نقدا : وهذا هو ما أحاول بالضبط أن أفعله .

بول ريكور : اذا كان المعنى الذي استعيده لا يوسع فهمي لذاتي أو للاشياء ، فلا يستحق ان يسمى معنى . على أنه لا شيء من هذا ، اذا كان البحث النحوي يبرز على خلفية من اللامعنى ؛ إذ ما هو

المقصود بلفظتي معنى و لامعنى ان لم يكن حادثتين في وعي للتاريخ لا يقتصر على ذاتية ثقافة تنظر الى ثقافة أخرى ، ولكنه وعي هو حقا مرحلة من التفكير الذي يحاول أن يحيط بكل شيء ؟ وبكلام آخر ، ان المقالات الخاصة هي صاحبة المعنى ، أي الاشياء المقولة وليس فقط الترتيبات النحوية التي يراها الملاحظ من الخارج • اني أوافق راغبا على أنه يجب في العمل العلمي أن لا يعتبر الملاحظ الا الترتيبات التي يتخذها موضوعا لملاحظته ، فيتجنب الوقوع في ماسميته بـ « الدور التفسيري » ، الذي يجعل مني أحد الاجزاء التاريخية للمحتوى ذاته الذي يتخللني تفسيره ؛ وبكلمة ، يجب لانشاء « علوم انسانية » أن أكون خارج الموضوع ؛ ولكن هل نستطيع بعد أن نتكلم عن المعنى واللامعنى اذا لم يكن هذا المعنى مرحلة من مراحل تفكير أساسي أو أونطولوجيا أساسية (ولا أختار هنا بين التقليدين الكبيرين تقليد كانت وتقليد هجل) ؟

كلود ليفي ـ شتروس : يبدو لي أنك تربط بين مفهوم القول ومفهوم الشخص • ولكن علام تقوم أساطير مجتمع ؟ انها تشكل قول هذا المجتمع ، وهو قول لا يطلقه شخص معين : انه اذن قول يجمع على نحو ما يفعل اللغوي الذي يذهب لدراسة لغة غير معروفة جيدا ، ويحاول وضع قواعدها ، دون أن يهتم بمعرفة الذي قال ما قد قيل •

بول ريكور : ولكن اذا لم أفهم ذاتي فهما أفضل عند احاطتي بتلك الاساطير ، فهل استطيع بعد أن أتكلم عن المعنى ؟ اذا لم يكن المعنى جزءا من فهم الذات ، فاني لا أدري ما هو •

كلود ليفي ـ شتروس : أرى أنه يحق لفيلسوف يضع المسألة بحدود شخصية أن يثير هذا الاعتراض ، لكني لست مجبرا على أن

أفعل مثله • ما هو المعنى بنظري ؟ انه طعم نوعي يدركه الوعي عندما يتذوق مزيجا من العناصر التي لا يستطيع أي منها أن يقدم نظير هذا الطعم لو أخذ بمفرده • فكما أن عالم المخبر الـذي يحاول تحقيق مزيج كيماوي والذي يستفيد من وسائل عديدة للتثبت من نجـاح التجربة ــ مثل المطياف والتفاعلات ــ ولا يكتفي عادة بهذه الوسائل، اذ يعرف أن له لسانا ، فيذوق ويعرف الطعم المميز ويقول : نعم ، هذا هو ؛ كذلك يفعل الاثنولوجي حين يحاول استعادة المعنـى ليكمـل براهينه الموضوعية بالحدس • وانما يفعل ذلك لانه موجود موهوب حساسية وذكاء ، ولانه يملك هذه الوسيلة • اذن نحاول تركيب المعنى من جديد ، فنركبه بوسائل مكانيكية ، أي نصنعه ونعريه ؛ ثم بالنتيجة نحن بشر يتذوق •

جان ــ بيير في : Jean - Pierre Faye : أود أن أطرح سؤالا حول الاساطير المعاصرة • المقصود هو تلك المنطقة من اللسان حيث نجد أن التاريخ هو الـذي يصبح أسطوريا • فعلى عكس حـالات الاساطير المؤرخة ، لدينا هنالك « تأريخات » (تفسيرات تاريخية) غدت أسطورية • لنأخذ مثالا حالة الايديولوجيات القومية الالمانيـة ما بين الحربين : اني أرى فيها حقلا ممتازا لتطبيق معاييرك • فنحن هنا أمام هالة لسانية ، فيها شحنة بيولوجية قومية ، قريبة جدا مـن صيغ الاساطير القديمة ، وفيها التاريخ قد صب أسطورة من جديد • فاذا حاولنا رسم خريطة لهذه الالسن المختلفة ، نحصل من جهة علـى شبه تخطيط تتقاطع فيها هذه الالسن تقاطعات واضحة جدا ، ومن جهة أخرى نستطيع أن نعتبرها تحولات للمعنى ، فتبدي من هذا القبيـل سمتين بارزتين : الاولى أن كلا من هذه التحولات يقبل تحـولا معاكسا ؛ والثانية أنه ينتج عن مزيج اثنين منها « شيء » (أي دلالة)، هو بدوره جزء من تلك المجموعة العقائدية ، لان الحالة هي بلا ريب

حالة فكر متقهقر ينغلق بالتالي على نفسه . وقد لا نستطيع ، في حالة ايديولوجيات أخرى ، مثل الليبرالية والماركسية اليسارية ، أن نجد مثل هذا « المبدأ الاول للانغلاق » . ففي حالة الايديولوجيا القومية التي تغمر الاشتراكية القومية في ألمانية فايمار ، وتسمي نفسها حينئذ بـ « الحركة القومية » ، نجد حقا ذلك النوع من الانغلاق الذي يبدو أنه ينساق لتحليل بنيوي ، اذا أخذنا لفظة بنية بالمعنى المعروف لها في علم الجبر ، أي : مجموعة ما ذات بنية لانها تخضع لـ « قانون تركيب» محدد تحديدا جيدا .

والآن ، رغم كل شيء ، ها ان مسألة تفرض نفسها كما يبدو ، وهي مسألة « بواقي » تخرج بقسم منها عن هذه الصياغة الصورية، وتصير أحيانا خلابة . نستطيع أن نأخذ مثالا عليها مجرد نعت ، لفظة عقائدية نموذجية ، اتخذت في كوكبة « الحركة القومية » هذه معنى موقعيا محددا جدا وبعيدا جدا عن معناها الاول أو الاشتقاقي ؛ انه معنى اصبح سياسيا برمته بين ١٩٠٠ و ١٩٤٥ ثم توارت تواريا يكاد يكون كاملا ، من بين المفردات الالمانية . هذه اللفظة هي völkisch [1] . ماذا تعني völkisch ؟ انها صفة مشتقةمن لفظة Volk ، فكان يجب أن تغني : شعبيّ . لكن völkisch قد اتخذت في الواقع قيمة موقعية مغايرة تماما ، في تلك الكوكبة النازية (أو توسعا « القومية الثورية » أو « المحافظة الثورية ») . انها تعني شيئا مماثلا لما يسمى بالفرنسية : raciste عرقيّ . لكن هذه اللفظة ترمز الى أصلها الخاص ، واشتقاقها الخاص ؛ انها تحمل شبه تلميح الى معناها الاول بقدر ما يتركز ادراكها على الادراك المباشر للفظة Volk

---

(١) بشأن هذه اللفظة واستعمالها الخاص عند الفيلسوف هيدجر ، تحسن مراجعة مقال جان ـ بيير فيّ : « هيدجر والثورة » ، في مجلة Médiation (خريف ١٩٦١) .

المضمرة فيها والتي هي أصلها • ونجد تمييزات دارجة عند اللغويين ، في علم الدلالات : منها أولا مستوى لساني يطغى فيه طغيانا مبدأ التحكم بالعلامة بحيث ان العلامة اللغوية هي مجرد عملة للتبادل ، اصطلاحية محض ، واقعة في دارة أسهمت في الاتفاق على قيمة لها (موقعية) ؛ وثانيا يبقى للعلامة قبضة مباشرة على ما يسميه بعض اللغويين حافزيتها الاشتقاقية ، ـ على «الحافز» البدئي الذيأوجدها، حتى حين تكون قد فقدت دلالتها البدئية • فعلى هذا النحو لم تعد لفظة völkisch تعني : شعبي ، بل : عرقي ؛ بيد أننا ندرك مع ذلك الدلالة الاولى من خلال الدلالة الاخيرة ، ونشعر بشبه مراوحة بين هذين المستويين • وقد جرت هذه المراوحة بصورة دقيقة جدا في اللسان السياسي لليمين الالماني ، فشغّلت فيضا من المشاركة العاطفية، وهي التي أتاحت مجالا لعدد من الشعوذات السياسية ؛ اذ ان الهتلرية كانت تلعب على شبه المدلول « اليساري » هذا للفظة Volk الذي بقي لـ völkisch من الاشتقاق ، لتسمح في نفس الوقت بعبور المدلول العرقي القومي المتطرف •

ربما يتيح لنا هذا المثال المعين أن ندرك أو أن نقارب تشابك المشاركة العاطفية في الشبكة البنيوية • وهذه مسألة يبدو لي أن المنهجية البنيوية قد أبعدتها وقتيا أو نهائيا ، وهذا بلا ريب نظرا لامور سهلة ومكررة حتى الاضجار ، دخلت الاثنولوجيا على غرار ليفي ـ برول • ولكن ربما كان لدينا هنا ، على مستوى ثان من التحليل في مرحلة ثانية ، مظهر مثير جدا • فالمهم في حالة مثل النازية هو بالضبط أن نعرف كيف يمكن لشبكة عقائدية تعسفية في الظاهر ومختلطة ، ليس فقط أن تعمل بصورة دقيقة جدا ، فتلعب دورا اجتماعيا صارما جدا ، وتعبر عن التناقضات بالذات التي تقوم في الموقف التاريخي الاقتصادي الاجتماعي،وتترجم عن منطق المصالح المتجابهة

ولكن أيضا أن تستتبع مثل ذلك الحجم من المشاركة ، وتثير مثل تلك « الموجة من الحماس » •

كلود ليفي ـ شتروس : أوافقك كل الموافقة على فكرة أنه ـ من وجهة نظر صورية ـ لا شيء أشبه باساطير المجتمعات التي نسميها اجنبية غريبة أو ليس لها كتابة ، من الايديولوجيا السياسية لمجتمعاتنا نحن • حتى اذا أردنا تجريب الطريقة وجب علينا أن نطبقها أولا على الفكر السياسي لا على التقاليد الدينية لمجتمعاتنا • والآن هل يجب أن ننظر نظرة خاصة الى فكر سياسي معين ؟ قد أتردد كثيرا قبل التسليم بهذا الرأي ، اذ يبدو لي مثلا أن « منظومة أساطير » الثورة الفرنسية تشهد بشبهات مماثلة لما ذكرتم • وعلى كل حال ، لقد أصابت لفظة « sans - culotte » = دون سراويل او شبه عراة ، حظا كبيرا، في حين أن معناها الاصلي فقد على الارجح، وأن قرابتها من « Culot » و « culotté » ربما تلعب دورا أكبر فى نجاحها • لكننا بعد هذا القول نعود دائما الى نفس النقطة • فالمسألة هي أن نعرف ما اذا كان ما نحاول بلوغه هو حق بفضل الوعي وبالنسبة لوعينا له ، أو هو حق بدون هذا الوعي • وأنا أقر بشرعية البحث من الداخل ، باستعادة المعنى ، الا أني أعتبر هذه الاستعادة ، هذا التفسير الذي يعطيه الفلاسفة والمؤرخون لاساطير حضارتهم مجرد تلاوين فى هذه الاساطير • فتصبح اذن بالنسبة لتحليلي مادة لعمله ، فكرا متموضعا • وهذا لا يعني أني أحتقر أعمالا مثل العمل الذي أعرفه فقط من خلال تلخيص السيد ريكور ، ولكن ـ بعد أن عرفته من خلال هذا التلخيص ـ سأعتبره فيما لو تطرقت ـ لا سمح الله ـ لمعالجة مثل هذه المسائل ، سأعتبره تلاوين فى منظومة أساطير الكتاب ، واسطره فوق غيره بدلا من أن أرتبه بعده •

بول ريكور : انا لم أقل بأن المعنى هو معنى بفضل الوعي وبالنسبة له ؛ فالمعنى هو أولا ما يعلم الوعي وينشئه ؛ فاللسان هو

أولا حامل للمعنى ، وطاقة المعنى هذه لا يستنفدها وعيي • ونحن لسنا أمام الخيار بين ذاتية وعي مباشر للمعنى وموضوعية معنى مصوغ ، لان بين الاثنين ما يقترحه المعنى ، ما يقوله المعنى ، وهذا « الواجب قوله » و « الواجب تعقله » هو الذي يبدو لي على انه الوجه الآخر من البنيوية ؛ وبقولي الوجه الآخر لا أعني حتما ذاتية المعنى ولكن بعدا للمعنى هو أيضا موضوعي ، بيد أنها موضوعية لا تظهر الالشعور يستعيدها • وهذه الاستعادة تعبر عن اغناء المعنى للشعور أكثر مما تعبر عن احتياز الشعور للمعنى • ولهذا فان الذاتية ليست هي مايقابل البنية عندي ولكن بالضبط ما أسميه موضوع التفسير ، أي أبعاد المعنى التي تشق لها هذه الاستعادات المتتالية السبيل ؛ وبالتالي ينطرح هذا السؤال : هل تقدم كل الثقافات نفس القدر مما يجب استعادته وقوله وتعقله من جديد ؟

كلود ليفي ـ شتروس : أوشكت منذ هنيهة أن أقول بأمثلة ذات امتياز ـ وسأرجع الى قضية السيد ريكور بهذا المنعطف ـ ولكن هل هي حقا ذات امتياز ؟ ان مادتها غنية الى الحد الذي يجعلنا نئوء بغزارتها • أما ما يجعل موقفنا مؤاتيا بصورة فائقة بالنسبة للمجتمعات الغربية ، فهو بالضبط أننا لا نعرف عنها شيئا ، وأن هذا الافتقار هو نوعا ما قوّتنا : اذ يحتم علينا قصرجهودنا على الجوهري •

جان بيير في : ربما يتضح هذا الامتياز بسؤال آخر أود أن أضعه بين يديك • يميز دوسوسّور في احدى اللحظات بين العلامة المحض والرمز : فالرمز أغنى مضمونا من العلامة ، لان الطابع التعسفي للعلامة لا يؤدي دوره بشكل تام • ففي العلامة شبه حضور للعنصر الطبيعي ، ويظل المضمون الطبيعي لاصقا بالعلامة فيثقلها • وهذا هو فى نظري ما يقيم الفرق بين الاساطير والايديولوجيا العقلانية كما فى الثورة

الفرنسية أو الحركة العمالية في القرن التاسع عشر • فلفظة : « sans - culotte » مثلا قطعت كل روابطها بـ culotte سروال النبلاء ـ اذ لم يعد أحد يفكر بذلك السروال الحريري ؛ وأخذت حقا استقلالا من حيث علم العلامات ، فاصبحت متداولة بقيمة « تعسفية » للغاية مثلما يتداول النقد • وبعد ذلك جاءت معاني مشتقة وترابطات فرعية، كما قلت منذ هنيهة ، فتلبست بهذه القيمة من جديد ، كما يلف السروال الانسان •

كلود ليفي ـ شتروس : وهنا يتبين ان العلامة هي التي تحولت الى رمز وحسب •

جان بيير ف : نعم ، لكنها فقدت روابطها التي كانت تشدها الى الرمز البدئي •

كلود ليفي ـ شتروس : عفوا لا : لقد كانت علامة ثم صارت رمزا ••

جان بيير ف : نعم ، لكن الرمز الثاني هو فى بعضه مفتعل ، فيه شيء مصطنع ، فى حين أننا نجد ، فى الاساطير السياسية الرجعية ، بسهولة أوفر ، ما يمكن أن نسميه الحبل السُرّي • ان العلامات السياسية اليسارية أو الليبرالية تمتّ الى « علم العلامات » أكثر مما تمت الى « الرمزية » ، انها نوعا ما على الدرب الذي يقود الى فكر من النمط الكانتي (أو الدركايمي) ، باعتبار أن الكانتية نتاج فرعي عن الايديولوجيا الليبرالية ، من حيث الواقع التاريخي (وهي فى الحق قاعدتها الفلسفية)• أما اذا أخذنا أفكارا سياسية هي نفسها «متوحشة»، اذا أخذنا ايديولوجيات أكثر مباشرة فى استحواذها على الاساطير ، فقد يظهر لنا حينئذ ان تلك الافكار المتوحشة أكثر توحشا من الفكر الذي تدرسه ••• وهذا يعني أنها تستبقي فى باطنها قدرا أوفر ، من

عنصر المشاركة ••• واسمّي هنا مشاركةً ازدواجَ اللعبةِ التي تلعبها العلامة ، اذ يجري تداولها فى دارة بنيوية من جهة ، وتحتفظ من جهة أخرى بروابط مع « طبيعة » اللسان • بديهي أن هذه الطبيعة اللغوية هي مشكلة • لكن عناد هيدجر في العود باستمرار الى الاصيل من اللسان نهج متميز كليا عن البنيوية ، وليس بدون أساس على ما يبدو • لانه حيث ظهر مخدوعا بلسان ايديولوجي كان فى الواقع يحقق نوعا ما فلسفته فى اللسان •••

كوستاس آكسيلوس : أود أن أطرح سؤالا يربكني كثيرا ، ويربكني أكثر بعد قراءتي لـ **الفكر المتوحش** • نستطيع القول ان هناك فكرين تكوينيين : أحدهما ساذج ، تتتابع عنده الاشياء جيلا فجيلا عبر الزمان والمكان ، والثاني نظري ، مثل فكر هجل ، يرى للاشياء نموا تكوينيا ، « فنومنولوجيا الروح » ، وهذا النمو ليس سوى تطور بنية بدئية وكلية ، بنية « المنطق الكبير » • فهيجل هو حسب رأيي المتواضع أبو البنيوية ، وهو فى الوقت نفسه أول من أبرز بهذا الشكل قيمة الفكر التكويني • وفي التكوين يجب أن نشمل أيضا جانب اللوغوس• أما أنت فتنفجر الاطار المحدود لعقلية بدائية ، من جهة ، ولفكر متحضر من جهة أخرى ، (جاعلا هذا الفكر المتحضر يبدأ حيثما يريد له كل مفكر أن يبدأ) وتتحدث عن فكر متوحش شامل • فأضع من ثم سؤالا ساذجا ، وربما كان يزعجني لانه ساذج : أين يبدأ الفكر المتوحش في الزمان والمكان ؟ فى أي لحظة ترى نستطيع القول بـ فكر ؟

كلود ليفي ـ شتروس : انه سؤال كبير ، ولا أرى لماذا ينتظر مني أن أجيب عنه ، اذ انه يضع مشكلة أصول الانسانية ، أي ما يسميه الانطروبولوجيون الفيزيقيون بـ « التأنسن » • منذ متى وجد كائنات تفكر؟ لست أدري، وأشك أن يكون عند زملائنا أصحاب الانطروبولوجيا

الفيزيقية فكرة واضحة عن هذا الموضوع • لا بل اني أشك حتى فى قدرتنا على أن ندرك نظريا ، فى الصيرورة ، لحظة بدأ الانسان فيها يفكر ، وربما رجحت الرأي الذي يقدم بدء الفكر على ظهور الانسان•

جان لوتمان : أود أن أعود أيضا الى مسألة المعنى ، لانه ، اذا كان فكر السيد ليفي-شتروس يقلقني في الحقيقة فلانه نوعا ما يقول لنا اننا نعبر عن أنفسنا حين لا نفكر نحن بالتعبير عن أنفسنا • وسؤالي على مستويات :

أولا ، لمست شبهة في كتابك **الانطروبولوجيا البنيوية** حيث تبين أن طريقة الشامان تشبه بنيويا المعالجة بالتحليل النفسي : اذ ان النص يتضمن من جهة نقدا للمعالجة بالتحليل النفسي على أنها ليست شيئا جديدا لكونها طريقة الشامان ، ومن جهة أخرى تقديرا لقيمتها وقد أصبحت الآن مؤهلا أكثر لفهم هذا التقدير بعد أن أعطيتنا كتاب **الفكر المتوحش**، وذلك بنسبة صلاحية هذين التعبرين المحررين عندك وبنسبة ما يكشفان للانسان عن ذاته • فهل تقبل أن نفكر أنك تعرض علينا محاولات نوعا ما ، فى انشاء تحليل نفسي جمعي ، لا يعنى بالبنى الفردية للسيد س ولا بجملة البنى النفسية لمجتمع ما فحسب ، بل يرقى الى أبعد من ذلك الى الترسيمة التنظيمية لكل مجتمع ؟ على هذا الوجه أفهم اهتمامك الكبير بعلم اللغة ، وبالمدرسة الفرنسية في التحليل النفسي ولنفس الاسباب : فقانون زنف Zinff مثلا يبين لنا أننا حين تتكلم ونظننا متكلمين بحرية نكون فى الواقع خاضعين لسيطرة البنى تسبق ترسب المعنى فى فكرنا •

المستوى الثاني فى سؤالي يخص التاريخ : تتطرق للتاريخ فى نقدك لنتاج جان-بول سارتر ، الذي تختتم به **الفكر المتوحش** ، أترك النقاط التي نحن متفقون عليها فأقصد توا الى ما تنتقده فى التاريخ : من أنه

يستعمل مدونة فقيرة جدا ؛ ان الاساسي فى منظومتـه التدوينية هـو التسلسل الزمني ، وأنه فى النهاية معرفة هامة ولكن محدودة • تقول ان التاريخ رغم ذلك هام • على أنه يبدو لي أن التاريخ فى نظرك غالبا مايقوم على تعمية المعنى ، وأن المعنى ، بقدر ما يكون هاما ، يعبر عنه فى لحظة انبجاس البنى الاجتماعية ، فى تبلورها الاول ، أفضل مما يعبر فـي صيرورة التطور المفروض على تلك البنى •

وأخيرا نصل الى المستوى الثالث : لقد دهشت كثيرا أمام اثباتك في الصفحات الاولى من **الفكر المتوحش** ، أن مسالك العلم الحديثة تقودنا الى التقرب من عالم المادة عن طريق المشاركة • وتبين أن هـذا المنوال هو فى الواقع منوال الفكر السحري بالذات ، الذي كان دائما يتقرب من مسالك الطبيعة بوجهات التفسير ؛ على أني أتردد شخصيا فى القول بأن مسالك العلم المعاصـر وأفعال السحر يمكن استيعابهـا فى مجموعة واحدة • نعم ، لقد بينت أن فى كلتا الحالتين مجموعة منظمـة بنيويا ، لكن هنا نقطة اختلافى معك حين تورد فى نفس الفصل هايتنـغ Heiting مستشهدا به ، وهي أن المنظومات المرتبة بنيويا ، التي تعمل فى المجتمعات التي تدرسها ، منظومات متراصة تماما ، فى حين أن المنظومات التي يبنيها الفكر المتوحش المعاصر على الاوليـات ، منظومات غـير متراصة أصلا • فيبدو لي أن لهذا التقابل مرمى بعيدا ، بيد أني أبالغ فى المغامرة لو طلبت منك التوغل أبعد •

كلود ليفي ـ شتروس : انها مسائل كبيرة ! أولاها مسألة التحليل النفسي : أنا احاول تحليلا للمعنى ، ولكن لماذا تسميه تحليلا نفسيا ؟ وقد بينتَ منذ هنيهة ، على ما يبدو لي ، أن ما ليس شعوريا أهم مما هو شعوري • فلنقل أن ما أحاول فعله ، على طريقتي ، بصفتي اثنوغرافيا ، هو أن أشترك فى مشروع جماعي ، تشغل فيه مساهمة الاثنوغرافى مكانا

الفيزيقية فكرة واضحة عن هذا الموضوع • لا بل اني أشك حتـى فى قدرتنا على أن ندرك نظريا ، فى الصيرورة ، لحظة بدأ الانسان فيهـا يفكر ، وربما رجحت الرأي الذي يقدم بدء الفكر على ظهور الانسان•

جان لوتمان : أود أن أعود أيضا الى مسألة المعنى ، لانـه ، اذا كان فكر السيد ليفي-شتروس يقلقني في الحقيقة فلانه نوعا ما يقول لنا اننا نعبر عن أنفسنا حين لا نفكر نحن بالتعبير عن أنفسنا • وسؤالي على مستويات :

أولا ، لمست شبهة في كتابك **الانطروبولوجيا البنيوية** حيث تبين أن طريقة الشامان تشبه بنيويا المعالجة بالتحليل النفسي : اذ ان النص يتضمن من جهة نقدا للمعالجة بالتحليل النفسي على أنها ليست شيئـا جديدا لكونها طريقة الشامان ، ومن جهة أخرى تقديرا لقيمتها وقـد أصبحت الآن مؤهلا أكثر لفهم هذا التقدير بعد أن أعطيتنا كتاب **الفكر المتوحش**، وذلك بنسبة صلاحية هذين التعبرين المحررين عندك وبنسبة ما يكشفان للانسان عن ذاته • فهل تقبل أن نفكر أنك تعرض علينـا محاولات نوعا ما ، فى انشاء تحليل نفسي جمعي ، لا يعنى بالبنى الفردية للسيد س ولا بجملة البنى النفسية لمجتمع ما فحسب ، بل يرقى الىأبعد من ذلك الى الترسيمة التنظيمية لكل مجتمع ؟ على هذا الوجـه أفهم اهتمامك الكبير بعلم اللغة ، وبالمدرسة الفرنسية في التحليل النفسي ولنفس الاسباب : فقانون زنف Zinff مثلا يبين لنا أننا حين تتكلـم ونظننا متكلمين بحرية نكون فى الواقع خاضعين لسيطرة البنى تسبق ترسب المعنى فى فكرنا •

المستوى الثاني فى سؤالي يخص التاريخ : تتطرق للتاريخ فى نقدك لنتاج جان-بول سارتر ، الذي تختتم به **الفكر المتوحش** ؛ أترك النقاط التي نحن متفقون عليها فأقصد توا الى ما تنتقده فى التاريخ : من أنه

متواضعا : وهو فهم كيف يؤدي الفكر المتوحش وظيفته . فهو اذن شيء مواز ، على الارجح ، لقسم — وأقول لقسم — مما يفعله المحللون النفسانيون لاني أميز فى التحليل النفسي جانبين : نظرية الفكر التي أنشأها فرويد والمؤسسة على نقد للمعنى (وهنا أشعر أن الاثنولوجي يعمل على المجموعات نفس العمل الذي يجريه المحلل النفساني على الافراد) ؛ ثم نظرية العلاج التي أتركها جانبا بكل معنى الكلمة . لاني لا أعتقد قط أن الفكر البشري يتحسن بمجرد تحليله لذاته ؛ اذن ليس عملي من هذه الوجهة تحليلا نفسانيا ؛ وسيان عندي تماما ، تحسن الفكر البشري أم لا ؛ اذ ان ما يهمني هو أن أعرف كيف يؤدي وظيفته وحسب . هذا بشأن المسألة الاولى .

أما المسألة الثانية فاني أخشى سوء التفاهم بصددها، وليست هذه أول مرة أصادف فيها سوء التفاهم . ففي الحقيقة ، لا يتضمن ذلك الفصل الاخير أبدا نقدا للتاريخ ، بمعنى أني لم أكن أنا الباديء . فأنا لا أريد بالتاريخ سوءا ؛ بل اني أحترمه أعظم احترام ، وأقرأ باهتمام لا متناه وبولع حتى ، مؤلفات المؤرخين ، ودائما أردد أنه لا يمكن القيام بتحليل بنيوي قبل سؤال التاريخ عن كل ما يمكن أن يقدمه لنا فينيرنا به ، فائدة زهيدة يا للاسف حين نُعنى بالمجتمعات العديمة الكتابة . وكل ما فعلته هو أني حاولت فقط ردة فعل ، أو تمردا على نزعة كانت تظهر لي جلية فى فرنسا الفلسفية المعاصرة ، نزعة الى اعتبار المعرفة التاريخية أرفع شأنا من غيرها . فاكتفيت اذن بالتأكيد أن التاريخ معرفة مثل غيرها ، وأنه لا يمكن أن يوجد معرفة لما هو متصل ، ولكن فقط معرفة لما هو متقطع ، وأن التاريخ لا يتميز من هذه الناحية عن غيره بشيء . فأنا اذن لا أدعي أن مدونة التاريخ أفقر من غيرها ؛ والا لكان ادعائي غير صحيح بصورة سافرة ؛ لكنها مدونة وبالتالي فان المعرفة التاريخية تعاني نفس الاسقام التي تعانيها كل معرفة ، وهذا لا يعني

أنها ليست هامة جداء بيد أنك تضيف الى ذلكدعوى على النية (وأقول هذا بدون احتداد) ، ناسبا الي نزعة الى الاعتقاد أن الناس يعبرون عن أنفسهم فى مؤسساتهم المتبلورة بأفضل مما فى صيرورتهم التـاريخية • انك تطرح هنا مسألة كبيرة جدا ، لامسناها عدة مرات وكان يجب أن نطرقها ، ونطرقها الآن بفضلك ، وهي مسألة البنى التزمنية • بعد كـل حساب ، لا يكفي أن تقع الحوادث فى الزمان ، حتى نقول أنها تفلت من كل تحليل بنيوي ؛ فالمسألة هي أصعب وحسب • لكن موقف اللغويين ازاء هذه النقط واضح : فهم يقبلون بعلم لغة تزمني مثلما يقبلون بعلم لغة تزامني ؛ والاول يثير مشاكل أكثر ، لان المطلب الرئيسي هو البدء باكتشاف متتاليات ارجاعية ، فى صيرورة لا تمكّن دائما من عزل حدود للمقارنة • فلربما يستطيع التاريخ يوما أن يتوصل الى ذلك بمساعدة علم الاجتماع ، والاثنوغرافيا ، وغير ذلك مما يعلمه الله ، لكن ذلك اليوم لم يأت بعد • وبالتالي من الاجدر بنا أن نترك حاليا على حـدة مسألة البنى التزمنية ولنقف جهودنا على دراسة الجوانب التـي هـي فى قبضتنا •

والآن أصل الى النقطة الثالثة • أسلم بأن فى الصفحات الاخيرة من **الفكر المتوحش** شيئا من الغنائية الرخيصة ، وأني استرسل في قول أكثر مما كان ينبغي (وقد أخذ علي هذا زملاؤنا أهل العلوم الدقيقة والطبيعية)؛ لكني لا أعتقد أني وضعت في أيما لحظة تكافؤا بين الفكر العلمي الحديث والفكر السحري • وأنتم أنفسكم تقولون : الواحد متراص والآخر غير متراص ؛ وأعتقد أني قلت هذا القول بهذه الحدود نفسها تقريبا ، في الفصل الاول من كتابي حين قلت أن العلامة فاعل لاعادة تنظيـم المجموعة ، بينما المفهوم هو فاعل انفتاح المجموعة • اذ من المؤكد أني لو أردت أن أقيم تكافؤا بين العلم الحديث والسحر لسخروا مني بحق • كل ما أردت الاشارة اليه هو أن العلم الحديث ، يجد ، عبر تقدمه ،

بنفسه وداخل ذاته ، عددا من الاشياء التي تتيح له أن يحكم على الفكر السحري حكما أكثر تسامحا مما كان يصدره فى الماضي القريب •

جان كوينرنيه : ان فى تطبيق علم اللغة البنيوي على التزمن صعوبة حقا كبيرة • الا أن هناك مجالا يلازم فيه منذ زمن غير قصير تطبيق تحليلات مماثلة على التزمن ، هو مجال الاقتصاد السياسي • ففي هذا المجال ولد وكبر الاهتمام بدراسة أنماط تقلبات الاسعار ، ومتابعة الحقب الكبيرة ، وتحديد بعض أشكال المتتاليات • فقد كان فعلا تحت تصرف الاقتصاديين في القرن التاسع عشر مقدار كبير من المعلومات الاحصائية الجيدة ، وجهدوا في أن استخلصوا من تلك المواد ، عن طريق تلمس الواقع ، الانماط الرئيسية للتقلبات • فيوجد اذن حالة ــ وربما كانت ممتازة ــ ينصب فيها التحليل بصورة نموذجية على المتتاليات ، ويحقق فيها بلامراء بعض النجاح • وسبب ذلك كما يبدو لي هو أن الحوادث الاقتصادية تفلت الى حد كبير من مراقبة الناس الذين تصيبهم ، مراقبة واعية وارادية • فحين نقارن مثلا بين ظواهر القرابة والظواهر الاقتصادية ، نجدنا أمام شيئين متماثلين لان تلك الظواهر لا تدرك في كلا الجانبين الا على حقب من الزمان طويلة ، ولانها ظواهر لا يتوفر للانسان التدخل فيها تدخلا اراديا الا بصعوبة بالغة • وفي الحق أن هذا المجال هو الذي لاقت فيه على الارجح التحليلات البنيوية التزامنية والتزمنية على السواء ، أبرز ما عرف لها من التوفيقات •وليس أبدا من باب المصادفة أن يكون الاقتصاد قد نمّى التحليل البنيوي الى مستوى رفيع رفعة فائقة ، عن سبيل تقنيات مثل اللوحة الاقتصادية ، والمحاسبات الوطنية ، وسجل الزاد والمردود • ان نجاح وترقي التحليل، حين يطبق على بنى القرابة وعلى بنى الاقتصاد ، لهو معطى ابستمولوجي يتضمن بالتأكيد تعاليم •

كلود ليفي ـ شتروس : نعم ، أعتقد أيضا أنه يتضمن تعاليم ، وتعاليم ليست متفائلة تماما ، خصوصا لان الظواهر الاقتصادية مثال ملائم ملاءمة استثنائية ، بقدر ما نلاحظ بالدرجة الاولى مجتمعا لعبت فيه هذه الظواهر دورا جوهريا منذ زمن بعيد • ثم ان الايقاع وتواتر الحقب سريعان ، فقد حدث خلال قرن أو قرن ونصف عدد كبير من الامور ، منها ارجاعات عديدة يمكن ملاحظتها • وأخيرا ان مجتمعاتنا الرأسمالية مكونة بحيث وجدت كل تلك الظواهر مسجلة ومجمعة في وثائق ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، فيمكن اذن اعادة تمثيلها • دع أنه حتى في صدد اللسان تزداد المسألة صعوبة (وان سجل علم اللغة التزمني لنفسه نجاحات كبيرة) ، لان في تطور اللسان ركاما من الاشياء التي تفوتنا كليا ، بسبب عدم تدوينها حين كان يمكن ملاحظتها ، وعدم بقاء أثر لها • ولم يكتب لنا الحظ أن نجد دائما ظواهر ملائمة •

بيير هـادو : اهديت الكتاب الى السيد مرلو–بونتي وقد لفت البعض انتباهي الى أن تعبير « الفكر المتوحش » ورد من قبل عند مرلو–بونتي ، فهل من علاقة بين فكرك وفكره ؟ فقد تناقشنا بعض الشيء فى هذا الموضوع خلال السنة •

كلود ليفي ـ شتروس : هنا أقول ان العلاقة لم تكن مضاعفة الخط الواحد ، بقدر ما كان مرلو – بونتي في ما كتبه وفي محادثاتنا أكثر شعورا بأن ما كنت أفعله ينتمي الى فلسفته ، من شعوري بأني التقي معه ، وذلك على الارجح بسبب تناف ، مؤقت ربما ، بين طريقة الفيلسوف وطريقة الاثنولوجي في وضع المسائل • والسيد ريكور يشدد مرارا على هذه الناحية وبكثير من الحق • ذلك أن عند الفيلسوف تطلبا ، أشير اليه ولا أنتقده ، تطلب : كل شيء أولا شيء • فهو مهموم مباشرة بامتداد الموقف الى المجالات الاخرى ، راغب في استمرار

التماسك ، وحين يرى نقطة يضعف فيها التماسك ، يثير اعتراضا أساسيا ، في حين أن الاثنولوجي أقل هما تجاه الغد : يحاول مسألة ثم أخرى ، ثم ثالثة ، واذا وجد تناقضا بين المضامين الفلسفية لمحاولاته الثلاث ، فلا يضيق صدره ، لان التفكير الفلسفي عنده وسيلة لا غاية •

جان كونيل : تشرح في كتابك أن الفكر المتوحش قد اجتذب الفكر الغربي باستمرار • فأتساءل اذا لم تكن المسألة التي تضعها هي التالية : كل مرة نحاول تفسيرا للمتوحشين ، ألسنا في الحقيقة نعطيهم على هذا النحو معنى كيما نفهم نحن أنفسنا ؟ أرى كتاب القرن الثامن عشر يتكلمون عن طيبة المتوحش ، باعتبار المواضيع التي كانوا يعالجونها • وأرى في عهد الاستعمار البورجوازي أنه قد وجد تصور عن البدائيين يجعلهم في مستوى أدنى (« قبل منطقي ») • وما يبدو لي جديرا بالملاحظة هو أن اقتصاديين وروائيين حتى ، يتكلمون في أيامنا ، عن البنيوية أيضا ونجد آراءهم في كتابك • وبكلام آخر ، أليس ماتنشئه هو فلسفة ، لا بل فلسفة تناسب عصرنا ؟ ولكن استطيع حينئذ أن أرفض هذه الفلسفة واستعيد نظرية العقلية البدائية قارئا اياها على مستوى آخر ، مستوى الرموز مثلا ، فأعطيها معنى آخر • وبكلمة ، هل تقوم المسألة على التصنيف أم على اعطاء معنى ؟

كلود ليفي ـ شتروس : أعتقد أن أحد اسباب جاذبية الاثنولوجيا ، حتى بالنسبة لغير المحترفين ، هو قوة حوافزها في صميم مجتمعنا الذي تستوعب عددا من مآسيه • ولكن يجب أن نضع تمييزا : اذ ما هو ، في النهاية ، الحافز لانشاء علم الفلك ؟ لقد كان اهتمامات لاهوتية ، والرغبة في التنجيم من أجل ضمان النجاح لاقوياء هذا العالم في الحرب أو في الحب • على أن هذه لم تكن الاسباب الحقيقية لاهمية علم الفلك ، لان الاسباب الحقيقية تكمن في نتائج تقع فائدتها على مستوى

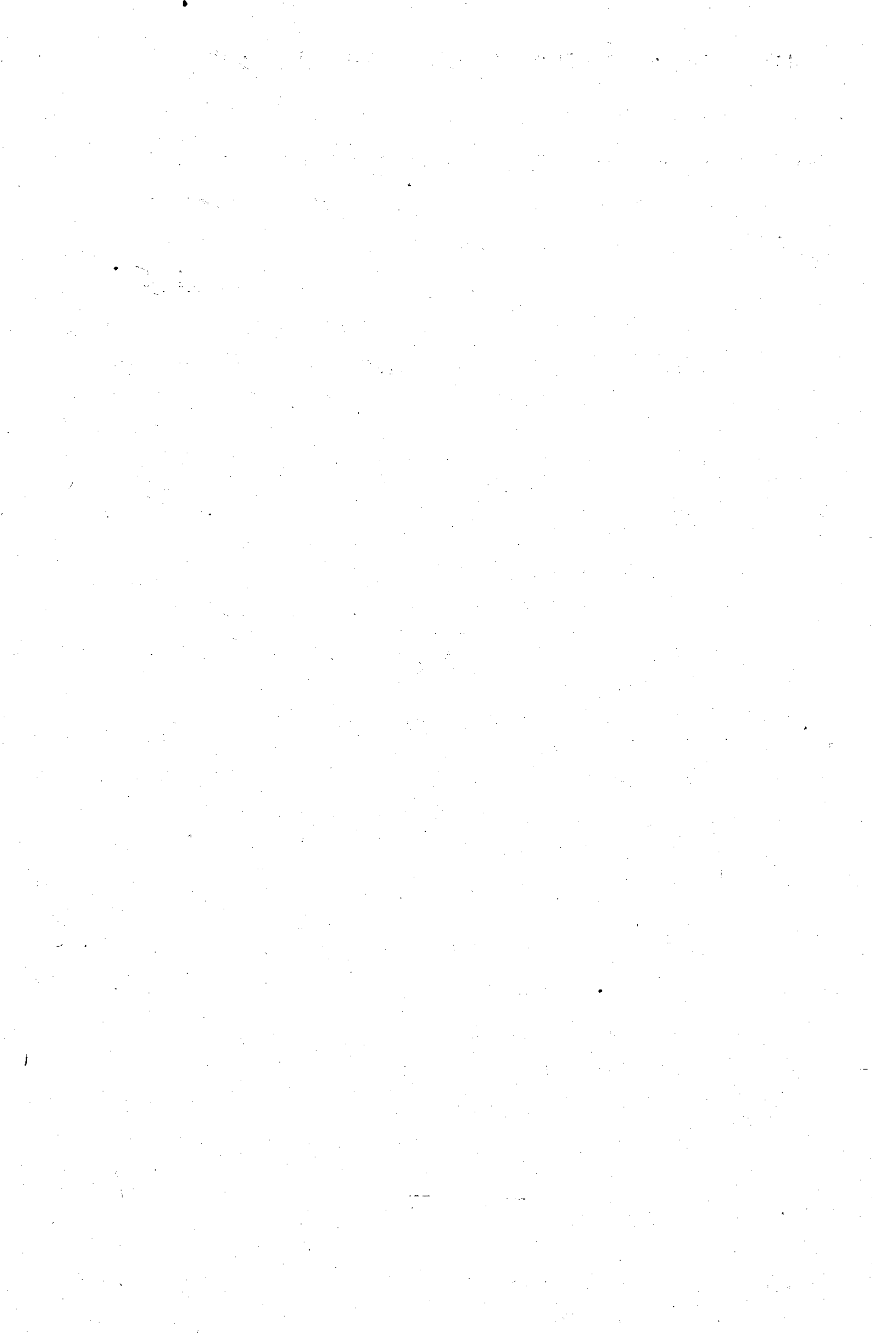
آخر • اذن لا أعتقد بوجود تناقض بين هذين الجانبين • فبوسعنا تماما أن نعترف بعدم نقاء حوافزنا لدراسة الاثنولوجيا من وجهة النظر العلمية ؛ ومع ذلك ، اذا استحقت الاثنولوجيا يوما أن يعترف لها بدورها في تكوين العلوم الانسانية ، فسيكون ذلك لاسباب أخرى •

بول ريكور : ربما نستطيع التفاهم على المجال الذي ينفتح عليه اتناجك • هل تضع فلسفتك بين الحوافز الشخصية ، العابرة ، الغير نقية ؟ أم انك تعتقد بوجود فلسفة بنيوية ، متضامنة مع الطريقة البنيوية؟ في الحالة الاولى يكون اتناجك محايدا من الناحية الفلسفية ، ويترك لنا مسؤولية الاختيار بتكاليفه وتبعاته •

كلود ليفي ـ شتروس : لا ، أكون مرائيا اذا ادعيت ذلك ،ولكني أتكلم هنا لا بصفتي رجل علم كما أحاول أن أكون عندما أجتهد في حل المشاكل الاثنولوجية ، بل بصفتي انسانا تثقف بالفلسفة ولا يستطيع الا أن يكون فيلسوفا الى حد ما • بعد هذا التحفظ أعترف بأن الفلسفة التي تبدو لي متضمنة في ابحاثي هي أقل الفلسفات ادعاء للتحليق، وأقصر نظرا من كل الفلسفات التي وضعت خطوطها في دراستك حين تساءلت عن الاتجاهات الممكنة للبنيوية من الناحية الفلسفية ، ولاحظت امكان عدة اتجاهات فلسفية فيها • اذن لا أخاف لو برهن لي أن البنيوية تؤول الى اعادة ترميم نوع من المادية العامية • بيد أني اعرف من جهة أخرى أن هذا الاتجاه مضاد لحركة الفكر الفلسفي المعاصر ، ومعرفتي تكفي لان أفرض على نفسي موقفا حذرا : أقرأ اللوحة الدليل فامتنع عن التقدم على الطريق الذي تدلني عليه •

بول ريكور : أرى بالاحرى أن هذه الفلسفة الضمنية تدخل في حقل عملك ، حيث أجد الصورة القصوى عن اللاأدرية المعاصرة ؛ ففي نظرك لا يوجد « رسالة » وأقصد بالرسالة لا المعنى السيبرتتيكي بل

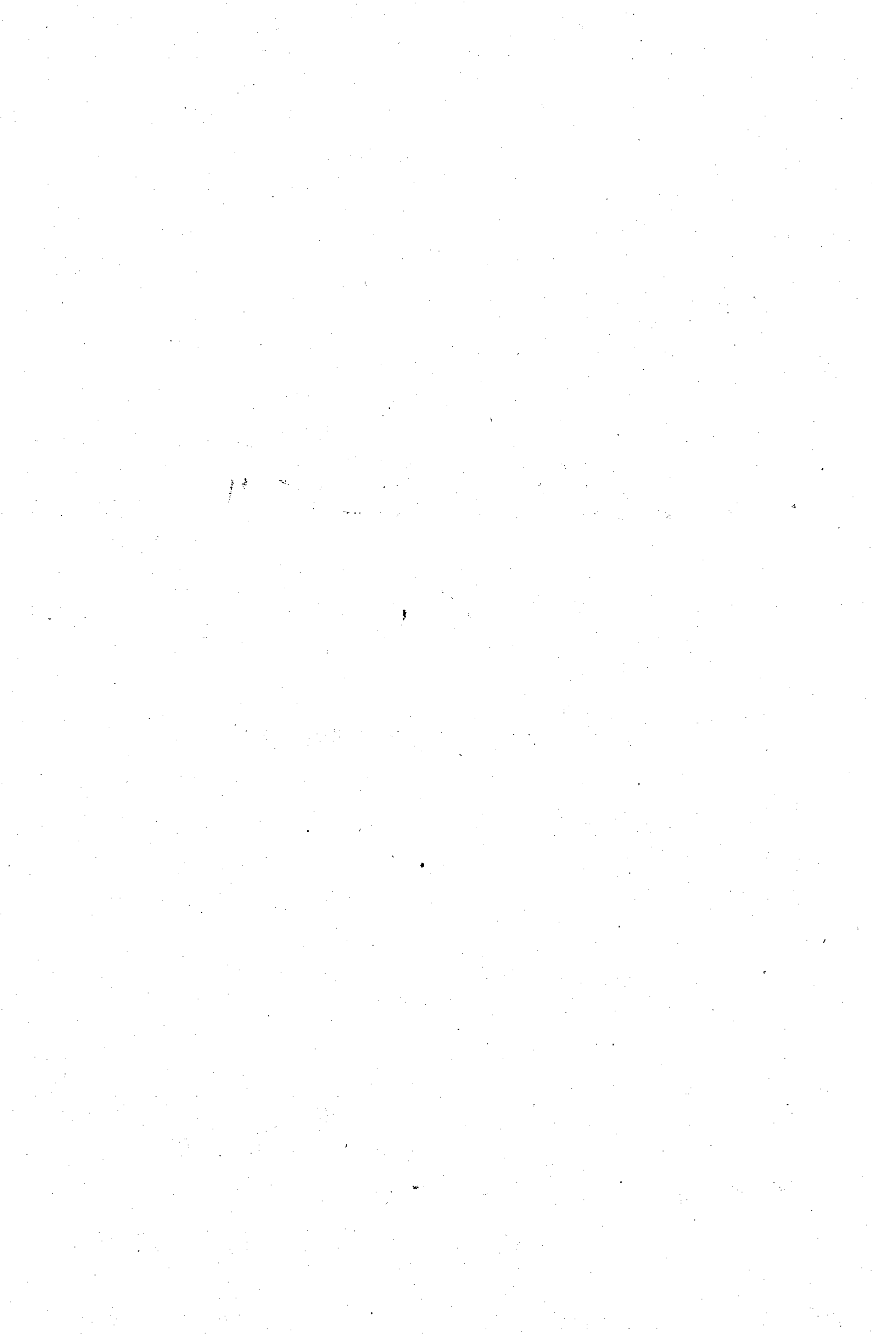
المعنى الديني ، أنت اذن من المعنى في نقطة اليأس ؟ والذي ينقذك هو اعتقادك انه اذا لم يكن للناس ما يقولونه فالذي يقولونه يقولونه بطريقة تمكن من اخضاع قولهم للبنيوية • تنقذ المعنى ، ولكنه معنى اللامعنى ، أي تنظيم نحوي رائع لقول لا يفصح عن شيء • انـي أراك على تخوم اللاأدرية والتنظيم النحوي وقد أصبح هذا فـوق كل فهم ، مما يجعلك جذابا ومقلقا •



البنيـة ـ اللفظـة ـ الحادثـة

بول ريكور

(من المجلة : Esprit عدد ايار ١٩٦٧)



غاية هذا العرض أن يعيد المناقشة عن البنيويات الى منطلقها الاصلي: علم اللغة . فهناك تتوفر لنا أكثر الفرص ملاءمة لانارة الجدال وتجريده من الاهواء . لانه هنا يمكن ادراك صلاحية التحليل البنيوي وحدود هذه الصلاحية .

١) أود الابانة عن أن نموذج المعقولية التي تتجلى في النظريات البنيوية ينجح في كل الحالات التي يمكن فيها :

آ ــ العمل على جسم سابق التكوين ، محدد ، مغلق ، وبهذا المعنى ميت ؛

ب ــ انشاء جداول للعناصر والوحدات ؛

جـ ــ وضع هذه العناصر أو الوحدات في علاقات تقابل ، ويفضّل التقابل الزوجي .

د ــ انشاء جبر أو نظام تركيبي، لهذه العناصر أو أزواج التقابل.

فأسمي **لغة** ذلك الوجه من اللسان ، الذي تلائمه عملية الجرد هذه ؛ وأسمي **تسميات تصنيفية** الجداول والنظم التركيبية ، التي تنشأ عن اللغة ؛ وأسمي **علم العلامات** النموذج الناظم لهذا البحث.

٢) ثم أود البرهان على أن لنجاح المشروع وجها سلبيا اذ يترك خارج الفكر البنيوي فهم الافعال والعمليات والسيرورات المكونة للقول • تقود البنيوية الى تصور العلاقة بين اللغة والقول علاقةتناقض• ولذا سأجعل من **الجملة** أو **العبارة** ، محور هذا التحقيق الثاني ، وأسمي **علم الدلالة** النموذج الناظم لفهم العبارة •

٣) أود أخيرا أن أعطي لمحة عن الابحاث التي تفلت منذ الآن من النموذج البنيوي — على الاقل في الصيغة المحددة في القسم الاول — والتي تؤذن بفهم جديد للعمليات والسيرورات ؛ هذا الفهم الجديد يتخطى التناقض بين البنية والحادثة ، بين المنظومة والفعل ، التناقض الذي يقودنا اليه الاستقصاء البنيوي •

سأقول بهذه المناسبة بعض الكلام في علم اللغة عند تشومسكي ، المعروف باسم « علم الصرف التوليدي » الذي ينهي البنيوية بوصفها علم التسميات التصنيفية والجداول المغلقة والتركيبات الساقطة •

على أني أود خصوصا أن ارسم الخطوط الكبرى لتأمل في اللفظة باعتبارها المجال اللساني حيث يجري باستمرار التبادل بين البنية والحادثة • من هنا عنوان هذا البحث ، عنوان جاءت فيه اللفظة طرفا ثالثا بين البنية والحادثة •

بحث كهذا يفترض مسبقا مفهوما أساسيا جدا : هو أن اللسان مؤلف من مستويات على مراتب • هذا ما يقره كل اللغويين ، لكن كثيرين يلطفون هذا الاثبات مخضعين كل المستويات لطريقة واحدة ، مثلا تلك الطريقة التي نجحت على المستوى الصوتي ، حيث نجدنا فعلا لدى : جداول محدودة ومغلقة ، وكيانات يحددها مجرد اختبار التبديل، وعلاقات تقابل زوجي ، وأخيرا لدى تشكيلات صارمة بين وحدات متقطعة • المسألة هي أن نعرف ما اذا كانت المستويات كلها متجانسة •

ولذا ستستند كل دراستي الى الفكرة بأن الانتقال الى وحدة جديدة للقول مكونة من الجملة أو العبارة ، يمثل انقطاعا ، تحولا في مراتب المستويات • دع أني لن أستنفد مسألة المستويات ، لا بل سأترك في النهاية منفذا لاحتمال وجود مستويات أخرى ، مثل النص الذي يستدعي بترابطه الداخلي معقولية من نوع آخر غير معقولية الجملة واللفظة في موقعها من الجملة • ان أونطولوجيا في الـ لوغوس أو القول ، انما تجد لها موضعا مع هذه الوحدات الكبيرة على مستوى النص • فاذا كان ثمة نقطة فيها اللسان ينفذ الى الوجود فهي في مستوى من التجلي أو الانجاز ، قوانينه اصيلة تفلت من قوانين المستويات السابقة •

بكلمة ، ان تسلسل الطرائق ووجهات النظر والنماذج نتيجة لترتب المستويات في عمل اللسان •

١ ـ استباقات التحليل البنيوي :

ستعنيني النتائج أقل من المستبقات التي تقوم عليها نظرية علم اللغة بالمعنى الكامل لكلمة نظرية من حيث فلسفة العلوم • هذه المستبقات لاحظها دوسوسّور مؤسس علم اللغة الحديث ، لكنه أفصح عنها بلسان يظل في الغالب الغالب متخلفا عن المفهومية الجديدة التي اتى بها • لويس هيلمسلف هو الذي أقام من هذه المستبقات نظرية في كتابه : تمهيد لنظرية في اللسان Prolegomena to a theory of Language عام ١٩٤٣ ؛ هو أول من عبر عنها في قول مجانس للموضوع :

١ً) اللسان موضوع لعلم تجريبي ؛ تجريبي مأخوذة هنا بالمعنى الحديث : لا تعني دور الملاحظة وأولويتها فحسب، بل تعني أيضا إلحاق عمليات الاستقراء للاستنتاج والحساب •

هذا الامكان لجعل اللسان موضوعا لعلم يتميز به ، فكرة أتى بها دوسوسّور في تمييزه الشهير بين اللغة والكلام . فهو اذ يدفع جهة الكلام التنفيــذ البسيكوفيزيولوجي والانجــاز الفردي والتشكيلات العفوية للقول ، يخص اللغة بالقواعد المقوّمة للمدونــة ، والمؤسسة الصالحة عند جماعة لغوية ، ومجموعة الكيانات التي بينها يجري اختيار تشكيلات القول العفوية . فيفرّق هكذاموضوعا متجانسا : كل مايتعلق باللغة يقع على صعيد واحد ، في حين أن الكلام ، يتوزع في ميادين علم النفس الفيزيولوجي ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، ولا يبدو من شأنه أن يؤلف موضوعا واحدا لعلم خاص .

٢ً) في اللغة نفسها يجب التمييز بين علم أحوال المنظومة أو علم االمغة التزامني ، وعلم التحولات أو علم اللغة التزمني . هنا أيضا كان دوسوسّور قد فتح الطريق اذ أعلن بقوة أنــه لا يمكن القيام بهــاتين المحاولتين معا وأنه يجب عدا ذلك اتباع الثانيةللاولى. ثم جاء هيلمسلف يدفع قضية دوسوسّور الىصورتها الجذرية فيقول: «خلف كلسيرورة يجب التوصل الى اكتشاف منظومة » . بهذا الاستباق الثاني ينفتــح مجال معقولية جديدة : التحول بحد ذاته غير معقول ؛ لا يفهم الا انتقالا للمنظومة من حال الى آخر ؛ هذا هو معنى لفظة تزمن . اذن فالمنظومة، أي اتساق العناصر في مجموعة متواجدة معا ، هي الاسبق الى الفهم .

٣ً) ليس في وضع من أوضاع المنظومة من حدود مطلقة ، بــل علاقات تبعية متبادلة. كان دوسوسّور يقول : « ليس اللسان جوهرا بل صورة » . واذا كان التقابل هو الصورة المعقولة الاولى ، قلنا أيضا مع دوسوسّور : « في اللغة يوجد فروق وحسب » ؛ وذا يعني أنه يجب ألا تعتبر الدلالات المنوطة بالعلامات المعزولة رقعا في مجموعة اسماء ملفقة، ولكن القيم النسبية ، السلبية ، التقابلية لتلك العلامات فيما بينها .

٤ً) يجب أن تعتبر مجموعة العلامات منظومة مغلقة من أجل اخضاعها للتحليل • هذا بديهي على مستوى علم الاصوات الذي يحصي الوحدات الصوتية في لغة ما • لكنه يصدق أيضا على مستوى المفردات، في قاموس وحيد اللغة مثلا : فمجموعة المفردات كبيرة جدا لكنها ليست بلا نهاية • بيد أننا نفهمه فهما أفضل اذا توصلنا الى استبدال هذه القائمة التي لا تعد عمليا ، بجدول محدود من العلامات الثانوية التي تقوم أساسا لمجموعة المفردات ، والتي نستطيع انطلاقا منها أن ننشيء من جديد الغنى الذي لا يقدر ، الذي تزخر به المعاجم الحقيقية • أخيرا ، لا يخلو من فائدة أن نذكّر بأن النحو يتألف من منظومة محدودة من صيغ وقواعد • واذا أضفنا أن اللغوي ، على مستوى أعلى أيضا ، يعمل دائما على متن من النصوص محدود ، أمكننا التعبير بوجه عام عن بديهية السياج الناظم لعمل التحليل • وهكذا ، اذ يعمل اللغوي داخل منظومة مغلقة من العلامات يستطيع اعتبار هذه المنظومة لا خارج لها ولكن فقط علاقات داخلية • وعليه حد هيلمسلف البنية بأنها : **كيان من التبعيات الداخلية قائم بذاته** •

٥ً) التحديد الجديد للعلامة الذي يلائم هذه المستبقات الاربع يباين تماما الفكرة الساذجة فكرة ان العلامة وجدت من أجل شيء • اذا فصلنا اللغة بصورة صحيحة عن الكلام ، أحوال المنظومة عن تاريخ التحولات ، الصورة عن الجوهر ، المنظومة المغلقة من العلامات عن كل ما يحيل الى عالم ما ، وجب علينا اذن أن نحد العلامة لا بعلاقة التقابل بينها وبين كل العلامات الاخرى من نفس المستوى وحسب ، ولكن أن نحدها أيضا في ذاتها بأنها فرق داخلي بحت ، متضمن في ذاته تضمنا خالصا • انما يميز دوسوسّور بهذا المعنى الدال عن المدلول،وهيلمسف، التعبير عن المضمون • يمكن أن توضع هذه المستبقة على رأس القائمة كمافعل دوسوسّور في كتابه:**دروس في علم اللغة العام** ؛ غير أن تحديد

العلامة هذا ، في الترتيب المنطقـي للمستبقـات ، ليس سوى تكريس لمجموعة البديهيات السابقة • في نظام عالم مغلق من العـلامات تكون العلامة اما فرقا بين علامات واما فرقا داخل كـل علامة بين التعبـير والمضمون • هذا الواقع ذو الوجهين حاصل بكامله داخل السيـاج اللغـوي •

وهكذا يمكن أن تحدالبنيوية بأنها تيقظ الوعي الكامل للمقتضيات التي تتضمنهـا هذه المستبقـات • أجل ، لا يستعمل دوسوسّور لفظة « structure » = بنية ، ولكن لفظة « système » = منظومة • ظهرت لفظة بنية فقط سنة ١٩٢٨ في أول مؤتمر دولي للغويين في لاهاي تحت صيغـة « Structure d'un système » = بنية منظومة • كـانت لفظة بنية تبدوهكذا تخصيصا للمنظومةوتدلعلى التشكيلات التقييدية، المقتطعة من حقل امكانات التمفصل والتشكل ، التي تعطي اللغةهيئتها الفردية • الا أن اللفظة أصبحت ، بصيغة الصفة structural = بنيوي مرادفة للفظة منظومة • فتقـابل هكذا وجهة النظر البنيوية مقـابلة « اجمالية » وجهة النظر التكوينية • فهي تجمـع معا فكرة التزامـن (أولوية وضع اللغة على التاريخ) وفكرة الكيان العضوي (اللغـة من حيث هي وحدة جوامل تشتمل على أجزاء) واخيرا فكرة التشكل (اللغة من حيث هي ترتيب محدد بين وحدات متقطعة) • هكذا تـم الانتقال من التعبـير « بنية منظومة » الى الصفة « بنيوي » تحديـدا لوجهة النظر التي تحتوي هذه الافكار المختلفة ، ثم الى « بنيوية » ، للدلالة على الابحاث التي تأخذ وجهة النظر البنيوية افتراضا للعمل ، لا بل ايديولوجيا وسلاحا للقتال •

٢ ـ الكلام بوصفه قولا :

هذا الفتح الذي تحققه وجهة النظر البنيوية هو أكيدا انجاز في مجال العلمية • عندما يقيم علم اللغة الموضوع اللغوي موضوعا مستقلا، فانه يقيم نفسه علما مستقلا • ولكن بأي ثمن ؟ كل من البديهيات التي عددناها هي بنفس الوقت ربح وخسارة •

فعل الكلام لا يُستبعد فقط من حيث هو تنفيذ خارجي ، احراز فردي ، ولكن أيضا من حيث هو تشكيل عفوي ، اتتاج عبارات غير معروفة قبلا • بيد أن هذا هو جوهر اللسان وغايته بالمعنى الدقيق •

ويُستبعد في نفس الوقت التاريخ ، لا تبدلُ المنظومة من حال الى حال وحسب ، ولكن أيضا اتتاجُ الثقافة واتتاج الانسان لذاته اذ ينتج لغته • ما كان هومبولدت Humboldt قد سماه اتتاجا بمقابل المصنوع الجاهز ، ليس فقط التزمن يعني التغير والانتقال من حال المنظومة الى حال آخر لها ، ولكنه أيضا تولّد الكلام بوصفه انشاء حركية عميقة ، في كل شخص وفي الجميع •

ويستبعد أيضا ، مع التركيبة العفوية والتوليد ، القصد الاول من اللسان وهو قول شيء في شيء ما ؛ هذا القصد يفهمه مباشرة كلا المتكلم والمخاطب • فاللسان عندهما يرمي الى شيء أو بالضبط الى شيئين : مرمى فكري (قول شيء) ، واسناد عيني (القول في شيء ما) • في هذه الحركة يجتاز اللسان عتبتين : عتبةَ ذهنيةِ المعنى وما وراء هذا المعنى ، عتبةَ الاسناد • عبر هذه العتبة المزدوجة وبفضل حركة التجاوز هذه ، فاللسان «يعني» ؛ يحوز الواقع ويُعبِّر عن حيازة الواقع للفكر • كان ميّه Meillet يقول : يجب الانتباه في اللسان الى شيئين : التضمن والتعالي ؛ تقول اليوم : البنية المتضمنة ومستوى

التجلي حيث مفعول المعنى يسقط بين كفي الواقع • تجب اذن موازنة بديهية السياج سياج عالم العلامات ، بتركيز الانتباه على الوظيفية الاولى للسان ألا وهي القول • تشكل هذه الوظيفة انفتاح اللسان وانكشافه بمقابلة سياج عالم العلامات •

هذه الاعتبارات ، التي ما تزال ركامية ، وتفتقر الى التحليل ، تقودنا الى أن نضع موضع التساؤل كل المفترضات الاولى لعلم اللسان، وهي أن اللسان موضوع لعلم تجريبي • أن يكون اللسان موضوعا يبقى هذا سائغا بذاته ما بقي الوعي النقدي لـ أن هذا الموضوع تحدده تماما الاساليب والطرائق والمستبقات وأخيرا بنية النظرية التي هي الناظم للانشاء • أما اذا غابت عن النظر تبعية الموضوع للطريقة والنظرية فيُظنّ مطلقا ما ليس هو سوى ظاهرة • بيد أن خبرة المتكلم وخبرة المخاطب تحدّان من ادعاء صفة الاطلاق لذلك • خبرتنا في اللسان تكشف شيئا من نمط وجوده يتأبى على هذا الارجاع • فاللسان عندنا ، نحن المتكلمين ، ليس موضوعا بل وساطة ؛ انه ما نعبر من خلاله وبوسيلته عن أنفسنا وعن الاشياء • التكلم هو الفعل الذي يتغلب به المتكلم على سياج عالم العلامات بقصد أن يقول بعض الشيء في أحد الاشياء لاحد الاشخاص ؛ التكلم هو الفعل الذي يتجاوز به اللسان نفسه علامةً ، الى مآله والى مقابله • يريد اللسان أن يتوارى ؛ يريد أن يموت من حيث هو موضوع •

ترتسم هنا ملامح متناقضة : فعلم اللسان البنيوي من جهة ينطلق من قرار يحمل طابع فلسفة العلوم ، قرار الوقوف داخل سياج عالم العلامات • بموجب هذا القرار ، ليس للمنظومة خارج ؛ انها كيان مستقل من التبعيات الداخلية•لكن هذا القرار منهجي يدخل الضيم على التجربة اللغوية • فالمهمة تقوم من جهة اخرى على أن نعيد الى فهم اللسان ما يستبعده النموذج البنيوي ، وذلك ربما كان اللسان

نفسه من حيث هو فعل التكلم ، من حيث هو **قول** . يجب هنا مقاومة التهويل ، مقاومة الارهاب الحقيقي الذي ينشره أناس غير لغويين ، مستندين الى نموذج عمموه بسذاجة خارج شروط عمله الوظيفي . ان ظهور « أدب » يتخذ موضوعا له نفس أفعاله يوهم بأن النموذج البنيوي يستنفد فهم اللسان . لكن « الادب » نفسه ، في هذا التصور ، شاذ في حقل اللسان ، اذ انه لا يطابق العلم ولا الشعر اللذين يلتزمان برسالة اللسان من حيث هو قول . حتى اقتران علم اللسان البنيوي و « الادب » البنيوي يجب أن يعتبر حادثة جائزة ومحدودة المدى جدا . وادعاء البعض وجوب رفع الزيف عن الكلام والقول ، هذا الادعاء هو الذي يجب رفع الزيف عنه بصفته غير نقدي وساذج .

يبدو لي أن مهمتنا هي بالاحرى المضي في المتناقضة حتى نهايتها لان تصورها الواضح هو بالضبط الحصيلة المتقدمة للفهم البنيوي . وصياغة هذه المتناقضة هي اليوم الشرط للعودة الى فهم كامل للسّان، بحيث يكون **تعقل** اللسان تعقل وحدة ذلك الموضوع عينه الذي فصمه دوسوسّور ، وحدة اللغة والكلام .

ولكن كيف ؟ ان الخطر هنا هو اقامة فنومنولوجيا للكلام مقابل علم للغة مع خطر السقوط ثانية في الشرح السيكولوجي الذي انقذنا منه علم اللغة البنيوي . من أجل تعقل المتناقضة القائمة بين اللغة والكلام تعقلا حقا ، يلزم انتاج فعل الكلام في قلب اللغة نفسها ، على شكل بعث المعنى مرتبة أعلى ، على شكل انتاج جدلي تبرز معه المنظومة فعلا والبنية حادثة .

إي نعم ! هذا البعث وهذا الانتاج وهذا التقدم يمكن أن تعقل اذا فهمنا فهما صحيحا مستويات اللسان المتسلسلة .

لم نقل بعد شيئا في هذا التسلسل المتراتب ما دمنا قد وصفنا فقط مستويين من التمفصل الواحد فوق الآخر ، التمفصل الصوتي والتمفصل المعجمي (لا بل مستويات ثلاثة اذا أضفنا التمفصل النحوي). ولم نَتَخَطَّ بعدُ وجهة النظر التي تعتبر اللغة تسميات تصنيفية متنٍ نصوص أُصدِرت سلفا ، فهرس علامات ، قائمة وحدات ، تركيبة عناصر . لان تسلسل مستويات اللسان يشتمل أيضا على شيء غير سلسلة منظومات متمفصلة ، المنظومات : الصوتية والمعجمية والنحوية . فحين ننتقل من وحدات على صعيد اللغة الى الوحدة الجديدة التي تنشئها الجملة أو العبارة ، ننتقل الى مستوى مختلف اختلافا حقيقيا . اذ ان هذه الوحدة ليست وحدة لغوية بل وحدة كلام أو قول . بتغيير الوحدة تتغير الوظيفة أيضا ، أو بالاحرى يتم الانتقال من البنية الى الوظيفة . حينئذ تسنح فرصة لمصادفة اللسان من حيث هو قول .

الوحدة الجديدة التي سنعنى بها ليست قط وحدة علم علامات ـ اذا كان المقصود كل ما يخص علاقات التبعية الداخلية بين العلامات أو مركبات العلامات . هذه الوحدة الكبيرة هي بالضبط وحدة دلالية ، اذا أخذنا الكلمة بمعناها القوي ، لا الدلالة بوجه عام وحسب ولكن أيضا قَوْل شيء ، الاحالة من العلامة الى الشيء .

في العبارة أو الجملة كل السمات التي تحمل التناقض بين البنية والحادثة . فتثبت الجملة بميزاتها الخاصة أن المتناقضة لا تقيم تقابلا بين اللسان وشيء غير ذاته ، لكنها تخترق اللسان من مركزه ، في صميم تحققه .

١) ان نمط حضور القول هو **فعل** ، هو القول مرجعا (بنفنيست) وبوصفه كذلك فهو من طبيعة الحادثة . التكلم حادثة

راهنة ، فعل عابر ، متلاشٍ ؛ اما المنظومة فهي محايدة زمنيا لانهـا بالقوة أو ضمنية فقط •

١) يقوم القول على سلسلة من **الاختيارات** بها تنتخب دلالات وتستبعد أخرى ؛ هذا الاختيار يقابله في المنظومة طابع القَسْر •

٣) تأتي هذه الاختيارات بتركيبات **جديدة** : ارسال جمل غير معروفة هو جوهر فعل التكلم ، وفهم هذه الجمل جوهر فعل فهم الكلام • انتاج الجمل الغير معروفة قبلا بعدد لامتناه بالقوة يقابله في المنظومة فهرس محدود ومغلق من العلامات •

٤) تستمد اللغة سمة الاحالة من القول بوصفه مرجعا • التكلم هو قول شيء في بعض الاشياء • وهنا نلتقي مع فْرِغه Frege وهوسِّرل Husserl • كان فرغه قد بيَّن تماما في مقاله الشهير « حول المعنى والمدلول عليه » : « Uber Sinn und Bedeutung » (المعنى والاحالة : Sense and Reference ، في ترجمة بيتر غيتش Peter Geach وماكس بلاك Max Black) ، أن مرمى اللسان مزدوج: مرمى معنى فكري ومثالي (أي لا من العالم الطبيعي أو النفسي)ومرمى احالة : لئن أمكن القول أن لا وجود للمعنى لكونه مجرد موضوع للفكر ، فان الاحالة هي التي تعطي جذورا لكلماتنا وعباراتنا في الواقع: « تتوقع احالة للعبارة نفسها : وتَطَلّبُ الحقيقية هذا هو الذي يدفعنا لان نسير في طريق الاحالة » • ومسيرة المعنى (المثالي) هذا نحو الاحالة (العينية) هي روح اللسان عينها • وهوسرل في **ابحاثه المنطقية** لا يقول غير هذا : المعنى الفكري المثالي هو فراغ وغياب يطلبان امتلاء • وبالامتلاء يأتي اللسان الى ذاته يعني يتلاشى في ذاته • ولا فرق ، سواء ميزنا مع فرغه بين المعنى والاحالة أم بين الاحالة وملء الفراغ مع هوسِّرل ، فان ما تؤلفه هو قصد" دال"

يحطم سياج العلامة ، يفتح العلامة نحو الآخر ، وباختصار ينشيء اللسان قولا ، قول شيء في بعض الاشياء . اللحظة التي يتم فيها الانعطاف من مثالية المعنى الى واقع الشيء هي لحظة تجاوز العلامة . هذه اللحظة مواقتة للجملة . انما يقول اللسان شيئا على مستوى الجملة ، ولا يقول شيئا دون هذا المستوى . بالفعل ، ان ربط فرغه المزدوج هو المحرك ونقطة ارتكاز الاسناد ، طالما ان « قول شيء » يدل على مثالية المعنى ، و « القول في شيء » ، يدل على حركة المعنى نحو الاحالة .

اذن يجب ألا نضع تقابلا بين تحديدين للعلامة ، الاول فرق داخلي بين الدال والمدلول ، والثاني احالة خارجية من العلامة الى الشيء . ليس علينا أن نختار بين هذين التحديدين ، لان الواحد يعود الى بنية العلامة في المنظومة ، والآخر الى وظيفتها في الجملة .

٥) السمة الاخيرة في القول بوصفه مرجعا : الحادثة ، الاختيار ، الابتداع ، الاحالة ، وكلها تتضمن ايضا نحوا خاصا من الدلالة على الذات القائلة . شخص يكلم آخر ؛ هذا هو جوهر فعل التواصل . بهذه الخاصة ، يقابل فعل الكلام سمة المنظومة المغلقة أو يجب بالاحرى القول انه ليس للمنظومة فاعل ، حتى ولا ذات مغفلة ؛ فالسؤال : من يتكلم ؟ لا معنى له على مستوى اللغة ، لان اللغة آلة محايدة ، أداة جاهزة وحسب ؛ اللغة لا تنتمي الى انسان وليست لها هوية انسانية ما . ولكن على مستوى الجملة يرد السؤال : من المتكلم ؟ جوابه ليس حتما : أنا . لكن السؤال : من المتكلم ؟ ، حتى لو بقي مجرد سؤال ، سؤالا بلا جواب ، يجد له معنى على هذا المستوى فقط . يوجد كلام حيث تستطيع ذات أن تستعيد في فعل ، في القول مرجعا فريدا ، منظومة العلامات التي تضعها اللغة تحت تصرفها ؛ هذه المنظومة تظل بالقوة ما لم تتم على يد شخص يحققها ، يفعلها في مخاطبته شخصا

آخر • اذن ، ذاتية فعل القول هي رأسا ذاتية مشتركة ، ذاتية تخاطب•

ولكن هنا أيضا لا يمكن الاكتفاء بترديد هذه التحليلات الكلاسيكية عن الفنومنولوجيا الهوسرلية والفنومنولوجيا اللاحقة ، بل يجب دمجها في المجال اللغوي حسب الاسلوب المقترح أعلاه • فمثلما يجب ربط الانتقال من علم العلامات الى علم الدلالات في الوحدة الجديدة ، وحدة الجملة ، يجب أيضا أن نبين كيف تتأتى الذات الى قولها الخاص بواسطة الوحدة عينها• وهنا تجد فنومنولوجيا الذات المتكلمة مستندا وطيدا في أبحاث اللغويين أمثال اميل بنفنيست ، حول الضمير الشخصي والصيغ الفعلية المقاربة (ضمائر الاشارة ، ظرفا الزمان والمكان) ، حول اسم العلم ، والفعل وأزمنة الفعل ، حول الاثبات والنفي ، وعموما حول صيغ التخاطب الملازمة للقول مرجعا • التعبير نفسه : القول مرجعا ، يدل على أنه لا يكفي أن نرصف فنومنولوجيا فعل القول الغامضة الى علم المنظومة اللغوي الصارم ، بل ان المسألة هي أن نربط اللغة بالكلام في القول بوصفه عملا •

سأقتصر هنا على مثال واحد ، الضمير الشخصي والعلاقات الشخصية في الفعل (إميل بنفنيست : مسائل في علم اللغات العام Problèmes de linguistique générale ، ص ٢٢٦ ـ ٢٣٦ ، ٢٥١ ـ ٢٦٦) • الضمائر الشخصية (أنا ، أنت هو) هي وقائع اللغة بلا ريب، نعم ؛ ثم ان دراسة بنيوية للعلاقات الشخصية في الفعل يجب أن تسبق كل تفسير لورود الضمير في سياق القول بوصفه مرجعا ، وعليه يقابل الضميران أنا وأنت معا الضمير هو ، مثلما يقابل الشخص ما ليس شخصا ، ويتقابل أنا وأنت فيما بينهما من حيث هما متكلم ومخاطب• لكن هذه الدراسة البنيوية لا تستطيع أن تستنفد فهم هذه العلاقات ؛ انها فقط مقدمة لفهمها • فالدلالة **أنا** لا تتكون الا في اللحظة التي يستولي فيها المتكلم على معنى هذه الدلالة ليدل على نفسه ، وبالتالي

تكون دلالة الأنا في كل مرة فريدة : نعود الى سياق القول مرجعا الذي يحتويها واليه وحده فقط : « أنا هو الفرد الذي ينطق بالقول فيجعل منه حضورا ومرجعا كلاهما يتضمن الانا بوصفه من نطاق اللغة » (نفس المرجع ص ٢٥٢) • اذن ، بدون هذه الاحالة الى فرد معين يدل على نفسه بقوله أنـا ، يبقى الضمير الشخصي علامة فارغة يستطيع أن يستولي عليها أي شخص ؛ انه ، في لغتي ، في حالة انتظار ، مثل آلة جاهزة ، ينتظر تحويل هذه اللغة الى قول بتملكه هذه العلامة الفارغة •

نلتقي هنا فجأة بتمفصل اللغة مع الكلام : انه يعتمد في قسم منه على العلاقات الخاصة ــ أو « المؤشرة » ــ وما الضمائر الشخصية والاشارية وظروف الزمان والمكان الا نوعا منها • هذه العلامات لا تنوه بصنف من الموضوعات ، لكنها تدل على حضور القول مرجعا • لانها لا تسمى بل تشير الى الـ **أنا** والى الـ **هنا** ، الى الـ **آن** والى الـ **هذا** ، اي باختصار ، الى علاقة ذات متكلمة بذوات تستمع وبموقف • ما يثير الاعجاب هو أن « اللسان منظم على هذا الشكل بحيث يتيح لكل متكلم أن يتملك اللغة بكاملها بتعيينه ذاته **أنا** » (ص ٢٦٢) • ربما وجب أن تستعاد مسألة الفعل في نفس الاتجاه الفكري • اذ يوجد من جهة بنية للعلاقات الزمنية المميزة للغة ، ومن جهة أخرى الافصاح عن الزمان في مجال لسان ، في جملة • هذا الافصاح هو الذي يعين ذاته بالزمان الحاضر ، وعن هذا السبيل يضع في المنظور كل الازمنة الاخرى • هذه الاحالة الى الحاضر يمكن تماما تشبيهها بالدور « التأشيري » لضمائر الاشارة (هذا ، ذاك) والتعبير الظرفي (هنا ، الآن) : « هذا الحاضر ليس له ، من حيث هو احالة زمنية ، سوى هذا المعطى اللغوي : مطابقة الحادثة الموصوفة مع مجال القول الذي تصفه » (ص ٢٦٢) •

أفيعني هذا أن الـ **أنـــا** من صنع اللسان ؟ يُسَوِّل للغوي أن يقوله ، (فقد كتب بنفنيست : « اللسان وحده يؤسس في الواقع مفهوم الـ أنـــا على واقع الوجود » (ص ٢٥٩) • يعترض الفنومنولوجي أن ما يُمكِّن المتكلم من الوقوف ذاتـــا ، من مقابلة الغير مخاطِبـــا ، هو استباق من خارج علم اللسان ، استباق الضمير الشخصي • يثبت الفنومنولوجي بهذا الاعتراض اماتته للتمييز بين علم العلامات وعــلم الدلالات ، حسب هذا التمييز أن العلامات انما ترتد الى فروق داخلية في اللغة فقط • من هذا القبيل ، **أنـــا** و **أنت** ، من حيث هما علامتان فارغتان ، من صنع اللغة ؛ لكن استعمالها في هذا الآن وهذا المكان استعمالا يكسبهما قيمة دلالية ، يفترض تملكهما من قبل ذاتين تثبت كل منهما نفسها بالتعبير • أجل ، ان الاثبات أنـــا والتعبير أنـــا متواقتان ؛ لكن التعبير أنـــا لا يخلق الاثبات **أنـــا** أكثر مما يفعل ضمير الاشـــارة **هـــذا** في خلق مشهد ذلـــك العالم الذي يصوِّب نحوه الدليل « المؤشِّر » • تثبت الذات نفسها مثلما يبدي العـــالَم نفسه • الضمائر الشخصية وضمائر الاشارة هي في خدمة هذا الاثبات وهذا الابداء ؛ تشير بأقرب اشارة الى مطلق هذا الاثبات ومطلق هذا الابداء ، اثبات وابداء هما ما قبل اللسان وما وراءه : الاثبات هو ما قبل اللسان الشخصي الذي يصدر عنه اللسان باعتباره فعل كلام ، والابداء هو الـ ما وراء العالَمي الذي يتجه نحوه اللسان باعتباره يقول شيئا في بعض الاشياء • فاللسان ليس أساسا كما انه ليس موضوعا ؛ انـــه وسيط ، انه الوسط الـــذي فيـــه وبه تضع الـــذات نفسها ويبدي العالم نفسه •

اذن على نفس المستوى ، وفي مجال قول واحد ، يجد اللســـان له احالة وذاتا ، عالَما ومستمِعا • فلا عجب أن يستبعد علم اللغـــة البنيوي معا الاحالة الى العالم والاحالة الذاتية على أنهما لا تنشئـــان

المنظومة منظومة . لكن هذا الاستبعاد هو الاستباق الذي يجب اقامته من أجل انشاء علم التمفصلات ؛ لكنه ليس صالحا حين يدور الامر حول بلوغ مستوى الانجاز او التحقيق حيث يحقق المتكلم قصده الدال بالنسبة الى وضع والى مُستَمِع . المكالمة والاحالة تردان مع الفعل والحادثة والاختيار والابتداع .

٣ ـ البنية والحادثة :

ربما يُسوّل لنا ، وقد وصلنا الى هذه النقطة ، أن نستسلم الى متناقضة تمزقنا . أجل ان البنيوية تؤدي بنا الى ذلك ، لكن المرور بالتناقض لا يضيع سدى : انه يشكل المستوى الاول ـ المستوى الجدلي بالمعنى الصحيح ـ عند فكر ينشيء . ولِذا ، لن يكون علينا ، في مرحلة أولى ، الا أن نقوّي هذه المتناقضة بين المنظومي والتاريخي، فنقابل حَدّاً حدّاً بين ما هو حادث وما هو بالقوة ، بين الاختيار والقسر ، بين الابتداع والسنّة ، بين الاحالة والسياج ، بين المكالمة والاغفال .

لكن من الضروري ، في مرحلة ثانية ، أن نستكشف سبلا جديدة، أن نحاول نماذج جديدة من المعقولية يمكن فيها تصور التأليف بين وجهتي النظر ، فتكون المسألة اذ ذاك ايجاد أدوات فكرية كفءٍ للسيطرة على ظاهرة اللسان الذي لا هو بنية ولا هو حادثة بل تَحوّلُهما باستمرار الواحدة الى الاخرى في القول .

تتعلق هذه المسألة باللسان من حيث هو نحو ومن حيث هو علم دلالة . سأقلل الكلام حول النقطة الاولى ، مستبقيا لنفسي فرصة العودة اليها في دراسة لاحقة ، وأسهب حول الثانية ؛ لاني في هذه النقطة الثانية أدرك المسألة المقصودة في عنوان هذه الدراسة : البنية ، اللفظة ، الحادثة .

١ـ مجال **النحو** هو الذي يحقق فيه حاليا علم اللغة اللاحق بالبنيوية تقدمات مذهلة • ينصب عمل مدرسة تشومسكي حاليا في الولايات المتحدة على مفهوم « علم النحو التوليدي » • علم اللغة الجديد هذا يضرب عرض الحائط بالتسميات التصنيفية للبنيوية الاولى، وينطلق توّا من الجملة ومن المسألة التي يضعها انتاج جمل جديدة • فقد كتب تشومسكي في بداية كتابه ، مسائل شائعة في علم اللغة (الصادر في Mouton ١٩٦٤) : « الحادث الاساسي الذي يجب أن ينصب عليه كل علم لغة ذي دلالة ، هو هذا : يستطيع متكلم متمرس أن ينشيء في لغته جملة جديدة في الوقت المناسب ، ويستطيع سامعوه أن يفهموها مباشرة رغم كونها مستحدثة • القسم الاعظم من خبرتنا اللغوية ، متكلمين كنا أو مخاطبين ، يمت بصلة الى جمل جديدة؛ فحين نكتسب ملكة لغة ، تصبح مجموعة الجمل التي نستطيع العمل بها بطلاقة ، دون صعوبة أو تردد ، واسعة الى حد أننا نستطيع اعتبارها لامتناهية من كل قبيل : من قبيل الممارسة ومن قبيل النظر أيضا ،وهذا بديهي • فالسيطرة السوية على اللغة لا تتضمن فقط القدرة على فهم مباشر لعدد لا حصر له من الجمل الجديدة تماما ، ولكن أيضا أهلية تمييز الجمل المنحرفة واخضاعها للتفسير في حينه •• وبيّن ان نظرية في اللسان تهمل هذا الجانب « الخلاق » فائدتها هامشية » (نفس المصدر ص ٧ ــ ٨) •

مطلوب اذن مفهوم جديد للبنية من أجل تبرير مايسميه تشومسكي علم نحو اللغة اذ يحدد هذا العلم على الشكل التالي : « النحو هو أسلوب يُعيِّن سلسلة لامتناهية من الجمل الجيدة الصياغة ويخص كلا منها بوصف بنيوي أو بعدة أوصاف » (ص ٩) • وهكذا نجد الوصف البنيوي القديم ، الذي ينصب على جداول ميتة ، يَنتُج عن تعيين قاعدة حركية مولّدة تدعم كفاءة القاريء • يقابل تشومسكي

دون انقطاع بين النحو التوليدي وجـداول العنـاصر ، التي تميز التسميات التصنيفية العزيزة على البنيويين • واذا بنا قد عدنا هكذا الى الديكارتيين (آخر كتاب عند شومسكي يحمل عنوانا : علم اللغة الديكارتي) والى هومبولدت الذي لايرى اللسان تناجا بل اتناجا ، توليـدا •

في نظري أن هذا التصور الجديد للبنية دينامية هو الذي سيغلب البنيوية الاولى ؛ سيغلبها بإكمالها أي بوضعها تماما على المسـتوى الذي تصح فيه • هذه هي المسألة التي سوف أعود اليها في دراسـة لاحقـة •

لكني منذ الآن أقول : يجب ألا نشعر بأننا عزّل ازاء هذا التوسع الجديد لعلم اللسان • لاننا نجد تعليما تقبليا ، اذا جاز القول في آثار اللغوي الفرنسي الكبير ـ المجهول بدون حق ـ غوستاف غيّوم • فنظريته في المنظومات الصرفية ـ يعني منظومات صيغ القول ـ هي ضرب من الصرف التوليدي • ودراساته في أداة التعريف وأزمنة الفعل تبين كيف أن عمل القول هو وضع الالفاظ في مواقع الجملة • مايسمى صيغ القول ـ مثل مقولات الاسم والفعل ، الخ ـ وظيفته أن يكمل، أن ينهي ، أن يغلق اللفظة ، بحيث يدرجها في الجملة ، في القـول • اذن ، منظومة الصيغ ، حين تضع الالفاظ في مواقع الجملة ، تتيح لالفاظنا وأقوالنا أن تنطبق على الواقع • وبوجه أخص ، الاسم والفعل هما مقولتان للقول ، بفضلهما « تؤدي للعالم » علاماتنا ، نوعا ما ، بصورتي الزمان والمكان • هاتان المقولتان ، اذ تنجزان اللفظة فعـلا واسما ، تجعل علاماتنا قادرة على ادراك الواقع ، وتحفظانهـا مـن الانغلاق على نظام علم علامات محدود مغلق •

لكن الصرف لا يؤدي هذه الوظيفة الا لان علم القول والمنظومات

كمنظومة أداة التعريف ومنظومة الفعل ، الخ •• ، هو علم عمليات لا علم عناصر • فلا نصمِّنه بالرجوع الى سيكولوجية ذهنية ! هذه التهمة ، التي تعطل اليوم عمل عدد من الباحثين ، تصح على المذهب النفسي في الصورة والمفهوم يعني ضد الاحتجاج بمضمونات نفسية ينالها الاستبطان فقط • ولكن من الحمق أن تُصبّ هذه التهمة على عمليات • هنا أيضا يجب أن نعرف كيف نتنصل من محظورات ارهابية الى حد ما •

في هذه النقطة من بحثنا ، يسعفنا الاعتماد على غوستاف غيوم أكثر من أي شيء ، على تحطيم عرف وملء فراغ • العرف هو التالي : تتصور طوعا أن النحو هو الصورة الاكثر داخلية للسان ، واكتمال الاكتفاء الذاتي للسان • لا شيء أبعد عن الصواب من ذلك • لان النحو لا يؤمِّن لنا انشطار اللغة ، كما سبق أن فعله تكوّن العلامة في المنظومة المغلقة والتسميات التصنيفية • بما أن النحو تابع للقول لا للغة ، فهو على خط الرجوع من العلامة الى الواقع • ولهذا فان صيغ القول ، شأن الاسم والفعل ، قسم عمل اللسان بوصفه ادراكا للواقع بجوانبه الزمانية والمكانية : وهذا ما يسميه غوستاف غيوم « اعادة صب العلامة في الكون » • هذا برهان على أن فلسفة اللسان ليس عليها فقط أن تفيد عن غياب العلامة من الواقع وبعدها عنه (الخانة الفارغة عند ليفي-شتروس) ؛ وجهة النظر هذه يمكن الاكتفاء بها ما بقينا بصدد المنظومة المغلقة من الوحدات المتقطعة التي تؤلف اللغة ؛ لكنها لا تعود تكفي حالما تتناول القول فعلا • حينئذ يتبين أن العلامة ليست فقط ما يَنتقِصُ الاشياء ، ليست فقط غائبة من الاشياء ومغايرة لها ، ولكنها ما يريد أن ينطبق على ، أن يعبِّر ، أن يُدرِك ، أن يَتَصوَّر ، وفي النهاية أن يُبيِّن ، أن يُري •

ولهذا فان فلسفة في اللسان يجب ألا تقتصر على شروطِ امكانِ

قيام علم علامات : اذ يكفي للافادة عن غياب العلامة من الاشياء ، ارجـــاع العلاقات الطبيعية وتحويلها الى علاقات دالة • ولكن يجب عدا ذلك تلبية شروط القول ، من حيث هو محاولة تتجدد بلا انقطاع من أجل التعبير الكامل عما يمكن تعقله وقوله في تجربتنا • الارجاع — أو أي فعل سلبي نظيره — لا ينهض بـالغرض • الارجـاع هو فقط المقلوب ، الوجه السلبي ، لـ ارادة قول تطمح لان تصير ارادة تبيين •

مهما يكن مصير نتاج تشومسكي في فرنسا ، والرفد الذي يمكن أن يأتيه به غوستاف غيوم لتسهيل تَمَثّلِه ، فان الفائدة الفلسفية لهذا الطور الجديد من النظرية اللغوية بيّنة بذاتها : وهي أن علاقة جديدة غير مطبوعة بالتناقض ، تنشأ حاليا بين البنية والحادثة ، بين القاعـدة والابتداع ، بين القسر والاختيار ، بفضل مفاهيم حركية من نوع العملية المنشئة للبنية وليست بعد من نوع الجدول ذي البنى •

أملي أن تتمكن الانطروبولوجيا والعلوم الانسانية الاخرى من استخلاص النتائج من هذا الطور الجديد ، شأنها حاليا مع البنيويـة القديمة في لحظة أفولها من علم اللغة •

٢ — أود أن أخطط مبدئيا تجاوزا موازيا على الصعيد **الـدلالي** ، تجاوزا للتناقض بين البنية والحادثة • وهنا أجد من جديد مسـألتي في اللفظة •

اللفظة أكثر من الجملة بكثير وأقل منها بكثير •

أقل منها بكثير ، لانه قبل الجملة ليس بعد من ألفاظ • ماذا يوجد قبل الجملة ؟ علامات ، يعني فروقا في المنظومة ، قِيَما في المعجم • ولكن لا يوجد بعد دلالة ، كيان دلالي • فالعلامة من حيث هي فرق في المنظومة ، لا تعني شيئا • لذا يجب القول أن لا ألفاظ في عـلم العلامات ولكن قيم نسبية فرقية ، تقابلية • هيلمسلف مُحِقٌ من هذا

القبيل : اذا نحّينا من علم العلامات مادة الاصوات ومادة الـدلالات كما يشعر بهما المتخاطبون ، وجب علينا القول أن علم الاصوات وعلم الدلالات ليسا من شأن علم العلامات، كلاهما يخص **الاستعمال لا الترسيمة**. ومعلوم أن الترسيمة هي وحدها أساسية في اللغة ، بينما يقع الاستعمال على مُلتقى اللغة والكلام . يجب الاستنتاج اذن أن اللفظة تُسَمِّي في حين أن الجملة تقول . تسمي في موقع الجملة . في القاموس يوجد فقط الحلقة الراقصة التي لا نهاية لها ، من ألفاظ يحدد بعضها بعضا بالدور ، وتَدَوَّم داخل سياج المعجم . ولكن هوذا شخص يتكلم ، يقول شيئا ، واذا باللفظة تخرج من القاموس ، وتصير لفظة في اللحظة التي يصير فيها الانسان كلاما والكلام قولا والقول جملة . وليس من باب الصدفة أن تعني Wort في الالمانية اللفظة والكلمة معا (ولو اختلف الجمع حسب المعنى المقصود) . الالفاظ هي علامات في مواقع الكلام . انها نقطة تمفصل علم العلامات وعلم الدلالات في كل حادثة تكلم .

وهكذا تقوم اللفظة بمثابة مُبدِّل بين المنظومة والفعل ، بين البنية والحادثة : فهي من جهة تخص البنية لكونها قيمة فرقية ، ولكنها اذ ذاك ليست سوى كمون دلالي ؛ ومن جهة أخرى تخص الفعل والحادثة باعتبار أن فعليتها الدلالية مواقتة لفعلية العبارة ، المتلاشية .

غير أنه هنا أيضا ينعكس الوضع : قلتُ ان اللفظة أقل من الجملة، من حيث أن فعليتها الدلالية خاضعة للفعلية الدلالية في الجملة ؛ لكنها أكثر من الجملة من وجه آخر . فالجملة حادثة ، كما رأينا : وفعليتها من هذا القبيل مبارِحة ، عابرة ، متلاشية ؛ أما اللفظة فتبقى بعد الجملة . من حيث هي كيان يمكن نقله ، تبقى بعد مجال القول الذي هو انتقالي ، تبقى جاهزة لاستعمالات جديدة . وهكذا تعود اللفظة

الى المنظومة مثقلةً بقيمة استعمال جديدة ـ مهما صغر شأن هـذه القيمة ـ فتعطي المنظومة تاريخا •

سأستعيد لشرح هذه السيرورة تحليل مسألة تعدد الدلالات ، مسألة حاولت في موضع آخر أن أفهمها مباشرة ، ولكن بدون ما يتوفّر لدي الآن من تمييز بين علم علامات أو علم علامات يتوزع في منظومات ، وبين علم دلالات أو علم استعمال العلامات في مواقع الجملة • ظاهرة التعدد الدلالي لا يمكن فهمها بدون ادخال جدل العلامة والاستعمال ، جدل البنية والحادثة • بتعابير تزامنية محض ، يعني التعدد الدلالي أنه في لحظة ما يكون للفظة أكثر من دلالة ، وأن هذه الدلالات المختلفة عائدة الى حال واحد من منظومة • لكن هذا تعريف يفوته الجوهري لا من جهة البنية ولكن من جهة السيرورة • هناك سيرورة تسمية ، تاريخ استعمال ، يجد له اسقاطا في التزامن بصورة تعدد دلالي • بيد أن سيرورة نقل المعنى هذه ـ سيرورة المجاز ـ تفترض اللفظة كيانـا جمّاعا يقدر على كسب ابعاد جديدة دون أن يفقد القديمة • هـذا المنوال التجميعي المجازي هو الذي يرتسم تعددا دلاليا على صفحـة المنظومـة •

بيد أن ما أسميه هنا اسقاطا هو فقط حالة من احوال رجـوع الحادثة الى المنظومة • وهذه الحالة هي الاكثر تشويقا وربما الاعمق أساسا ، اذا صدق ، كما قيل ، أن التعدد الدلالي هو مدار عـلم الدلالات • الاكثر تشويقا لاننا نفاجىء فيها مفاجأة بديعة ، ما سميته التبادلات بين البنية والحادثة • وفعلا ، يمثل هذا المنوال تضافرا بين عاملين : عامل انتشار ، وفي الحد الاقصى عامل فيض شحنة ؛ اذ ان اللفظة ، بموجب منوال التجميع الذي حكيت عنه ، تنزع الى حمل قيم استعمال جديدة ؛ لكن اسقاط هذا المنوال التجميعي في منظومة العلامات يتضمن أن الدلالة الجديدة تجد موضعها داخـل المنظومة ؛

وداخل المنظومة تحد العلامات بعضها مـن انتشار بعض ، فيتوقف الانتشار وبالتالي فيض الشحنة • يمكن بهذا المعنى أن تنسب للحقل وظيفة الحد التي تعارض نزعة الانتشار الناجمة عن منوال اللفظة التجميعي • هكذا يتفسر ما يمكن أن نسميه تعددا دلاليا منظّما وما هو قانون اللسان • اذن ، للالفاظ أكثر من معنى لكن هذه المعاني ليست غير متناهية •

يبيّن هذا المثال كم تختلف المنظومات الدلالية عن المنظومات في علم العلامات : يمكن أن تُعالَج هذه بدون أية احالة الى التاريخ ، فهي منظومات لا زمنية لانها تقديرية ، تجد لها أفضل ايضاح في علم الاصوات ، لا فعل فيها الا للتقابلات الزوجية بين وحدتين مُمَيِّزتين • أما في المنظومات الدلالية فان اختلاف الدلالات يحصل بالعكس عن التوازن بين منوالين ، منوال انتشار ومنوال حدّ ، يجبران الالفاظ على اتخاذ مواضع بعضها بين بعض ، على مُراتَبَةِ قيمها الاستعمالية • ومنوال الاختلاف هذا لا يمكن رده الى مجرد تسميات تصنيفية فتعدد الدلالات المنظم هو من مستوى الزمان المعمم ، أي انه في نفس الوقت تزامني وتَزَمُّني ، بقد ما يرتسم التاريخ في أحوال المنظومات ، أحوال لا تمثل من ثم الا مقاطع آنيّة في منوال المعنى ، في منوال التسمية •

ومنه نفهم ما يحدث عندما تعود اللفظة بغناها الدلالي الى القول • بما أن كل ألفاظنا متعددة الدلالات الى حدما ، فوحدة الدلالة أو تعددها في قولنا ليسا من عمل اللفظة بل من عمل النص • في القول ذي الخط الواحد أي الذي لا يتحمل الا دلالة واحدة ، تكون مهمة النص أن يخفي غنى الالفاظ الدلالي ، أن يقلّله بأن يجعل لكل ألفاظ الجملة ما يسميه غريماس نظيرا أي مستوى واحدا للاحالة ،جملة موضوعات موحدة ، تخطيطا موحدا لكل الكلمات في الجملة (مثلا ،

اذا اتسعت « بموضوع » هندسي فان لفظة volume تعنـي الحجم ، أما اذا اتسعت بموضوع مكتبة فتعني مجلدا) • حين يتحمل المتن ، أو يستبقي حتى ، عدة نظائر ، نكون بازاء لسان رمزي فعلا يقول شيئا فيعني أشياء • في هذه الحالة ، بدلا من أن يستبقي المتن بعدا دلاليا واحدا يفسح المجال لعدد من الابعاد الدلالية لا بل يعززها فتجري معا مثل نصين يغطي أحدهما الآخر في رقٍّ كتب عليه مرتين • اذ ذاك يُحرَّر التعدد الدلالي لالفاظنا • هكذا يترك الشعر كل القيم الدلالية يقوي بعضها بعضا ، بحيث يتبرر أكثر من تفسير ببنية قول يسمح لابعاد دلالية متعددة أن تتحقق في نفس الوقت • وباختصار ، فاللسان هو اذن فرحة • وهذه الغزارة تنبسط وتنتظم فعلا في بنية ؛ لكن بنية الجملة لا تخلق شيئا خلقا مطلقا ؛ انها تتعاون مع التعدد الـدلالي لالفاظنا كي تُحدِث ذلك المفعول الدلالي الذي نسميه قولا رمزيا ، والتعدد الدلالي لالفاظنا هو نفسه حاصل عن تضافر المنوال المجازي ووظيفة الحد التي يقوم بها الحقل الدلالي •

وهكذا لا تنفك التبادلات تتعقد وتتجدد بين البنية والحادثة ، بين المنظومة والفعل • بديهي أن اقامة نظائر وحيدة أو أكثر هو مـن عمل متتاليات أطول بكثير من الجملة ، وأنه يجب لمتابعة هذا التحليل أن نغيِّر مسـتوى الاحالـة مرة أخرى ، فنعنـي **بتسلسل نص** : حلما كان أم شعرا أم اسطورة • واني لواجد على هذا المستوى ، لو تابعت ، مسألة التفسير التي عالجتها قبلا • لكن الوحدة المعقدة وحدة اللفظة هي التي ، كما يبدو لي ، يتقرر فيها كل شيء • ففيها نقرأ بوضوح تبادل التكوّن والبنية • ولكن ، كي نفسر عمل اللسان هذا تفسيرا صحيحا، يلزمنا أن نتعلم من جديد كيف نفكر مثل هُومْبوْلدت بحدودِ سيرورةٍ بدلا من حدود منظومة ، حدود انشاء بنيان بدلا من حدود بنيـة •

بـدت لي اللفظة نقطة تبلور ، عقدة كل التبادلات بين البنيـة والوظيفة . ان يكن لها قوة الاكراه على خلق نماذج معقولية جديدة فلانها واقعة في تقاطع اللغة والكلام ، التزامن والتزمن ، المنظومـة والسيرورة . فبارتقائها من المنظومة الى الحادثة ، في مجال القول ، تجلب البنية لفعل الكلام . وبعودتها من الحادثة الى المنظومة ، تجلب لهذه عدم التوازن والجوازية ، شرطين لا بد منهما للتغير والاستمرار؛ وباختصار ، انها تعطي البنية « تقليدا » لان البنية بحد ذاتهـا خارج الزمـان .

أتوقف هنا . لكنني لا أريـد أن يظن أن ظاهرة اللسان قـد استنفدت ، اذ يمكن ان تكون موضوعا لمقاربات اخرى . لقد ألمحت منذ قليل الى مستوى النص والى استراتيجية فك الرموز لهذا المستوى المتطور من التنظيم . اذا أوغلنا أيضا في نفس الاتجاه نلتقي بالمسائل التي طرحها هَيْدجر حول أنطروبولوجيا اللسان . لكن هذه المسائل تقتضي معالجتها لا تغيير مستوى فحسب ولكن أيضا تغييرا في طريقة التفكير . فهيدجر لا ينهج نهجا متصاعدا كما فعلنا متدرجين من العناصر الى البنى ثم من البنى الى السيرورة . انه يتبع ترتيبا آخر ــ مشروعا تماما بحد ذاته ــ ينطلق فيه من الوجود المقول ، من الثقل الوجودي لالسنة مكتملة كلسان المفكر والشاعر والنبي . وهكذا يستند الـى لسان يفكر ليسلك الطريق الى الكلام . فلربما كنا دائما في الطريق الى اللســان ، رغم كون اللسان هو نفسه الطريق . هـذا الطريق الهيدجري الى اللسان لن أتبعه ؛ ولكن تسمحون لي أن أقول مختتما اني لم أغلق هذا الطريق ان لم أكن فتحته على وجه صريح . لم أغلقه ، اذ انتقلت في نهجي من سياج عالم العلامات الى حيث ينفتح القول. هذا الانفتاح يفتح مجالا جديدا للتأمل في « اللفظة » . لان بـين الالفـاظ مـا هو عظيم ، قوي ــ مـا يتكلم عنـه ميكال دوفرن

Mikel Dufrenne كلاما بديعا في كتابه : Le Poétique ، فن الشعر :
تستفيد تلك الالفاظ من مؤاتاة عملية التسمية ، فتقوم بأسر بعض مظاهر الوجود ، بنوع من العنف الذي يحصر ما تفتحه اللفظة وتكشفه. تلك هي ألفاظ الشاعر والمفكر : انها تبدي ما تحوّطه بسياجها ، تفسح المجال لوجوده . على أنه ، اذا لم يمكن أن تصير أونطولوجيا اللسان هذه موضوعا لنا ، بسبب اسلوب هذه الدراسة عينه ، فانها يمكن أن تلوح على أفق هذا البحث . من هذا الافق ، يبدو استكشافنا ، اذا ما نظر اليه ، يحركه ويوجهه اقتناع هو أن الجوهري في اللسان يبدأ في ما وراء سياج العلامات . نضع أنفسنا داخل سياج العلامات عندما نتحدر نحو العناصر،نحو الجداول ومجموعات الاسماءونحو التركيبات المتضمنة فيها . اذ اننا ، كلما ابتعدنا عن مستوى تجلي اللسان غائصين في كثافته باتجاه الوحدات المعجمية ، نحقق سياج اللسان . الوحدات التي نكشفها بالتحليل لا تعني شيئا : انها مجرد إمكانات تشكيل ، لا تقول شيئا : تقتصر فقط على الوصل والفصل . ولكن ، في حركة التحليل والتركيب ، لا يتكافأ الذهاب والاياب : على طريق العودة ، صعُدا من العناصر الى النص والقصيدة بكاملها ، تبرز اشكالية جديدة ينزع التحليل البنيوي الى حذفها ؛ انها اشكالية القول الخاصة بمستوى القول.انبجاس القول في كلامنا هو سر اللسان بالذات.القول هو ما أسميه انفتاح اللسان .

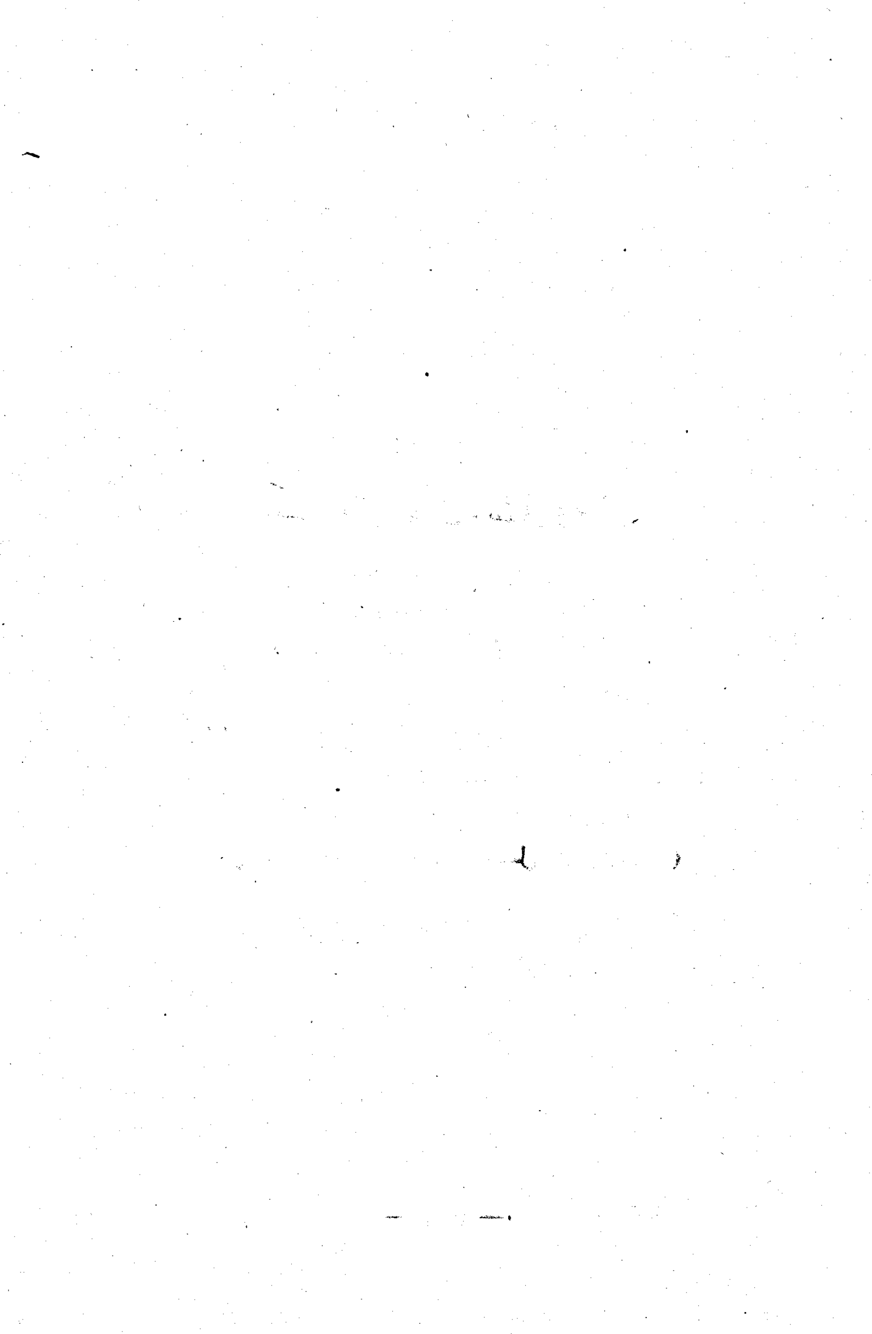
وقد حزرتم أن أعظم انفتاح هو من شأن اللسان فرحة .

سارتر و ل. شتروس

جان بويون

تحليل جدلي لعلاقـــــة جدلية تحليلية

(من مجلة L'Arc عدد ٢٦ الفصل الأول ١٩٦٧)



كتب سارتر في الوجودية يقول : « انها الانطروبولوجيا بالذات ، من حيث تنشد لنفسها أساسا »[1] . وهو يرى هـذا الاساس فـي « الاكتشاف الحاسم للتجربة الجدلية » ، اكتشاف وساطة متبادلة : « الانسان وسيط الاشياء بقدر ما الاشياء وسيطة الانسـان »[2] . أما أن تكون هذه الوساطة ممكنة ، وخصوصا أن تكون موضوعـا ممكنـا لتجربتنـا ، فـأمر يعـود الـى أن **البراكسيس** الفرديـة في تعددها مع الفرديات تحقق بالنسبة لكل منها هذه الجدلية الاولية ـ وهي تحقق الانسان خارج ذاته وتحقق العلائق الموضوعية في داخله ؛ وهي «حركة اصيلة لانشاء الكلية» في أوجه التجربة المشخصة المتعددة. وانشاء الكلية هذا هو هدف « الانطروبولوجيا البنيوية والتاريخية ».

قول سارتر هذا ليس بعيدا ، في الظاهر على الاقل ، عن طريقة ليفي-شتروس في تعريف الانطروبولوجيا عندما يجعل منها علم الدلالة والكلية اذ يقول : « ان الانطروبولوجيا ، «اجتماعية» شاءت نفسها أم « ثقافية » ، فهي تهدف بذلك دائما الى معرفـة **الانسان الكلي** ، من جهة منتجاته في الحالة الاولى ، ومن جهة « تصوراته » في الحالة

---

(1) J. P. Sartre, Critique de la Raison dialectique, Paris 1960, P. 104.

(2) J. P. Sartre, op. cit. P. 165.

الثانية [١] . « ومتطلّب الكلية هذا سائغ بذاته عند الأثنولوجيين»[٢]، دع أن سارتر نفسه كان يعترف به قبل أن يكتب نقد العقل الجدلي بكثير[٣] . وان يكن الامر كذلك فليس فقط لانه مفترض أن يحسب الانطروبولوجي حسابا لحصائل الفروع الاخرى المنصبة على نشاطات الانسان أو على منتجاته ، كيما يوزعها « مجموعات ذات دلالة » ؛ ولكن أيضا وخصوصا لانه يحاول أن يجد في أقل الحوادث شأنا ؛ في النشاط الفردي الأكثر ارتباطا بالمكان والزمان ، الوساطة التي يتكلم عنها سارتر . ان « الظاهرة الاجتماعية الكلية » التي أتى بمفهومها موسّ ، يمكن أن تكون مجتمعا مشخصا باعتباره كلاً ، وهي أيضا « ميلانزيو هذه الجزيرة او تلك[٤] . وبكلام آخر ، ان العنصر عند الانطروبولوجي ليس حصيلة تقطيع ولكنه بالاحرى حال معين من أحوال تمركز الكل . هذه العلاقة التي يمكن أن نسميها بحق **جدلية** ، هي التي تضمن صحة **التحليل** البنيوي : اذ اننا لا نستطيع الاثبات بأن تغيّر عنصر يستتبع ويعني تغير العناصر الاخرى .

ما كنا اذن لندهش من أن يستدعي كتاب **النقد** تكرارا أمثلة اثنوغرافية بمثل هذه العفوية ، لولا أن آخر فصل من كتاب

---

(١) Cl. Lévi - Strauss, Authropologie structurale, Paris 1958, P. 391.

(٢) Cl. Lévi - Strauss, La Pensée sauvage, Paris, 1962, P. 331.

(٣) V. les Temps Modernes, oct - nov. 1952, P. 729, note 1. (Reprise dans Situations VI, Paris 1964, P. 203 note 1).

(٤) M. Mauss, Essai sur le don; cf. Cl. Lévi - Strauss, « Introduction à l'œuvre de Mauss », in Sociologie et anthropologie, Paris 1950, pp. 26 - 28.

الفكر المتوحش يبرز بأوضح ما يمكن الخلاف بين ليفي–شتروس وسارتر ، وبالضبط على مسألة الاساس الفلسفي للانطروبولوجيا ، ولولا أنه يدحض تفسير سارتر للامثلة المقصودة • أن يكون قد وقع سوء تفاهم أمر لا شك فيه ، لكنه ليس بذي أهمية • فالمسألة الحقيقية هي أن نعرف ما نكتشف عندما نبدد سوء التفاهم • والملاحظات التالية تقصد التلميح[1] الى أن التقابل مستعصى بين هذين المشروعين لتفهم العالم الانساني ، أو بتعبير اذا شئنا أفضل ، بين هذين المشروعين « النقديين » على حد سواء (اذ ان البعض قد تكلم عن « نزعة كانتية » عند ليفي–شتروس) ؛ لكنه تقابل يرتدي صورة تضايف مفارق : هو استبعاد عن طريق عملية قلب تعقبها عملية ضم •

الا أن بعض صور هذا التقابل تؤول الى التكامل ، كالتقابل بين « العقل التحليلي » و « العقل الجدلي » مثلا • اذ ان ما يسميه ليفي–شتروس عالم القواعد ، أي عالم الثقافة (بمقابلة عالم القوانين أي الطبيعة) ليس فيه من معطى محض يقتصر بشأنه عمل العقل التحليلي، على التعرف والتفكيك • لان القاعدة ، أينما بحثنا عن نشوئها ، وحتى لو جهلنا مصدرها ، لا تعدو كونها ما كان يمكن ألا يوجد ، وما يحتاج كي يوجد الى أن يوضع • ولا يمكن استنتاجها الا من قاعدة أخرى • فطبيعة الاشياء لا تقتضي ولا تعلل أن يتزوج هذا الرجل بابنة عمه تلك ، ولا أن تعتبر هذه المرأة ابنة عم ، ولا أن يكون للزعيم داخل مجال محدد كذا وكذا صلاحية • أجل ، ان عالم الثقافة لا يتكون خارج الطبيعة أو فوقها بل في قلبها ، والانسان هو فاعل مادي ، ولا يستطيع من هذا القبيل الا أن يعيد تنظيم مكيفاته الطبيعية ؛ لكن اعادة التنظيم هذه ليست مقيدة بشروط مكيفة سوى أنها لا يمكن الا أن

---

(١) ما كان ممكنا أن نفعل اكثر في نطاق هذا المقال •

تكون تنظيما أي منظومة قواعد ، وأن الانسان لا يستطيع تجنب سلطان الثقافة هذا • أجل أيضا ، ان المنظومة تعاش كانها ضرورة ، والقاعدة كأنها قانون ، والثقافة ـ ينبوع تمركز الجنس حول ذاته ـ تفرض على الانسان كما تفرض عليه الطبيعة •وان تمايز هذين العقلين يتمفصل طبقا للعلاقة الداخلية بين الثقافة والطبيعة : فالعقل الجدلي ، محرك الثقافة ، يعين حقولا ويقيم فيها علاقات ، ثم يأتي العقل التحليلي فيفككها كأنها منظومات طبيعية ؛ الجدل يكوّن والتحليل يعرف • فالتمييز بينهما لازم أما الفصل فغير ممكن •

وان التقابل المزعوم بين التزامن والتزمن ، بين البنية والتاريخ ، لا يبلغ أصل الخلاف • وقد ذكر السبب ضمنا في ما سبق • كي يكون للتاريخ معنى ، أي حتى تظهر كل لحظة استعادة وتحويلا للماضي ، تتيجة له ونفيا ، يجب أن تخضع كل لحظة متقدمة لتحليل بنيوي • والا فان العوامل المختلفة تتطور مستقلا بعضها عن بعض ، وتظهر كل واقعة تاريخية وكأنها حصيلة معقولة لكثرة من السلاسل السببية يكون تصالبها دائما من باب المصادفة • ذلك لانه اذا كان التزامن ذا بنية فلأن التزمن حصيلة تعديلات ذات مغزى •

الا أن هذا التكامل المزدوج ـ بين التحليل والجدل ، بين البنية والتاريخ ـ يجعلنا نفهم أحد الحدين بواسطة الآخر بلا فرق ، وذا يقودنا الى الجانب الاول من المفارقة التي أشرنا اليها : وهي أن **نقد العقل الجدلي** يستطيع أن يرى في **الفكر المتوحش** حالة خاصة وتأكيدا ، وأن يتخذ الانطروبولوجيا البنيوية أداةبين غيرهامن الادوات؛ ولكن يمكن بالعكس أن يعتبر الانطروبولوجي العقل الجدلي حالا من أحوال الفكر عليه أن يفيد منه مثل أي واقع اثنوغرافي آخر • اذ إن الاثنولوجيا ، عند سارتر ، مثل علم الاجتماع والتحليل النفسي ، تدخل في ما يسميه « العلوم المساعدة » للانطروبولوجيا التي يريد انشاءها •

فيرد ليفي-شتروس يرجع الصدى مستدركا بأن فلسفة سارتر « تمثل (مثل كل الفلسفات الاخرى) وثيقة اثنوغرافية من المرتبة الاولى ، لا بد من دراستها لفهم أساطير عصرنا »[1] • أو أيضا بأن العقل التحليلي يجب « أن يشرح العقل الجدلي » في حين أن هذا « لا يستطيع أن يشرح نفسه ولا ان يشرح العقل التحليلي »[2] • فيرد سارتر قائلا : « الجدل ••• يجب أن يكوّن لذاته معقولية لا تتجاوز ••• العقل الجدلي هو نفسه معقولية العقل الوضعي (يعني التحليلي) »[3] • الخلاصة أن هذين التصورين انما يتنافيان جذريا لان كلا منهما يتضمن الآخر ؛ فلا يمكن أن يعقلا معا في نفس الوقت وعلى نفس المستوى •

دع أن هذا الاستبعاد الذي ، لانه متبادل ، يقرنهما ، أو هذا الارتباط الباقي رغم التنافي بينهما ، يوافق تلك العلاقة الملتبسة التي توحد وتفرق المجتمعات « الاثنولوجية » ومجتمعنا : فكلما شددنا على الفروق أبرزنا بالفعل نفسه واقع التواصل عينه ، لان هذا التواصل هو الذي يمكّن الاثنولوجي من تعليم تلك الفروق • وعلى عكس ما يقال غالبا ، لا تقوم المشكلة على أن المجتمعات الاثنولوجية هي مجتمعات « بلا تاريخ » ، أو كما يقول سارتر ، « مجتمعات تكرار »، في حين أن مجتمعنا مجتمع تاريخي • فقد فضح ليفي-شتروس الوهم الذي يجعل من المجتمعات القديمة تلك المجتمعات التي يدرسها الاثنوغرافي ، في حين أنها تحمل مثل مجتمعنا « طابع الحادث »[4] ؛

---

(١) الفكر المتوحش ، ص ٣٣٠ ، الحاشية P. S. P. 330 , note

(٢) الفكر المتوحش ، ص ٣٣٥ . P. S. , P. 335.

(٣) نقد العقل الجدلي ، ص ١٣٢و١٣٦ .

(٤) كلود ليفي-شتروس ، « مفهوم القدم في الاثنولوجيا » ، في Cahiers internationaux de sociologie, vol. 12, 1952 (وقد استعاده في Anthropologie Structurale ، ص ١١٣-١٣٢) .

وعلى العكس ، يرفض سارتر أن يحدد الانسان بالتاريخية[1] ، ويقف الفصل الثاني من الـ **نقـــد** لتلك العلاقات الانسانية « المتجاوزة للتاريخ » ، « الناتجة مباشرة عن **البراكسيس** »، والتي تقوّم « وجودا واقعا دائما ، في أي لحظة من التاريخ وضعنا أنفسنا ، حتى بين أفراد منفصلين ، ينتمون الى مجتمعات نظمها مختلفةوتجهل بعضها بعضا»[2]. ومع ذلك فالمقصود انما هو التاريخ بمعنى أن تلك العلاقة بين المجتمعات المختلفة تنشأ في وعن تاريخ جزئي في البدء ـ تاريخنا نحن ـ ، يصبح بفضل هذه العلاقة نفسها تاريخا كليا . لقد كان عالم" متقطّع" قلّ أن يوجد ، عاش فيه كل مجتمع (أو زمرة من المجتمعات) منعزلا في ديمومته الخاصة ولا يشتمل الا على تعقيده الخاص في حقل مغلق . ولكن ، كما يقول سارتر ، بدأت حركة اشتمال واحدة ، لاندري أين ولافي أي لحظة،عندما «انفرطت حلقةالتاريخ»في موضعمامن الشرق الاوسط، حركةانشاءكلية امتدتالى كل المجتمعات رافضةالمعنى المستقل الذي كان يحبو به كل مجتمعنفسه، الى أن حولتها.. أو فلنقلقتلتها، على افتراض أن الامرين لا يتعادلان . وفي الحق تبدو حركة انشاء الكل من وجهة نظر تلك المجتمعات منفردة ، تبدو رفضا ؛ أفلا يجدر لهذا السبب بالضبط أن نقف خارج هذه الحركة ، وبكلام أدق قبلها ، حتى نعرف ما هو الانسان ؟ وبكلام آخر ، نستطيع أن نحدد الانسانية إما بما تصنع به صيرورتها وإما بمنظومة الوجوه المتعددة التي حققت عليها هويتها في مكان معين ولوقت ما . المنظومة على نقيض حركـــة انشاء الكل : فتلك تستبقي ، استبقاء قد يكون وهميا أحيانا ، الفوارق التي تحتفظ بها حركةانشاءالكل اذ تتجاوزها،وهذا يعني بلا ريبأنهاتحذفها دائما تقريبا. فالتقابل بين الموقفالمذهبي والموقفالكلي هو مثل التقابل

---

(۱) نقد العقل الجدلي ، ص ١٠٣ الحاشية ١

(۲) نقد العقل الجدلي ، ص ١٧٩ .

بين المقارنة اللازمنية لبنى اللاتينية والفرنسية والبحث الاشتقاقي الذي يجد في اللغة الفرنسية الآثار المحفوظة والمحذوفة معا للغة اللاتينية •

ولكن هل يمكن الوقوف قبل التاريخ أو خارجه ، تعليق حركة انشاء الكل ؟ أو ليست هذه الحركة هي الشرط الذي يجعل المنازعة فيها ممكنة ؟ ان سارتر وليفي-شتروس متعاصران ، والموقف الاثنولوجي عند الثاني مثل الموقف الجدلي عند الاول متأت عن تاريخ العلاقات بين الغرب والشعوب التي استعمرها [1] • وباختصار ، ان « وضع » الملاحِظ يعيّن فهمه للملاحَظ ، وهذا الفهم مهما حاول أن يكون اثنوغرافيا محضا يظل رغم ذلك أحد العوامل التي تضغط على المجتمع المدروس من أجل دمجه في عالم مشترك ، ولو بصورة سلبية • وهذا لا ينكره ليفي-شتروس على ما يبدو ، ولكنه يستطيع الرد بأن التحليل يحفظ في هذا اللقاء لكل حقه وأن الدلالة الوجودية للبحث لا تنتقص من موضوعية النتائج ، وهذا بالضبط لان الباحث لا يقرر أن هذه الدلالة هي الوحيدة التي تفيد عن حقيقة الموضوع • وبكلام آخر ، ان العلاقة الجابذة التي يقيمها التاريخ بين المجتمعات المختلفة يمكن أن تكون أيضا ـ وهذه هي المصادرة الاثنولوجية ـ ذات اتجاه نابذ ، حتى لو لم تعد الحركة في مثل هذه الحالة سوى حركة مثالية في الغالب[2] • ولكن ماذا نجد في نهايتها ؟ منظومات اجتماعية عديدة ومختلفة ، لا تُخص أي منها بامتياز ، ولا يُطلب أن يقام بينها سوى

(١) Voir : Cl. Lévi - Strauss, Leçon inaugurale du cours d'anthropologie sociale au Collège de France, Paris, 1960.

(٢) V. Cl. Lévi - Strauss, « Critères scientifiques dans les disciplines sociales et humaines », in Revue internationale des Sceinces sociales, Vol XVI, no 4, 1964, pp. 579 - 597

علاقات نظرية محضة ، علاقات ترجمة متبادلة ، وهذه العلاقات في الحقيقة معاكسة للعلاقات الجدلية ، اذ ان كل مجتمع يمكن أن يكون بمفرده انشاء لكل ، لكن المجموعة تؤول الى ما يريد سارتر بالضبط أن يتجاوزه أي : « التصور الذري من الدرجة الثانية »[1] . الا أن النقاش لم يغلق بعد ، لان ليفي-شتروس يقصد هو أيضا أن يتجاوز هذا التصور الذري ، ولكن هذه المرة ايضا باتجاه معاكس ، عن سبيل الارجاع لا سبيل انشاء الكل . فكل منظومة مبنية على نحو خاص ، لكن كل بنية نتيجة أو تطبيق لجملة من القواعد المشتركة التي تضمن معقولية العالم الانساني بكامله . أفلا يمكن من ثم أن نجد توافقا بالتناظر بين باحثين لا يولي أحدهما للآخر ظهره الا ليجدا نفس الواقع على مستويات مختلفة ؟ ربما يكفي أن نرى في هذه « الثوابت » شروط كل براكسيس ، شروطا لا يكون على البراكسيس أن « تحترمها » ، لانها لا تأتيها من الخارج ، ولكن تكون غايتها أن تعبر عن اللعبة الممكنة لموْضَعَةِ البراكسيس ، لعبة لا يمكن أن تكتشف على حريتها الا بالتعليق المجرد للتاريخ بوصفه « حقيقة سارت » .

لا شيء من ذلك ، ونصل بالعكس الى قلب التناقض . فتلك القواعد المقومة لكل فكر ولكل عمل لا علاقة لها قط بالبراكسيس كما يفهمها سارتر . اذ ان ما يقصده ليفي-شتروس هو اكتشاف « أطر ذهنية » ، قوانين كلية لسير عمل الفكر ، تستند آخر الامر الى بعض الآليات الدماغية ؛ وباختصار ، ان مقصود ليفي-شتروس هو أن يجد الشيء خلف الانسان لا أن يكتشف في الانسان الحرية . ولذا فنحن أمام تصورين لعلاقة الوجدان بالواقع متقابلين تقابلا جذريا: يرى سارتر أن وعي الذات والاشياء ينكشف للذات في البراكسيس ،

---

(١) نقد العقل الجدلي ، المقدمة . C. R. D. introduction.

فهو بالتالي ادراك للواقع : أي ان الجدل مكوِّن ؛ أما عند ليفي-شتروس فليس للوجدان أي امتياز من هذا النوع ، سواء كان تفهما محضا أم شعورا عمليا ، فهو يظن أنه يدرك الواقع لكن حقيقته ليست الا سير عمل : أي ان العقل يوجد دائما مكوَّنا . في الحالة الاولى ، علاقتي بالواقع أمامي ، والواقع معاصر لي ؛ أما في الحالة الثانية ، فالعلاقة خلفي ، والواقع ليس موضوعا أتعقله بل شرط هذا الحدث أني أتعقله . العلاقة في الحالة الاولى تقيمها البراكسيس أما في الثانية فتكشفها البنية .

واضح أن هذا التناقض لا يمكن تجاوزه وليس أقل وضوحا أنه قد تم تجاوزه : اذ يكفي أن نطرحه حتى يتعذر الخروج منه ، ولكن يكفي أيضا أن نختار حتى يتوارى التناقض بانصياع أحد النقيضين للآخر . تبدو البنية لسارتر علاقة قصور ذاتي — يمكن أن تكون موضوع حساب — وتبدو في الوقت نفسه براكسيس حية ولكن هذه البراكسيس هي التي تشرح تلك العلاقة . فالبنى هي « تلك الحقائق الداخلية الغريبة ، المنظَّمة والمنظِّمة معا ، النواتج التركيبية لانشاء كل عملي ، والمواضيع الممكنة دائما لدراسة تحليلية محكمة»[1] . وبكلام آخر ، يبدو أن البنية لا تملك وجودا مستقلا الا بقدر ما تُغفَلُ لحظةُ انشاء الكل التي تكشف بالعكس سمة الانتاج في البنية ، ولكننا نرى في الوقت نفسه كيف يستطيع سارتر بلا صعوبة أن يقبل ويستخدم كل التحاليل البنيوية التي تقوم بها الانطروبولوجيا . وفي الحق ، ما يقصده سارتر هو أن العلاقات التي تنصب عليها هذه التحاليل علاقات جدلية ، وأنها لهذا السبب لا يمكن أن يطرحها — قبل تحليلها — الا البراكسيس . خلاصة قوله ان البنيوية منطق الجدل ، ولكن هذا

(١) نقد العقل الجدلي ص ٤٨٧ . التشديد على الالفاظ من الكاتب.

المنطق يحيل الى فاعل عملي • وقد يقبل ليفي-شتروس بلا ريب المقدمة لكنه يرفض النتيجة التي هي عنده العكس ، أي ان البراكسيس هي التي تستند الى البنى • فلا ريب أن الانسان يعيشها ـ والا فكيف كنا نفهمها ؟ ـ ولا ريب أنه تجب العودة دائما الى الفرد المشخص ، الى « ميلانزي هذه أو تلك الجزيرة » ، ولكن من قبيل التحقق لا من قبيل البرهان ، ولهذا فان ليفي-شتروس يستطيع هو أيضا ، وبالمقابل، أن يقبل ما يسميه « الفنومنولوجيا السارترية » عندما تحاول جهدها « أن تدرك في حركتها الجدلية تجربة اجتماعية ••• »[1] • اذن يجري كل شيء كما لو أن ـ وعلى هذا الاساس يتفسر الاتفاق والاختلاف ـ كما لو أن البنية والبراكسيس مرتبطتان في كل حال بـ « علاقة ارتياب » تمنع أن نسلط عليهما معا شعاع التفكير : اذ لا يمكن أن نعيّنهما كلتيهما جوهريتين في آن واحد لانهما اذ ذاك تلغي احداهما الاخرى • ولكن ربما كان طرح المسألة خطأ ، ومن العبث أن نعطي الاولوية : إما لبنى هي دائما مسبقة التكوين وتفترض بالتالي شيئا آخر ، وإما لـ براكسسات فردية ، تنشيء الكل بلا ريب ، ولكنها في التاريخ تبدو دائما على انها كل قد أنشيء ؟ بل ربما وجب أن نتساءل في امكان تنسيقهما داخل انشاء للكل أوسع يعطي لعلاقتهما تمام المعقولية • ولكن ماذا تكون طبيعة هذا الانشاء للكل ؟ لا نجد لهذا السؤال جوابا كامل الاعداد ، لا عند سارتر ولا عند ليفي-شتروس ، ولكن من الغريب أن هذا وذاك يضعانه في حدود ، يُبرِز تلاقيها جذريةَ التقابلات السابقة وطابع المفارقة فيها • بما أني شددت على هذه التقابلات بدلا من تسطيح العلاقة بين وجهي التفكير ، فعلى هذا التلاقي الصوري على الاقل سأنهي الكلام •

---

(١) الفكر المتوحش ، ص ٣٣١ • Pensée Sauvage, p. 331

ربما كانت العلاقة بين الذات المتكلمة وبنى اللغة ، التي تبنيها النظرية اللغوية ، خير مثال ينير لنا العلاقة بين البراكسيس والبنية . فقد كتب ليفي-شتروس يقول : « لا تكمن اللغة في العقل التحليلي عند علماء الصرف القدماء ، ولا في الجدل المكوّن سلفا عند علماء اللغة البنيويين ، ولا في الجدل المكوّن جدل البراكسيس الفردية في مجابهتها لما يسميه سارتر « العملي قصورا » ، لان كل ذلك يفترض اللغة . أما علم اللغة فيضعنا أمام وجود جدلي منشيء للكلي ، لكنه خارج (أو دون) الوعي والارادة »[1] . ومن المؤكد أن شتروس لا يجعل موقع هذا الجدل المنشيء للكلي على مستوى ما يسميه سارتر « حيّز التاريخ » ، خصوصا وانه يربطه « بوجود » لا نعرف ماهو . في الواقع لا جدوى من أَقْنَمَةِ هذا الجدل ، وانليفي-شتروس يظل متماسكا مع نفسه لو قبل هنا فكرة « انشاء للكلي بدون منشيء » فكرة أقحمها سارتر في آخر الجزء الوحيد الذي صدر من كتابه ، **نقد العقل الجدلي** [2] . قد لا يكون لها نفس المعنى عند هذا وذاك فلا تمحي الاختلافات ، ولكن لا يخلو من الفائدة أن نشهد الاثنين يصلان بدروب مختلفة الى هذه المسألة الرئيسية : مسألة جدل بلا مركز ، بلا ذات هي شرط لمعقولية التاريخ والفكر والواقع .

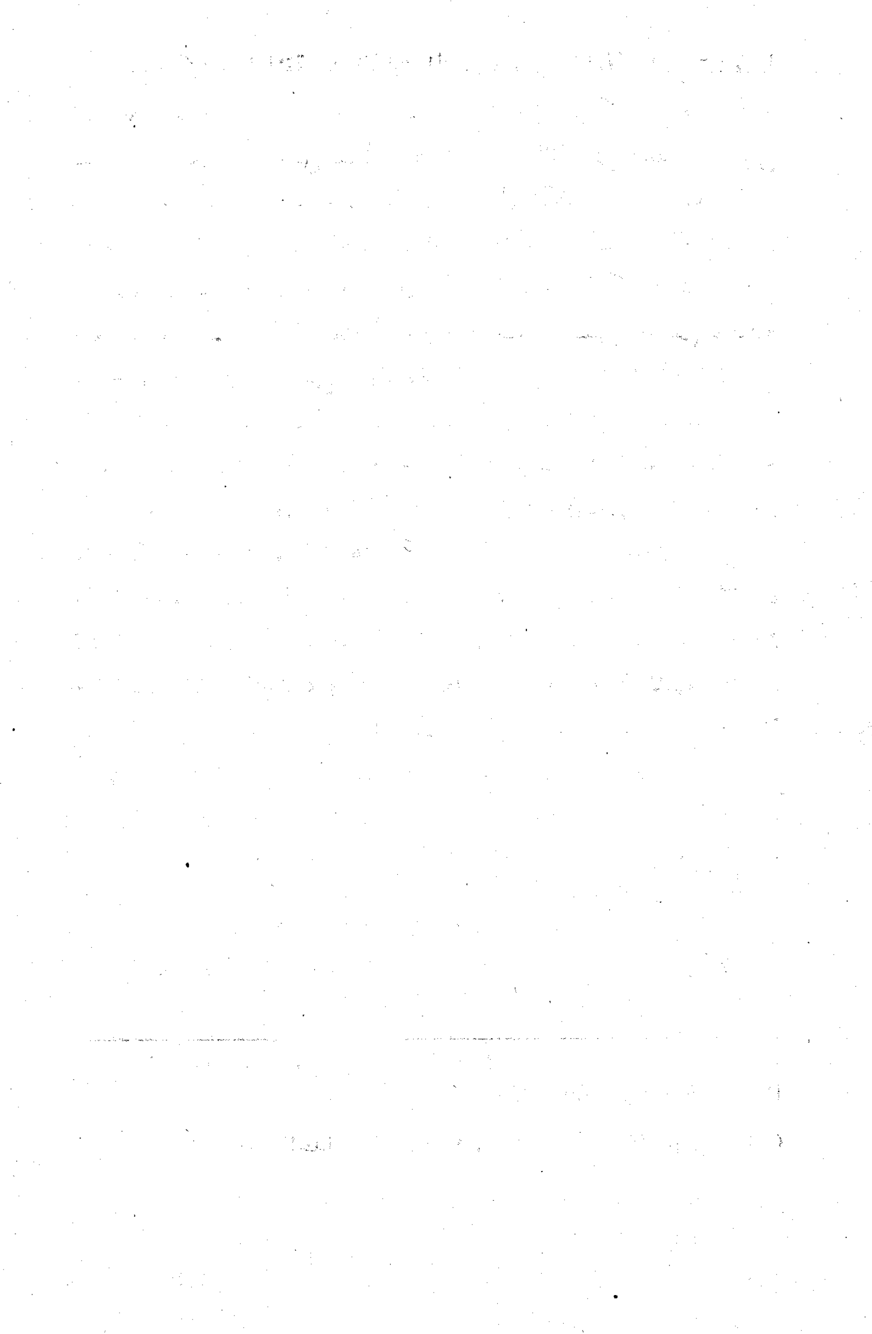
---

(١) **الفكر المتوحش** ص ٣٣٣ – ٣٣٤

Pensée Sauvage, pp. 333 - 334

(٢) نقد العقل الجدلي ، ص ٧٥٤ .

C. R. D., p. 754



البنيويّة والنّقد الأدَبي

جيرار جنيت

(من مجلة L'Arc ، العدد ٢٦ ، الفصل الاول ١٩٦٧)



النقد وحذلقة الترقيع :

في فصل ، يعد الآن كلاسيكيا ، من كتاب **الفكر المتوحش** ، يميز كلود ليفي-شتروس الفكر الاسطوري بأنه « نوع من حذلقة الترقيع الفكرية » • وفي الحق ان ما تمتاز به حذلقة الترقيع هو أنها تمارس نشاطها انطلاقا من مجموعات أداتية لم توضع ، مثل أدوات المهندس ، خصيصا من أجل هذا النشاط • الاصل في حذلقة الترقيع هو أن « يتدبر المرء شأنه دائما بالوسائل الموجودة » وأن يستخدم في بنية جديدة رواسب من البنى القديمة لم تعد صالحة للاستعمال ، موفرا عناء الصنع الكامل لقاء عملية مضاعفة : عملية تحليل (تقوم على استخراج عناصر مختلفة من مجموعات مختلفة قائمة) ، وعملية تأليف (تقوم على تكوين مجموعة جديدة من هذه العناصر اللامتجانسة بحيث لا يعود أي من هذه العناصر الى وظيفته الاصلية) • هذه العملية « البنيوية » النموذجية ، التي تعوض عن نقص في الانتاج ببراعة قصوى في توزيع البواقي ، انما يجدها الاثنولوجي على مستوى الاختراع الاسطوري ، في دراسته للحضارات « البدائية » • لكن هناك نشاطا فكريا آخر ، خاصا « بأرقى » الثقافات ، يمكن أن يطبق عليه هذا التحليل حرفيا تقريبا : نقصد النقد ، وعلى التخصيص ، النقد

الادبي ، لانه يتميز صوريا عن باقي أنواع النقد باستعماله نفس المادة (الكتابة) التي تستعملها المؤلفات التي يتناولها : بَديهي أن نقد الفن ونقد الموسيقى لا يعبران بالاصوات والالوان ، أما النقد الادبي فيتكلم لغة موضوعه ، انه ما بعد اللسان ، « قول في قول »[1] : فيمكن اذن أن يكون ما بعد الادب ، يعني « أدبا الادب نفسه هو موضوعه قسرا »[2] .

بالواقع ، اذا فرزنا الوظيفتين الاكثر جلاء في النشاط النقدي ، — الوظيفة « النقدية » بالمعنى الدقيق للفظة ، وقوامها تقدير الآثار الجديدة والحكم عليها تنويرا لاختيار الجمهور (وظيفة مرتبطة بالمؤسسة الصحافية) ، والوظيفة « العلمية » (وظيفة مرتبطة بصورة رئيسية بالمؤسسة الجامعية) وقوامها دراسة وضعية لشروط وجود الآثار الادبية ، من أجل المعرفة وحسب (اذ تعنى بمادة النص ، والمصادر ، والتكون النفسي أو التاريخي ، الخ ..) — يبقى لدينا ، والامر بديهي وظيفة ثالثة هي بالضبط وظيفة أدبية . فكتاب نقد مثل **بور — رويال** أو **الفسحة الادبية** يجمع الى باقي صفاته أنه كتاب وأن مؤلفه هو ، على طريقته والى حد ما على الاقل ، ما يدعوه رولان بارت **كاتبا** (بمقابل من يكتب فقط) ، أي واضع رسالة تنزع نحو التحول الى عرض جماهيري يمتصها جزئيا . ان « سقوط » المعنى هذا ، اذ يصبح شيئا جامدا ، موضوع استهلاك جمالي ، هو بلا ريب الحركة (أو بالاحرى الوقفة) المؤلفة لكل أدب . لا يوجد الموضوع الادبي الا بفضل ذلك ، وبالمقابل لا يتعلق الا به ، وحسب المناسبات ، يمكن

---

(١) رولان بارت ، **محاولات نقدية** ، ص ٢٥٥ .
Roland Barthes, Essais Critiques, p. 255

(٢)
Paul Valéry, « Albert Thibaudet », N R F, juillet 1936, p. 6.

لأي نص أن يكون أدبيا أو لا يكون ، من حيث يقبل وصفه مشهدا أو (وبالاحرى) رسالة . ان التاريخ الادبي قائم على هذا المد والجزر وعلى هذه التموجات . وذا يعني أن ليس ثمة من موضوع أدبي بالمعنى الدقيق ، بل يوجد فقط وظيفة أدبية يمكن ان تستثمر على التوالي أي موضوع كتابي أو ان تتخلى عنه . اذن فأدبية النص الجزئية ، المشتبهة ، الغير مستقرة للنقد ليست خاصة به : ما يميز النقد عن باقي « الاجناس » الادبية هو طابع **الثانوية** ، وهنا تجد ملاحظات ليفي-شتروس على حذلقة الترقيع تطبيقا لها ، غير متوقع ربما .

يقول ليفي-شتروس ان عالم الادوات عند المرقع الحاذق عالم « مغلق » . ومهما توسع ثبته « يظل محدودا » . هذه المحدودية تميز المرقع الحاذق عن المهندس ، لان هذا يستطيع مبدئيا أن يحصل في كل وقت على الاداة الملائمة لكذا حاجة تقنية . ذلك لان المهندس « يسائل العالم ، بينما يوجه المرقع الحاذق سؤاله الى مُجَمّعات من بواقي المصنوعات الانسانية ، يعني الى مجموعة خلّفتها الثقافة ». حسبنا أن نضع ، في هذه الجملة الاخيرة ، محل لفظتي « مهندس » و « مرقع حاذق » بالترتيب لفظتي **روائي** (مثلا) و **ناقد** حتى نحدد للنقد مقامه الادبي . فمواد العمل النقدي هي بالواقع تلك « البواقي من المصنوعات الانسانية » بعد أن تُحل المؤلفات الى مواضيع ، وبواعث، وأقوال مفاتيح، ومجازات متسلّطة ،واستشهادات، وجذاذات واحالات . المؤلّف البدئي هو بنية مثل تلك المجموعات الاولى التي يهدّمها المرقع الحاذق ليستخرج منها عناصر يتوسل بها لمنافعه . والناقد هو أيضا يفكك البنية الى عناصر: لكل عنصر جذاذة ، وشعار المرقع ، « هذا قد يلزم لا بد يوما » ، هو المصادرة التي تلهم الناقد عند تجهيز مجموعة جذاذاته ، المادية أو الفكرية ، لا فرق . ثم يقوم بعد ذلك باعداد بنية جديدة عن سبيل «المؤالفة بين تلك البواقي».

فنستطيع القول مسهبين بكلام ليفي-شتروس : « ان الفكر النقـــدي يشيد مجموعات ذات بنى بمواد مجموعة ذات بنى هي المؤلَّف ، لكنــه لا يستحوذهذه الموادعلى مستوى البنية، بل يبني قصوره الايديولوجية من ردم مقال أدبــي قديم » •

بيد أن التمييز بين الناقد والكاتب لا ينحصر في طابع الثانويــة والمحدودية لمادة النقد (الادب) المقابل لطابع الاولية واللامحدودية لمادة الشعر أو القصة (العالم) : اذ ان هذه الدونية الكمية نوعا ما ، المتأتية عن أن الناقد يأتي دائما بعد الكاتب فلا يجد بين يديه سوى مواد فرضها عليه اختيار الكاتب سلفا ، يمكن أن يزيدها أو أن يعوض عنها فرق آخر : « يجري الكاتب عملياته بواسطة المفاهيم بينما يجريها النـــاقد بواسطة العلامات • وان بين المجموعتين اللتين يستخدمانهما تفاوتا على محور التقابل بين الطبيعة والثقافة لا يُدرك • اذ ان واحدا على الاقل من وجوه التقابل بين العلامة والمفهوم يقوم على أن المفهوم يريد أن يكون شفافا تماما تجاه الواقع ، في حين أن العلامة تقبل ، لا بل تتطلب أن يندمج الواقع ببعض الكثافة الانسانية » • ان يسائل الكاتب العالم فالناقد يسائل الادب ، يعني عالم علامات • غير أن ما كان علامة عند الكاتب (الاثر الادبي) أصبح معنى عند الناقد (لانــه موضوع القول النقدي) ، ومن وجه آخر ما كان عند الكاتب معنى (رؤيته للعالم) أصبح عند الناقد علامة ، من حيث هو موضوع ورمز لطبيعة ما أدبية • وهذا ما يقوله أيضا ليفي-شتروس بشأن الفكــر الاسطوري ، الذي لا ينفك يخلق عوالم جديدة ، كما يقول بواس ، ولكن يعكس ترتيب الغايات والوسائل : « تتحول المدلولات الــى دوال ، وبالعكس » • هذا المزج المستمر ، وهذا العكس الــدائم للعلامة والمعنى ، يدل على وظيفة العمل النقدي المزدوجة التــي تقوم على خلق معنى من عمل الآخرين ، واقامة عملها على هذا المعنى • ان

كان من « شعر نقدي » ، كما يقول كوكتو ، فانما ذلك بالمعنى الذي يقصده ليفي-شتروس بعبارة : « شعر الحذلقة » : فكما أن المرقع « يتكلم بواسطة الاشياء » ، كذلك يتكلم الناقد ـ بالمعنى القوي ، أي يفصح عن ذاته ـ بواسطة الكتب • ونرادف مرة أخيرة كلام ليفي-شتروس فنقول ان الناقد « ولو لم يحقق مشروعه أبدا ، فانه يضع فيه دائما شيئا من ذاته » •

نستطيع اذن بهذا المعنى أن نعتبر النقد الادبي « نشاطا بنيويا » ؛ لكن المقصود هنا ، كما نرى ، ليس سوى بنيوية ضمنية ، غير واعية • وهنا نجد مسألة يطرحها الاتجاه الراهن في العلوم الانسانية مثل علم اللغة والانطروبولوجيا : أليس النقد مدعوا الى ان ينظم بشكل صريح خطه البنيوي بطريقة بنيوية ؟ ولا نرمي هنا الا الى ايضاح هذا السؤال وتحديد مرماه ، مشيرين الى المسالك الرئيسية التي تصل بها البنيوية الى موضوع النقد ، وتعرض نفسها عليه طريقة خصبة •

اللسان الادبي :

لما كان الادب بالدرجة الاولى عملا لسانيا ، والبنيوية من جهتها الطريقة المثلى في علم اللغة ، فقد كان بديهيا أن يحصل لقاء البنيوية والادب على صعيد المواد اللغوية : اذ ان الاصوات ، والصيغ ، والالفاظ ، والجمل تشكل الموضوع المشترك بين علم اللغة وفقه اللغة ، حتى انه أمكن ، في غلواء الحركة الصورية الروسية ، تحديد الادب بأنه مجرد لهجة ، والاقبال على فكرة الحاق دراسته بعلم اللهجات العام[1] • والصورية الروسية ، التي تعتبر بحق احد منابت علم

(1) ر. ب. توماشفسكي B. Tomachevski ، « مدرسة تاريخ الادب الجديدة في روسيا » ، في **مجلة الدراسات السلافية** ، ١٩٢٨، ←

اللغة البنيوي ، لم تكن في الأصل شيئا بالضبط سوى لقاء بين نقاد ولغويين على صعيد **اللسان الشعري** . **بيد أن** هذا التوحيد بين الادب واللهجة يثير اعتراضات اكثر بداهة من أن تسمح بأخذه على حرفيته . فلو كان الادب لهجة لكان المقصود لهجة فوق اللغات تحدث في اللغات كلها عددا من التحولات المتباينة في أساليبها ولكنها متماثلة في وظيفتها، تقريبا مثل العاميات المختلفة ، التي تظهر طفيليات مختلفة على لغات مختلفة ، لكنها تتشابه في وظيفتها الطفيلية ؛ مثل هذا لا يمكن أن يقال، بشأن اللهجات ، خصوصا وان الفرق بين « اللغة الادبية » واللغة المشتركة ليس فرقا في الوسائل ولكن في الغايات : فالكاتب ،باستثناء بعض التعديلات ، يستعمل نفس اللغة التي يستعملها الآخرون ، ولكن لا على نفس الوجه ولا في نفس القصد : وحدة في المادة ، وتباين في الوظيفة : وهذا الوضع هو بالضبط عكس وضع اللهجة . لكن اللهجة ، مثل غيرها من « مغاليات » الصوري ، كان لها قيمة تطهيرية : اذ ان النسيان الموقّت للمحتوى ، وارجاع « الوجود الادبي » للادب[1] ارجاعا وقتيا الى وجوده اللغوي ، أتاحا بلا ريب اعادة النظر في بعض البداهات العتيقة المتعلقة بـ « حقيقة » القول الادبي ، ودراسة عن قرب لمنظومة اصطلاحاته . لقد طال الزمان على النظرة التي

→

ص ٢٣١ . وبشأن الصورية الروسية بوجه عام ، راجع ف. ارليش V. Erlich ، الصورية الروسية Russian Formalism ، موتون ، لاهاي ، ١٩٥٥ . ثم ان منتخبات من النصوص الصورية تعد الآن في دار سوي مجموعة « كما هو » Editions du Seuil (collection «Tel Quel») باشراف ت. تودوروف .

(١) « موضوع الدراسة الادبية ليس الادب جملة ، ولكن ادبيته (literaturnost) ، يعني ما يجعل من الاثر اثرا أدبيا » . هذه الجملة ، التي كتبها جاكوبسن سنة ١٩٢١ ، صارت احد شعارات الصورية الروسية.

ترى الادب رسالة بلا مدونة ، حتى صار ضروريا أن يعتبر لحظة مدونة بلا رسالة •

ان الطريقة البنيوية تكسر القوقعة الصورية ، بالضبط حين نكتشف الرسالة تحت المدونة ، أو بالاحرى في المدونة ، من حيث تفرضها علينا بنية المدونة ، وليس بعد من حيث تفترضها سلفا الرتابة الايديولوجية • لكن هذه اللحظة لن تدوم طويلا[1] ، لان وجود العلامة ، على كل المستويات ، يستند الى ارتباط الصورة بالمعنى • على هذا النحو اكتشف رومان جاكوبسون ، في دراسته لبيت الشعر التشيكي سنة ١٩٢٣ ، علاقة بين القيمة العروضية لنبرة صوتية وقيمتها الدالة ، باعتبار أن كل لغة تنزع الى اعطاء أكبر قيمة عروضية لمنظومة التقابلات الاكثر احكاما على الصعيد الدلالي : فرق التشديد في الروسية مثلا ، وفرق المدة في اليونانية ، وفرق الارتفاع في الصربية الكرواتية • هذا الانتقال من الصوتية الى علائق الاصوات ، أي من محض المادة الصوتية ، العزيزة على أول ملهمي الصورية ، الى تكوّن هذه المادة منظومة دالة (أو على الاقل ، قابلة لحمل الدلالة) ، هذا الانتقال لا يهم فقط دراسة العروض ، اذ نجد فيه بحق استباقا لطريقة علم الاصوات • انه يمثل جيدا ما يمكن أن يكون اسهام البنيوية في جملة دراسات علم الاشكال الادبية ، مثل : دراسة فن الشعر ، والصنعة الانشائية ، وفن التأليف • بين الصورية المحض التي ترد « الصور » الادبية مادة صوتية ، بلا صورة في النهاية ، لخلوها[2] من

---

(١) « في علم الاساطير كما في علم اللسان ، يطرح التحليل الصوري مباشرة مسألة : المعنى » . ليفي ـ شتروس ، **الانطروبولوجيا البنيوية** ، ص ٢٦٦ •

(٢) راجع خصوصا نقد ايخنباوم وجاكوبسن وتينيانوف لاساليب العروض السمعي عند سيفرس ، الذي كان يدعي دراسة الرنات في الشعر كما لو كان مكتوبا في لغة مجهولة كل الجهل . هذا النقد لخصه ارليخ Erlich ، ص ١٨٧ •

الدلالة ، والواقعية الكلاسيكية التي تعطي كل صيغة « قيمة تعبيرية » قائمة برأسها وجوهرية ، يتوجب على التحليل البنيوي ابراز الترابط القائم بين منظومة صور ومنظومة معانٍ ، باحلال التشابهات الاجمالية محل التماثلات بين حد وحد .

ربما يفيدنا مثال مغرق في التبسيط ، لتركيز الافكار بشأن هذه النقطة : احدى العثرات التقليدية في النظرية التعبيرية ، هي مسألة « لون » الحروف الصوتية التي يصدر بها رامبو احدى قصائده المعروفة . دعاة التعبيرية الصوتية أمثال يسبرسن وغرامون ، يجهدون في أن ينسبوا لكل وحدة صوتية قيمة ايحائية خاصة ، يزعمون أنها فرضت على كل اللغات تأليف بعض الالفاظ . وآخرون بيّنوا هشاشة هذه الفرضيات[1] ، وفي ما يتعلق خصوصا بلون الحروف الصوتية ، تبيّن جداول المقارنة التي يعطيها اتيامبل[2] تبيانا قاطعا أن أشياع السماع الملوّن لا يتفقون على أي اسناد[3] . فيستنتج خصومهم طبعا أن السماع الملوّن ليس سوى اسطورة ، ومن حيث هو أمر طبيعي ، ليس أكثر من واقعة . لكن تناشز الجداول الفردية لا يبطل صحة كل منها ، ويمكن للبنيوية أن تتقدم هنا بشرح يأخذ بعين الاعتبار ، في آن واحد ، تعسفية العلاقة بين الحرف الصوتي واللون ، والشعور الشائع جدا بتلوّن الاصوات : صحيح أن أي حرف صوتي لا يوحي بطبيعته وبمفرده بأي لون ؛ ولكن صحيح

---

(١) يجد القارىء خلاصة لهذه الانتقادات في كتاب ب. دلبويّ : P. Delbouille **الشعر والصوت** Poésie et Sonorités ، منشورات الـ Belles Lettres ، باريس ١٩٦١ .

(٢) في : **أسطورة رامبو** ،
Le Mythe de Rimbaud, II. pp. 81 - 104

(٣) « الالوان جميعها نسبت مرة على الاقل الى كل واحد من الحروف الصوتية » دلبويّ ، ص ٢٤٨ .

أيضا أن توزّع الالوان في الطيف (وان يكن توزعا يعود الى واقع اللسان بقدر ما يعود الى واقع الرؤية كما بيّن غلب وغولدشتاين) يمكن أن يجد تطابقا له في توزع الحروف الصوتية في لغة من اللغات: ومنه فكرة جدول مطابقة ، متغير في تفاصيله ، ثابت في وظيفته : للحروف الصوتية طيف كما للالوان ، والمنظومتان تتداعيان وتتجاذبان ، وتشابههما الاجمالي يوهم أنهما متماثلتان حدا حدا ، تماثلا يحققه كل واحد على طريقته بفعل حافز رمزي ، شبيه بالفعل الذي يندد به ليفي-شتروس بصدد الطوطمية . اذن فكل حافز فردي ، وهو تعسفي من الوجهة الموضوعية وذو أساس من الوجهة الذاتية ، يمكن ان يعتبر مؤشرا دالا على هيئة من الهيئات النفسية . وفي هذه الحالة ، تؤدي الفرضية البنيوية للصفة الاسلوبية للذات ما تنزعه عن الصفة الاسلوبية للموضوع .

ليس اذن ما يجبر البنيوية على أن تنحصر في التحليلات «السطحية» بل العكس : ان أفق النهج البنيوي يقع في هذا الموضوع كما في غيره على المستوى الدلالي ، فقد قال جاكوبسن[1] : « ان الشعر هو بلا ريب أولا ودائما هيئة صوتية ارتدادية ؛ لكنه ليس قط مجرد هذا.. وعبارة فاليري — القصيدة تردد يستطيل بين الصوت والمعنى — على جانب أكبر من الواقعية والعلم ، أغنى من كل أشكال العزل الصوتي ». ومما يسجل لهذا الاتجاه هو الاهمية التي علقها جاكوبسون ، منذ كتب مقاله حول باسترناك عام ١٩٣٥ ، على مفهومي الاستعارة والكناية المستعارين من علم الطرق البيانية ، خصوصا اذا ذكرنا أن احدى مطايا التيار الصوري كانت احتقار الصور ، والحط من الطرق البيانية باعتبارها علائم للسان الشعري . حتى ان جاكوبسن نفسه شدد

(١) رومان جاكوبسن ، محاولات في علم اللسان العام .
Essais de Linguistique Générale, Paris, 1963, p. 233

سنة ١٩٣٦ ، بصدد قصيدة لـ بوشكين ، على وجود شعر بلا صور[1] .
لكنه عاد الى المسألة سنة ١٩٥٨ فأزاح النبرة بصورة محسوسة جدا ، اذ قال : « يعتقد أصحاب المبسَّطات بوجود أشعار خلو من الصور ، لكن هذا الفقر في الطرق البيانية الكلمية يوازيه في الواقع اسراف في الطرق والاشكال النحوية »[2] . والطرق البيانية كما نعلم هي أشكال من الدلالة ، فاذن ، حين يتبنى جاكوبسن الاستعارة والكناية قطبين لنماذجه في اللسان والادب ، لا يؤدي الاحترام لعلم البيان القديم فحسب ، بل يضع مقولات المعنى في صميم المنهج البنيوي .

وفي الحقيقة ، لا يمكن للدراسة البنيوية في « اللسان الشعري» وصيغ التعبير الادبي اطلاقا ، أن تمتنع عن تحليل العلاقات بين المدونة والرسالة . وهذا ما يبينه جاكوبسن تبيانا صريحا ، في عرض موضوعه « علم اللغة وفن الشعر » ، يستشهد فيه بتقنيي الاتصال مثلما يستشهد بشعراء مثل هوبكنز Hopkins وفاليري وبنقاد مثل رانسوم Ransom و إمبسن Empson ، اذ يقول : « الالتباس هو خاصة ذاتية ،لاتستلب، لكل رسالة مركزة على نفسها ، انه باختصار ضرورة لازمة في كل شعر. ونكرر قول إمبسن ان مكائد الالتباس في جذور الشعر عينها »[3] .
فطموح البنيوية لا يقتصر على تعداد لتقطيعات البيت أو احصاء لتكرار الوحدات الصوتية : بل يجب أن يتناول أيضا الظواهر الدلالية التي

---

(١) Essais de Linguistique Générale, p. 244.

(٢) Erlich, p. 149.

(٣) في ص ٢٨٨ . ويجد القاريء مثالا على طريقة جاكوبسن في التحليل الشعري ، في الدراسة التي وضعها بالاشتراك مع ليفي-شتروس : « Les Chats, de Baudelaire » ، في مجلة L'Homme عدد كانون الثاني – نيسان ١٩٦٢ .

يكوّن منذ مَلاّرمِه ، كما هو معلوم،الاساسي في اللسان الشعري[1]، وأن يتناول بصورة عامة مسائل علم العلامات الادبي • ان احدى مهام البنيوية هي انشاء « علم البيان الجديد » ذلك الذي كان ينادي به فرانسيس بونج Francis Ponge ، والذي مازال يعوزنا •

المعنى والبنيـة :

لقد أصبح الطابع البنيوي للسان على كل المستويات مسلما به اليوم عموما تسليما كافيا حتى لتفرض الـ « مقاربـة » البنيويـة للتعبير الادبي نفسها بنفسها اذا جاز القول • الا أن شرعية المنظور البنيوي تثير اعتراضات مبدئية على درجة من الخطورة ، حالما تترك مستوى علم اللغة (أو ذلك « الجسر الملقى بين علم اللغة وتاريخ الادب » ، الذي تشكله في نظر شبيتزر دراسات الصورة والانشاء)، كي نجوز الى الصعيد الموقوف تقليديا على النقد: صعيد الـ«مضمون»• أجل ، ان البنيوية من حيث هي طريقة تقوم قبليا على دراسة البنى حيثما تجدها • بيد أن البنى ليست أولا ، وهي أبعد من أن تكون ، أغراضا تصادف ، انها منظومات من العلاقات المستترة ، التي ينالها التصور لا الحواس ، فينشئها التحليل بقدر ما يستخرجها ، وقد يتبعها أحيانا مع الظن بأنه يكتشفها • ومن جهة أخرى ليست البنيوية طريقة فحسب ، بل انها أيضا ما يسميه كاسّيرر « نزعة فكرية عامة»[2]، أو ، كما يمكن أن يقول غيره بشراسة ، انها ايديولوجيا يقوم تحيزها

---

(١) راجع ب. غيرو P. Guiraud ، فصله : « من أجل علم علامات للتعبير الشعري » في كتابه اللغة والادب Langue et Littérature ، نشر Les Belles Lettres في باريس سنة ١٩٦١ .

(٢) « Structuralism in Modern Linguistics ». Word, vol. 1, no 2, 1945.

على تقييم البنى على حساب الجواهر[1] ، وبالتالي يمكن أن تبالغ في القيمة التفسيرية للبنى • وفي الحق ليست المسألة أن نعرف هل يوجد منظومة علاقات في هذا الموضوع من البحث أو ذاك ، اذ من البديهي وجودها في كل موضوع ، وانما تقوم على تعيين أهمية المنظومة بالنسبة لعناصر الفهم الاخرى : فهذه الاهمية تقيس درجة صحة الطريقة البنيوية ، ولكن كيف لنا بقياس هذه الاهمية نفسها دون اللجوء الى الطريقة البنيوية ؟ ذلكم هو الدور •

يبدو أن البنيوية تجري في مضمارها كلما ترك النقد البحث عن أسباب وجود الاثر الادبي أو تعييناته الخارجية ــ من اجتماعية ونفسية وغيرها ــ كي يصرف انتباهه الى هذا الاثر في ذاته ، معتبرا اياه نتيجة بل موجودا قائما بذاته •بهذا المعنى تتفق البنيوية مع تيار العزوف بوجه عام عن الوضعية ، وعن التاريخ « المؤرّخ » وعن « وهم كتابة السير » ، تيار لنا عنه شواهد ، من وجوه مختلفة ، في النتاج النقدي لـ بروست ، وإليو ، وفاليري ، والصورية الروسية ، و « نقد الموضوع » الفرنسي ، و « النقدية الجديدة » عند الانغلوساكسون • يمكن على نحو ما أن يعتبر التحليل البنيوي معادلا

---

(١) يجد القاريء تعبيرا جليا جدا لهذا التحيز الذي يمكن أن يسمي البنيوية هوى فكريا أو جماليا ، في قول فاليري (Œuvres, Pleiade, II, pp. 1532 - 1533) : « كان زمن كنت أبصر او أريد ان أبصر العلاقات بين الاشياء نفسها » . (ويستشهد جاكوبسن ب براك الذي يقول أيضا : « لا أومن بالاشياء بل بالعلاقات بين الاشياء » . هذا قانون الايمان البنيوي) . « كانت الاشياء تجعلني أبتسم شفقة ، والذين كانوا يتوقفون عندها ما كانوا بنظري سوى عبدة أصنام . **كنت أعرف** ان جوهرها هو **الشكل** . كان ذلك نوعا من التصوف اذ انه كان يجعل العالم الذي تبصره الاعين تابعا لعالم تبصره الروح فقط ، رؤياه خاصة وتقتضي كشفا وتلقينا ، الخ ... » ويقول أيضا : « ذوقي يميل الى التنظيمات والى سير عملها » .

بحثا لما يسميه الامريكيون **القراءة المحكمة** Close reading وما يمكن أن نسميه في أوربا ، على غرار شبيتزر ، دراسة الآثار في ذاتها . بهذا المعنى بالضبط وصف شبيتزر هذا الموقف الجديد « بنيويا »، حين رسم سنة ١٩٦٠ المسيرة التي كانت قادته من النزعة السيكولوجية في دراساته الاولى للاسلوب الى نقد خالص من كل احالة الى الخبرة الحياتية ، « مخضعا التحليل الاسلوبي لشرح الآثار الخاصة باعتبارها كيانات شعرية في ذاتها ، دون ما عود الى نفسية المؤلف » [1] . فكل تحليل يحتبس داخل الاثر ولا ينظر في منابعه أو بواعثه ، يكون اذن بنيويا ضمنا ، ويجب من ثم أن تتدخل الطريقة البنيوية كي تعطي هذه الدراسة الذاتية نوعا من معقولية الفهم يقوم مقام معقولية الشرح التي تركت مع البحث عن الاسباب . وهكذا تأتي حتمية البنية ،حتمية مكانية نوعا ما ، فتأخذ ، بروح حديثة تماما ، دور الحتمية الزمنية ، حتمية التكوّن ، فتُعرّف كل وحدة بحدود علاقات لا بحدود تَحَدُّر [1] . اذن ينزع تحليل « المواضيع » تلقائيا الى الاكتمال والامتحان في تأليف بنيوي تتوزع فيه زمر المواضيع **شبكات** ، لتستمد معناها الكامل من موضعها ووظيفتها في منظومة الاثر الادبي: هذا هو المقصد الذي عبر عنه جان-بيير ريشار تعبيرا صريحا في كتابه: **ملارميه وعالمه الخيالي** ، أو جان روسّه في قوله : « ليس من صورة تدرك الا حيث يرتسم توافق أو علاقة ، خط قوة ، شكل ملازم ، نسيج حضورات أو أصداء ، شبكة من التوافدات . فأسمي «بنى»

---

(١) « دراسات الاسلوب والبلدان المختلفة » ، في Langue et Littérature ص ٢٧ ــ ٢٨ .

(٢) « علم اللغة البنيوي مثل علم الميكانيك الكمي يعوضان من جهة الحتمية الشكلية ما يخسرانه من جهة الحتمية الزمنية » . جاكوبسن ، **المحاولات** ... ، ص ٧٤ .

تلك الثوابت الصورية ، تلك الارتباطات التي تتم عن عالم ذهني والتي يعود كل فنان فيبتدعها وفقا لحاجاته »[1] .

فتكون البنيوية من ثم لكل نقد ذاتي ملاذا من خطر التفتت الذي يهدد تحليل المواضيع : أي وسيلة لاعادة وحدة الاثر الادبي ، ومبدأ تماسكه ، ما كان يسميه شبيتزر **كنهه** الروحي . لكن المسألة في الواقع أكثر تعقيدا بلا ريب ، اذ يمكن للنقد الذاتي أن يتبنى موقفين من الاثر متباينين جدا ، لا بل متعارضين ، تبعا لاعتباره الاثر موضوعاأم **ذاتا** . وتقابل هذين الموقفين يعلمه جورج بوليه تعليما بارزا جدا في نص يجعل فيه من نفسه أحد أتباع الموقف الذاتي اذ يقول : « أعتقد مثل كل الناس أن هدف النقد هو الوصول الى معرفة حميمة للواقع المنقود . على أنه يبدو لي أن مثل هذه الحميمية ليست ممكنة الا بقدر ما يصير الفكر الناقد الفكر المنقود ، بقدرما يفلح في نفوذه الى داخل الفكر المنقود بحيث يشعر به بدوره ويتخيله بدوره ويتعقله بدوره . ولا شيء أقل موضوعية من حركة الفكر هذه . ذلك لانه ، خلافا لما يتصور عادة ، يجب على النقد أن يحترس من أن يستهدف موضوعا ما (ولو شخص المؤلف نفسه من حيث هو مغاير ، أو مؤلفه من حيث هو شيء) ؛ اذ ان ما يجب بلوغه هو **ذات** ، يعني فعالية روحية لا نستطيع فهمها الا اذا وضعنا أنفسنا موضعها ، وجعلناها تلعب من جديد دور الذات »[2] .

نقد المشاركة الذاتية هذا ، الذي يتجلى بروعة في تتاج جورج بوليه نفسه ، ينتمي الى ذلك النمط من الفهم الذي يسميه بول ريكور

---

(١) جان روسه ، الصورة والدلالة Forme et Signification نشر Corti ١٩٦٢ ص ١٢ .

(٢) Les Lettres Nouvelles, 24 juin 1959.

تفسيرية[1]، سائرا بهذا على خطا ديلتاي وبعض آخرين (منهم شبيتزر)• في هذا النمط من الفهم لا يتصور معنى الاثر عبر سلسلة من العمليات الفكرية ، لكنه يعاش من جديد ، « يستعاد » بمثابة رسالة قديمة تتجدد باستمرار • وبالعكس ، من الواضح أن النقد البنيوي يعود الى تلك المغالاة في الموضوعية التي يشجبها بوليه ، لان البنى لا يعيشها الوجدان المبدع ولا الوجدان الناقد • انها في صميم الاثر ، بلا ريب ، ولكن بمثابة ركيزة ضمنية شأنه شأن مبدأ معقولية موضوعية ، لا ينال الا عن طريق التحليل والمشاركات ، نوع من الذهن الهندسي يختلف عن الشعور • النقد البنيوي خالص من كل الارجاعات المتعالية التي يقوم بها التحليل النفسي مثلا ، أو الشرح الماركسي ، لكنه يمارس بدوره ارجاعا باطنيا يخترق مادة الاثر حتى يصل الى هيكله العظمي : أجل هذه نظرة ليست سطحية ابدا ، لكنها نافذة نفاذا راديوسكوبيا نوعا ما ، وخارجية بقدر نفوذها •

اذن يرتسم هنا خط فاصل شبيه كثيرا بذاك الذي يضعه بول ريكور للدراسة البنيوية للاساطير ، انه : في كل موضع تمكن وتستحب الاستعادة التفسيرية للمعنى ، في توافق حدسي بين وجدانين ، يصبح التحليل البنيوي (أقله جزئيا) غير مشروع وغير سديد • فيمكن من ثم أن تتخيل للحقل الادبي نوعا من التقسيم الى مجالين : واحد للادب « الحي » ، يعني الذي يمكن أن يعيشه الوجدان الناقد والذي يجب ابقاؤه للنقد التفسيري ، كما يطالب ريكور بذلك في مجال التقاليد اليهودية والهلينية المتضمنة فائضا من المعنى لا يستنفد ويظل أبدا حاضرا ، وآخر لادب لا تقول انه « ميت » ، لكنه بعيد نوعا ما ، رموزه صعبة التفكيك ، ومعناه المفقود لا يمكن ادراكه الا بفضل

---

(1) P. Ricœur, « Structure et herméneutique », Esprit, nov. 1963.

عمليات الذهن البنيوي ، ومثاله الثقافات « الطوطمية » ، مجال الاثنولوجيين دون غيرهم . ليس من خلف في مبدأ هذا التقسيم للعمل ، وتجب الملاحظة أولا أن هذا التقسيم يوافق حدود الحيطة التي تفرضها البنيوية تلقائيا على نفسها ، بتناولها أولا المجالات الاكثر طواعية لطريقتها ، والاقل « بواقي»[1] . يجب الاعتراف أيضا بأن هذا التقسيم يترك للبحث البنيوي حقلا فسيحا لا يحد ولم يكد يوطأ ، اذ ان حصة الادب « المفقود المعنى » أوسع بكثير من حصة الادب الآخر ، وليست دائما بقليلة الفائدة . فهناك مجال فسيح للادب ، اثنوغرافي نوعا ما ، قد يكون شيقا للبنيوية استكشافه ، يشتمل على : الآداب البعيدة في الزمان والمكان ، والآداب الطفولية والشعبية ، بما فيها الاشكال المتأخرة مثل الميلودراما والرواية المتسلسلة ، التي لقيت دائما اهمال النقاد : لا عن حكم اكاديمي مسبق فحسب ، ولكن أيضا لان أية مشاركة ذاتية ما كانت تستطيع انعاش النقد أو توجيهه في بحثه ؛ والتي قد يتمكن النقد البنيوي من معالجتها كمواد انطروبولوجية ومن دراستها مجموعات ضخمة وفي وظائفها الارجاعية ، حسب النهج الذي سلكه صوريون روس مثل بروب وسكافتيموف[2] . تبين هذه الابحاث مثل ابحاث ليفي-شتروس في الاساطير البدائية وقبلها خصب الطريقة البنيوية في تطبيقها على نصوص من هذا النوع ، وكل ما يمكن أن نكشفه عن الخلفية المجهولة للادب « المعترف به » . أجل ، لا يكلمنا فانتوماس وبارب-بلو من القرب

---

(١) ليفي-شتروس ، نفس المرجع ، ص ٦٣٢ .

(٢) ر. V. Propp في كتابه : Morphology of the Folktale الصادر عن Indiana University سنة ١٩٥٨ (الطبعة الاولى صدرت بالروسية في لينينغراد سنة ١٩٢٨) . ثم A. Skaftymov في كتابه : Poétique et genèse des bilines ، (بالروسية) ، ساراتوف ، ١٩٢٤، راجع Erlich ص ١٧٦ - ١٧٧ .

الذي يكلمنا منه سوان وهملت : لكنهما قد يقدمان لنا نفس المقدار من الفوائد • وبعض المؤلفات التي كرّست رسميا ، وقد أصبحت في الواقع غريبة عنا بأكثرها ، مثل مؤلفات كورنيّ ، ربما كلمتنا بلسان القرب الكاذب الذي مازال يفرض عليها ، ولمجرد الخسارة غالبا •

ربما بدأت البنيوية تسترد هنا ما تنازلت عنه للتفسيرية ، اذ ان الفرق الحقيقي بين هاتين « الطريقتين » ليس في الموضوع ولكن في الموقف النقدي • فحين اقترح بول ريكور التقسيم الذي شهدناه بحجة أن « قسما من الحضارة ، أي بالضبط ذلك الذي لم تنشأ عنه ثقافتنا ، أكثر طواعية من غيره للمعالجة بالطريقة البنيوية » ، رد عليه ليفي-شتروس بالسؤال التالي : « ترى هل المقصود هو فرق ذاتي بين نوعين من الفكر والحضارة ، أم هو فقط موقف نسبي يتخذه الملاحظ الذي لا يستطيع أن يتبنى تجاه حضارته هو نفس المنظور الذي يبدو له سويّا ازاء حضارة مختلفة ؟ »[1] ؛ يعني : أن عدم السداد الذي يجده بول ريكور في تطبيق البنيوية اذا حصل على الاساطير اليهودية المسيحية ، قد يجده بلا ريب فيلسوف ميلانيزي في التحليل البنيوي لتقاليده الاسطورية التي يعيشها من الصميم مثلما يعيش المسيحي رسالة كتابه ؛ وعلى العكس قد يجد هذا الميلانيزي اجراء تحليل بنيوي للكتاب المسيحي أمرا سديدا • فيصدق على الطريقة البنيوية ما قاله ميرلو-بونتي على علم الاثنولوجيا : « ليست اختصاصا محددا بموضوع معين ، المجتمعات « البدائية » ، بل انها منحى من التفكير ، يتوجب عندما يكون الموضوع « مغايرا » ويقتضي منا تحولا ذاتيا • وعليه ، نصبح اثنولوجي مجتمعنا نحن اذ أقمنا بيننا وبينه فاصلا »[2]•

فتكون هكذا العلاقة بين البنيوية والتفسيرية لا علاقة فصل

---

(١) Esprit, nov. 1963, p. 633.

(٢) ميرلوبونتي ، دلالات ص ١٥١ •

ميكانيكي واستبعاد بل علاقة تكامل ، مثلا : حين يتكلم النقد التفسيري بصدد أثر أدبي لغة استعادة المعنى والابداع الداخلي المجدد ، يتكلم النقد البنيوي عن كلام قد نأى وعن اعادة انشاء معقول • فيستخرجان هكذا دلالات متكاملة ، مما يزيد خصب الحوار بينهما ، مع الانتباه الى أنه لا يمكن تكلم اللسانين في آن واحد [1] • مهما يكن فان النقد الادبي لا يجد من داع لرفض الاصغاء الى الدلالات الجديدة [2] التي يمكن أن تستخلصها البنيوية من الآثار الاكثر قربا في الظاهر والاكثر ألفة ، عن سبيل « مباعدة » كلامها ، اذ ان أحد الدروس العميقة التي تعطيناها الانطروبولوجيا الحديثة هو أن البعيد قريب منا أيضا بسبب من بعده عينه •

---

(١) يشير ليفي ـ شتروس الى علاقة مماثلة بين التاريخ والاثنولوجيا: « لا تظهر البنى الا للاحظة تمارس من الخارج • وبالعكس لا يمكن لهذه الملاحظة ابدا أن تدرك السيرورات ، لان هذه ليست مواضيع تحليل ، بل هي نمط خاص من انماط معاناة الذات لزمنية ما ... قد يعمل المؤرخ عمل الاثنولوجي احيانا ، والاثنولوجي عمل المؤرخ ، لكن الطريقتين متكاملتان بمعنى الفيزيائيين لهذه اللفظة ؛ يعني أننا لا نستطيع ، معا وفي نفس الآن ، تحديد مرحلة آ ومرحلة ب تحديدا محكما (ما لا يمكن أن يتم الا من الخارج وبحدود بنيوية) ، وأن نعيش من جديد على نحو تجريبي الانتقال من الاولى الى الثانية (وهذا هو الوجه الوحيد المعقول لفهم الانتقال) . حتى علوم الانسان لها علاقات ارتياب » . راجع « حدود مفهوم البنية في الاثنولوجيا » في مؤلفه :
Sens et Usage du mot structure, Mouton, La Haye, 1962

(٢) الدلالة الجديدة ليست حتما معنى جديدا : انها علاقة جديدة بين الصورة والمعنى . بما أن الادب هو فن الدلالات فيمكن أن يتجدد ويتجدد النقد معه ، بتعديل هذه العلاقة اما من جهة المعنى واما من جهة الصورة . وهكذا يحدث أن يجد النقد الحديث في المواضيع والاساليب ما كان النقد الكلاسيكي قد وجده في الافكار والعواطف . فيعود الينا معنى قديم مرتبطا بصورة جديدة ، وهذا الانزلاق ينقل نتاجا ما من موقع الى آخر .

كان فاليري يحلم بتاريخ للادب لا يكون « تاريخا للادباء ومصادفات حياتهم وآثارهم بقدر ما يكون تاريخا للفكر باعتباره منتجا أو مستهلكا للـ « أدب » ، ويمكن أن يوضع بدون أن يذكر فيه اسم كاتب » • هذه الفكرة معلوم أية أصداء لقيت عند أدباء امثال بورج وبلانشو ، وكان تيبوده من قبل قد وجد متعة في تأسيس جمهورية للآداب تنزع فيها الى التواري الفروق بين الاشخاص ، وذلك بكثرة ما قام به من المقارنات والمبادلات • هذه الرؤية الموحّدة للحقل الادبي، طوباوية عميقة جدا ، وبحق تفتن العقول ، لان الادب ليس فقط مُجَمَّعا من الآثار المستقلة أو التي « يؤثر » بعضها على بعض على نحو سلسلة من المصادفات المنفردة ، لكنه أيضا جملة متماسكة ، فسحة متجانسة تتلامس الآثار داخلها وتتنافذ ؛ ثم انه بدوره قطعة مرتبطة بأخرى في مدى أوسع ، مدى « الثقافة » حيث يجد قيمته بالقياس الى الجملة الثقافية • فهو من هذا القبيل المزدوج موضوع لدراسة بنيوية من الداخل ومن الخارج •

نعلم مثلا أن اكتساب الطفل للسان لا يكون بمجرد توسع المفردات ولكن بسلسلة من التقسيمات الداخلية ، دون تغيير للهيمنة الاجمالية : ففي كل مرحلة ألفاظ الطفل هي عنده كل اللسان ، بها يدل على كل الاشياء مع تزايد في الدقة ، ولكن بدون ثغرات •وكذلك القول في زجل لم يقرأ سوى كتاب واحد هو عنده كل « أدبه » ؛ وبعد أن يقرأ كتابا آخر يتقاسم هذان الكتابان كل حقله الادبي بدون أي فراغ بينهما ، وهلم جرا ؛ والثقافة انما تغتني لانه ليس عليها أن تملأ ثغرات : فتتعمق وتتنوع لانه ليس عليها أن تمتد •

ونستطيع القول من جهة ما أن « أدب » الانسانية بأسرها (يعني

النحو الذي تنتظم عليه الآثار المكتوبة في فكر البشر) يتكون تبعا لسيرورة مماثلة ــ هذا باستثناء التبسيط الغليظ الذي يفرض على الادب هنا : اذ ان « الانتاج » الادبي كلام بالمعنى السوسوري ، أي سلسلة من الافعال الفردية المستقلة جزئيا وغير المتوقعة ؛ أما « استهلاك » الادب فهو في المجتمع لغة ، يعني مجموعة من العناصر التي تنزع مهما كان عددها وطبيعتها الى أن تترتب في منظومة متماسكة . يقول ريمون كنو Raymond Queneau متظرفا ان كل أثر أدبي هو إما إلياذة واما أوديسا . ولم يكن دائما هذا التشطير الثنائي مجازيا . اذ نجد عند أفلاطون أيضا صدى « أدب » كان مقصورا تقريبا على هاتين الملحمتين دون أن يعتبر مع ذلك ناقصا . فـ إيون لا يعرف ولا يريد أن يعرف غير هوميروس ، يقول : « يبدو لي أن معرفته تكفي »، لان هوميروس يتكلم كفاية عن كل شيء ، ولان كفاءته موسوعية ، اذا كان الشعر يصدر حقا جملة معارف (هذه النقطة الاخيرة هي التي ينازع فيها أفلاطون ، لا صفة الكلية في الاثر الادبي) . ومذ ذاك راح الادب يتقسم بدل أن يمتد ، وظل تناج هوميروس طيلة قرون يعتبر جنينا ومنهلا لكل أدب . هذه الاسطورة لا تخلو من حقيقة لان مكتبة حضارة من الحضارات ، سواء احتوت كتابا أم كتابين أم عدة آلاف من الكتب ، فهي دائما كاملة مادامت تشكل أبدا في فكر البشر منظومة .

كان لعلماء البيان الكلاسيكيين شعور دقيق بواقع هذه المنظومة التي كانوا يعبرون عنها في نظرية الاجناس الادبية . فكانت الملحمة والمأساة والملهاة ، الخ .. ، وكل الاجناس تتوازع الحقل الادبي بكامله دون بواق . ما كان ينقص هذه النظرية انما هو البعد الزمني ، أي فكرة تطور ممكن للمنظومة . كان بوالو يشهد بأم عينه موت الملحمة وولادة القصة ولم يستطع دمج هذه التغيرات في فن الشعر .

واكتشف القرن التاسع عشر التاريخ لكنه نسي تماسك المجموعة : فمحا التاريخ الفردي ، للمؤلفين وآثارهم ، جدول الاجناس • برونتيير Brunetière وحده حاول التأليف بين النظريتين ، لكن هذا التوحيد بين بوالو وداروين لم يكن موفقا ، كما هو معلوم : اذ ان التطور عند برونتيير تابع للعضوية البحت ، بحيث يولد كل نوع وينمو ويموت وكأنه نوع منعزل ، دون أن يهتم بمجاوره •

تقوم الفكرة البنيوية هنا على تتبع الادب في تطوره الاجمالي باجراء مقاطع تزامنية على مراحل مختلفة ، وبمقارنة هذه اللوحات • حينئذ يظهر التطور الادبي بكل غناه الذي يقوم على أن المنظومةتصمد عبر تغيرها المستمر • وهنا أيضا فتح الصوريون الروس السبيل ، اذ أعاروا ظواهر الدينامية البنيوية اهتماما نبيها جدا ، واستخلصوا مفهوم التبدل الوظيفي • ان الملاحظة المنفردة لحضور أو غياب أحد الاشكال أو المواضيع الادبية في تلك المرحلة او تلك من التطور التزمني لا تعني شيئا ما لم تبين الدراسة التزامنية وظيفة هذا العنصر في المنظومة • لان العنصر يمكن أن يستمر مع تبدل في الوظيفة أو ، على العكس ، أن يتوارى تاركا وظيفته لعنصر آخر • يقول توماشفسكي معيدا رسم سير الابحاث الصورية : « ان آلية التطور الادبي تميزت على هذا النحو شيئا فشيئا : فكانت تعرض لا كأنها سلسلة من الصور التي تأخذ كل منها مكان الاخرى ، ولكن كأنها تنوّع مستمر في الوظيفية الجمالية للطرائق الادبية • كل أثر يجد اتجاهه بالنسبة للوسط الادبي ، وكل عنصر بالنسبة للاثر الادبي بكامله • وذلك العنصر مثلا كانت له قيمة معينة في أحد العصور ثم تبدلت وظيفته تماما في عصر آخر • فأشكال الهزل الغليظ ، التي كانت تعتبر في العصر الكلاسيكي ذرائع للملهاة ، أصبحت في عصر الرومنطيقية من مناهل المأساة • والحياة الحق لعناصر الاثر الادبي انما تظهر في تبدل الوظيفة

المستمر[١] » . ان خلوفسكي وتينيانوف خصوصا ، درسا في الأدب الروسي هذه التنوعات الوظيفية التي تنتقل بصورة ما من مستوى أدنى الى مستوى « الصورة المستوفاة » ، وتغذي تنافذا مستمرا بين الادب الشعبي والادب الرسمي ، بين « الطليعة » والاكاديمية ، بين الشعر والنثر ، الخ .. كان خلوفسكي يحب القول بأن الإرث ينتقل عادة من العم الى ابن أخيه ، وأن التطور يكرس الفرع الاصغر . وهكذا يحمل بوشكين الى الشعر الرفيع انطباعاته عن اشعار الالبومات من القرن السابع عشر ، ويستعير نكراسوف من الصحافة وروايات التسلية ، وبلوك من أغاني الغجر ودوستويفسكي من القصة البوليسية [٢] .

فيصبح التاريخ الادبي في هذا المنظور تاريخ منظومة : تكون فيه القوة الدلالية لتطور الوظائف ، لا لتطور العناصر ، ومعرفة العلاقات التزامنية تتقدم فيه بالضرورة على معرفة السيرورات ، لكن اللوحة الادبية لاحد العصور ، كما يلاحظ جاكوبسن ، لا تصف حاضر ابداع وحسب ولكن أيضا حاضر ثقافة ، وبالتالي ، وجها من وجوه الماضي ، « لا الانتاج الادبي لعصر من العصور ، ولكن ايضا ذلك القسم من التقليد الادبي ، الذي بقي حيا أو بُعث في العصر المقصود.. الانتقاء الذي يقوم به تيار جديد بين الكلاسيكيين ، والتأويل الجديد الذي يطلع به للمنتقيات ، هاتان مسألتان أساسيتان في الدراسات الادبية التزامنية »[٣] ؛ وبالتالي فان التاريخ البنيوي للادب ، وهو

---

(١) ب. توماشفسكي ، المقال المذكور ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) ارليخ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، ونينا غورفينكل ، « مناهج تاريخ الادب الجديدة في روسيا » ، العالم السلافي .
Le Monde Slave, fév. 1929.

(٣) محاولات .... ، ص ٢١٢ . Essais ... p. 212.

ليس سوى وضع لهذه اللوحات التزامنية المتعاقبة في منظور تزمني ، يجعل في لوحة الكلاسيكية الفرنسية موضعا لـ هوميروس وفيرجيل لا لـ دانته وشكسبير . وفي اللوحة الادبية الراهنة نجد اكتشاف (أو ابداع) الباروك أكبر أهمية من الإرث الرومنطيقي ، وشكسبيرنا ليس شكسبير فولتير ولا الذي عرفه هوغو : انه معاصر لـ برخت وكلودل ، كما أن سرفانتس معاصر في منظورنا لـ كافكا . ان عصرا من العصور يعبر عن نفسه بما يقرأ مثلما يعبر عن نفسه بما يكتب ، وهذان الوجهان للادب يعين أحدهما الآخر بحيث أني ، كما يقول بورج : « لو قـيِّض لي أن أقرأ أية صفحة من أدب اليوم ــ هذه الصفحة مثلا ــ مثلما سوف يقرؤها أبناء السنة الالفين لعرفت أدب السنة الالفين »[1] .

الى هذا التاريخ القائم على **التقسيمات الداخلية** للحقل الادبي ، والغني جدا ببرنامجه (لنفكر فقط بما قد يكون عليه تاريخ شامل للتقابل بين النثر والشعر : تقابل أساسي ، أولي ، ثابت ، لا تتبدل وظيفته ، وتتجدد وسائله بلا انقطاع) ، يجب أن نضيف لو أمكن تاريخ تقسيم أوسع بكثير ، تقسيم بين الادب وكل ما عداه ؛ وحينئذ لن يكون بعد التاريخ الادبي ، ولكن تاريخ العلاقات بين الادب والحياة الاجتماعية بجملتها : أي التاريخ الذي دعا لوسيان فافر منذ عهد قريب الى انشائه ، تاريخ **الوظيفة الادبية** [2] . والصوريون الروس شددوا على الطابع الفرقي للواقعة الادبية[3] . الصفة الادبية تابعة

---

(1) Borges, Enquêtes, p. 244.

(2) في كتابه: Combats pour l'Histoire, pp. 263 - 268 . التعبير: الوظيفة الادبية ، من وضع ر. بارت الذي يتناول من جديد فيوسع برنامج ل. فافر ، في كتابه : Sur Racine, pp. 150 - 156

(3) ي. تينيانوف . « الواقع الادبي » في : **التقليديون والطليعيون** (بالروسية) ، لينينغراد ، ١٩٢٩ .

ل غير الادبي ولا يمكن أن تعطى تحديدا ثابتا : بل يبقى فقط شعور بوجود حد . نعلم جميعا أن نشوء السينما قد عدل وضع الادب : فسلبته بعض وظائفه ولكنها أعطته بعض وسائلها الخاصة . وبديهي أن هذا التحول ليس الا في بدايته . فكيف يبقى الادب بعد نمو وسائل التواصل الاخرى ؟ لا نعتقد بعد ، كما اعتقدوا منذ أرسطو حتى لاهارب ، أن الفن هو تقليد الطبيعة ، وحيث كان الكلاسيكيون يَنْشُدون مشابهة جميلة ، صرنا ننشد بالعكس تميزا جذريا وابداعا مطلقا . ويوم لا يعود الكتاب الناقل الوحيد للمعرفة ، ألا يكون قد تغير معنى الادب ؟ حتى اننا لنقول : هذه الايام ربما كانت آخر أيام الكتاب . هذه المغامرة الجارية يجب أن تجعلنا أكثر انتباها للاحداث الماضية فلا نستطيع بلا نهاية أن نتكلم عن الادب كما لو كان وجوده أمرا سائغا بذاته ، كما لو أن علاقته بالعالم والبشر لم تتغير أبدا . ينقصنا مثلا تاريخ للقراءة ، تاريخ فكري واجتماعي وطبيعي حتى . اذا ثبت قول القديس أوغوسطينس يكون معلمه أمبروزيوس أول انسان في العصر القديم يقرأ بعينيه ، أي بدون أن يُسمع لفظه للنص . ان التاريخ منسوج من تلك اللحظات الصامتة العظيمة .وربما كانت الفرصة السعيدة للتحقيق البنيوي أهليته لان يجد سؤالا في كل صمت .

مَوقع الأنطروبولوجَيا البنيَوية ومواقِفها

لوقا دُهوش

(من مجلة L'Arc العدد ٢٦ ، الفصل الأول ١٩٦٧)



١ ـ الموقـــع :

الانطروبولوجيا الجديدة التي صنع أدواتها كلود ليفي-شتروس تفرض نفسها على انتباهنا بما تطلع به من انقلاب منهجي . فهي بصفتها البنيوية تربأ بنفسها عن « حذلقة الترقيع » في شروحات جزئيـة ، عن استعمال تجريبي للمواد التي للمها ببطء المراقبون « في الميدان ». ان الانطروبولوجيا البنيوية ، لاهتمامها بـان تضع في حسابها كـل التفاصيل ، هي البحث بحزم وقوة عن معنى المجموعات (كمنظومات القرابة ، والطقوس ، والاساطير ، الخ ...) . وليفي-شتروس نفسه يحدد مشروعه بأنه اسهام جزئي في اعداد علم أوسع ، في طريـق التكوّن : هو علم العلامات في قلب الحياة الاجتماعية . ولذا فهو لا يقصد أبدا انشاء فلسفة مغلقة ولا حتى أن يجعل علم اجتماع عـام من البنيوية ، أشد المغامرات الفكرية الجارية تشويقا . وان هو جدد التفكير الفلسفي فانما يفعل هذا جانبيا أو خلسة[١] . يبدو أن ليفي-شتروس ، وقد سئم تمارين البلاغة عند المفكرين الغربيين المنغلقين في

---

(١) بيـير فرستراتن Pierre verstraeten يشـرح المسائـل الاونطولوجية التي يثيرها نتاج ليفي-شتروس في أطروحته للدكتوراه ـ جامعة بروكسل ١٩٦٤ : مخطط أولي لنقد العقل البنيوي :
Esquisse pour une critique de la raison structuraliste.

ذواتهم ــ وفي حضارتهم على كل حال ــ ، اختار متاعب السفر أولا ، ثم جفاف الوساطة الاثنولوجية ، حتى « يتنسم الهواء » ، يكتشف حقل الفكر البشري بكامله ، قبل أن يشرع من جديد في الفلسفة . ان تحوّل الفيلسوف الى عالِم (الانتقال من الملل الى الصبر) أمر نادر بحيث لا يسعنا الا أن نَجِلّ هذا التواضع المثمر . لقد بقي ليفي - شتروس أمينا بلا انقطاع لمطمح اثنولوجي شاغل . أما الذين يستحوذون على ظل هذه النظرية العلمية المتحرك الجذاب ، كي يفترسوها وهي في أوج انتشارها ، فيعرضون أنفسهم لموقف مضحك للغاية في نظر الهنود الامريكيين ، موقف الجاغوار الذي يخدش الارض بمخالبه ظانا أنه يمسك فريسة وهي في مكان آخر . لكن المطمح ، وقد حدد هكذا ، أمر جلل : يقترح ليفي-شتروس ردّ الاثنولوجيا الى علم النفس .

الاثنوغرافيا علم وصفي ، يمعن في وصف المجتمعات التي لا تعرف الكتابة ، بأصالتها وفرديتها الجذرية . ولا يبدو هذا العلم ملزَما بالاستناد الى تَصوّر مسبق لمعنى موضوعه اعني الثقافة البشرية . فنهج المقارنة وحده الذي تعتمده الاثنولوجيا هو الذي يمكننا من بلوغ هذا المعنى . وبالفعل ، ان الطريقة التي يقترحها ليفي-شتروس لا تفلح فقط في أن تَحُل فردية كل ثقافة قديمة وتستوعبها في الكلي ، لكنها أيضا تلقي ضوءا جديدا على العديد من الخصائص الغامضة في كذا منظومة جزئية . انها امتداد للوصف نفسه ، فقد أصبحت فرضية لا بد منها للعمل على مستوى الاثنوغرافيا . هذا التضامن بين الاثنولوجيا والاثنوغرافيا كان قد تراخى تحت تأثير تجريبية مفرطة كانت تكره الابحاث على سجن النسبية الثقافية ، جاعلة من ألوف المجتمعات الصغيرة الهامشية ألوفا من المونادات المنغلقة على نفسها ولا تشابه بينها .

قبل مجيء البنيوية ، تنازع الاثنوغرافيا والاثنولوجيا اختياران : الشرح التاريخي (من جهة التَزَمُّن) والشرح الوظيفي (**من جهة** انتزامن) • والنزعة التاريخية ما زالت تطبع بقوة عددا من التيارات الراهنة • ولكن للاسف لن يستطيع الاثنولوجي أبدا التوصل الى شرح تاريخي حقيقي أي الى شرح تامّ • لا يستطيع **أن يكون الا مؤرخا** كاذبا ، أو **مؤرخا** قصير البصر • لانه فقط **بوجود** وثائق مكتوبة ، منضدة ، مرتبة في الزمان ، يمكن التوصل الى تأويل تاريخي صحيح ، تزمني وتزامني **معا** • والمؤرخون أنفسهم لايبدون دائما واعين لهذا الامتياز النادر ، اذ **انهم** لا يستفيدون الا واجفين من هذه الرؤية **المزدوجة** التي كان من شأنها أن تفتح لهم منظورات تاريخ بنيوي ، اليك ما أقصد : يميل المؤرخ أولا الى ادراك تسلسل الحوادث ، تحولات المنظومات الاجتماعية • تقوم مهمته بالدرجة الاولى على الافادة بحدود سوسيولوجية عن ظاهرة قدرة الزمان الجارفة ، التي تتراوح شدتها حسب مصادفات المجرى التَزَمُّني • في هذا المنظور ، **السابق** « يفسر » دائما **اللاحق** • ولكن بامكان هذا المؤرخ أيضا أن يجمد الزمان ، أن يجعل فيه سلسلة من المقاطع التزامنية التي تطابق لحظات استقرار نسبي • في هذا المنظور المكمِّل، يتناول المجتمعات في ذاتها ، مثل المجتمع الميروفنجي أو المجتمع الاقطاعي الفرنسي ، الخ •• ، باعتبارها منظومات على قدر من التماسك • باختصار ، يجد نفسه ازاء مجتمعات **مغايرة في الزمان** ، في نفس موقف الاثنوغرافي الذي يدرس حالةً ما تزامنية لمجتمعات **مغايرة في المكان** ، حسب تعابير ليفي-شتروس نفسها • غير أن المؤرخ ، على عكس الاثنوغرافي ، مقود الى اعتبار هذا التقطيع التزامني حيلة تحليلية • بل يمكن القول ان المؤرخ ، بفعل منعكس مهني ، لانه مؤرخ ، يحوِّل دائما تحويلا تزمُّنيا تلك الفترات المتفاوتة طولا ، التي افرغت وهميا

من بعدها الزمني ورُدت الى « نقط استناد » • في هذه المقاربة ، ينوء التزمن بكل ثقله على التزامن ويُعتِّمه غالبا • أما الاثنواغرافي فيختلف موقفه الاستراتيجي • انه لا يتمتع بذلك المَطَل ' الميَسِّر لاستكشاف الافق التاريخي ، ذلك الذي يتألف من وثائق كدستها أجيال من الكَتَبة • جل ما يتيسر للاثنوغرافي هو الوقوف على مصطبة صغيرة تشكلها أنقاض أثرية ، وتنف من تقاليد شفوية ، ووقائع لغوية ، الخ •• السبب بسيط جدا : المجتمعات القديمة تجهل الكتابة •

هذا الوعي لافق تاريخي مسدود ، ساعد على يقظته الفشل المبين الذي منيت به اثنولوجيا (معظمها في اللغة الالمانية على يد فروبنيوس وشميدْت ، وغيرهما) انشغلت بكاملها في احياءٍ تخميني لماضي المجتمعات العديمة الكتابة • دعاة هذه المقاربة « التاريخية ـ الثقافية » يحددون من جهات مختلفة تحديدا تعسّفيا أنماطا ثقافية ، ويعينون لكل من هذه الانماط عُمُراً مطلقا • فتقابل الفروق لحظات مختلفة من التاريخ الكلي الذي يتبع في تطوره خطا أو عدة خطوط • لكن الانتشار في المكان يعكر اللعبة ، وعليه اعتبر عدد من الكتاب (ومنهم بَوْمَن) أن الثقافات خلائط من بقايا حضارات متفاوتة في القِدم تفجرت حقا وانتشرت على مساحات واسعة لتشكل « مجالات ثقافية » لم تعد سوى مجاميع من « سمات ثقافية » • اذن التساطح في المكان يحيلنا دائما الى علم طبقات تاريخي ، كما لو كان التزامن والتزمن مختلطين اختلاطا لا مخرج منه • وبكلام أدق ، ان التزامن (الحالة الراهنة لمجتمع ما) وهو بكل بداهة الوحيد الذي تناله الملاحظة ، لا يكتسب دلالة الا بالنسبة لتزمّن خيالي ومتخيل يتخفى عن النظر • هؤلاء المحللون ، الذين تستند طريقتهم الى مصادرة على المطلوب ، كلهم تقريبا غافلون عن كونهم ورثة روحيين لاثنولوجيي القرن التاسع عشر ، الذين عنهم أخذوا وعقّدوا مبدأ

التطور . غير أن فرانز بواس ، منذ مطلع القرن العشرين ، كان قد قام بقوة على هذا النمط من التفسير ، في الولايات المتحدة ، وقدم طريقة صارمة ، من أجل دراسة مشخصة لانتشار السمات الثقافية في موطن جغرافي ضيق . وبفضل تأثيره المنعش ، مازالت الانطروبولوجيا الثقافية الاميريكية منشغلة حتى اليوم بشواغل تاريخية من هذا النوع . بيِّن هو الجانب الجدي من هذا المشروع ، الذي يُحِل سلسلة من « التواريخ الصغرى » ، حسب قول ليفي-شتروس، محل « تاريخ أكبر » متقلب[1] . الا أن نتائجه مازالت ، رغم ذلك ، مخيِّبة في جملتها .

انطلاقا من هذه المخاسر والمكاسب الجزئية غير المُرْضية ، يتيسر لنا تقدير أفضل لمدى الردّة القوية المضادة للتاريخ ، التي ظهرت في بريطانيا حوالي الحرب العالمية الاولى . في تلك الفترة طالب مالينوفسكي ورادكليف براون بأن يوضع التاريخ بين قوسين ، وأسّسا مدرسةفي الانطروبولوجياأرادهافقطاجتماعية (Social anthropology) فضحّيا مسرورين بأوهام التزمن لواقع التزامن ، واقع راسخ كان يستلزم تعميقا . رادكليف براون صار خصوصا ،بلا منازع ، معلّم جيلين من الاثنوغرافيين الانكليز ، الذين مارسوا في الميدان أبحاثا مركّزة ، منشغلين باكتشاف تماسك المجتمع الخاص ، الذي كانوا يصفون . تأثير دوركايم أقوى ما يظهر عندهم . لكن رادكليف براون يستلهم أيضا البيولوجيا . فهو يُثبت أن دراسة مركّبات « الكيان العضوي » الاجتماعي تظل مقصِّرة اذا لم تفضِ الى ترابط تلك المركبات ، وسير عملها جملةً . هذه النزعة الوظيفية التي صارت محك الاثنوغرافيا الوصفية ، شهدت أيضا تفتح اثنولوجيا جديدة . وتستحق

---

(١) الانطروبولوجيا البنيوية ، ص ١٣ .

أن توصف ممهدة للبنيوية ، اذ تعنى باستخراج أنماط التنظيم العائلي أو السياسي ، وحتى قوانين علم اجتماع عام ـ ولكن بأقل جرأة • هذه الاثنولوجيا البريطانية تستعمل بكثرة لفظ « بنية » • وقد أوضح ليفي-شتروس نفسه جيدا الفرق بين تصوره[١] للبنية وتصور رادكليف براون التجريبي ، الذي « يرد البنية الاجتماعية الى مجموعة العلاقات القائمة في مجتمع معطى » • الثورة التي يطلع بها ليفي-شتروس تستلهم ، كما نعلم ، علم اللغة • انها مدينة بتماسكها الفائق لتأمل في خصائص اللسان : « للنطق البشري أسباب يجهلها الانسان »[٢] • وان تغيِّر الانطروبولوجيا الاجتماعية تذكرتها بعد أن تولى أمرها ليفي-شتروس فانما ذلك لكي تترجم بصورة أفضل عن التحول الذي يطرأ عليها بتأثير مدرسة براغ ، مدرسة في علم الاصوات ، تطلق على مشروعها صفة البنيوية بالمعنى الدقيق • أجل ، رادكليف براون بنيوي بالمعنى الواسع حين يُثبت مثلا أن منظومة قرابة يجب أن تُدرس على أنها مجموعة سمات لا ينفصل بعضها عن بعض ، ويرفض التسليم بأن كلاً من هذه العناصر متعلق بتاريخ خاص • لكنه يبقى في تحليله هذا على سطح الظاهرة مكتفيا بوصف لعبة بارعة من العواطف والاهتمامات • لم يعد ليفي-شتروس يكتفي بعلم النفس الخارجي هذا ، الذي لا يعبر الا عن جانب واحد من الواقع الاجتماعي ـ وان يكن لهذا الجانب شأنه • فقد اكتشف بدراسة مقارنة لمنظومات القرابة ، دراسة لا تضاهى اتساعا [٣] ، أنه يمكن ادراج الاثنولوجيا في نظرية عامة في التواصل • منذ سنة ١٩٤٥ على الاقل ، أدرك بوضوح أن

---

(١) الانطروبولوجيا البنيوية. Anthropologie Structurale ,p. 334.

(٢) الفكر المتوحش . La pensée sauvage, p. 334

(٣) البنى الاولية للقرابة
Les Structures élémentaires de la parenté, 1949.

علم الاصوات (الذي يرفع الحجاب عن قوانين تنظيم الاصوات ، قوانين تفلت من وعي الذوات الناطقة) « لا يمكن أن يفوته ، تجـاه العلوم الاجتماعية ، أن يلعب نفس الدور المجدِّد الذي لعبته الفيزياء النووية مثلا بالنسبة لمجموعة العلوم الدقيقة » [١] .

٢ ـ **المواقف :**

يقتصر ليفي-شتروس ، في كتابه **البنى الاولية للقرابة** (١٩٤٩)، على أن يمذهب نظريةَ التبادل ، التي أعدها مارسل موس وقد اولاه شتروس الاجلال في نص حاسم كتبه بعد الكتاب المذكور بسنة[٢] . لقد اكتشف المفتاح السوسيولوجي لمحظور اساسي في المجتمعـات القديمة : السِفاح . يقرأ فيه الوجه السلبي لقاعدة ايجابية (زواج الاباعد) تأمر **باعطاء** الامهات أو البنات أو الاخوات للغير . ويرد ببراعة ، الى بعض أنماط **مقايضة النساء** (بين العشائر والاصول والفروع ، التعدد الكبير لقواعد القرابة والزواج ، التي قال عنهـا فيما بعد انها « تستخدم لتأمين مبادلة النساء بين الفئات ، كما تستخدم القواعد الاقتصادية لتأمين مبادلة السلع والخدمات ، والقواعد اللغوية لتأمين مبادلة الرسائل »[٣] .

لا يلبث ليفي-شتروس أن يؤصل هذا الموقف . فيجد عـلى مستويات مختلفة من الحياة الاجتماعية (وخصوصا في نشاط العبادات والشعائر ، وفي الفكر الاسطوري) قوانين مماثلة للقوانين التي يكتشفها

---

(١) الانطروبولوجيا البنيوية Anthropologie structurale, p. 39.

(٢) Introduction à l'œuvre de Marcel Mauss, in Sociologie et athropologie, 1950.

(٣) الانطروبولوجيا البنيوية ، ص ٩٥ .
Anthropologie Structurale, p. 95.

في اللسان علم اللغة البنيوي • فيتزايد عنده الشعور بأنه يسهم في انشاء علم نفس جديد ، عقلاني •

ومن ثم يبتعد ليفي-شتروس عن النظرية الوظيفية البريطانية ابتعاده عن النزعات الجديدة التي تنزعها الانطروبولوجيا الثقافية الامريكية ، المتأثرة بالتحليل النفسي • فهو لا ينشد أبدا المبدأ الذي يضمن للمؤسسات والمعتقدات لحمتها البنيوية ضمن هياكل عاطفية خاصة بطبيعتها (كما تفعل روث بنديكت ، ومارغرت ميد ، ورالف لنتون ، وأبراهام كاردينِر) ، بل يُثبت : « في الحقيقة ، الاندفاعات الغريزية والانفعالات لا تشرح شيئا ؛ اذ تحصل دائما : إما عن قدرة البدن وإما عن عجز الروح • فهي في كلا الحالين تتائج لا عِلل • لان العلل لا يمكن أن تُطلب الا في العضوية ، مثلما تفعل البيولوجيا ، أو في الذهن ، وهذا هو الطريق الوحيد أمام علم النفس والاثنولوجيا »[1] • نلاحظ أن هذا المشروع لا يندرج أبد في التقليد الديكارتي • ان تحليل الاساطير ، بصورة خاصة ، « يطرح مسألة منهجية اذ لا يمكن أن يتمشى مع مبدأ ديكارت ، تقسيم الصعوبة الى اقسام بقدر ما يتطلب حلها »[2] • بمقابل ذلك ، يقبل ليفي-شتروس التقريب الذي يوحي به بول ريكور ، بين نهجه ونهج كنت• هذه « الكانتية الخالية من الذات العالية » تطمح الى « وضع قائمة بالاطر الذهنية ، الى رد المعطيات العشوائية في الظاهر الى نظام ، الى بلوغ مستوى تتكشف فيه حتمية متضمّنة في أوهام الحرية »[3]•

---

(١) الطوطمية اليوم ، ص ١٠٣ •
Le Totémisme aujourd'hui, p. 103.

(٢) النيء والمطبوخ ، ص ١٣ •
Le cru et le cuit, p. 13.

(٣) نفس المصدر ص ١٨ — ١٩ •

هذا المنظور هو الذي فيه يتناول ليفي-شتروس من جديد مسألة بقيت بلا حل في الاثنولوجيا الكلاسيكية • انه يحلل في كتابه: الطوطمية اليوم (Le totémisme aujourd'hui (1962 ، كيف يفكر عدد كبير من المجتمعات ، تفكيرا متماسكا ، علاقات التبادل والتكامل التي توحد بين فئاتها المكوّنة ، معتمدين في ذلك على منظومة الفوارق التي يميزونها (وينظمونها لاشعوريا في مدونة) بين الانواع الطبيعية التي يصنفونها : « ••• لا تُنتقى الانواع الطبيعية لانها ـ صالحة للاكل ـ ولكن لانها ـ صالحة للتفكير ـ »[1] • وكتابه : الفكر المتوحش La pensée souvage (المنشور في نفس السنة)يوسع كثيراً حقل هذا المنطق الصوري ، أو بتعبير أدق ، هذا المنطق « العملي = النظري » الذي تكشفه التصنيفات الطوطمية • يستكشف فيه ليفي-شتروس بجرأة متزايدة الوجه المجهول من الدائرة الذهنية ، الوجه الذي لا يضيئه التحليل التجريبي الذرائعي • في صميم هذا الكتاب المُحيِّر ، الذي يتسلل الى كل الاتجاهات ، نجد شتروس يُنظِّم في منظور متماسك علاقات فكرية ، شديدة التنوع ، تديمها الثقافات البشرية مع الطبيعة • فهو يحصي الايديولوجيا المتناقضة في الظاهر ، ايديولوجيات المجتمعات الطوطمية والمجتمعات ذات الطبقات المغلقة ، ويجعلها في « منظومة من التحولات » • فيظهر نظام الطبقات المغلقة تحولا (بالمعنى المنطقي-الرياضي) للمدونة الطوطمية • ويجب أن نحترس من اعتبار هذه الترسيمة تعبيرا عن تزمّن حقيقي يقودنا ضرورة ، بمجرد حراكية الفكر من مجموعة الى أخرى • اذ ان ليفي-شتروس يصرح بوضوح أن هذه المحاولة ، التي تبدو تخطيطا لـ خلاصة في المذاهب المنطقية الحسية (ولعلم جمالي حتى) ، مكرّسة لـ البنى

---

(١) الطوطمية اليوم ، ص ١٢٨
Le Totémisme aujourd'hui, p. 128.

الفوقية . فهو لا يقصد أبدا أن يرد الحياة الاجتماعية الى « لعبة تصورية تدور في الذهن »[1] . ويترك لعلوم أخرى « أن تعنى بدراسة البنى التحتية بالمعنى الدقيق ، وتوسع هذه الدراسة » ، لانه لا يضع موضع التساؤل أولوية هذه البنى ، « أولوية لا مراء فيها » . فبما أن الانطروبولوجيا البنيوية تتجنب كل التباس حفاظا على خطها المادي ، يمكننا التساؤل اذا لم يكن أحرى بها أن تتصف بالبنيوية الفوقية ، اذ ان منظومة قرابة هي أيضا وأولا براكسيس أي حل للتوترات ، للتناقضات بين المصالح ، حل على جانب من الانسجام . وليفي-شتروس نفسه يأخذ اليوم على نفسه أنه بدا « في البنى الاولية للقرابة، في الاغلب ، وكأنه يطلب التكوّن اللاشعوري للتبادل الزواجي »[2] . نستطيع أن نضيف الى هذا المأخذ أن نظام الطبقات المغلقة رتبوي ، أي قائم على تسوية في التبادل المتكافيء . لكن كاتبنا أبدا صاحٍ ، كما نرى ، عندما يكشف ، وبشدة متزايدة ،التخوم بين الانطروبولوجيا البنيوية السيكولوجية المحضة والتاريخ (الذي يصنعه البشر دون أن يشعروا ، عندما يختصمون على « مادة نادرة » ، كما يقول سارتر) .

هذا الموقف ينسجم مع تصور دقيق جدا للتزمّن في المجتمعات القديمة . اذ يبدو أن الـ « منظومات من التحولات » ، التي تفتح بابا لمعقولية الايديولوجيات ، تشكل في ذهن ليفي-شتروس كيانا قائما برأسه ينبسط في الزمان الفارغ ، زمان تاريخ بلا تاريخ . وفعلا، يعود ليفي-شتروس عدة مرات ، وان عرضا ، الى المقابلة بين تاريخ **تجميعي** أو **حارّ** « يجمّع الكشوف والاختراعات ليشيد الحضارات العظيمة »[3] ، وتاريخ **ركودي أو بارد** ، تاريخ المجتمعات القديمة التي

---

(١) الفكر المتوحش ، ص ١٧٣ La pensée sauvage, p. 173.

(٢) الفكر المتوحش ، ص ٣٣٣ .

(٣) العرق والتاريخ . Race et histoire, P. 19.

اكتفت ، في أغلبيتهـا الساحقة ، بفتوحات الثورة النيوليتية التي منحت البشرية الزراعة وتربية الدواجن • فينسب الى هذه المجتمعات « حكمة خاصة تحثها على مقاومة يائسة لكل تعديل في بنيتها •• »[1] •
هذا التمييز ، وان سلـّم ليفي-شتروس بطابعه النظري ، يبدو مقوّما لواحد من محاور نهج اثنولوجي يناهض كل ميتافيزيقا للتاريخ • يأبى ليفي-شتروس أن يسلم للتاريخ بمعنى ممتاز ، فيوحي من أجـل استرجاع الماركسية بتقطيع التاريخ الى قطعتين • الاولى (التـاريخ البارد ، « القريب من درجة الصفر في الحرارة التاريخية ») هي بالدرجة الاولى موضوع الاثنولوجيا ؛ والثانية (التاريخ الحار) تهم بصورة خاصة المؤرخين بالمعنى الدقيق وفلاسفة التاريخ الماركسيين، لان المجتمعات التي يشملها هذا القسم من التاريخ تستخدم « الفوارق المميزة بين الناس ــ بعضهم سائد وبعض مسود ــ (•••) كي تنتج الثقافة ، بايقاع لا يمكن تصوره من قبل ولا يخطر ببال »[2] •

هذه الازدواجية السوسيولوجية مستترة في نتاج ليفي-شتروس تحت الازدواجية التي يقيمها بين « الفكر المتوحش » ــ التابعة له كل المنظومات الاجتماعية والشعائرية والاسطورية التي تصفها الاثنوغرافيا ــ والفكر «المثقف أو الـمعـَدّ من أجل المردود»[3]، الذي يحرك المجتمعات المدعوّة تاريخية • فيـُخشى من ثم ، اذا لم نفطن الى أن هذين النمطين من النشاط الذهني يتعايشان دائما في المجتمعات البشرية ، بما فيهـا مجتمعنا ، يخشى أن يكون مشروع البنيوية بكامله تجديدا بـِعـَقـْلـَنـَةٍ

---

(١) درس افتتاحي ، في الـ كوليج دو فرانس Leçon inaugurale, au Collège de France, p. 41.

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٣ •

(٣) الفكر المتوحش ص ٢٨٩ La pensée sauvage, p. 289.

متعمقة لنظرية ليفي–برول في « العقلية البدائية » • لكن هذين النمطين تارة يسود أحدهما وطورا يسود الآخر • فيتبين كيف يصل الامر بالانطروبولوجيا البنيوية الى أن تفيض عن اطار الاثنولوجيا ، الذي يظل الحقل الممتاز لنشاطها • اذ ان ليفي–شتروس يطرق دائما مسائل التـواصـل ، تاركا في الظل لفترة « بنى الخضوع » التي تظهر أيضا في المجتمعات العديمة الكتابة • « الانفتاح » الرائع الذي يزين كتابه الاخير في الاساطير (النيء والمطبوخ Le cru et le cuit, 1964) يوحي بأن كل لسان فني عائد الى ممارسة الفكر المتوحش • وهكذا نجد ليفي–شتروس مدفوعا بلا انقطاع الى الامام ، آخذا على عاتقه بكامل المسؤولية التناقض الراهن والخصب في الانطرولولوجيا البنيوية المشغولة برسم حدود أفقها السوسيولوجي (التاريخ البارد) محافظة بنفس الوقت على مبدأ قوانين الفكر الكلية •

ومن هذا القبيل ، تصور الاساطير القديمة نفسه ، الذي يوسعه ليفي–شتروس بمهارة كاملة ، في كتابه **النيء والمطبوخ** ، يثير على الافق مسألة جديدة • هذه المسألة لاحظها بول ريكور عندما قرأ الفكر المتوحش ، لكن الحل الذي يرتئيه يبدو لنا غير مقنع[١] • فالخيال الاسطوري ما فتيء يطبع المجتمعات التاريخية (الحارة أو التجمعية)، ومعلوم أن ليفي–شتروس يرفض صراحة أن يطبق طريقته على نصوص يدرسها تاريخ الديانات (بالمعنى الدقيق) ، وان يكن قد حاول ذلك في الماضي « اختلاسا » بصدد « أسطورة » أوديب كي يدلل على نهجه[٢] •

---

(١) البنية والتفسير ، في المجلة : الفكر ، تشرين الثاني ١٩٦٣ ، ص ٥٩٦ – ٦٢٧ .
Structure et herméneutique, in ESPRIT, pp. 596 - 627.

(٢) الانطروبولوجيا البنيوية الفصل ١١
Anthropologie structurale, chapitre XI.

لقد شرح موقفه بهذا الصدد . فالديانات التاريخية الكبرى مثلا تعمل على أنقاض من الاساطير القديمة الممتنعة على التحليل الاثنوغرافي. وهي تدين كثيرا للعمل التجميعي المستمر ، الذي يقوم به الكهنة واللاهوتيون . أفيلزم من ثم ادخال ثنائية جديدة ، واستطلاع نمطين من النشاط الاسطوري : أحدهما « متوحش » حقا ، وقريب من الابداع الموسيقي أو الشعري ؛ والآخر غير متوحش (أو متوحش جزئيا) ، وخاص بالمجتمعات التاريخية ، بما فيها مجتمعنا ؟ أيتوقف المشروع الكلي الذي تقوم به الانطروبولوجيا البنيوية على عتبة هذه الصعوبة ؟ ثم ، هل يجب أن تعدل نهائيا عن المغامرة في حقل شقه مؤرخو الاديان ، بعد أن خلّصت الغابةَ العذراء من أشباح النماذج الاولى ، التي عمرت بها على يد يونغ Jung وإلياد Eliade ؟

بيد أن ليفي-شتروس ينازع في دلالة الرموز المطلقة والازلية والكلية منازعة جذرية — ومقْنِعة تماما — اذ يوسع ، تحت عنوان **النيء والمطبوخ** ، تلك التأليفة الموسيقية الاسطورية المدوّخة ، التي تستدعي كل حواسنا . على الصعيد التقني هذا المؤلف هو مطوّل في الاساطير الامريكية الجنوبية . كان المؤلّف قد برهن في دراسة سابقة[1] برهانا واضحا على أن الصور والاوضاع المأسوية ، التي يتناولها اللسان الاسطوري ، لا تكتسب دلالة الا بالنسبة لـ **وضعها** في القفص . المقصود هنا بالضبط هو اكتشاف **منظومة التقابلات** ، التي تتكون من تلك العناصر على مستويات مختلفة (جغرافي ، وتقني-اقتصادي ، وسوسيولوجي ، وكوسمولوجي ، الخ ..) ، مع إعارة أعظم الانتباه الى السياق الاثنوغرافي . ان **النيء والمطبوخ** يسجل توسعا هاما لهذه القاعدة المنهجية . ينطلق ليفي-شتروس

(١) ملحمة أسديفال ، ١٩٥٨ . La Geste d'Asdival, 1958.

اصطلاحا من أسطورة بوروروية ويبرهن أنه يستحيل استنفاد مضمونها دون الاخذ بعين الاعتبار لحوالي ١٨٧ اسطورة ، تعود الى عشرين قبيلة (وبعض هذه القبائل نائية أيضا نأيا غريبا ، مثل قبيلتي الايروكوا والاسكيمو في أمريكا الشمالية) . في هذا الكتاب يعبر ليفي-شتروس عن مقتضى جديد : ان الاسطورة تستمد دلالتها « من الموضع الذي تشغله بالنسبة لاساطير أخرى ، داخل زمرة من التحولات » (ص٥٩).

طبيعي أن المقام هنا لا يقدم كشفا عن مسير بمثل هذا التعقيد . لان فك الرموز يتصاعد في التعقيد ، بحيث لا يمكن للقاريء ، وقد **خطفته** بالمعنى الحرفي زوبعة ذلك السديم الاسطوري ، الا أن يأخذه الدوار عاجلا أم آجلا . يعتزم المؤلف أن يبيّن في هذا الكتاب ، أن الاسطورة البوروروية المعتمدة مرجعا ، والتي في الظاهر تصف مغامرات مستهجنة يقوم بها بطل مسافح ومطارد ، « هي جزء من زمرة أساطير تشرح نشأة **طبخ الاطعمة** (رغم غياب هذا الباعث من الاسطورة) ؛ وأن الطباخة يتصورها أولئك القوم وساطة ؛ وأخيرا ان هذا الجانب يظل مستورا في الاسطورة البوروروية لان هذه بمثابة عكس أو قلب لأساطير مصدرها الاقوام المجاورة الذين يرون في عمليات الطهي نشاطات توسط بين السماء والارض ، بين الحياة والموت ، بين الطبيعة والمجتمع » (ص ٧٣) . لكن مميزات كل من هذه الاساطير الطبخية ، اذ تشرح كيف تَسلّم البشر النار من الجاغوار ، تستدعي سلسلة من الجولات في « زمرة تحولات أو عدة زمر يجب لها أولا أن يعاد انشاء منظومتها الكلية ــ والمتعددة الابعاد » (ص ٨٦) . فيظهر بعد هذه الجولات أن أساطير نشأة الطباخة وأساطير أصل الخنازير البرية والثروات الثقافية « تتكامل وتشكل ما يمكن أن نسميه ، اكبارا لطبيعته المثالية ، ما فوق المنظومة » (ص ١٠٥) . يبدو لنا ، اذا قارنا هاتين الزمرتين ــ وبهذا الشرط فقط ، أنهما مبنيتان على تقابل

بين الجاغوار المصاهر النجود « معطي الفنون والحضارة » (أساطير نشأة الطباخة) ، والخنزير المصاهر المعادي ، الصالح فقط لان يعتبر طريدة ، أي من وجهة النظر الطبيعية وليس بعد من الوجهة الثقافية• ما فوق المنظومة هذا ، يشكل هو نفسه جزءا من مجموعة أوسع ، تشمل في بنية دائرية أساطير نشأة التبغ : « دخان التبغ يولد الخنازير البرية التي منها اللحم ؛ ولاجل شي هذا اللحم يلزم الحصول على النار من الجاغوار على يد مطارد ؛ وأخيرا يلزم للتخلص من الجاغوار أن تحرق جثته في موقد على يد مطارد آخر ، فيتولد هكذا التبغ » (ص ١١٥) • نلاحظ عابرين أن الفكر الاسطوري يقبل منطقا مبنيا على الدور المحال •

علينا أيضا أن نستقبل كثيرا من التعقيدات الاخرى • فنشير ، بين عمليات فك الرموز تلك ، الى اكتشاف مدونات رموز حسية متكافئة ، وظيفتها أن تفيد عن قصر الحياة البشرية • ولولا هذا التحليل لبقي جزء من الاسطورة المرجع مغلقا على الفهم تماما ، حيث نجد والد البطل ، الذي يغذي تجاه ولده نوايا قتل ، يفرض عليه امتحانا خطرا ، أن يأتيه من عالم الغيب بثلاثة أغراض تحدث كثيرا أو قليلا من الاصوات • هذا الموضوع يرتبط رأسا باساطير الطبخ ، اذ ان اسطورة واضحة تشرح أن حياة الانسان قصِّرت بسبب نسيان البطل للوصايا الحكيمة التي أسداه اياها الجاغوار سيد النار ، واستسلامه لاغراء « النداء العذب الذي يطلقه الحطب المهترىء » ، في حين لم يكن محظورا عليه أن يستجيب « لنداءات الصخر والحطب القاسي » (ص ١٥٧) • على أن الحطب اليابس وحده يغذي نار الطبخ ، وكما يقول ليفي–شتروس نفسه ، « الطبخ ، بهذا المعنى ، يعني حقا الاصغاء الى نداء الحطب المهترىء » (ص ١٥٩) • هذه الرسالة نفسها التي تنقلها هنا المدونة السمعية ، يُعبر عنها في غير موضع بمدونات حسية

أخرى • وهذه المدونات الحسية تؤلف كلا « يجمع بين الحياةوالموت، بين التغذية بالنبات والتغذية بلحم الانسان (المدونة الذوقية) ، بين الاهتراء وعدم امكانه (المدونة الشمية) ، بين الرخاوة والصلابة (المدونة اللمسية) ، بين الصمت والتصويت (المدونة السمعية) » (ص ١٦١) • وموضوع قصر الحياة لا نجده متراكبا مع أساطير الـ جِه° المتعلقة بأصل النار وحسب ، ولكن أيضا مع منظومة موازية لها من الاقاصيص المتعلقة بأصل النباتات المزروعة • في هذه المنظومة يُعزى الموت الى ازدراد ساريغ مشوي ؛ والساريغ يعني النتانة • اذن ، حسب المنظومة الاسطورية المعتبرة ، ينسب قصر الحياة « إما الى استجابة لنداء الحطب المهترىء ، واما الى استنشاق رائحة النتن الصادرة عن الارواح المائية ، واما عن ابتلاع لحم الساريغ » (ص ١٨٦) • وهكذا يستعمل الاهتراء على التوالي ، في مدونة سمعية ، وأخرى شمية ثم مدونة ذوقية • ثم ان سلسلتي أساطير الـ جِه° حول أصل النار وأصل النباتات الزراعية ، تشكلان مجموعة طباخية تفيدنا بصور مختلفة ولكن متماثلة عن الانتقال من الطبيعة الى الثقافة• في هذه المجموعة ، قصر الحياة مضايف لبدء الحياة الاجتماعية أو الثقافية • اذن هذا المنطق « منطق الكيفيّات الحسية » يوسع كثيرا الاطار الفلسفي لمنظومة أسطورية موضوعة تحت عنوان النيء والمطبوخ•

أما اكتشاف المدونة الفلكية (أي البصرية) لهذه المجموعة الاسطورية فيقتضي منعطفات طويلة • فالنار ، التي تشغل من هذا الفكر الطباخي مركزه ، تعطى بمقابلة الماء في أساطير جنوب أمريكا• وهذه الحدود لا قيمة لها بذاتها ، اذ ان الماء علامة الموت والنار علامة الحياة في الاسطورة البورورية ، المرجع ، في حين أن أسطورة شرنتية تعتبر الصحيح عكس ذلك • فنلاحظ ، بالانتقال من اسطورة الى أخرى ، أن المدونة تتحول وأن الرسالة تنعكس • تخبرنا الاسطورة

البوروروية عن ظهور الماء السماوي واختفاء نار الطباخة ، بينما تخبرنا الاسطورة الشرنتية عن ظهور النار وانحسار الماء (الارضي هذه المرة). وفي هذا الخبر الاخير تبرز الثريا . يبيّن ليفي-شتروس أن هـذه النجوم تعين مثل الجوزاء بدء فصل الجفاف في نظر هنود امريكا الجنوبية . مما يدعو الى الظن أن برجا آخر يعلّم بدء فصل المطر . والمقصود بالفعل هو برج الغراب الذي يتنكر نوعا ما باسم المطارد بطل الاسطورة المرجع . وهكذا تربط بين الاسطورتين ، على كل المستويات، علاقة تحول . فيجب اذن أن تؤوّل الاسطورة المرجع أيضا في منظور مدونة مكانية-زمانية مستترة ، تشير الى تناوب فصلي الجفاف والمطر.

وهكذا تنبسط أمامنا تدريجيا منظومة متماثلة وجامعة . لان التدوين الفلكي الذي اكتشفناه ، يتيح لنـا الآن ايجاد علاقة بـين أساطير كانت تبدو غريبة بعضها عن بعض مثل : اساطير قوس قزح ، الساريغ النتن ، أصل الامراض ، أصل السم . فتتكشف تدريجيـا فلسفة متماسكة صريحة التشاؤم . ويتيح لنا أيضا التعمق في المدونة السمعية أن نُدرِج ، في هذا المنظور الكوني ، الزمرة الابتدائية ، التي تشكل منطلق الكتاب ، أعني أساطير البورورو وأساطير الجِه° ، المتعلقة بنشأة الطباخة . هذه المجموعة ، يـدهشنا فيها « الارتبـاط الغريب ، المشترك لكل الروايات تقريبا ، بين طهي الاطعمة والموقف من الاصوات » (ص ٢٩٢) . ثم يبين ليفي-شتروس ، في صفحات مدوّخة أكثر فأكثر ، أن النار المنزلية متصوّرة في هـذه الاساطير توسطا بين الشمس والارض ، يقتضي **الصمت** ، مثلمـا يستدعي **الاصوات** كلُّ تهديد بالانفصام (الكسوف) بين هذين العنصرين . ان أساطير الطبخ هذه ، تقول لنا في قلب هذه المجموعة الواسعة من أساطير امريكا الجنوبية ، تقول لنا نصا (وعلى هذا المستوى) : لو ابتعدت الشمس عن الارض لاهترأ العالم ، ولو اقتربت لاحترق .

كان هذا العمل الجبار على فك الرموز يقتضي عرضا جديدا . فقد أراد ليفي-شتروس لكتابه صيغة موسيقية لسببين رئيسين وهما : أولا ان الفكر الاسطوري لا ينهج بصورة خط مستقيم ، لكنه يتآلف على مستويات مختلفة ؛ وثانيا ان « الموسيقى تشبه الاسطورة التي هي أيضا تتغلب على التناقض بين عصر تاريخي تولى وبنية دائمة » ؛ أو أيضا ، ان « كلتا الموسيقا والاسطورة آلة لحذف الزمان » (ص٢٤) .

هذه الخاطرة ، وان كانت ترد في سياق مخصوص جدا ، تحيلنا مثل كل الكتاب الى الفراغ التاريخي ، الذي ينبسط فيه الفكر المتوحش . لان التحليل البنيوي للاساطير يذوّب التزمّن في تزامن موسّع : « ان الدلالة كلها قائمة على العلاقة الحركية ، التي ترتكز عليها في آن واحد عدة أساطير أو اقسام من اسطورة واحدة ، والتي تُرقّي تلك الاساطير أو تلك الاقسام الى مستوى الوجود العقلي ، فتتكامل مثل أزواج تقابل في زمرة واحدة من التحولات » (ص٣١٣). انما يجب بهذا المعنى أن تؤوّل تلك العبارة المشكِلة التي يبدأ بها ليفي-شتروس كتابه قائلا : « ان الاساطير ، على نحو ما ، يتعقل بعضها بعضا » (ص ٢٠) . ولكن يجب التنبه الى أن المجتمعات ، وان انفرد كل منها باعداد جزء من منظومة التحولات هذه ، قد غرفت جميعها من تراث مشترك ؛ اذ ان الكاتب يقول بصريح الكلام انه يستطلع ، انطلاقا من البورورو ، وبالتدرج ، مجتمعات أكثر بعدا ، « ولكن دائما بشرط وجود روابط تاريخية بينها أو بشرط معقولية افتراض هذه الروابط » (ص ٩) . ومن ثم يفضي بنا هذا الاستقصاء البارع الى اكتشاف أن أقواما مختلفة ، تتداول تراثا مشتركا من العبث البحث عن حاله البدئي ، ينتهي بها الامر بدون أن تدري ، رغم الاستقلال الفكري التام ، الى تأليفة موسيقية كبيرة ومتماسكة ، نحن اليوم أول المستمعين اليها .

يعترف ليفي–شتروس بقرابة مشروعه وأعمال جورج دومزيل . ونرى ما يقرّب بينهما ويبعد في آن واحد . ان دومزيل، لكونه مؤرخا ، يقف رأسا في التزمن[1] ، فيكتشف استمرار البنى لبعض المنظومات الدينية ، المتفرعة بلا ريب عن « التراث الهندي الاوروبي » . يشغله بالدرجة الاولى أن يعيد تركيب البنية الاسطورية البدئية ، التي كانت مشتركة بين الهندو–اوروبيين ، وما زالت يمكن تمييز ملامحها في اقدم حالات الاساطير اللاتينية والجرمانية والآرية ، الخ .. ، على عتبة تاريخ جمع بينها ثم قذف كلا منها في مغامرة روحية متميزة . ولا ينكر أن هذه الابحاث المثيرة يمكن وضعها في منظور ليفي–شتروس ــ مع بعض التحفظات ــ منظور « منظومة التحولات » . لكنه يمكن ، بالمقابل ، أن نتساءل اذا كانت « زمرة التحولات » التي يدرسها ليفي–شتروس في أساطير عشرين قبيلة من جنوب امريكا يربطها عن بعد أو قرب تاريخ مشترك ، لا تستر بعدا تزمنيا . واذا ظلت كل اسطورة بمفردها غامضة كلها أو بعضها ما لم نضعها في زمرة التحولات ، أفليس هذا لان المنظومة الكاملة كانت موجودة ،بحالة الكمون على الاقل وبخطوطها الكبرى ، في بيئة ثقافية متجانسة ؟ الا ان المسألة أوسع من أن ندعي استنفادها بهذه الملاحظة . اذ يجوز دائما الاعتراض ، بأن المعنى البدئي يفلت منا كلما تقدمنا . هذي هي المسألة الجديدة الواسعة التي يبدو لنا أن كتاب **النيء والمطبوخ** يطرحها .

مهما يكن الحل الذي قد يؤتى به لها يوما ، فان الحوار ممكن ، ولا بد منه حتى ، بين الاثنولوجيا وتاريخ ديانات بنيوي ، كلاهما يرفض إغراءات « الفنومنولوجيا » السيكولوجية . وفي هذا المنظور الجامع ، يجب أن نواجه يوما الاسطورة التي تعنينا اليوم بصورة

---

(١) إني مدين بلفظة تزمّن المقابلة للفظة diachronie ، للدكتور روبير بنديكتي اليسوعي (المترجم) .

أكثر مباشرة ، الاسطورة المسيحية . وليس قط من داع لان ننظر اليها نظرة خاصة تحت عنوان « الرسالة » كما يفعل بول ريكور .

لا شك أن الطباخة مغايرة تماما ، ولا شك أن الفكر الاسطوري يتركز على ملحمة معينة تجمدت عقيدة . ولكن ، من وجهة نظر أعم ، أليس مدهشا أن نشهد هذه الاسطورة صامدة ، رغم التحويرات الجزئية التي أتتها على يد اللاهوتيين ــ والفلاسفة حتى ــ صامدة بوجه ألفي سنة من تاريخ تجميعي بصورة جنونية ؟ لقد صمدت النواةالاسطورية والشعائرية لحضارتنا في وجه التاريخ ، لانها كانت تقدم للبشر الامكان الوحيد لمعرفة موقعهم معرفة كاملة ــ ولكن تعسفية ــ على منتصف الطريق بين الفوق والتحت ، بين ما لايفسد والقابل للفساد ــ في عالم كثيف يعجز العلم أبدا عن اعطائه شكلا يطمئن ، شكل كلٍّ دال ، لان علمنا مقضي عليه بعدم الاكتمال .

تصويب

الصفحة	السطر	الخطـا	الصواب
٥	العنوان	القاريء	القارىء
٥	١٧	لنتتج	لنتتج
٩	٨	البنوية	البنيوية
٩	١٤	وفوكو التوسر	وفوكو و التوسر
١٠	٢	بعضضها	بعضها
١٠	١٧	حنيت	جنيت
١٠	٢١	بالاندية	بالانديه
١٠	٢٣	يدرورون	يدورون
١٢	١	فقط قاعدة	فقط وضع قاعدة
١٢	٢٠	اشارة	إشادة
١٣	٦	dispsition	disposition
١٣	١٣	مجموعد	مجموعة
١٣	٢١	مناجي	مناحي
١٤	٤	بشكل وحدة	بشكل « وحدة
١٥	الأخير	القاريء	القارىء
١٦	١	منظّة	منظمة
١٦	١٤	فبنييوي	فبنيوي

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	١	النية	البنية
١٧	١	فلزم	فلزام
١٧	١	رئيسين	رئيسيين
١٨	٦	حالة • والتزمن	حالة ، والتزمن
١٨	١٢	وورسيه	وبورسيه
٢١	١٣	قراءه	قراءة
٢٢	١١	بمقابل لواقعية	بمقابل الواقعية
٢٣	١	تضايقات	تضايفات
٢٤	١٦	ويدلك	ويدلل
٣١	٤	الغات	اللغات
٣١	٩	مكن	يمكن
٣٣	١٣	احتباساب	احتباسات
٣٣	١٣	وانجارات	وانفجارات
٣٤	٩	هيلمسف	هيلمسلف
٣٥	٩	أتي	يأتي
٣٦	١٨	هذا	هذه
٣٨	٤	وضعت	وصفت
٣٨	١١	الفيزاء	الفيزياء
٣٩	٢٠	مبادي‌ء	مبادىء
٣٩	الاخير	اللاتيية	اللاتينية
٤١	٤	دوسوسير	دوسوسّور
٤١	٦	الراغبين	حذف
٤١	١٣	تنفرغ	تنفرع
٤١	٢٠	والأدبي	الأدبي

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
٤٢	٨	جب	يجب
٤٢	٨	أن	إن
٤٣	الاخير	للغلة	للغة
٤٤	٧	لافتراض	الافتراض
٤٥	١٤	ساييرِ	سابير
٤٦	١٣	لايقاع	الايقاع
٤٧	٥	العرف	الصرف
٥٨	١	معاً	حذف
٥٨	٢٢	structuranx	structuraux
٦٥	٢٢	أناً	أنا
٦٦	٢١	ويمزّ	ويميز
٦٧	١٦	١	٢
٧٠	٨	البنيوية	حذف
٧١	١٩	يبين	بين
٧٥	١٠	) ٠	) ،
٧٦	٨	963	1963
٧٧	١٤	de	du
٨١	١٤	للمعرفة ٠ ليست	للمعرفة ليست
٨٩	١٢	دومنريل	دومزيل
٩٣	٥	honnêleté	honnêteté
١١٣	٢	Y us	y su
١٣٠	٦	المفاجيء	المفاجىء
١٣١	١٢	المباديء	المبادىء
١٦٠	١٧	الاصلاحات	الاصلاحيات

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
١٧٨	١٥	يقولون	يقولوا
١٨٣	١٣	النية	البنية
١٨٣	١٩	تثبيت	تُثبت
١٨٥	١٥	وسائل	سائل
١٨٦	١٢	قول	مقالة
١٨٦	١٤	بجاوب	تجاوب
١٩٢	١٤	نأخذه	نأخذ
١٩٥	٩	صاب	صاحب
٢٠٢	٢٥	udu	ubu
٢٠٨	١٣	Aa	La
٢٠٨	١٧	الدلة	الدلالة
٢٠٩	٦	يكون	حذف
٢١٧	٦	النقدي	النقد
٢٢٧	٤	يتوسع	تتوسع
٢٣٧	٤	وفى	وفي
٢٤١	١٨	لأحد	لإحدى
٢٤٥	١١	تنشق	تنبثق
٢٤٩	٦	الطاريء	الطارىء
٢٧٤	١٢	يعنى	يعني
٢٩٥	١٣	البادي‌ء	البادىء
٣٥٧	١	يكونّ	تكونّ

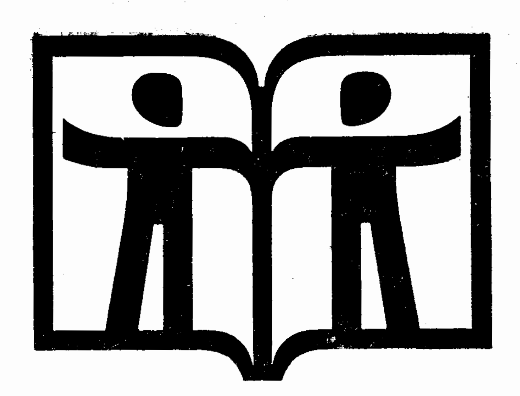
الفهرس

القسم الاول

ما البنيوية (جان ـ ماري أوزياس)

القسم الثـــاني

دراســـات في البنيويــة



تم طبع هـذا الكتاب من منشورات وزارة
الثقـافة والارشاد القومي في الجمهوريـة
العربية السورية بمناسبة العام الدولي للكتاب

١٩٧٢/٩/٢٥٠٠

صممت الغلاف: ضحى القدسي

مطبعة سميراميس
دمشق - شارع رامي
هاتف ٢٢٣٢١١